

الموسوعة الشامية في تاريخ الحزب والـ^{منظمة} الفلسطينية

تواريخ أسرة بلانتغنت

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار^{منظمة}

دمشق ١٤١٨ / ١٩٩٨

الجزء الثلاثون

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

تواريخ أسرة بلانتغنت

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق ١٤١٨ / ١٩٩٨

الجزء الثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

شعرت أثناء عملي في المجلدات المتقدمة أن الفرنسيين ساهموا فيما يعرف باسم الحملتين الأولى والثانية المساهمة الأوربية الأساسية، لكن منذ مقدمات حطين شهدت الساحات الأوربية تبدلات سياسية هامة، كان أبرزها بالنسبة لموضوعنا تعاضم دور انكلترا، واتساع رقعة مملكتها، فقد بات ملوك انكلترا سادة فعليين على جميع أجزاء بريطانيا بما في ذلك إيرلندا، وامتلكوا أجزاء واسعة من القارة الأوربية، أو بالتحديد من فرنسا، جعلت حدودهم مجاورة لحدود اسبانيا، التي تحالفوا معها عن طريق الزواج الدبلوماسي وتبادل المصالح.

لذلك كان علي البحث عن مزيد من المصادر لتغطية هذا، ولزيادة المعلومات عما يعرف باسم الحملة الثالثة، حيث أنه باخفاقها، انتهى عصر صلاح الدين، وتمزق المشرق الاسلامي من جديد، وبالوقت نفسه عانت أوروبا من الصراعات، لاسيما بين فرنسا وانكلترا، وهكذا عجزت أوروبا عن توجيه حملة عملاقة جديدة نحو المشرق، وكنا قد رأينا من قبل أخبار ومصير الحملة الرابعة، وسنرى ان شاء الله في مجلدات مقبلة أخبار ومصير الحملات الخامسة والسادسة والسابعة، التي كانت صغيرة نسبياً.

وقمت منذ عام ١٩٩٦ بعدة رحلات علمية أوصلتني الى أهم المكتبات من مكتبة الكونغرس والمكتبة البريطانية، ومكتبات القاهرة والى

غيرها كثير، وهكذا وفقت والحمد لله فحصلت على ماكنت بحاجة إليه وعلى أشياء جديدة، كان منها المجلد الذي أكتب له هذه التوطئة، فهو قد نشر للمرة الأولى في لندن عام ١٩٩٥، وهو يحتوي زبدة تواريخ أسرة بلانتغت التي انحدر منها: فولك ملك القدس، ووالد بلدوين الثالث وعموري الأول، ومنها جاء هنري الثاني ملك انكلترا ومن بعده ابنه رتشارد قلب الأسد.

وفي هذا المجلد من المواد ما لانجده في غيره من المصادر، فمن خلاله نحصل على صورة مفصلة عن أوضاع كل من انكلترا وفرنسا قبل نشوب أحداث الحملة الثالثة وبعد ذلك، ونتعرف على العلاقات بين الأسر الحاكمة والاقطاعية، وفوق هذا نشهد الفوارق بين المستوى الحضاري لعرب المشرق وبين مستويات أوروبا، ونميز بين عقليات رجال الدين والكنيسة وإيمانهم بالغيبات، وعقليات رجال السلطة، وكيف تضاربت دوما المصالح بين الكنيسة والدولة، وكيف توفر الاجماع حين تعلق الأمر بالصليبيات، لابل كانت الصليبيات هي المخرج للأزمات الحادة.

وفي هذا المجلد مجموعة من الوثائق غير متوفرة في مصدر آخر، هذا وإذا ما جمعت مواد هذا المصدر مع مواد ذيل تاريخ وليم الصوري، ومع المجلدين المقبلين، يمتلك حينها المؤرخ العربي والقاريء المهتم من المواد ما ليس أغنى ولا أهم، فهنا نشهد عظمة صلاح الدين ورجال عصره من خلال ما قاله الأعداء، ذلك أن مآذكره الأصدقاء لا يكفي، فابن شداد حين أرخ حياة صلاح الدين كان شيخاً لم تسعفه ذاكرته بذكر التفاصيل، فضلاً عن أن منهجه ومقاصده وقتها لم تكن مع التفاصيل، وأغرق العماد الكاتب كل ما يحتاجه المؤرخ بالصنعة، ثم إن المؤرخ العربي لم يهتم بكل ما يهتم به المؤرخ المعاصر.

بوساطة المصادر الغربية تكتمل الصورة، وتصبح أكثر وضوحاً ونقاء، صورة عصر جاء تنويجاً لما تقدمه من عصور، وصورة بطل وحدودي

مجاهد لانظير له، يحاول بعض المرضى في أيماننا النيل منها، ونتلقن منها درساً خطيراً، أن إسرائيل قادرة الآن على العيش في الوسط العربي لأنها الكتلة السياسية الوحيدة الموحدة داخل طوق عسكري وأمني مرعب، وأن المشرق العربي إذا لم يوحد هو مهدد بالزوال، عن طريق الدمار أو الاحتواء أو الشرق أوسطية، أو العولمة، أو غير ذلك.

في الماضي رأى صلاح الدين هذه الصورة ، فنجح في تحقيق الوحدة، فحقق النصر في حطين وحرر القدس ، وصمد في ملحمة عكا، وطبعاً كان أساس الوحدة لديه وحدة الشام ومصر، ولابد اليوم من العمل في سبيل إعادة الوحدة بين هذين البلدين لينضم بقية العرب إليها، فالأمن، والبقاء والكرامة والتراث موجود في الوحدة ، والوحدة هي عمل في سبيل العروبة والاسلام، وفي سبيل الانسانية ، وفي سبيل النجاة من الاستعباد ومن الأتوقراطية الأمريكية، وكل أمل أن يتحول التنسيق والتعاون بين دمشق والقاهرة الى مشروع وحدوي، والله المستعان، ومنه جل وعلا يأتي التوفيق، والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه ومن تمسك بهداه الى يوم الدين.

دمشق: ٩ شوال ١٤١٨ / ٦ شباط ١٩٩٨

سهيل زكار

مدخل

يعود فضل ارساء قواعد أسرة بلانتغنت إلى سلسلة غامضة من شحن القلاع في وادي اللوار، الذين ارتقوا في القرن العاشر ليصبحوا كونتات أنجو، ولقد كانوا ذوي مزاج ناري، وأقوياء في القتال، يسرعون للانتقام مما لحقهم من أخطاء، غير أنهم كانوا كرماء نحو الكنيسة، وبهذه الصفات كان هؤلاء الرجال ذوي تأثير رافع في شغل أدوارهم في النشاطات السياسية المعقدة، وبالتدريج تمكنوا من بناء قاعدة سلطوية قوية من خلال مزيج من النشاط الحربي، والدبلوماسية، والزياب السياسية الجيدة والتحالفات، ففي سنة ١١٢٨ غدا الكونت فولك الخامس، الذي كان محترماً وناجحاً، ملكاً للقدس، وكان حكم أنجو قد تركه لابنه غيوفري الأشقر (١١٢٨-١١٥١)، وتمكن غيوفري من الاستيلاء على نورماندي، وادعى الحق بعرش انكلترا من خلال زوجته الامبراطورة ماتيلدا، وكانت هذه نقطة حاسمة في أهميتها بالنسبة لسعد الأسرة في أوروبا الغربية، وكان موثماً أن يحمل أبناء غيوفري لقبه «بلانتغنت» كاسم لأسرتهم، وصدر هذا الاسم من ارتدائه قبعة زينت بقشة مكنسة (غنت Genet) وسار ابنه هنري الثاني على خطا الأنجيفيين التقليدية بالتحرك السياسي، فتزوج زواجا رائعا، وكان مهاجماً كبيراً وفعالاً، ولذلك أقام مملكة واسعة، وحافظ على ممتلكاته التي امتدت من الحدود الاسكوتلندية إلى جبال البرانس، وحت هذه المملكة أكثر من نصف فرنسا، وخلفه بعد موته اثنان من أولاده: أولهما رتشارد الأول (١١٨٩-١١٩٩)، وكان قائداً عسكرياً جذاباً وفعالاً وصليباً، وثانيهما جون (١١٩٩-١٢١٦) الذي فقد معظم ممتلكاته الفرنسية، بما في ذلك مسقط رأس أجداد الأسرة في أنجو، فقدتها لصالح فيليب الثاني ملك

فرنسا، وكاد أن يخسر تاجه لصالح لويس بن فيليب، وكان سلوك جون سيئاً نحو باروناته، وكان قاسياً ومتقلباً تجاههم، فنجم عن هذا صدور مرسوم بالاصلاحيات (ماغنا كارتا) له ذكر دائم، ولم يتعلق الأمر بالحد من سوء تصرف الملوك وارغامهم على الاصلاح فحسب، بل أرسى القاعدة لحقوقنا العامة وحرياتنا.

وإلى القرن الثالث عشر، كانت المقدرة على القراءة والكتابة تقريباً حصراً بالناس العاملين في الأديرة والكنائس، من الكهنة العاديين، إلى العلماء ورؤساء الأساقفة الكبار ورعاة الديرة، واحتاج الملوك والنبلاء إلى كتاب يديرون لهم حكوماتهم ويتدبرون شؤون محاكمهم القانونية، ويجمعون لهم الضرائب، ويحافظون على سجلات أموالهم، ويتولون صياغة وكتابة مراسيمهم التي حوت أوامرهم المتوجب تنفيذها، وصحيح أن الناس تحدثوا فيما بينهم وكتبوا الشعر والأغاني بلغاتهم المحلية، لقد كانت لغة الكنيسة والحكومة خلال العصور الوسطى في أوروبا هي اللاتينية، وشكلت هذه اللغة جسراً فيما بين رجال الدين مهما كانت أصولهم والبلدان التي جاءوا منها، لكنها بالوقت نفسه عزلتهم عن بقية المجتمع، حتى أثناء شغلهم لواجباتهم الأساسية في الوساطة لدى الرب من أجل السلامة الروحية لبني البشر.

وجاءت غالبية المؤرخين في العصور الوسطى من الديرة أو من الكاتدرائيات الكنسية، وهي أماكن كانت في يوم من الأيام البيوت الراسخة للصلوات، وكانت بالعادة مؤسسات حسنة التنظيم، وعظيمة الفخار بتقاليدها الخاصة، وبالطبع مسؤولة عن سلامة ممتلكاتها والحفاظ على استقلالها، ولم ينشد المؤرخون إنتاج كتابات تاريخية عقلانية التحليل والصياغة مثلما يفعل مؤرخو هذه الأيام، بل استهدفوا أن يظهروا ماقضاه الرب فجاء على شكل أحداث، مبتدئين بأخبار الخليفة صعوداً مع الأحداث حتى أيامهم، وكان من الممكن للمؤرخ تنفيذ ذلك بالتأريخ

لبلده، وكذلك بالحديث عن انتصارات وآلام ديره، أو عن حياة قديس أو حاكم من الحكام.

وصحيح أن المؤرخين خضعوا لتصاريف أحداث أيامهم، غير أنهم كتبوا لأسباب متنوعة، فبعضهم كتب لتمجيد ملك من الملوك، أو دير من الديرة، أو قديس من القديسين، وكتب آخرون للتوجيه الذرائعي، أو للشرح أو للتسلية، لكنهم جميعاً أظهروا بوضوح الدروس الدينية والأخلاقية بشكل ما، وتطلعوا جميعاً نحو المستقبل، وتعاشوا مع الآمال الكبيرة في أن الأجيال المقبلة، ستعتمد على تواريتهم وتنقل عنها بكل حرية، ولقد حدث هذا بالفعل في كثير من الحالات، فعلى سبيل المثال كان كتاب «تاريخ الانكليز» لهنري أوف هنتنغدون ناجحاً جداً، وقد جرى نسخه مراراً كثيرة في القرن الثاني عشر، وتنقل بين أماكن كثيرة ووصل حتى ديرلى بك Bec النورماندي، ورئاسة كاتدرائية درم، وظل المصدر الأساسي لعصره حتى القرن السابع عشر، ووصلتنا بعض كتبه الأخرى من خلال نسخة واحدة أو نسختين قديمتين، ومن بينها «حياة القديس هيوغ»، ونادراً ما نسخ هذا الكتاب في انكلترا الوسيطة، غير أنه بات واسع الانتشار في القارة منذ القرن الخامس عشر فصاعداً.

وسلف أن طبع كتاب هنتنغدون في التاريخ، وكذلك كتابه عن حياة القديس هيوغ، وكان ذلك في القرن التاسع عشر في انكلترا وبالانكليزية، ولم يطبع الكتاب الأول ثانية منذ القرن التاسع عشر، غير أن النصوص الأخرى في هذا الكتاب قد ترجمت للمرة الأولى، وبسبب المساحة، لم تتم طباعة نصوص الكتب كاملة، بل جرى اختيار نقول تولت وصف الوقائع الرئيسية في كل سنة من السنوات المتابعة، وإيضاح مقاصد الكتاب واهتماماتهم الخاصة، وجرى بالنسبة لبعض النقول الطويلة، والنصوص (وأحياناً الجمل والمقاطع) حذف متعمد بغية تجنب التكرار، أو لايضاح أسلوب الأصل.

واستفدنا فائدة كاملة من بعض اهتمامات مؤرخينا بالصدق والصحة، فكتاب ديسيتو «صورة التاريخ» قد كتب بشكل واضح ومحكم في داخل اطار موثق ومرتب، وهناك على كل حال بعض المصادر الأخرى — مثل تواريخ كونتات أنجو — زاخرة بأساطير لافائدة منها، وهي تتحدث عن حكايات درامية، وأعمال فروسية، أكثر من اعطائنا رواية تاريخية واضحة للأحداث، وحدث بالحقيقة في بعض المناسبات أن قام الكتاب باختراع حوادث لم تقع قط، وهي تتعارض مع روايات أخرى أكثر اعتماداً وموثوقية، حتى الروايات التي هي بادية أكثر صحة من حيث المنطلق، قد لا تتفق دوماً مع بعضها بعضاً، وتظل أقل قبولاً بالنسبة للتفسير الحديث للوقائع، أو في إعطاء تعريف وتحديد للأماكن والأسماء هو نفسه، لذا زودنا عملنا بحواشي كثيرة تساعد على ضبط وايضاح النص المحقق (وطبعت بعض الشروح بأحرف سوداء مائلة قليلاً وبوساطة عبارات وردت بين حاصرتين مربعتين في ثنايا النص)، وفيما عدا تزويدنا للنص أحياناً بتواريخ وكنى وألقاب لتمييز بعض المشاركين الرئيسيين، تركنا المؤرخين يتولون بأنفسهم حكاية رواياتهم.

المؤرخون

انطلق في أوائل القرن الثالث عشر كل من جيرفاس Gervase الذي كان راهباً ثم غدا المحافظ على الآثار المقدسة في رئاسة كهنة كاتدرائية كانتربري، ورالف راعي دير كوغشال Coggeshall لكتابة تاريخ للشعب الانكليزي والملوكه، وتولى كل واحد منهما شرح هذا التاريخ بقدر ما هو مرتبط بتاريخ كنيسته، وزودانا بالصدفة بكثير من الحكايات المسلية والمواد المفيدة حول السياسات الانكليزية المتعلقة

بالسنوات: ١٢٠١ حتى ١٢١٠، حيث هي قليلة جداً في مصادر الأخبار الأخرى، وهناك حوليات بارنول Barnwell التي كتبها راهب أو كاهن مجهول، وهي هامة جداً وفيها شواهد ثمينة عن السنوات الأخيرة لحكم جون (١٢١٠-١٢١٦)، وتظهر بالمقارنة القليل من الميول الإقليمية (جرى حفظ النص في دير بارنول لكنه ربما لم يكتب هناك)، وتقدم هذه الحوليات مقاربة متوازنة لمسألة الصراع فيما بين الملك جون وباروناته، وقد عبّر عن شيء من التعاطف مع الثوار وكذلك مع جون، الذي هو شخصية مؤذية جداً لدى المؤرخين المتأخرين.

وأنتجت بعض الديرة تواريخ رسمية لحمايتها من الملوك أو النبلاء، فعلى سبيل المثال قام الراهب جون فيما بين ١١٦٤ و ١١٧٣، في دير مارموتير Marmoutier في وادي اللوار بكتابة نص جديد من كتاب «أعمال كونتات أنجو»، وكان أصل هذا الكتاب المثير والدرامي قد صنف وجمع في الدير في بلاط الكونتات أثناء القرن المنصرم من قبل عدد من المؤرخين، بما في ذلك الراعي أودو، وتوماس أوف لوشي Louches الذي كان شماساً للكونت فولك الخامس، وكثير من محتوياته، لاسيما المواد المتعلقة بالأنجيفيين الأوائل، لاتتعدى الأسطورة سوى قليلاً، وهي على كلّ حال كتبت وأهديت إلى هنري الثاني نفسه، وقد كان أعظم ملوك أسرته، فضلاً عن كونه أيضاً ملكاً لانكلترا ودوقاً لنورماندي وأكوتين، وبعدما كمل جاء الراهب جون فسار بالحكاية وذيل عليها وصفاً ملوناً وعظيم الإطراء جاء بمثابة ترجمة لغيوفري الجميل، والد هنري الثاني.

وتتعارض حكايات الراهب جون أوف مارموتير المتدفقة بالحياة والتي هي بالغالب غير شرعية مع مقاربات عدد كبير من مؤرخي الانكليز للقرن الثاني عشر التي هي أكثر توازناً، فقد قدم هنري رئيس شامسة هنتنغدون Huntingdon في كتابه «تاريخ الانكليز» رواية شبه

معاصرة عن حكم ستيفن، وكانت هذه الرواية في يوم من الأيام مقروءة وملیئة بالدروس الأخلاقية، وتحتوي على مواد واقعية، لئن كانت قد اختيرت بعناية فهي قد عرضت بشكل دقيق، وحظي هذا الكتاب في البداية على موافقة روجر أسقف سالسبري، الذي كان شخصية دينية قيادية وعاملاً في الإدارة الملكية، ثم أعاد المؤلف كتابته وغير توزيع مواده بحكم ازدياد شعبيته، وأعظم تدقيقاً من هذا الكتاب في صياغته كتاب «صورة التاريخ» لرالف أوف ديسيتو، وهو كاهن وموثق وفيما بعد عميد كاتدرائية القديس بولص في لندن، وقد ظل يكتب حتى سنة ١٢٠١، وهي كما يظن سنة وفاته، وكان ديسيتو مثله مثل معاصره روجر هاودن Howden (الذي من المؤكد أنه كتب تاريخاً، ولربما كتب أيضاً كتاب «أعمال الملك هنري الثاني والملك رتشارد الأول») قد انطلق لإخراج كتاب في التاريخ صحيح، وبما أنه ركز بشكل خاص على الكنيسة الانكليزية نهل بشكل كبير من الوثائق الملكية ورسائل أيامه التي حكّت الرواية التي أراد الانتفاع منها، وقد حلل الأحداث، مستخدماً إشارات هامشية لإظهار مواضيع مختلفة مثل الصراعات بين الكنيسة والدولة، والشجار بين هنري الثاني وأولاده، وهي وقائع شهدها وهي تقع. ولا بد لكل كاتب ينشد تقديم رواية إيجابية عن أيامه من أن يواجه مشاكل مثل: إعجاب ديسيتو بهنري الثاني، واطرائه لاستشهاد توماس بكت، وهو حادث كان الملك مسؤولاً عنه بشكل غير مباشر، غير أن هذا العائق قد أنتج نتائج ثمينة، لأن روايته عن الشجار بين الملك ورئيس الأساقفة تحتوي على شعور رائع عن الفصل بينهما.

وقدم وليم فترزستيفن، الذي كان كاهناً عمل من قبل في حاشية بكت، في كتابه «حياة القديس توماس بكت»، الذي صنفه في سبعينات القرن الثاني عشر، بعد أمد وجيز من وقوع حادث الاستشهاد، رواية حية ودرامية عن حياة رئيس الأساقفة وعن موته، وهي رواية مليئة

بالملاحظات الاجتماعية، كما وتحتوي على وصف هام لمدينة لندن، مسقط رأس بكت، وكان القصد الخاص من هذه الرواية هو تمجيد صاحب موضوعها ورفع شأنه، ومثل هذا فعل آدم أوف آينشام Eynsham في كتابه «حياة القديس هيوغ أوف لنكولن»، الذي كان واحداً من أعظم شخصيات الكنيسة الانكليزية في القرن الثاني عشر، وكان هيوغ مثله مثل بكت، قد اختلف مع هنري الثاني ومع أولاده حول الامتيازات اللاهوتية، غير أنه كان قادراً على استرداد الرضى الملكي بوساطة روح الدعابة الجريئة لديه، وهي سمة افتقدها — كما يبدو — بكت.

وكان كل واحد من المؤلفين حريص على عدم توجيه النقد للملك كثيراً، وذلك على النقيض من جيرالد أوف ويلز في سنواته الأخيرة، وكان جيرالد رئيس شمامسة بريكون Brecon خصب الإنتاج وكاتباً شعبياً حول موضوعات مثل عادات وسمات الويلزيين والاييرلنديين، لكنه كان متألماً لانخفاقه الطويل في أن يصبح أسقف القديس داود، ودبج هجاء قاسياً وعدوانياً ضد القدر الذي قهر الحاكم المذنب، مع اشارة خاصة إلى هنري الثاني.

وبالاضافة للشروح والخواشي هناك تفاصيل كاملة حول المخطوطات التي اعتمدت مع أسماء المؤلفين في نهاية الكتاب.

القسم الأول

أصول الأسرة الأنجيفية

تأسس سعد بيت أنجو على طاقات انغلر *Ingelar* وشجاعته، وهو عسكري شبه أسطوري، لكنه كان سعيد الحظ فاستطاع انتزاع دويلة لنفسه في وادي اللوار، وقام ابنه فولك الأحمر على ما بناه وأسس فاستطاع في ٩٤١ أن يصبح كونت أنجو، وتمتعت المنطقة في ظل حكم فولك الجيد (٩٤١-٩٦٠) بوقت من الازدهار والاستقرار، وحكمت أنجو خلال المائة والسبعين سنة التالية من قبل رجال متميزين وغير عاديين، وكانت بسالة غيوفري «الرمادي الثوب» (٩٦٠-٩٨٧) مزيجاً من الأساطير، وبحكايته يبدأ تاريخ أسرة بلانتغنت، وكان فولك نيرا *Nerra* (٩٨٧-١٠٤٠) عنيفاً وجذاباً، وقاسياً، ومعلماً في استراتيجية بناء القلاع، وجاء من بعده غيوفري مارتل (١٠٤٠-١٠٦٠) الذي كان أكثر براعة، ثم من بعد خمسين سنة أو نحوها من سنين الفوضى كان فولك الخامس (١١٠٩-١١٢٩)، وهو الذي أصبح ملكاً على القدس، وورد وصف حياتهم وأعمالهم بشكل براق، وغالباً فيه تزوير، في «تاريخ كونتات أنجو»، وكان هذا التاريخ الثمين نتاج عدد من الكتاب، بمن فيهم توماس أوف لوشي *Loches* الذي كان شماس الكونت فولك الخامس، وقد أخذ هذا الكتاب شكله النهائي في ستينات القرن الثاني عشر، على يد جون الذي كان راهباً في دير مارموتير.

ولد لفولك الجيد ثلاثة أولاد، كان أكبرهم غيوفري، وهو الذي أصبح كونتاً لأنجو، في حين غدا غي، وهو الثاني أسقفاً لـ «لى-بوي»، وكان دروغو Drogo وهو الأصغر، الأثير لى فولك، ذلك أنه ولد، وفولك قد صار في منتصف العمر، وانصرف هذا الابن نحو الثقافة والآداب، والفنون الحرة، وتمكن بفضل مساعي هيوچ كاييه ملك فرنسا، أن يخلف أخاه، أسقفاً لـ «لى-بوي».

سنة ستين وتسعمائة

كان الكونت غيوفري عسكرياً بارعاً، وفق الطرائق الفرنسية، صامد القلب، وقوياً وناجحاً جداً في القتال.

وكان في تلك الآونة هوستن الداني Huasten يهاجم منذ ثلاث سنوات سواحل فرنسا، والتحق الآن بابني عمه (أو خاله) ادوارد وهلدوين Hilduin اللذان كانا كونتا فلاندرز، وكان معه قوة مكونة من خمسة عشر ألفاً من الدانيين والسكسون، بينهم مقاتل متفوق جداً في بنيته وشجاعته، واسمه إيثولولف Ethelulf وكان الدانيون والسويديون ينهبون معاً الأراضي الفرنسية ويعيثون فيها فساداً، ويحرقون البلدات والقرى حيثما استطاعوا، وتمكنوا بمساعدة من الفلمنكيين من الاستيلاء على معظم منطقة فلاندرز حيث جعلوها طعمة للنار ولل سيف، وكانت هذه المنطقة مسكونة من قبل الفرنسيين، وقد فعلوا هذا كله قبل أن يقرروا الزحف نحو باريس واطهار الخوف والرعب هناك.

وارتعب الملك الفرنسي تجاه هذا، فوجه الدعوة إلى جميع نبلاء فرنسا للاجتماع جميعاً في باريس في يوم أحد الشعانين، واقترب إيثولولف الداني، الذي هو جالوت جديد، باستخفاف من المدينة، وطالب بمبارزة

فردية مع فارس فرنسي، وبعدها لاقى عدد من أشجع الفرسان الفرنسيين وأكثرهم نبلاً الهزيمة والقتل في المبارزة أصيب الملك بالهلع، وحظر على أي واحد آخر الخروج ضد إيثولولف.

وكان عندما سمع غيوفري صاحب أنجو الرسالة الملكية، التي دعتة إلى الاجتماع يوم أحد الشعانين أعدّ نفسه لمغادرة أراضيه من شاتو—لاندون Chateau-Landon لكن عندما سمع بقوة الدانين ووحشيتهم، سافر سراً، ومعه فارس واحد مع اثنين من التابعين.

وأخذ معه حصاناً واحداً، وعبر نهر السين مع الفارس واثنين من الطحانين، وعندما رأى الكونت الداني وسمع صيحات حربه، زجر، وبسرعة صبّ عليه سلاحه، وامتطى حصانه، وترك رفاقه في المركب، وانطلق وحيداً فوق السهل ليشتبك مع عدوه، وهمز كل واحد منها مطيته واقتربا من بعضهما بعضاً، وطعن الكونت عدوه في صدره، وألقاه أرضاً، وقد خرج السنان من بين لوحى كتفه، وعندما نظر غيوفري نحو الخلف كان بإمكانه أن يرى الداني وهو يثخن ويزجر ويحاول جاهداً الوقوف مع نظرات تهديد بعينية الغاضبتين، ولذلك ترحل مسرعاً، ومثله مثل داود ثان، استل سيفه وقطع به رأسه، ثم عاد على الفور فامتطى فرسه وعاد مسرعاً نحو المركب ومعه رأس عدوه وفرسه، وأعطى الرأس لواحد من الطحانين ليأخذه إلى باريس، بينما عاد متسراً إلى شاتو—لاندون ليلتحق برجاله (١).

ووصل حامل الرأس إلى المدينة، وأعلن أمام الملك، أنه وإن كان لا يعرف هوية الفارس، هو بلاشك سيتعرف عليه إذا ماراه ثانية.

ووصل إلى باريس في اليوم المحدد جميع الذين جرى استدعاؤهم: الدوقات والكونتات والنبلاء لجميع فرنسا، وهكذا اجتمع جميع رؤساء الرجال المتميزين بالبراعة والقدرة مع بعضهم في القصر الملكي، وجلس

غيوفري كونت أنجويين البارونات مرتدياً مئزراً من القماش الرمادي الخشن، مما اعتاد الفرنسيون على تسميته: «الرمادي الفاقع» والأنجيفيون: «الخشن».

ونظر الطحان، الذي استدعاه الملك للتعرف بهذه المناسبة، نحو الكونت وعرفه على الفور، وبعد نيله للإذن من الملك، اقترب منه وهو يتسّم، وبعدما ركع على ركبتيه أمسك بإزار الكونت وقال للملك وللذين كانوا حاضرين: «هذا هو الرجل، الذي يرتدي مئزراً رمادياً، إنه الذي أعاد لنا شرفنا عندما قتل الداني وألقى بالرعب في قلوب جيشهم»، وأمر الملك أن يدعى غيوفري من الآن فصاعداً باسم «الرمادي الثوب»، ووافق جميع الحضور على ذلك.

وجاء بعد غيوفري الرمادي الثوب ابنه الكونت موريس، الذي كان حكيماً، وأخلاقياً ومحباً للسلام، وقد حكم بهدوء وسلام نتيجة لحكمته أكثر منه نتيجة لقتاله في المعارك، وآلت أراضيه بعد موته إلى ابنه فولك نيرا، الذي على الرغم من كونه ابن سبع عشرة سنة، برهن بنفسه على أنه جندي شجاع.

سنة سبع وثمانين وتسعمائة

كان فولك (٢) نيرا على الدوام صديقاً للنفوس التي تخشى الرب، كما وكان شاباً يافعاً، لكن ليس بروحه أبدأً، وقد نهض بشجاعة واندفع للدفاع عن أراضيه ضد أعدائها الكثر، لأن العادة جرت أن الحرب كانت تثار دوماً بسرعة ضد الحاكم الجديد، فبناء على نصيحة من الوغد لاندري Landry صاحب شاتودون حاول أودو الثاني كونت بليوس وشامبين، وغلدوين Gelduin صاحب سامور Saumur طرد

فولك من تورين Touraine وقد خيل إليهما أن كل من كونتي أمبواز Amboise ولوشي سوف يساعداهما، وأوضح لاندري لهما أن الوقت كان مناسباً، لأن سولبايس Sulpice الخازن في دير القديس مارتن في تور، قد فقد أخاه للتو، وأنه كان يحكم أمبواز نيابة عن الكونت، ولم يتأخر بطلنا صاحب القلب الشجاع عن الاستعداد للاحاق الهزيمة بالأعداء، ولم يتقاعس عن تعريض نفسه للخطر، فجمع أكبر جيش استطاع حشده، وهاجم بجرأة أراضي أعداءه، وتجاوز بزحفه بليوس ووصل إلى شاتودون.

وطوق سكان ذلك المكان مدينتهم بأطواق من الجند، وحافظوا عليها بأسلحتهم، وكانوا مستعدين للقتال وفق أسلوب المدافعين عن معسكر من المعسكرات، فقد احتشدوا بسرعة وتجمعوا معاً، وإثر ذلك هاجموا الكونت ورجاله، وصد الأنجيفيون حملاتهم المتوالية حتى المساء، لكن عندما حاولوا التراجع، كانوا غير قادرين على تجنب حشود المهاجمين لأن رجال شاتودون كانوا يضغطون عليهم بشدة من الخلف، حتى عندما تراجعوا، وعندما لم يعد باستطاعة جيش الكونت الكفاح مدة أطول، ولا الانسحاب، ولا صد هجمات خصومهم، غامر هؤلاء الرجال المطوقين بالتراجع خطوة خطوة وهم يقاتلون، ووقتها أخذ رجال أمبواز يشقون طريقهم بالقوة، وهنا هاجم الأنجيفيون الأعداء على كل جانب وطوقهم وهزمهم، واستولى الرعب على رجال شاتودون، ودبت الفوضى في صفوفهم، فانعطفوا على أعقابهم، غير أن المعركة استمرت، وطاردهم الكونت إلى داخل معسكرهم، فأسر كثيراً من السكان، وجعل الآخرين طعمة للسيف، وكان بإمكان الأنجيفيون الاستراحة هناك تلك الليلة وهم يجرسون المائتي فارس الذين أخذوهم أسرى، وربطوهم مع بقية الأسرى، ونهبوا وسلبوا الأراضي من حولهم في اليوم التالي، وألحقوا الدمار بالذين تولوا فلاحة الأرض، وعادوا بعد مضي ثلاثة أيام إلى أمبواز

وهم منتشين فرحاً بنصرهم.

وفي أمبويز حاصر الكونت حصن لاندري، وتجمع رجاله بحماس شديد بغية اقتحام بيت ذلك الرجل، فألقوا بذلك الرعب في قلوب المقاومين، وبات هؤلاء يدركون أنهم لن يتمكنوا من الاستمرار بالمقاومة، وإذا ما أسروا لن يكونوا قادرين على تجنب عقوبة الموت التي استحقوها، ولهذا بدأوا بحث مسألة تسليم الحصن إلى الكونت مقابل الإبقاء على حياتهم، وكان ذلك بوساطة بعض السفراء، ولدى تفحص هذا الأمر، بدا من المفيد لكل واحد، إزالة هذا الرعب العظيم دون تعريض المهاجمين للمخاطر، وبناء عليه حوفظ على المحاصرين، وجرى هدم الحصن تماماً، ومن ثم طرد لاندري ورجاله من معسكرهم.

وعبر الكونت بعد هذا اللوار، واستقر في مكان قام بتحصينه، وكان هذا المكان يعرف بالسنيين الخالية باسم كارامتوم، مع أنه يعرف الآن باسم مورود Moraud ثم توجه إلى سمبلانسي Semblancy حيث قام أيضاً بتقوية التحصينات، وعبر من خلال أراضي تابعه وصديقه هيوغ أوف ألوي Alluyes الذي كان سيداً لشاتو—فاليري Chateau -La- Valliere والقديس ستيفن، ودخل فاللي Vallee وانحدر بدون عوائق إلى أنغر Angers وذلك على الرغم من عدم رضى شعب تور، واستولى بالحقيقة على ميربو Mi-rebeau ولاندون، وشينون Chinon (التي كانت بأيدي أودو)، وسامور، ومونتسوريو Montsoreau التي هاجم منها مراراً رجال الـ—بوشارد L'll-Bouchard وذلك قبل أن يعود إلى لوشي عبر منطقة غينون Guennon صاحب نوتري Nouatre.

ولكي يكمل خططه، انتخب فولك واحداً من خيرة رجاله المحاربين، لقد كان أفضلهم وأعظم الجنود خبرة، واسمه ليسوس أوف بازوغير Li-sois of Bazougers وهو حفيد (ابن أخ أو أخت) فيزكونت أوف

سينت سوزان Suzanne وأوكل إليه المسؤولية عن لوشي وأمبوين، وأمره بفرض الطاعة على الفرسان هناك صغاراً وكباراً.

وولدت زوجة فولك غيوفري مارتل، وابنة اسمها أديلا، وبما أن فولك كان رجلاً يخشى الرب، فقد قام بالحج إلى روما لتقديم الشكر، وبعدما تسلم رسائل من البابا الروماني مع التبريكات، أخذ الطريق وشرع برحلته نحو القدس (٣)، التي كانت آنذاك بيد الكفار، وعندما وصل إلى القسطنطينية قابل الدوق روبرت صاحب نورماندي، الذي انطلق للقيام بالرحلة نفسها، (كان لرتشارد دوق نورماندي ولدين هما رتشارد وروبرت، وقد رزق بهما من يودث ابنة الكونت كونان صاحب بريتاني، وكان رتشارد هو الأكبر، وقد تجرع السم على يد أخيه روبرت، ومن أجل أن ينال العفو من الرب والغفران قام روبرت بالسفر حافي القدمين [نحو القدس] وذلك بعد سبع سنوات من غدوه دوقاً، وكان لروبرت هذا نفسه ولداً اسمه وليم، وهو رجل مشهور، ذلك أنه هو الذي قهر انكلترا) وعندما وجد فولك روبرت وتعرف عليه، أراه رسائل البابا إلى الامبراطور، وبناء على أوامر الامبراطور اقتيد الرجال عبر أراضي المسلمين بوساطة رجال من أنطاكية، صدف أن كانوا في القسطنطينية، وقد توفي روبرت على الطريق إلى بيشنيا.

واقتيد فولك نيرا تحت الحراسة إلى القدس، ولم يسمح له بالبداية بالمضي خلال باب المدينة حيث كان الحجاج يرغمون على دفع بدل دخول، غير أنه بعدما دفع عن نفسه وعن المسيحيين الآخرين المعوقين عند باب المنع، كان قادراً على الدخول معهم جميعاً، لكن عندها منعتهم الأبواب من الدخول إلى قبر الرب.

وعندما عُرف أنه رجل منحدر من أصل رفيع، قال له الحراس: يمكنك الوصول إلى القبر، لكن —أضافوا بسخرية وخداع— إذا بولت عليه وعلى الصليب المقدس، وبما أن فولك كان رجلاً عاقلاً، فقد أبدى

موافقته، لكن رغباً عنه، فاشترى مثانة كبش، ونظفها من القذارة التي بها، ثم ملأها بأحسن نوع من الخمر الأبيض، ثم وضعها في مكان مستور بين طرفيه، ثم إنه بعدما خلع نعليه، اقترب من قبر الرب، وصب الخمر فوقه، وبذلك سمح له بالدخول بلا أجر مع جميع رفاقه، وصلى عند القبر، وسكب كثيراً من الدموع، ومالبت أن تشعر بالقوة الإلهية عندما أصبح الحجر القاسي ناعماً، وانتزع بعد هذا نفسه وابتعد عن القبر الذي بلله بقبله، ولقد غادر وهو يشعر بالحنق بسبب سخريه وجهالة الكفار الذين رافقوه، وقدم صدقات كثيرة للمحتاجين، وحصل على قطعة من الصليب المقدس من واحد من السوريين الذين كانوا يحرسون الضريح.

وعندما عاد الكونت فولك إلى لوشي، فيما وراء نهر الاندر Indre بنى كنيسة على شرف الضريح المقدس في بيوليو Beaulieu بالتحديد، وأسكن هناك بعض الرهبان مع راعي لهم، ووضع في كنيسة القديسة مريم العذراء في أمبواز قطعة من صليب المخلص وجذاذة من الحبل الذي ربطت به يدي المسيح، وإلى هذه الكنيسة نقل في أيام فولك جسد القديس فلورنتاين Florentine من بواتو إلى هناك، وأقام أيضاً مع سولبايس Sulpice خازن القديس مارتن كهنة هناك.

كان أودو كونت شامبين بالتحالف مع جدعون أوف سامور يهددان سلطة فولك في شرقي أنجو، وقاتل فولك مع حليفه كونت هربرت أوف مين ضده، وربحا اليوم، وقتلا وأسرا حوالي ستة آلاف من أعدائهما، وفي السنة التالية أسس فولك قلعة مونتبوي Montboyau ليهدد بها تور التي أمل بالاستيلاء عليها وانتزاعها من أودو، غير أن أودو تولى حصار مونتبوي.

حشد فولك أكبر عدد تحقق له في فالي Vallee ونفذ خطة ذكية، فلأنه لم يستطع لابل لم يتجراً على القتال، عبر نهر اللوار، وسار مسرعاً طوال الليل، ودخل مع بزوغ نور الصباح إلى سامور التي كانت

بلا دفاعات، واستولى على الفور عليها كلها وصولاً حتى القلعة.

ولم يكن هناك أمل بالسلاطة بالنسبة للرجال الذين كانوا في القلعة، ولا مكان لالتهجاء إليه، ولم يكن أمامهم سوى عار التسليم فقط، فقد كانوا يعرفون أن الأنجيفيين كانوا شجعاناً وعرق مقاتل، وأنهم لن يتخلوا عن خططهم حتي تستجاب مطالبهم، وكانوا أيضاً يعرفون أن مهاجمهم سيتخلون عن كل رحمة، لذلك توصلوا إلى اتفاق مع الكونت، وفقاً لقانون الاستسلام، وقالوا له: «أيها الانسان السعيد، لقد أمرت بوجوب التخلي عن القلعة وتسليمها إليك، احنا من هؤلاء القتلة، واسمح لنا بالعيش لنخدمك»، وأصغى الكونت إلى هذا، وسمح لهم بالحرية مع الكرامة، وشرفهم بهدايا عظيمة، ولقد قيل بأنه فعل هذا من أجل أن يربط المحررين به شخصياً، وأن يحرض الآخرين على الاستسلام، وبعدما جرى تسليم القلعة إلى أتباعه، أمرهم بحراستها بكل يقظة.

وبعدما سيطر فولك على سامور حسبما رغب، عبر نهر الفين Vienne قرب شينون Chinon بين نوتري Nouatre وآيل-بوشارد Ile-Bouchard على جسر صنع من السفن، وحاصر مونتبازون Montbazon وتخلّى أودو عن حصار مونتبوي ووجه رجالته ضد فولك، ووضع فولك العبقرى حداً للحصار وتراجع إلى لوشي حيث نصب خيامه فوق المروج.

ومكث القائدان بلا حراك، وتفرق جيشاهما، وفيما أودو مقيم في بليوس أخبره رسول أن الألمان قد حاصروا بار-سور-أوبي Bar - Sur- Aube تحت قيادة دوق اللورين، فبادر مسرعاً بالعودة إلى هناك، ثم قام أودو بمطاردة الألمان الذين كانوا قد ارتحلوا إلى اللورين، ومع أنه أصيب بجراح بالغة وهو يقاتلهم، إلا أنه عاد منتصراً، ومهما يكن الحال، لقد توفي بعد وقت قصير متأثراً بجراحه، وورث ابنه ثيوبولد الثالث أراضيه، وفي الوقت نفسه حاصر فولك مونتبازون مرة ثانية،

واستولى عليها هذه المرة، وعهد بحراستها إلى وليم أوف ميربو، وسلم
أيرود برستولي Airaud Brustulii مع خونة آخرين سيدهم
غيوفري، حاكم سينت ايغنان Aignan إلى فولك، وحدث فيما بعد
أثناء غياب فولك أن تعرض هذا الرجل للشنق في سجنه في لوشي على
أيدي الخونة أنفسهم.

وأعطى الكونت إلى حاجبه ليسوس حفيدة (ابنة الأخ أو الأخت)
سولبايس الخازن، زوجة له، ومنحه قلعة أمبويز مع جميع ممتلكاتها،
وبعدما أسس هذا الرجل على هذه الصورة، عهد الكونت بامرته إلى ابنه
مارتل، وهكذا عاشت البلاد بهدوء وسلام حتى وفاة فولك التي حدثت
بعد وقت قصير.

سنة أربعين وألف

استحوذ غيوفري مارتل، بعد وفاة أبيه على جميع اقطاعية الكونت،
وكان مارتل جسوراً أكثر من بقية أفراد أسرته، ولقد اعتاد على انجاز
مشاريعه بسرعة فعالة، وأثار شعب أنجو غضب سيدهم مارتل ضد كل
من ثيوبولد الثالث، كونت بليوس ووليم كونت بواتو.

واعتاد مارتل على استخدام القوة ضد كثيرين، وعندما كان يقال له:
«الناس يتكلمون بشكل سيء عنك»، كان يعقب قائلاً: «إنهم يفعلون
ما اعتادوا أن يفعلوه، لأمّا استحققه، وإنهم لا يعرفون كيف يتحدثون
بشكل جيد»، ولهذا مركز كثيراً من القوات في أمبويز تحت إمرة ليسوس،
وقامت هذه القوات بإزالة جميع ما وقف معيقاً فيما بين مونتبازون وشينون.

وأخيراً حاصر مارتل بلدة تور، وبعث ليسوس عائداً إلى أمبويز مع

مائتي فارس وألف وخمسمائة جندي من الرجالة ليتولوا حراسة الطرق خشية أن ينقض رجال بليوس على جيشه دونما عائق.

وتخلى مارتل عن الحصار، وجاء للقاء أعدائه عند بزوغ الشمس في مونتلوي Montlouis وفي الصباح اندفع رجال بليوس من معسكراتهم على شكل جماعات، وزحف الأنجيفيون ضدهم من مونتلوي، وفي أثناء تفقد كل واحد منهم لسلح الآخر بالدور، خاطب مارتل الذي حمل ستة سيوف رجال جيشه بالكلمات التالية:

«إلى الأمام أيها الجنود، لقد رأيتم ما جئتم من أجله، وحقاً أقول، إنكم أنتم المقبلون على القتال سوف تنالون الدعم من الرب وستحصلون على القوة من فضله، لأن الرب القادر قوي وقادر على الحماية، لا يفكرن أحد مطلقاً بالفرار، لأن أنجوبعيدة جداً عنا» (٤).

وتشجع جنوده بالكلمات التي سمعوها من كونتهم، فزحف كل رجل منهم نحو القتال، ولم يرغبوا في تأجيل المواجهة أبداً، ولم يكن هناك تردد، وقد احتشدوا في مكان مشهور باسم نوي Nowy أمام سوق بلدة سينت مارتن —لى— بو Beau.

وزعقت الأبواق مع صرخات «إلى الأمام»، وتوغلوا بأنفسهم بكل سرعة ممكنة في قلب صفوف الأعداء على كل جبهة، وشتتوا الذين اعترضوا طريقهم، وقد وجدوا خصومهم غير ضعفاء، بل على العكس، يقاومون بكل قواهم، وكادت قوات مارتل أن تتدمر على أيدي الحشود التي تفوقت عليها بالعدد، والتهمت المعركة تماماً اثنين من صفوفها، وسقط عدد كبير من الرجال أرضاً، وجرح كثير منهم، ومع هذا استطاع الأنجيفيون صدّ حملة أعدائهم، ثم هاجمهم بدورهم وأرغموهم على التزحزح عن مواقعهم.

وكان مارتل الذي اتخذ موقفاً وبيده سيفه قريباً من مؤخرة قواته،

يسرع إلى حيث كان يرى أن الأعداء قد تفوقوا بأعدادهم، وكان قد غير مظهره، وتخلّى عن ثيابه ككونت وبيات شكله شكل فارس عادي، ولقد طعن عدداً من الخيالة وألقاهم عن ظهور خيولهم، وشطر آخرين بسيفه وهم على سروج مطاياهم، وأعاد تجميع رجاله، وشجع الذين تعرضوا للضغط الشديد، ورفع معنوياتهم، وإثر ذلك اندفع إلى الأمام ضد الأعداء.

أما ليسوس الذي توجب عليه جلب العون إلى مولاه مع فرسانه ومائة من حملة الأعلام من الجنود الرجالة، فقد جاء بأقصى سرعة من أمبوز، وعندما رأى الذين كانوا في ميمنته القتال عن بعد، رفعوا أسواطهم، وهمزوا خيولهم، ووضعوا ترستهم أمام صدورهم، وهكذا استطاعوا تشتيت الحشد الذي تجمع هناك، ومزقوا خصومهم، وتمكن كل واحد منهم أن يمدد واحداً من الأعداء على الأرض.

وجدد الأنجيفيون الحملة، ولم يعد بإمكان المتعاونين مع ثيوبولد مقاومة شدة القتال، لذلك أداروا ظهورهم وشرعوا بالفرار، واستبد الرعب بهم بشكل مفاجيء، وأصيب كثير منهم بنشاب مطارديهم، وشدد الأنجيفيون من الفرسان والرجالة الضغط عليهم، وردوهم مرغمين إلى الخلف، وقتلوا الخيول التي كانت حية إلا قليلاً منها، أما الذين كانوا مع مارتل فقد قتلوا كل من صدفوه، ذلك أنهم تجمعوا تحت لواء قائدهم، الذي كان أشجعهم جميعاً، وطاردوا الفارين ومددوهم فوق الأرض.

وسار رجال أمبوز خلف الفارين وتبعوا آثارهم، وظلوا يقهرون خصومهم ويقتلونهم حتى التقوا بالكونت ثيوبولد داخل حرش اسمه بري Braye قرب قاعة هوستون Hastuin وأسروه مع خمسمائة من فرسانه، ذلك أنه كان من غير الممكن الركوب في بري، وجروا الكونت خارج الحرش، ومن ثم عادوا إلى مارتل، وهكذا كان بعون الرب أن تم صد الأعداء الذين فروا مجلّلين بالعار إلى أجزاء مختلفة، في حين

عاد الأنجيقيون وأمضوا السنة بسلام، ولم ينزعجوا بمخاطر الحروب.

سنة اثنتين وأربعين وألف

وعندما كان التعيس ثيوبولد الثالث في الأغلال لم يقبل مارتل فدية له
لأبالذهب ولابالفضة، وبما أن السجين كان يخشى على حياته، ويهتم
بسلامة شخصه أكثر من أي شيء آخر مما امتلكه، تخلى عن تورين
Touraine إلى مارتل ليتملكها ملكية أبدية مقابل تسريحه، وكان هذا
سنة اثنتين وأربعين وألف.

وحسب تأكيد سينكا Seneca:

«لا يمكن للناس أن يعيشوا حياة هادئة إذا ما أطاعوا قواعد النظام
الطبيعي: لك ولي». لقد أراد الآن وليم أوف بواتوالاستيلاء على منطقة
سينتأونغ Saintonge وفعلاً احتلها، وتمسك بها بالقوة على أساس
أنها كانت ملكاً لأخي أبيه، وادعى مارتل ملكية المنطقة نفسها لأنها
كانت ملكاً لعمه الكبير، الذي مات ورثته بدون أولاد، وأصر أنه لهذا
السبب توجب عودتها إلى ورثة أخت عمه الكبير.

وكان وليم صاحب بواتو والحق يقال رجلاً محارباً، لانظير له بالجرأة،
وامتلك البصيرة مع ثروة كبيرة، ولامتلاكه حشوداً من الجند كان متشوقاً
للمديح والتفاخر والتبجح برعونة، وأكسبته سمعته العظيمة عدداً كبيراً
جداً من الأتباع:

رجال بواتو، وليموسين Limousin وأنغوليم Angouleme
وبيرغو Pergueux وكليرمونت — فيراند Clermont-Ferrand
وغسكون Qascons وباسكوي Basques وتولوسين Tou-

lousains مع آخرين أعدادهم لالتحصى، قام بتوحيدهم لتشكيل جيش هائل.

وكان البواتيون يتجمعون ببطء من جميع أرجاء المنطقة، وكانوا مثل النجوم أعدادهم لاتعد ولا تحصى، وقد نشروا قواتهم التي لا يمكن عدّها على شكل صفوف من جانب إلى جانب، وكان الجميع يحملون السلاسل التي اعتقدوا أنهم سيربطون بها خصومهم، وكانت وحداتهم تحتل مواقع متفق عليها على مسافة ضئيلة من تشف - بوتون Chef-Boutonne وقد فعلوا ذلك حسبما صدرت التوجيهات إليهم، ولقد خيل إليهم أن الأنجيفيين سوف يفرون على الفور، ولم يقدّروا أنهم أنفسهم قد يفعلون الشيء نفسه لأنهم اعتقدوا سلفاً أنهم ربحوا، وقد استمدوا ثقتهم من جموعهم التي فاقت العد والحصر، ومن روح التظاهر التي وجدت في صدور جمعهم، وكذلك من أمر قائدهم بعدم الفرار.

وكان الطرفان الآن على استعداد للقتال، وقد اصطفوا في مكان صغير جعل من الممكن مشاهدة بعضهم بعضاً عن قرب شديد، واصطدمت الصفوف بقوى متساوية، وكان المحرض الذي حرك البواتيين هو الغضب والخوف، لكن الذي حرك الأنجيفيين كان هو الأمل ببربح منطقة سينتأونغ، وصرخ كلّ انسان بصوت مرتفع، ورددت السموات نفسها الأصداء بزجرة متداخلة، وكان الضجيج لا يمكن احتماله، وقد صدر عن قراع السلاح، وانشطار الخوذ، وتحطم السيوف، وعن أنين وصراخ الذين كانوا يموتون، وسمعت أصوات الجرحى على جميع الجوانب.

وحمل مارتل مع الأنجيفيين على العدو، وشقوا طريقهم بسيوفهم وهم يصرخون حتى وصلوا إلى وسط صفوفه، وتبع حشد من الفرسان من تورين مولاهم، وشتتوا عدداً كبيراً وقتلوا حامل راية وليم نفسه، ولحق الرجال بكل شجاعة جماعات الفرسان، واستولوا على الراية واحتفظوا بها

لأنها كانت قد ألفت رعباً شديداً في قلوبهم، وهنا دار جميع رجال غسكوني وليموسين على الفور على أعقابهم وذهبت بقية الحشد معهم.

وتريث البواتيون، وحافظوا وهم مرعوبين على مواقفهم لبعض الوقت، وتحول مارتل ورجاله نحوهم وبأيديهم سيوفهم، فقطعوه مثلما يقطع المنجل القمح، وذلك بضربات أفقية، وشطر أجساد الأعداء، ولم تبطل أرض المعركة بل بالحري فاضت بالدماء، ولم يكن أمام البواتيين المزلزلين مكان يلجأون إليه، ثم إنهم لم يبحثوا عن شيء من هذا القبيل، وجرت مطاردة الفارين، أولنقل مطاردة الذين تدبروا بطريقة ما الفرار وفي الوقت الذي أخذ فيه رجال تورين كثيراً من الأسرى، لم يمنح الأنجيونيون الهدنة لأي ممن صدفوه هارباً، فقد طعنوا بعضهم بالرمح، وقطعوا أعناق آخرين، ولم يبقوا على أحد حياً، وبما أن تشف — بوتون لم تكن بعيدة، فقد لاقت الأقلية المنهكة هناك إما الأسر أو الموت السريع، وهكذا كان ذلك اليوم رهيباً جداً بالنسبة للبواتيين، ولقد كان يوم آلام ويأس، يوم فوضى وقنوط، فقد ربطوا بالسلاسل نفسها التي جلبوها ليربطوا بها أعداءهم، ولقد كانت المذبحة كاملة، وأمضى مارتل ورجاله الليل بسلام في خيمهم فوق السهل، وصفوا رؤوس القتلى وأجسادهم في وجه الرياح الشمالية العاتية التي كانت تهب آنذاك.

وحمل بعد هذا مارتل على سيتأونغ بالسرعة التي أمكنته، وخرج الذين كانوا في المدينة لاستقباله وسلموا المكان إليه بأبواب مفتوحة، واستقر هناك رجاله وهم مسرورين، واستولوا على المنطقة المجاورة التي سيحكمها مارتل طوال بقية حياته، وذلك ما ان يقيم سلباً مع كونت بواتو، وما أن عوفي هذا الأخير من جراحه التي أصيب بها أثناء القتال حتى تقبل الولاء من مارتل وتخلى له عن المنطقة التي كانت الآن هادئة، وكان ذلك بناء على نصيحة من الرهبان والأساقفة، وكان هناك سرور عارم وفرح لا يوصف في أنجو وتورين نتيجة لما حصل، وتمتع المنتصرون

بالسلام طويلاً في كل مكان، وقدموا الشكر للرب بكل قلوبهم.
وكان في هذه الأيام الدوق وليم صاحب نورماندي يضايق كثيراً
هربرت كونت لامانس، وبما أن مارتل كان حليف هربرت وحاميه، فقد
عانى الدوق وليم —الذي صار فيما بعد ملك الانكليز— كثيراً على يدي
مارتل.

وبما أن غيوفري مارتل ابن فولك كان بلا أولاد، فقد ترك منطقة أنجو
وتورين، التي استولى عليها كما وصفت، إلى ابني أخيه: غيوفري الملتحي
وفولك ريشن Rechin وأعطى أنجو وسينتأونغ إلى غيوفري
وتورين وشاتو —لاندن إلى فولك، وقد أصيب بمرض غير متوقع، وبعدة
لا يمكن مداواتها، وقد ازدادت علته سوءاً من يوم إلى يوم، وعانى منها
حتى ساعة وفاته، فقد توفي وهو شديد الآلام وسط أسرته.

سنة ستين وألف

وفيما يتعلق بعدد الشرور وطبيعتها التي وقعت في البلاد بينما كان
غيوفري الملتحي وفولك ريشن مستوليان على تراث مارتل: الكشف
عنها يأمر به التاريخ الصحيح، لكن يحظر ذلك الرعب ودرجة
التخريب، ولست أدري أيها أفضل بالنسبة لهذين المقترفين: تقديم
وصف مفصل للشرور التي اقترفاها أم حذفها، أو بالحري هل يؤذيها
القيام بكتمان بعض الأمثلة من شرورهما.

سنة ست وستين وألف

وكان غيوفري الملتحي عسكرياً نشطاً، وقد تحالف مع رجال مين، وتمكن بمساعدة من الياس أوف لي —فلش Fleche من استرداد لامانس، التي تملكها وليم ملك انكلترا، وبدأ فولك المخادع يقاتل ضد أخيه غيوفري، وبذلك ألقى البلاد في لجة من الفوضى، وعندها بدأ البارونات يحاربون بعضهم بعضاً وعمّ ذلك جميع أرجاء المنطقة، وكانوا يقفون الآن إلى جانب غيوفري ثم بعد ذلك إلى جانب فولك، فالخيانة هي التي راجت.

وكان في سنة ست وستين وألف لتجسيد الرب ربنا، خيانة في أنغر، فبعدها اكتمل تقريباً خراب أنجو وتورين، مخادعة ألقى فولك ريشن القبض على أخيه، واستولى على المنطقة كلها وكأنها ملك له.

وكان كونت بواتو، الذي مثله مثل أبيه حمل اسم وليم، عسكرياً بارعاً جداً، في التخطيط والتصنيع، وفي الوقت الذي كان فيه أخواه يتصارعان حسبما تقدم الوصف، هاجم منطقة سينتأونغ واستولى عليها، وحارب الياس حاكم مين ومعه بارونات فولك لصالح غيوفري وطالبوا باطلاق سراحه، وبذلوا الجهد لاختراجه من السجن بالقوة بمساعدة من فيليب الأول، ملك الفرنسيين وستيفن كونت بليوس، غير أن فولك أقام حلفاً مع ستيفن وقدم الولاء له، ثم ذهب إلى الملك الفرنسي وعقد معاهدة معه، وتخلّى له عن شاتو—لانندن.

كان فيليب الأول ملك فرنسا، ملكاً فعالاً في جزيرة فرنسا فقط، علماً بأن باريس، عاصمته قد غدت مركزاً هاماً للتعليم، وصار أبيلارد (٥) **Abelard** واحداً من أشهر أساتذة الجامعة، ولقد استخدم المؤرخ أحياناً كلمة «فرنسا» ليشير إلى هذه المنطقة.

وعندما عاد الكونت فولك من فرنسا ذهب إلى أمبوينز، حيث حلّ ضيفاً على أرنول أوف منغ — سور — لوار Meung-Sur-Loire الذي كان معهوداً إليه بقلعة الكونت في المدينة بلامقابل.

وانتزع فولك منه اقطاعه مع القلعة، ووضع حراساً حيث شاء، واحتفظ بها لنفسه، وعلى هذه الصورة طرد أرنول مع ابنه ليون من أمبوينز.

وغالباً ما كان فولك وهو يتصرف بهذه الطريقة يسوق تهم الخيانة ضد أولاده، علماً أن ذلك كان بدون حق «لأن الشراعتاد أن يمتلك هذه القوة الخاصة في تلويث البريء بين الأكثرية بجرائم الأقلية، حيث عصابة صغيرة من الرجال الجيدين غير قادرة على تلطيف جرائم الأكثرية بجعلها تشاركها في فضائلها، لكن من الذي لا يغضب عندما يرى الخير الخالص قد طعن بتهم عدد قليل من الناس الأشرار»؟.

ولأن عدداً كبيراً من الناس «بطيئين في صنع الخير، سريعين في الحديث ضد الشر، منشغلين بالتآمر، ضعفاء بالحب، أقوياء في الشقاق، متصلبين بالاحتفاظ بعداواتهم»، سأذكر هنا هؤلاء الرجال، لأن قصصهم جديرة بالحكاية، وهاكم هي:

اتخذ فولك لنفسه عدة زوجات: فقد كان هناك ابنة لانسليين أوف بيوغنسي Lancelin of Beaugency وهي التي غدت ابنتها كونتيسة بريتاني، ثم انصرفت إلى حياة الرهبنة بعد وفاة زوجها في القدس، واتخذ فولك بعد وفاة ابنة لانسليين زوجة جديدة هي ارمنغاردين Er-mengardine ابنة آرشنبود Archenbaud قوي بوربون Bourbon وهي التي أنجبت له غيوفري مارتل الثاني، الذي كان رجلاً جديراً بالاعجاب، مشهوراً بعدله، وبرعايته لكل شيء جيد، وبارعابه لجميع أعدائه.

ثم وقع الفاسق فولك في حب عميق مع أخت أموري أوف مونتفونت Montfont «التي لم يمدحها قط انسان جيد إلا لجملها»، ولأجلها طلق أم غيوفري مارتل الثاني، حيث أعلن أنها قريته قرابة تحرم الزواج، وبعد ذلك تزوجها وليم أوف جالغني Jaligny.

وما أن أصبح غيوفري مارتل في سن الرجولة، وكان شاباً شجاعاً وحكيماً، حتى رأى أن البلاد مضطربة، والبارونات في جميع أرجاء البلاد يشورون ضد أبيه، فقاومهم بدون توقف، وبحث بكل اصرار عن كيف يمكنه أن ينتقم لأبيه ولرجال أبيه، وبما أنه كان أبعد بصيرة من الجميع فقد أعاد الرجال وأبعدهم عن الأعمال الشريرة، ووجه شؤونه بشكل عقلاني، ولم يحارب بشكل لطيف ولم يكن أحقاً كثيراً في سلوكه.

وعندما سمع غيوفري الملتحي بالسماط الحسنة لابن أخيه مارتل وباستقامته كان مسروراً، واستدعاه إليه وقال له: «أنا مسرور جداً لأنك لم تتعد عن السماط الخلقية الحسنة لأجدادك، ولهذا أمنحك الأرض التي أخذها أبوك ظلماً مني، وأريدك أن تخلفني عليها»، وأطلق مارتل الثاني عمه وحرره من الأغلال والسلاسل، وسمح له بالسفر إلى حيث أراد خلال البلدات والمدن، لكن دوماً تحت الحراسة، غير أن عقل غيوفري بات مشوشاً في السجن، وزالت قدرته على التفكير العقلاني إلى حد كبير، ولم يعيش طويلاً بعد هذا.

عقد في سنة ١٠٩٥ مؤتمر كليرمونت بناء على دعوة من البابا أوربان الثاني، وهناك جرى التبشير بالحملة الصليبية الأولى.

وأعطى مارتل الثاني أخته اليزابث، التي ولدت من زواج أمه بوليم أوف جالغني، زوجة لهيوج أوف شومنت Chaumont وأعطى مع يدها جميع أمبويز، وخطب مارتل لنفسه الابنة الوحيدة للكونت الياس صاحب مين، مع أنها لم تكن في سن الزواج، وسلم لامانس مع كل

مايتعلق بها.

وكان مارتل قد دخل في صراع مع الملك وليم روفوس، ونهب وألقى النار في كثير من البلدات في نورماندي، وفي الوقت نفسه تلكأ الملك في انكلترا، وكان الكونت روبرت، أخو الملك، باقياً مع الجيش في القدس بصحبة كثير من الحجاج، ذلك أن الملك روفوس احتفظ بنورماندي وصاية.

سنة ست ومائة وألف

في سنة ست ومائة وألف لتجسيد ربنا، ظهر لمدة أربعين يوماً مذنباً كان يزداد حجماً كل مساء، وقد ملأ الدنيا بالدهشة، وكان يرسل بأشعته المضيئة والكبيرة ضد الشعاع الخافت لغياب الشمس، وبدأ في أول ظهوره أكثر نارية، ثم أصبح أقل وضوحاً، وأخذ يحترق رويداً رويداً حتى أنه اختفى بعد يوم الأربعين كلية، أو هكذا قالوا.

وفي يوم القديس ميكائيل، أي في ٢٩ أيلول، تم أسر روبرت من قبل أخيه الملك هنري الأول، وتزوج وليم كليتو Clito من ابنة فولك كونت أنجو، غير أنها افترقا فيما بعد بسبب القرابة، وتزوج من أخت زوجة الملك الفرنسي لويس السادس، وحصل بهذا الزواج على فلاندرز، غير أن يده خرقت بطعنة رمح، ولهذا لم يعيش وليم إثر هذا وقتاً طويلاً.

سنة سبع ومائة وألف

قتل في السنة التالية مارتل في كمين قرب قلعة كاندي Cande يفترض أنه نصب بتفاهم مع أبيه، وخالته زوجة أبيه، ويبدو لي أمراً لا يصدق أن يقدم أب لمثل هذا الولد على الموافقة على قتله، خاصة عندما بات رجلاً مسناً، وعندما وضح أن ابنه —إذا مامنع عمراً أطول— سوف يسترد له كل الذي خسره، لأن مارتل كان ينازل كل من الملك الفرنسي من أجل شاتو—لاندن، ووليم أوف بواتو من أجل سيتاونغ، وكان مارتل قد بنى بدون خوف بلدين قرب بواتو، واحدة عند مدخل البلدة، والثانية قرب القاعة.

وجاء الفاسق الملك فيليب إلى تور، وبعدما تحادث مع زوجة فولك قرر أن يجعلها ملكته، وهجرت هذه المرأة الشريرة زوجها في الليلة التالية وتبعت الملك، الذي مركز فرسانه عند مندري Mindray قرب جسر هناك فوق نهر البوفرون Beuvron واقتادها إلى أورلين Or- leans وهكذا ملأ الملك الشبق بيته بجرائم زواج اقترفت تحت عقوبة الحرمان، وحصل على ولدين من هذه المرأة هما: فيليب وفلورس Florus.

ومع أنني وجدت هذه الأشياء قد كتبت في مجلدات مخفية، لم أشعر بالانزعاج لاختفائها، لصالح سمعة موالينا كونتات أنجو، وصنفت كتابة ماتصورت أنه أفعالهم، مع هذه الأشياء التي صممت بمثابة تعليقات لخلفائهم، داعياً الرب أن يكون عملنا معيناً للجيل الحالي عندما يقلدون أجدادهم العظام.

سنة تسع ومائة وألف

صحيح أن «الأب سوف لن يحمل آثام الابن ولا الابن إثم الأب»، هكذا كان بعد وفاة فولك ريشن، فقد تخلّى ابنه فولك الخامس، كونت أنجو عن مسالك أمه وأبيه، واتبع حياة شريفة، حيث حكم بلاده بعقلانية، وتباحث مع الياس، كونت مين، بغية الزواج من ابنته الوحيدة، وقصد مارتل الزواج من الفتاة، وكان سيحصل مع يدها على بلاد مين، وبهذه الطريقة جرى الاعتراف باتحاد مين وأنجو.

وكان فولك الخامس رجلاً مستقيماً ونشيطاً، ومؤمناً محافظاً، وعطوفاً خيراً نحو رجال الرب، وبعدما تسلم الكونتيتين رفع رفاقه إلى الأعلى، وحطّ من شأن الأشرار، وباختصار لقد حصل على سمعة مجيدة ورائعة، وأصبح الأول على الجميع، ومنح هيوغ أوف شومونت Chaumont جميع أمبوايز، وذلك بعدما قدم إليه الولاء، وقد قلّد بذلك مافعله أخاه مارتل الثاني، وأعاد مونت رتشارد التي استولى عليها أجداده بشكل غير عادل.

وحاصر فولك بروي Preuilly لكنه لم يأخذها، ومع أنه استولى على ايشيفارد Eschivard وهي قلعة كانت تحت حكم اللورد نفسه، قام بعقد سلام معه فيما بعد، واشترى مونتبازون من جون الذي كان صاحب تلك البلدة، لكن عندما شق جون هذا طريقه بالقوة عائداً إلى ذلك المكان بعدما قبل قسماً من المال، أقدم فولك بكل شجاعة على حصارها، وأجبره على إعادتها له، وبتسليمه المتبقي من المال استولى فولك أيضاً على القلعة، وأغلق مونترويل —بلي Montreuil-Bellay لكنه ما إن استولى عليها، ووضع حراسه في القلعة حتى تحرك رحمة فأعاد البقية إلى صاحب القلعة.

وحارب هنري الأول، ملك الانكليز، مراراً عديدة لأنه كره الرجل، ولأن هنري خلق باعطائه المال إلى بارونات أنجوميين، مراراً ، كثيراً من الاضطراب بينهم، وسبب أذى عظيماً لفولك.

وكان الملك وليم الذي استولى على انكلترا قد وزع بلاده بين أولاده الثلاثة: فقد أعطى انكلترا إلى وليم روفوس، ونورماندي إلى روبرت، وميراث الأم إلى هنري، وعندما مات روفوس استحوذ هنري على تاج انكلترا، بينما كان أخوه روبرت معوقاً في القدس، وبعدما عاد روبرت من القدس رزق بولد من زوجته دعي وليم كليتو.

وكان لهنري الأول ولداً اسمه وليم، وهو الذي تزوج ابنة فولك الخامس، وتسلم معها كونتية مين، وبعدما قدم وليم الولاء لفولك، تسلم أيضاً نورماندي من لويس السادس ملك فرنسا، وفي صيف عامه السابع عشر، كان عائداً إلى انكلترا فغرق بالبحر ومعه كثير من النبلاء الذين لم تسترد أجسادهم أبداً.

كان لفقدان الملك هنري لولده وليم في ١١٢٠ نتائج خطيرة، لأن وريثه الشرعي الذي بقي ليخلفه هو ابنته ماتيلدا.

سنة عشر ومائة وألف

في سنة عشر ومائة وألف لتجسيد ربنا، رزق فولك الخامس ولداً من زوجته ابنة كونت الياس، وقد سماه غيوفري، ونشأ الطفل وصار عسكرياً متميزاً، وقد تزوج ماتيلدا، ابنة هنري الأول ملك انكلترا، وأرملة هنري الخامس امبراطور ألمانيا، ورزق فولك من الزوجة نفسها بولد آخر دعاه الياس.

سنة ثمان وعشرين ومائة وألف

وبينما كان فولك يحكم أنجوتورين وكونتية مين بازدهار، أرسل الملك بلدوين الثاني، ملك القدس، رسلاً توجب عليهم التشاور مع رجال عقلاء، ثم اقناع رجل مناسب بالزواج من ابنته وقبول مملكة القدس، ووقع اختيار الأساقفة، مع عدد من أعيان الناس، على فولك الخامس صاحب أنجو، الذي كان قد فقد زوجته.

سنة تسع وعشرين ومائة وألف

وعبر فولك البحر مع قوة كبيرة، واستكمل الزواج من ابنة الملك، وأصبح ملك القدس في ١١٢٩.

سنة إحدى وثلاثين ومائة وألف

وبعد وفاة الملك بلدوين، حكم فولك المملكة برجولة (٦١)، وجعل سكان دمشق وعسقلان يدفعون الجزية، وكان قبل وقت طويل قد تزوج ريموند أخو كونت بواتو من ابنة بوهيموند صاحب أنطاكية، ودعم فولك إمارة أنطاكية ضد الترك، بوساطة جهود كبيرة، ودون أن يخسر شيئاً، وأنجبت له زوجته ولدين هما: بلدوين وعموري، وعمّر هو إلى سن كبيرة، وتوفي وهو ما يزال قادراً على القتال، واتخذ أهل القدس بعد وفاته

ابنه بلدوين ملكاً خليفة له.

وفيما كان غيوفري بن فولك الخامس ملك القدس، يحكم مناطقه الأنجيوية بهدوء، قام أخوه الياس بمهاجمته مراراً، وذلك بعد تحريضه من قبل بعض الرجال الأشرار، وطالب بكونتية مين، وأسر غيوفري، وأبقاه مسجوناً لوقت طويل في تور، ثم بعدما أطلق سراح هذا الرجل الشاب، توفي من مرض خطير أصابه عندما كان بالسجن.

دوماً يصبح الأخوة الأقوياء غير متحدين، بسبب كثير من الجشع، ويرفضون إدارة ممتلكاتهم بشكل جماعي، وعندما يختصمون بين بعضهم بعضاً، وعندما تصطدم قواتهم يهلكون، لكن غيوفري كان رجلاً جديراً بالاعجاب، كرّس نفسه للأعمال العسكرية، وكان بالوقت نفسه عالي الثقافة، فصيحاً جداً بين رجال الدين والعلمانيين، ومع أنه عانى كثيراً على أيدي رجاله، كان يتمتع بشعبية كبيرة لدى الجميع لأنه أنجز أعمال الحصول على نورماندي.

وأعتقد أنه يكفي الآن ما قيل عن أفاعيل وأعمال كونتات أنجو، وإذا بدا لكم أن هناك المزيد إلى جانب ما قلناه (وأعتقد أن هناك الكثير) عندها اسألوا من يعرفهم أحسن.

القسم الثاني

غيوفري بلانتغنت

١١٢٨-١١٥٤

تزوج في سنة ١١٢٨ غيوفري الجميل من ماتيلدا الامبراطورة المتكبرة، وكان قد لُقّب بلانتغنت لأنه وضع قشة مكنسة في قبعته (غنت=مكنسة)، وكان سيصبح بعد قليل كونت أنجو، أما ماتيلدا فكانت ابنة هنري الأول ووريثته المسماة، وكان هنري الأول ملكا لانكلترا ودوقاً لنورماندي، وعندما توفي هنري في سنة ١١٣٥، استولى ابن اخته ستيفن أوف بليوس على المملكة الانكليزية، وتحارب بيتا أنجو وبليوس خلال التسع عشرة سنة المقبلة من أجل السيطرة على انكلترا ونورماندي، وزكزت ماتيلدا جهودها على المملكة، وركز الكونت غيوفري جهوده على الدوقية، وقد أصبح دوق نورماندي في سنة ١١٤٤، وفي سنة ١١٥٣ أجبر الملك ستيفن على القبول بالاعتراف بهنري ابن غيوفري وماتيلدا، ولياً لعهد ووريثاً له في حكم انكلترا. ويبدأ القسم الثاني بترجمة غيوفري بلانتغنت، العالية الاطراء والتي كانت في يوم من الأيام منمقة جداً، وكتبت هذه الترجمة في حوالي سنة ١١٧٠ من قبل جون أوف مارموتير، وهي مليئة بصور للفروسية، وبأفاعيل جريئة، وكانت الغاية منها ارضاء هنري الثاني ابن غيوفري، وأظهر بالمقابل هنري رئيس شامسة هتتغدون بالمقارنة قليلاً من التصورات والمواقف السياسية المسبقة، في كتابه «تاريخ الانكليز»، وقد اكتمل سنة ١١٥٤، ووصف في كتابه هذا بشكل حي سمات ستيفن

الحسنة وكذلك السيئة، وبذلك أعاد حكمه إلى الحياة.

من المعروف بشكل جيد لكل انسان أن العرق الأنجيفي قد ازدهر في ظل حكام ذوي معنويات عالية ويحبون الحرب، وقد حكموا الشعب المحيط بهم بالرعب، ولاخلاف حول حقيقة أنهم تولوا جميع أعمال التدمير التي أمكنهم القيام بها والتي عانى منها جيرانهم، وبذلك أخضعوا البلدان التي من حولهم، وبالنسبة لحكام أنجوالذين رأوا أن حكم أنجولا يكفيهم، اعتمدوا وسيلة الحرب للحصول على مناطق تور، وذلك عندما لحقت الهزيمة بأودو صاحب شامبين على يدي الناجح فولك، الذي لقبه «نيرا»، وفي معركة بري Braye هزم الكونت ثيوبولد بن أودو هزيمة ماحقة، وأخذ أسيراً بموجب شريعة الحرب، فمن هذه الجبل الرائعة من الأمراء جاء غيوفري، الابن الواسع الشهرة لفولك، ملك القدس.

وفي الحقيقة امتلك غيوفري كل سمات الشهرة (٧)، وكان جديراً بالمدح والثناء، فكجندى حصل على أعظم الألقاب، واستفاد مثل ذلك من حظه الحسن، ومما بذله من جهود، وقد أوقف نفسه على الدفاع عن الجماعة ومساعدة الفنون الحرة ورعايتها، وبذل جهوداً كبيرة لأن يحب عن جدارة، وكان شريفاً مخلصاً لجميع أصدقائه، ولم يكن فقط عظيماً في أعين العالم على اتساعه، بل كان موضع ثقة أكثر من البقية، وكانت كلماته دوماً جيدة ولطيفة وفيها مداعبة، وكانت مثله موضع إعجاب وقبول، وكان متفوقاً في الجدل حول قضاياها، وامتلك معرفة جيدة حول العصور القديمة، وبما أنه كان مثقفاً، كان بإمكانه أن يتذكر تماماً ليس فقط ما حدث في موطنه بل أيضاً الحروب والأفاعيل في جميع بلدان الخارج.

ولم يكن متميزاً بشكل استثنائي ببراعته في فنون الحرب فقط، بل أعاد بعد تحديات عظيمة إمارته إلى السلام، وشعبه إلى الحياة الهادئة، وكان هذا الرجل جندياً عملاقاً، وكان، كما قلت، الأكثر براعة وذكاء في معاملاته المباشرة، وكان متعلماً بشكل استثنائي، وكريماً نحو الجميع، وطويلاً في بنيانه الجسدي، وجذاباً له شعر أحمر، فقد كان الأب لكونتيته وموضع فخارها.

وكان منحمساً حول البراعات العسكرية، شديد التدقيق في عدالته، كما أنه حبي بكل السمات الطيبة والعادات الحسنة، ولم يكن أقل شأناً في أي مجال من المجالات، من أي واحد من الأمراء العظام في أيامه، وكان محبوباً من قبل الجميع مع أنه تحمل كثيراً من المشاكل من رجاله، وحيث أنه كان ذكياً وقوي الأخلاق لم يسمح لنفسه بالفساد عن طريق الغلو أو التراخي في أيام مراهقته، بل أمضى وقته راكباً حول كونتيته، لينجز براعات رائعة، وتحدث عن نفسه قلبلاً، وكذلك عن أعماله، وكسب هذه الأعمال لنفسه محبة الجميع، وقذف بالرعب في قلوب أعدائه، وكان لطيفاً وكريماً، وامتلك نفساً رقيقة، ورحيمة نحو رعيته، وتحمل الإساءات والأذى برباطة جأش، وعندما كان يسمع بنفسه توجيه الإهانات إليه في كثير من المناطق، كان يخفي بصبر ما شعر به، وكان بشكل استثنائي أنيساً ومرحاً نحو الجميع، ولا سيما نحو الجنود، هكذا كانت محاسنه وكرمه حتى أن الذين أخضعهم بالقوة، تغلب عليهم بالرحمة حسبما أنا مقبل على روايته في الحكايات التالية

سنة ثمان وعشرين ومائة وألف

عندما أصبح غيوفري في الخامسة عشرة من عمره، أنهى بذلك

طفولته، وبات أشبه بوردة في أول تفتحها، وانتشرت أخبار واشاعات، تبرهن فيما بعد أنها صحيحة بوساطة وفرة من البراهين، تحدثت كلها عن طاقات الشاب في الطول والعرض، حتى وصلت أخبار اسمه وسمعه الشهيرة إلى مسامع الملك العظيم والمجد هنري الأول ملك انكلترا، وكان الملك على معرفة واضحة أن أجداد الشاب كانوا متميزين، وأنهم نبعوا من جيلة كريمة قديمة، وكانوا مستقيمين في عاداتهم وبارعين في فنون الحرب، وسمع أن الشاب لم يكن مستثنى من هذا، بقدر ماسمح العمر بالحديث، وقرر الملك أن يربط فيما بين ابنته الوحيدة ماتيلدا، أرملة الامبراطور هنري الخامس، وبين هذا الرجل الشاب بزواج شرعي.

وبناء عليه جرى ارسال سفراء فوق العادة ليتقدموا باسم الشاب غيوفري بطلب الموافقة من أبيه فولك الخامس، كونت أنجو، وإخباره بإرادة الملك، وكان هذا الرجل حكيما ومتيقظا في كل المسائل، ولهذا عامل المندوبين بنشريف، وعن طواعية وعدهم بالموافقة المؤكدة على المطلب الملكي، وقدم العهد وعقد الميثاق وثبت ذلك بالأيمان، مزيلاً بذلك كل آثار للشك (٨)، ووافق الكونت، بناء على تعليمات الملك، على ارسال ابنه، الذي لم يرسم فارساً بعد، أن يرسله بشكل رسمي إلى روان في أحد الشعانين المقبل، من أجل أن يرسم فارساً مع آخرين من العمر نفسه، وسط احتفال ملكي، ولم تكن هناك صعوبة في الترتيب لهذا، فالمطلب الحق حظي بالموافقة السهلة.

وهكذا، بناء على موافقة أبيه، انطلق الصهر المقبل لملك انكلترا، نحو روان مع خمسة بارونات هم: جاكولين أوف ميل، وروبرت أوف سيمبلانكي، وهارودين أوف سينت مارس، وروبرت أوف بلو، وباين أوف كليرفيل، وخمسة عشر من أبناء جيله، وذلك بصحبة كثير من الفرسان، والاشاعة دوماً سبابة، هكذا أعلنت عن وصول ابن الكونت إلى عند الملك، وفرح هنري الأول بما قيل عن وصول غيوفري، وبعث

بعضاً من أعلى النبلاء مكانة لديه بمشابة ممثلين له، وليصطحبوا الرجل الشاب إلى الحضرة الملكية بالحفاوة اللائقة والرعاية، ودخل غيوفري إلى القاعة الملكية محاطاً برجالهم ورجال الملك، مع حشد من الناس العاديين واقفين من حولهم، أما الملك الذي اعتاد ألا يقف لأحد، فقد نهض وذهب لاستقباله وأمسكه بحنان وعانقه بعاطفة، وأعطاه قبلة صغيرة، وكأنه كان ابنه، ثم أمسك غيوفري بيده وأصرّ عليه أن يجلس إلى جانبه، وتحدث الملك حول مختلف الموضوعات مع الرجل الشاب وطرح عليه عدداً من المشاكل، ليكتشف كم هي حكيمة ردات فعله أثناء الحديث الخاص، وأجاب غيوفري بإحكام، لكن كما هي عادة العقلاء زين كلماته ببلاغة معروفة إلى قلة، أما الملك الذي ازداد عمق إعجابه به لحظة تلو الأخرى، فقد سرسوراً عظيماً بحكمة الشاب وبأجوبته، وهكذا مضى اليوم كله بسرور وانسراح.

ومع اقتراب حلول اليوم التالي، استعد غيوفري للحمام الطقوسي، حسبما تطلبت العادة من الرجل الشاب الذي كان على وشك أن يصبح فارساً، وعندما علم الملك من حجابيه بأن الأنجيافي والذين جاءوا معه خرجوا من الاغتسال، استدعاهم إلى حضرتهم، وبعدما طهر الشاب جسده، جرى لف هذا النبيل المنحدر من كونت أنجوبفطع من الكتان الصفيق، ثم وضع عليه ثوباً طقوسياً حيك بالذهب، وارندى فوقه رداء صبغ باللون القرمزي المستخرج من محار المريق، وارندى زوجاً من الأحذية طرزا بأشكال أشبال، أما رفاقه، الذين كان من المتوقع تلقيهم منحة الفروسية، فقد ارتدوا مثله الكتان والقرمز، وتزينوا بشكل بهي حسبما وصفت، وخرج الصهر المستقبلي لملك انكلترا من الغرفة السرية إلى أمام الناس، وكان محاطاً بجمع النبلاء من بلاده، مشرقاً مثل زهرة اللوتس، ومغطى بالأحمر مثل وردة.

وأخرجت الخيول، وجلبت الأسلحة، ووزعت على كل واحد حسبما

هو لائق، وجلب إلى الأنجيفي حصان اسباني، رائع المنظر والزينة، ومشهوراً أنه يسبق كثيراً من الطيور عندما يعدو، ثم وضع عليه درعاً لانظيره، بطانته مزدوجة، لا يمكن خرقه لا برمح ولا بحربة، ولبس زوجاً من الأحذية الحديدية المدعمة بتسميكتين من الزرد المقوى، وربط على قدميه مهمازين من الذهب، وحمل ترساً مغطى بصور أسود ذهبية، ودلاه من على رقبته، ووضع على رأسه خوذة مرصعة بكثير من الأحجار الكريمة، وكانت عالية الجودة بحيث لا يمكن تحطيمها بحد السيف، وأحضر إليه رمح طويل من خشب الدردار وله سنان فولاذي، وآخر شيء حمل له سيف من الخزانة الملكية، وكان محفوظاً بها منذ زمن بعيد عندما صنع بعناية من قبل المعلم ويلاند Weyland.

وبعدما تسلح هكذا، انطلق إلى الأمام جندينا الشاب الذي كان زهرة الفروسية، واندفع مسرعاً بشكل متوازن، وبهي في عدوه، ثم ماذا يمكن أن يقال أكثر؟ وكرس ذلك اليوم لمجد وشرف الحملة الأولى، وأوقف كلية على ممارسة الألعاب العسكرية، ولبلوغ المجد الجسدي، ولمدة لا تقل عن سبعة أيام استمرت احتفالات الحملة الأولى الرائعة للفروسية في البلاط.

ومرة أخرى، جرى إرسال الرسل إلى فولك الخامس أوف أنجو، لإعلامه هذه المرة بوجوب ذهابه إلى لامانس، وأن يكون هناك بعد مضي ثمانية أيام من أحد الشعانين، للاحتفال بزواج ابنه بشكل لائق، ولم يتأخر فولك، بل وافق مسروراً، ووصل حسبما أمر بأبهة عظيمة، وكان موجوداً باليوم المحدد والمكان المقرر.

وانطلق الملك هنري الأول، ملك انكلترا من روان ومعه ابن فولك وابنته الامبراطورة (لأنها كانت زوجة الامبراطور) ووصل أيضاً إلى لامانس في اليوم المحدد، وتقاطر الناس من جميع الجهات وتجمعوا لشهود قداس الزفاف، الذي سيتولى عقده رؤساء أساقفة، وأساقفة، ورعاة ديرة وكهنة من جميع المراتب.

وهكذا أعطيت ابنة الملك برباط الزواج إلى ابن كونت أنجو، وحصل الأساقفة على موافقة الزوجين المتبادلة على الزواج، لأن كل قوة الزواج وفعاليته موجودة في الموافقة، وفي الحقيقة الموافقة هي التي تصنع الزواج، ووافق الاثنان، ووعد كل منهما بالاخلاص للآخر، الذي كانوا على وشك زفه، واحتفل بعد ذلك بقداسات مباركة لزواجهما.

وكان هناك سرور وسط رجال الدين، ورقص من قبل الناس، وصرخات شكر من قبل الجميع بلا استثناء، سواء منهم: الأجانب أو المحليين، والأغنياء أو الوسط أو الفقراء، النبلاء أو العامة، والجنود أو الفلاحين، لقد انغمروا جميعاً في سرور عام، وكل من لم يهتم بالاحتفال ويشارك به، بلا شك نظر إليه على أنه خائن، وأمضى الرجال والنساء الاحتفال بالزواج في تناول مختلف أنواع الأطعمة، واستمر الاحتفال بالزواج لمدة ثلاثة أسابيع بلا انقطاع، وعندما انتهى لم يغادر أحد من الحضور بدون هدية.

ثم ترك هنري الأول صهره وابنته وودعهما بقبلة سلام، وحول انتباهه نحو مسائل أخرى، وعاد الكونت فولك مع الزوجين إلى أنغر، وعندما كانوا مايزالون على بعض المسافة منها، سارعت المدينة بأسرها للاستعداد لاستقبالهم، وضدّرت التعليقات بالزينة، وزينت جدران الكنائس بالتعليق والأغطية، وخرج رجال الدين في موكب ولاء لاستقبالهم، وهم يرتدون الألبسة الكهنوتية والشارات الطقوسية وبأيديهم الشموع، والكتب، والصلبان، ويغنون التراتيل وأناشيد الحمد، واستقبل السيد الجديد والسيدة من قبل الكهنة والشعب برقصات مهيبة، وعاشا بعد ذلك بهناء، وشرفاً جزيرة بريطانيا العظمى والأجزاء البحرية الأخرى بإنتاج وريث رائع [هنري الثاني المستقبلي].

ومنذ أن ارتقى والد غيوفري إلى مملكة القدس حسبما وصفت من قبل، أوقف الكونت الشاب وقته على إجادة استخدام السلاح، والنضال

في سبيل المجد، وقبل مضي وقت طويل جرى تسمية أحد الأيام م أجل مباريات مبارزة بين النورمان والبريتانيين فوق ربوة رملية مناسبة، وجاء إلى مساعدة النورمان ووقف إلى جانبهم: وليم كليتو كونت فلاندرز، وثيوبولد كونت بليوس مع أخيه ستيفن لورد مورتين، الذي سيكون الملك المستقبلي لانكلترا، وكان هؤلاء الثلاثة أبناء أخت هنري الأول ملك انكلترا، وقابلهم الكونت وزاد تعدادهم، واصطف الطرفان المتنازLAN، ووقف هناك صف البريتانيين، خفيف التسليح، سريع الانتباه، لكن قليل بالعدد.

وعندما رأى غيوفري أن تعداد القوات البريتانية التي تجمعت كان قليلاً، انفصل عن الحشد الكبير وقدم خدماته للبريتانيين، واحتشدت القوات واشتبكت الصفوف بالقتال، وكان هناك قراع كبير بالسلاح، وزعقت البوقات، وترددت أصوات النفير بنغمات كثيرة في حين زجرت خيولهم بأصوات مختلفة.

ولم مونت سينت مايكل نفسه بأشعة الشمس التي عكستها ترستهم الذهبية، وكان الرجال كأنهم رجل واحد في المبارزة، وتكسرت رماحهم وتحطمت سيوفهم، وانرضت الأقدام بالأقدام، وانكدمت الأكتاف بالأكتاف، وفرغت ظهور المطايا من شاغليها وألقى بالخيالة أرضاً، وأما الخيول التي رمت بركابها، وقطعت مقاودها، فقد جرت على غير هداية وهي تصهل، وسيطر الرعب على المتصارعين بشكل واضح، وطلب غيوفري خصومه وقاتلهم، وكان يركض إلى الأمام وإلى الخلف، يرمي بالحراB ويلوح بالسيف، وقد حرم أعداداً كبيرة من حياتهم، واستمر البريتانيون يضغطون وكلهم أمل بالنصر، وكان الكونت يشق لهم الطريق ويقودهم، وقد أوقعوا كثيراً من القتلى في صفوف عدوهم، وضغط الأنجيفيون بحدة أعظم من حدة الأسد، وتقدمت صفوف البريتانيون وهي تضغط نحو الأمام، وكانت واثقة من النصر، ولحق

الإعياء بالنورمان نتيجة للصراع الكبير، فأبدوا ظهورهم وأخذوا بالفرار، وهكذا هُزمت الأكثرية من قبل الأقلية، وأرغم النورمان على اللجوء إلى معسكرهم، وهنا عندما شعروا بالهلع نتيجة الفوضى غير المتوقعة اقترحوا على البريطانيين اللجوء إلى المبارزات الفردية.

وعندما وصلت أحداث المبارزات إلى ما وراء البحر، وصل جندي سكسوني هائل البنية، وقد منحت قوته وجراته النورمان الاطمئنان بنيل النصر، وتقدم هذا الجندي من المعسكر النورماني، وكان أطول من أي إنسان آخر بشكل واضح جداً، واتخذ لنفسه موقفاً في مكان واضح، وتحدى صفوف البريطانيين في أن يتجرأوا على تسمية رجل يستطيع أن يلاقيه في مبارزة فردية، وامتنعت وجوه الذين أصغوا إليه وعلاها الاصفرار، وتلاشت القوة واختفت من صدور الرجال الشجعان، وخافوا على الإنسان الذي سيخرج لمبارزة مثل هذا الوحش الهائل.

وراقب غيوفري هؤلاء الرجال الشجعان، وقد تحولوا إلى ضعفاء يصرخون بالويل والثبور عندما كانوا يدعون شخصياً إلى المبارزة، وهنا صرخ بشكل مخيف، ورفض تحمل مثل هذا العذاب والاهانة والتحديات التي كانت تأتي متوالية، فامتطى فرسه، وحمل سلاحه، ومضى نحو النزال أمام الحشد الذي وقف يراقب ما يجري من جميع الجوانب، لقد توجه ليمارز ذلك الجندي العملاق، وكان القتال قاسياً، فقد حمل ذلك الإنسان، الذي فاقت قواه قوى الإنسان العادي، رماً أسطوانته مثل جذع شجرة، وعندما كان يقاتل الشاب الأنجيفي خرق ترس الكونت مع لأمته، لكن دون اراقة كثير من الدماء، غير أن بطلنا ظل ثابتاً لم يتزلزل، وكأنه متجذر على ظهر فرسه، وقام برمي خصمه بحربة فصرعه، ومن ثم وقف فوق جثة عدوه فقطع رأسه بسيفه، واقتاد فرس الرجل المهزوم بيده المنتصرة، وباستحواذه لغنيمة حربه هذه، جلب العار إلى النورمان والفخار إلى رجاله، وطار خبر نصره وانتشر في كل مكان، ومن

عادة النبلاء الأشرار أن يغاروا من الرجال المستقيمين، ولهذا قالوا: صحيح أن غيوفري هو صهر الملك، غير أنه لا يشعر بالأمان إلا بين رجاله حيث لا يخشى من الوقوع بالأسر، ولهذا السبب نجد أن الفارس الأصيل والممثل الحقيقي للفروسية طلب الحصول على حلاوة الشهرة، وكان تواقاً للرياضة، لذلك نشد المبارزات في فلاندرز، وناضل في سبيل الحصول على فرص يحقق فيها أعمالاً عظيمة، فقد كان يرغب بالمديح وكان يستحق ذلك.

وكان غيوفري يتمتع بالصيد عندما كان الوقت يسمح له، وكانت هذه الممارسة مفيدة ومتوفرة للبعض وفيها خلاص من الاهتمامات الثقيلة، وتعيد الانسان متحرراً وكأنه ولد من جديد، وهو —فضلاً عن ذلك— مستعد للقيام بالواجب، وكان الصيادون يدخلون إلى الأحراش، ويطلقون كلابهم الذكية حسبما جرت العادات، وكانت الكلاب تتبع أثر الحيوانات بشم بقايا روائحها، وهكذا كانت تعثر عليها بسرعة من الصعب تصديقها، كما كانت تقود الكونت بواسطة عوائها.

وأسرع الكونت هذه المرة ليجتاز الممرات الملتوية والدائرية وليبقى قريباً من كلابه الملاحقة للصيد، وقد تسلق أسرع الطرق، لكن بدون حظ، لأن الحيوان الذي أمل أنه اقترب منه بوساطة كلابه، أرغم على الفرار باتجاه ما، وفي هذا الوقت مع أنه اعتقد أنه ما يزال قريباً من مرافقيه أكثر منه من كلابه، كان في الحقيقة بعيداً عنهم كثيراً، وكان تاه اليوم كله وأمضاه بحثاً، فلم يعثر لا على رفاقه ولا على كلابه، ولم يرههم في أي مكان، وأخيراً، والشمس قاربت على المغيب رأى عن بعد فلاحاً وسط بقعة غير مزروعة، وكان الرجل مغطى بالسخام، وارتدى ثياباً سوداء غطت جسده حتى حقويه، وكانت حرفته ظاهرة مما ارتداه، وكان يشقى في صنع الفحم للصناع، ولهذا السبب كان وجهه وكانت ثيابه كاسبة لهذا اللون.

وعندما رآه غيوفري لم يزدريه بحكم كونه رجلاً ثرياً، وله مكانة عالية، بل تصرف تصرف رجل عارف، رجل يعاني من الوحدة، وهكذا ندب سوء الحظ، متذكراً ما قاله ذلك الرجل القديم: «بعرق جبينك تأكل خبزك».

وحياه غيوفري بكلّ لطف، وسأله: «هل يمكنك أيها الرجل الطيب اخباري عما إذا كنت تعرف الطريق الذي يقود إلى القلعة في لوشي»؟. ورد عليه الرجل: «لو أنني لأعرف، لما كان بإمكانني أخذ فحمي إلى هناك دوماً لبيعه».

وقال الكونت: «بناء عليه، خذني أيها الصديق العزيز معك في طريقك إلى الطريق الرئيسي، قبل أن أضيع تماماً في هذا المكان المنعزل وسط الأحرار».

وأجابه الفلاح بقوله: «أنت يامن تمتطي حصاناً لاتعاني من مشكلة اطعام نفسك، وكساء جسدك، لكن إذا توقفت أنا عن العمل سأموت وستموت أسرتي معي».

فأجابه قائلاً: «أرجوك تعال بدون تأخير، وخذني إلى حيث سألت، ذلك أنني سوف أدفع لك ثمن رحلتك».

ثم نظر الرجل إليه بشيء من الريبة، وتمتم قائلاً: «لا أدري أيّ قدر سماوي حل بي»، ثم انحنى وقال: «إنني لن أخاف مما سيحل بي، ولسوف أذهب معك، إلى حيث تأمر».

وعانقه الكونت بسرور، وطلب منه أن يركب خلفه فيكون رديفه على حصانه، وتولى الفلاح بكلّ سرور وضع الكونت على الطريق الذي كان يبحث عنه، ولم يستغرق ذلك وقتاً طويلاً، وكان طوال الطريق يتأمل تواضع هذا الرجل النحيل، ووداعته الرائعة.

لكن تبع ذلك أشياء أخرى:

فقد افتتح الكونت حواراً لطيفاً مع الفلاح، وكان بين ماسأله عنه: «ما الذي يقوله الناس عن كونتنا؟ أخبرني أيها الصديق الطيب، وكيف يرون النبلاء ويقوموهم، وماهي مواقف الرأي العام؟».

وأجابه الرجل الآخر قائلاً: «فيما يتعلق بالكونت، والأشياء التي وقعت في حضوره، لائق، ولا نشعر بأي سوء نحوه، لكن ياسيدي مانعاني منه هو عدد من الأعداء الذين هوليس على دراية بهم، والأشد سوءاً بينهم، هم الأكثر خفاء وسرية، لأنه ما من عدو من الصعب الاحتراز منه، وهو جاهز للايذاء، مثل العدو الداخلي، ومثل هؤلاء نحن لانتجراً على مقاومتهم».

وقال الكونت: «لكن هل من الممكن لمولانا الكونت التغلب على آرائهم، أو التخلص منهم؟».

وأجابه الرجل: «يمكنه أن يفعل العملين، يمكنه فعل ذلك ياسيدي إذا لم تنفذ هذه الأفاعيل الشريرة تحت ستار تقديم الطاعة له».

فقال له الكونت: «أخبرني بعناية أكبر حول هؤلاء الأعداء، وأوضح لي أفاعيلهم الشريرة، فلعلني حينما يحين الوقت، لن أكون صامتاً أمام الكونت». فأجابه:

«ياسيدي إن الذين يتولون ظلمنا هم الكتاب والحجاب والعاملين الآخرين لدى مولانا الكونت، فكلما جاء إلى إحدى قلاعهم، يستولي عماله على كثير من البضائع على أساس السلفة أو الدفع فيما بعد، ويأخذون كل ما يجدونه بدون سؤال أو تسعير، ويظلّ الباعة صامتين، ويغادر الكونت، فيطالب أصحاب الديون بالدفع، وهنا ياسيدي من المؤلم أن أذكر، أنهم إما ينكرون كلية حصولهم على أي شيء أو يسوّفون ويؤجلون الدفع حتى يقبل أصحاب الديون بكل سرور بنصف ما لهم من مال».

ثم قال بطلنا وهو يتسم للفلاح، ولكن وهو أيضاً يخفي الغضب الذي كان لا يمكنه منع نفسه من الشعور به وأنه غذي بشكل وحشي إلى هذه الدرجة: «لكنهم يمتلكون أراضي خصبة لاشيء هؤلاء الرجال الذين اغتصبوا ما هو حق للكونت، وجعلوه يعيش دون أن يدري على السحت، ثم أضاف يقول: سلام، سلام، لكن لسلام حيث الأرض عيث بها إلى هذه الدرجة من السوء من قبل الأعداء الداخليين».

وأخبره الفلاح: «لكنك ياسيدي لم تسمع كل شيء بعد»!

وقال غيوفري: «أنا سوف أستمع بسرور إلى كل شيء، اشرح كل شيء بعناية ولطف وعدل، لأنني أحب الكونت، ومن المفترض على أساس صداقتي له، سوف أخبره بكل تأكيد بما يفعلونه».

وتابع الفلاح يقول: «لعله بفضل ارادة الرب أن حدث ولقيتك لأسمعك اليوم ما لا يمكنني شخصياً أن أخبر به الكونت، وهذا لن يخفي عن الكونت بوساطتك، ولهذا استمع ياسيدي، لكن ليس لما هو أسوأ:

بعد جمع المحاصيل، ينطلق وكلاء الكونت إلى القرى، وبالنسبة للقانون الجديد نجدهم يفرضون على كل فلاح حصة يحصلونها من محصوله بكلّ عنف، ثم —ومرعب أن نروي— يطلب هؤلاء الرجال جزئاً من ستة عشر من المحصول، أو يطلبون من أحدهم جزئين من ستة عشر، أو من بعضهم أكثر إذا ما استطاعوا التحصيل، وإذا ما صدف واعترض أحد الناس على هذه الفريضة، يجر إلى المحاكمة، ويعذب من قبل أتباع الوكلاء ويحاكم، ويتهم بجرائم مزيفة، وهكذا مامن أحد ينجو من الأيدي الجشعة للقضاة الأشرار، حتى يفلس، ويأسف أن جهوده لم تصمد أمام هؤلاء الذين يحفظون القانون».

وفكر الكونت وردد في قرارة نفسه: «يلحق الشر بالذي أوجد مثل هذه القوانين»، ثم رفع صوته وهو يقول: «الانتقام هو عملي، وسأنزل

العقاب هؤلاء قبل مضي وقت طويل»، ثم تابع يقول:
«أخبرني المزيد، ولاتبق شيئاً لديك، ماذا لديك أيضاً لتسمعي عن
هؤلاء الرجال المشهورين؟، وهل يعلم الكونت بهذه الأعمال الشريرة؟».

وأجابه الفلاح: «إنه لأمر مدهش كيف أنهم استطاعوا ياسيدي اخفاء
هذه الأعمال عن مولانا الكونت، مع أنهم يفعلونها بحضور الجميع، ما لم
تكن العادة الرائجة أن يكون السادة آخرون يعلم بها يجري في بيوتهم،
وسأضيف حدثاً آخر لما تحدثت عنه، ثم سأوقف حكايتي، ما لم أكن
أسبب أذى إلى مسامعك اللطيفة؟».

وقد قال ذلك بنبرة اعتذار ريفية.

ورد عليه غيوفري قائلاً:

«قل ولا تخف أبداً، فما من أحد يتكلم ببيان أوضح ممن يتحدث
بالصدق، ويروي الحقيقة».

وتابع الفلاح حديثه قائلاً:

«عندما تسمع بعض النذر باقتراب وقوع حرب، سواء أكان ذلك
صحيحاً أو مخترعاً من قبلهم، يرسل هؤلاء الوكلاء وقتها رجالهم للقيام
ببذل جهود عظيمة في نشر الاشاعة، ويقومون بوساطة الاعلانات والأوامر
العامة التي يذيعها المنادون بحشد الفلاحين من جميع الأجزاء لملا القلاع
بهم، بحجة تأدية واجب الحراسة، وبذلك يتركون الأرياف مهجورة، ثم
يقوم أتباعهم فيبعثون بشكل سري فيستدعون بعض الأفراد، ويظهرون
لهم أسفهم لما لحقهم من خسارة، وكأنهم لا يريدون سوى مواساتهم
دوماً، ثم يشجعون الفلاح للقيام بشراء أذن بالعودة من الوكلاء عن
طريق عرض بعض الهدايا وتقديمتها بشكل سري، ويعرضون ذلك وكأنه
نصيحة جيدة، وكان بالنسبة لكل رجل سمح له بالعودة عدد آخر، من

الفلاحين التعساء، المثقلين بالديون ولا يملكون سوى دريهمات فيقرضونها لآخرين وبذلك يرغمون على البقاء بالقلاع، هؤلاء هم يا سيدي الذين تتأثر الأرياف بهم بكل مرارة، والذي يشقى في السلم مثله في سوء الحظ مثل الذي يموت في الحرب» وأكمل الفلاح حديثه وقال كل هذا عندما أخذوا يدخلون إلى البلدة.

وينبغي عدم تجاوز الاشاعات التعيسة التي ازدادت أثناء غياب الكونت، ففي بلاطه سأل كل انسان الآخر عن غياب غيوفري، وأين يمكن أن يكون، ومامن واحد أجاب بأخبار طيبة، ومع حلول الظلام تعاظمت أحزانهم كثيراً، وتوقف الجميع عن الحركة بأعين مرعوبة محدقة بالطريق التي اعتاد أن يعود عبرها من الغابة، وفجأة وصل الشخص الذي طال انتظاره، وقام بسرور بتقديم التحية لأول رجل التقاه، حسبما كانت عادته، ولدى ملاحظة ذلك الرجل صوت الكونت لم يستطع اجابة تحيته لسروره، ولأنه ركض أمامه وهو يصرخ بكل ما أوتيته من قوة بأن الكونت قد عاد، وكان يشير إليه.

ثم لاحظ الفلاح وعرف الشخصية التي كان يقودها ويتحدث معها، فاقننح أنه لم يعد بإمكانه البقاء رديفاً للكونت، وهكذا حاول فجأة أن يقفز نحو الأرض، وأدرك الكونت ما يجري وتنبه له فأمسك به وهو يحاول النزول، وقال وهو يتسسم:

«هل يتوجب عليّ هكذا العمل للتخلص من الدليل الذي تمكنت بمساعدته من العودة إلى شعبي؟ إن هذا لن يكون»، والجماهير تتدفق حوله من كل جانب، حمل الفلاح ووضع عالياً على ظهر حصان الكونت سواء أراد ذلك أم لم يردده.

وجاء وقت المائدة، وكان الفلاح قد غير ملابسه وارتدى ثياباً فخمة زوده بها الكونت، وجلس الفلاح وسط الرجال القياديين لدى الكونت،

وجرى تكريم الفلاح وتبجيله بتقديم أفخر الصحن له، لقد تناول الفلاح طعامه بأنية ذهبية، أما المغامرة التي واجهها الكونت فقد تولى روايتها الفلاح وكذلك الكونت.

وعندما عاد الكونت من القداس في اليوم التالي، أمر باحضار دليله، ونخاطبه قائلاً:

لقد حررتك وحررت ورثتك من جميع الضرائب والخدمات، وأمرت بأن تكون رجلاً حراً، حراً في كل مجال، وبناء عليه عد إلى أسرتك ومارس الحياة الهينة التي ترغب بها، وما ان أنهى خطابه حتى أمر بمرافقة الرجل إلى حيث كان يقيم.

وبات الكونت متفوقاً على الجميع لأنه جعل واجبه حماية الضعفاء، وسأعرض الآن أمامك مثلاً عن الطريقة التي عرف بها كيف يخضع الأقوياء.

وكان الكونت ثيوبولد الثاني صاحب بليوس وشامبين رجلاً مشهوراً، وكان من أغنى الفرنسيين في أيامه، وكان مستقيماً تماماً وخالياً من اللوم، وفي داخل دويلته كان وليم كونت نافار وهيو صاحب كوسني Cosne ، الذي يعرف بلقب مانسيو Manceau في خصام دائم فيما بينهما، مع أن ثيوبولد كان يدعوهما دوماً، ويعرض خلافاتهما أمام محكمته، وأخيراً قام ذلك الشرير صاحب نافار، الذي فضل أن يهزم عدوه بالقوة وليس باللجوء إلى القانون، بالفرار من بلاط ثيوبولد.

كان في تلك الأثناء لويس السادس ملك فرنسا يسعى بهدوء نحو تمتين سلطانه بتوجيه من سوكر راعي دير سانت دينس (٩).

وفي خلال الصراع الطويل والمستمر الذي تلا ذلك طلب كونت نافار

مساعدة ملك فرنسا لويس السادس مع مساعدة أسقف أوتون Autun وساق هذان الرجلان جيّشتين عظيمين وزحفا إلى جانبه، ذلك أنه أراد محقّ عدوه تماماً، وعلى هذا الأساس حشد الملك والأسقف والكونت جيوشهم الثلاثة وحاصروا هيو في القلعة التي اسمها كوسني، ولم يعد أمامه أدنى أمل بالنجاة، طالما أن القوات طوقته من كلّ جانب، ولم يعد أحد يتمكن من الدخول إلى القلعة أو مغادرتها، وفي حالة اليأس هذه بعث مانسيو برسّل إلى الكونت ثيوبولد ليشرح له المأزق الصعب الذي هو فيه وليطلب المساعدة، وبدون تأخير، لوجود خطر كبير بالتأخير، أمر ذلك الانسان الجيد رجاله بالذهاب إلى هناك، وطلب من جيرانه وحلفائه المساعدة أيضاً، ونشد بين هؤلاء مساعدة غيوفري صاحب أنجو، وكان واثقاً من قدومها، لأنه اعتمد اعتماداً كلياً على مساعدة هذا الكونت، ولم يتقاعس بطلنا، فقد كان دوماً سريعاً جداً في تقديم العون إلى أصدقائه، وإذا ما وعد بتقديم قوة كان يفي بتعهداته لأنه كان صادقاً.

وحشد غيوفري كوكبة تألفت من مائة وأربعين فارساً من النخبة والمسلحين بشكل جيد، وأرفقهم بثلاثمائة من قوات الاحتياط وبادر مسرعاً بالتقدم، ووحد قواته مع قوات ثيوبولد، وزحف الرجلان معاً لانقاذ مانسيو المحاصر، لكن أخبار قرب وصولهما طارت أمامهما ووصلت إلى مسامع ملك فرنسا، الذي قام بعقلانية وحكمة بإزالة معسكره والتخلي عن الحصار.

وجعلت كراهية الأعداء كونت نافار يتأخر ويتقاعس عن الفرار بعض الوقت، وتولى على كلّ حال الكونت غيوفري مطاردته، بينما تعامل الكونت ثيوبولد مع الذين بقوا، ثم ما كان عليك سوى أن ترى غيوفري النبيل ومعه رفاقه الشرفاء، وهو يحمل ترسه المزين بصورة أسد، مع أنه في الحقيقة لم يكن أقل شجاعة أو حدة من الأسد، وطارد الفارين وكأنه

صاعقة عسكرية، أو توجه لمساعدة رفاقه، فاستطاع أن يفتك بسيفه ببعض الفارين، أو يلقي ببعضهم الآخر أرضاً وهم مصابين، فما من واحد من الهاربين نجا دون إصابة بجراحة.

ثم ماهو المزيد؟ فعندما مات كثيرون، وفر أكثر، أخذ غيوفري كونت نافار نفسه أسيراً، وسلمه مكتوفاً إلى الكونت ثيوبولد.

تميز كونتناغيوفري آنئذ بهذه الفضائل السامية وبتماسك الذات، فقد كان بإمكانه بلحظة واحدة أن يكون انسانياً ورحيماً ولطيفاً ومستقيماً، ثم قوياً شجاعاً متحمساً، فهكذا كان بإمكانه حقاً أن يحافظ على الضعفاء، ويخضع الأقوياء.

كان في الوقت نفسه فولك صاحب أنجو، وملك القدس يصطرع في الأراضي المقدسة ضد القوى المتنامية للمسلمين بقيادة زنكي، الذي حكم الموصل منذ سنة ١١٢٧، ولقد أوجت نجاحات زنكي المتوالية أن القدس ربما تسقط، لولا أن بادر في ثلاثينات القرن الثاني عشر كل من أمير دمشق وامبراطور القسطنطينية إلى مساعدة فولك. وفي سنة ١١٣٦، استدعى فولك ريموند أوف بواتيه، وهو الابن الوسيم والقادر للدوق وليم التاسع صاحب أكوتين، إلى فلسطين، وجعله خطيباً لأميرة أنطاكية كونستانس التي كانت في التاسعة من عمرها، وكان هذا عملاً استراتيجياً هاماً اعتمدت عليه مملكة القدس، فقد توفرت الحاجة إلى ريموند لتقديم المساعدة لفولك في دفاعه عن الأراضي المقدسة.

بعد مرور عدة سنوات، وبينما كان الكونت غيوفري ينعم بالازدهار، شن روبرت أوف سابل Sable مع حلفائه الحرب ضد غيوفري.

يتولى الآن يوحنا أوف مارموتير **Marmoutier** بالتفصيل وصف الحملات الكثيرة التي قام بها غيوفري ضد أصحاب قلاعه العصاة، الذين كان بينهم سادة سابل.

صار روبرت صاحب سابل باروناً لجميع المنطقة بوساطة أيان فاسدة أداها له رفاقه، حتى إلياس، الذي كان آنذاك كونت مين Maine وهو أخو كونت أنجو، تأثر بنصائح الرجال الشريرين فقاتل أخاه، وعندما أسر غينوفري إلياس، أبقاه في السجن لأيام كثيرة في تور، لكن بعدما أطلق سراحه منه، توفي هذا الشاب، بسبب إصابته بمرض خطير وهو في السجن.

وأمسك في الوقت نفسه غينوفري بالفرصة التي توفرت له، فقام بعد استشارته لرجاله، بدخول أراضي أعدائه، مقدراً أنه من الحكمة أن يهاجم في أراضيهم، بدلاً من أن يدعهم يتولون مهاجمته، وبناء عليه قام الكونت نفسه وبصحبه نخبة من فرسانه مع أعداد كبيرة من الرجال، بالزحف ضد أولئك الناس العصاة والمعادين له، وأرغمهم فوراً على الفرار، وكذلك أرغم مشاتهم على الهرب، وهنا خرج رجال روبرت ضد الكونت، وهنا تمتنع عن القتال مواجهة، ذلك أن قوات سابل غيرت أوضاعها لدى اقترابه وأقامت عدداً من الكمان، وهنا رأى غينوفري أنه بات من الضروري بالنسبة له أن يعدّ قواته من أجل القتال، فاستطاع ردّ روبرت أوف سابل إلى داخل القلعة، وذلك بعدما عرض عدداً كبيراً من رجاله للموت أو الإصابة بجراح أو السقوط بالأسر، وإثر هذا قام الكونت المنتصر بالعودة إلى مكانه.

سنة اثنتين وثلاثين ومائة وألف

بعد مضي أربع سنين على الزواج السالف الذكر [بين غيوفري وماتيلدا] ولد هنري الابن الأول للكونت غيوفري، وهو سيكون هنري الثاني الملك المستقبلي لانكلترا، وفي السنة الخامسة ولد غيوفري، وفي السنة السادسة جاء وليم.

سنة خمس وثلاثين ومائة وألف

في سنة ألف ومائة وخمس وثلاثين، وفي اليوم الأول من كانون الأول توفي هنري الأول ملك انكلترا، وكان عمره سبع وسبعين سنة تماماً، وجاء موته بعدما أمضى بالحكم خمساً وثلاثين سنة وأربعة أشهر، وحدثت الوفاة في روان Rouen في مكان يحمل اسم ليون — إلى — فورس Lyons-La-Forêt واحتفظ النورمان بأحشائه، وحمل الانكليز بقية الجسد إلى قبر في دير في ردينغ.

وإثر وفاة الملك هنري اعتلى العرش بشكل غير شرعي ستيفن، كونت مورتين Mortain، وكان أخاً لثيوبولد الثاني، كونت بليسوس وشامبين، وابن أخت للملك المتوفى، وتتوج ملكاً في انكلترا.

ودخل في تلك السنة غيوفري صاحب أنجو، ومعه رجال منتخبين، إلى نورماندي، عازماً على الاستيلاء عليها، لأنها ميراث لابنه.

وفي الوقت نفسه عبرت الامبراطورة ماتيلدا البحر، وبصحبتها كوكبة من الفرسان، ومع أنها امرأة، هاجمت بكل قوة ورجولة الانكليز، مصرّة على أن ميراثها الشرعي سوف تحصل عليه بقوة السلاح، وانتشرت الأخبار

بسرعة، ووصلت إلى مسامع الملك ستيفن، وأعلنت أن المملكة باتت في خطر، لأن الامبراطورة أخضعت بالقوة كثيراً من الانكليز، وأعداد كبيرة منهم استسلمت لها على الفور، وأنه مالم يبادر بالعودة مسرعاً إلى انكلترا سوف يفقد تاج المملكة، وقام الملك المرغم بالأخبار السيئة بالابحار مع أكبر عدد من الرجال الذين توفرأ له من حشود عساكره.

ثم أعطانا يوحنا أوف مارموتير رواية مثالية عن احتلال غيوفري لنورماندي [١١٤٢-١١٤٤] تدل — بشكل غير صحيح — أن تقدم الكونت قوبل بحماس أعظم من العدوانية في الدوقية.

ثم إن الكونت النشيط القوي، أدرك في حربه وصراعه ضد الجيش المحشود من قبل ستيفن وتأكد أن الرب سيقا تل إلى جانبه ضد قلاع الملك غير التقي، ولدى معرفته بأخبار تراجع الملك، لم يضع فرصة تقدمه في تلك الساعة، بل تابع زحفه نحو الأمام، فدخل إلى البلاد، وحاصر مورتين، وأخذ رهائن وتأمينات، واستقبل السكان بسلام، وحكمهم بشكل انساني، وحافظ على ممتلكاتهم دون أن تتعرض للأذى من الجيش.

ثم نقل الكونت جيشه، وجاء إلى كيرنتان Carentan ، وبعدما تسلم هذا الموقع بدون قتال، بادر مسرعاً إلى مدينة بيو Bayeu ولدى سماع السكان والأسقف باقترابه، خرجوا بسلام وهم يبدون سرورهم، وتقبلوه وتقبلوا سلطته، وقدموا له الولاء وأقسموا متعهدين بمساعدته ضد جميع أعدائه.

وتحرك الكونت من بيو، وأخذ طريقه نحو سينت لو، حيث كان أسقف كاوتنس Cautances المسيطر على الموقع، قد تولى تحصين الموقع ضده، وكان عدد الجند في داخله حوالي المائتين، وقد خرجوا لانشاب القتال ضد الكونت، وقد أرغموا مع أول اصطدام على الفرار عائدين إلى البلدة، وصمدوا فقط في اليوم الأول والثاني، واستسلموا في

اليوم الثالث وفتح المدافعون الأبواب، وطلبوا السلام، وقدموا رهائن، وأقسموا على تأدية الولاء، وعلى الطاعة للكونت (١٠).

ثم قصد مدينة كاوتنس ووصلها، وهي مدينة واقعة في مقاطعة كوتتن، ودخل الكونت إلى هذا الموقع، واستولى عليه بلا مقاومة (لأن الأسقف كان بعيداً)، وكان مشحوناً بالقوات والعتاد، ثم جمع بعد ذلك بارونات مقاطعة كوتتن، وطلب تقديم الرهائن منهم، وجاءوا جميعاً، وأدوا الخدمات المطلوبة، باستثناء رالف مع أخيه رتشارد دي لي هي Haye ، وقام الأول بتحسين قلاعه ضد الكونت، بينما تركز الآخر مع قوة كبيرة من الجند فيها مائتين أو أكثر من العساكر، في شيربورغ Cherbourg ، حيث ظن أن بإمكانه هناك امتلاك القدرة على الصمود في وجه الكونت، غير أن الكونت، صاحب القلب العظيم، تولى أولاً العيث فساداً في منطقة رالف، وحاصر قلاعه، ثم تمكن بوساطة قوة عسكرية من أسر رالف نفسه، ولقد تأخر رالف كثيراً في تقديم التوبة، وذلك بعدما تولى قتال الآخرين، لذلك تقبل بهدوء الوقوع بالأسر والخضوع.

وزحف غيوفري الآن إلى شيربورغ، وذلك بعدما قام بتنظيم الجنود الذين رافقوه، وأعد بكل براعة وحرص آلات الحصار، وبذلك كان جاهزاً باستعداداته الحربية، وكان يوليوس قيصر قد شيد في شيربورغ حصناً، وذلك أثناء استعداداته لغزو بريطانيا، وقد أحاط هذا الحصن أسوار على درجة عالية من القوة، وأقيمت أبراج كثيرة في إطار السور، حتى بات من المتعذر أن يستطيع جندي غرس رمحه بينهم، وأقام برجاً أعلى من الأبراج الباقية وسط التحصينات، وشيد قاعة ملكية، وإلى هذا الحصن فرّ بعد أول هجوم قام به ضد بريتاني، وأطلقت لذلك بعض الروايات العادية اسم قلعة قيصر على هذا الحصن.

وبعدما احتل رتشارد دي لي هي هذا الموقع، شحنه بالفرسان

والجنود، والرجال المسلحين مع كمية كبيرة من المؤن والعتاد، ثم حرضهم على مقاومة غيوفري بكل ثبات [ذلك أن رتشارد قرر عبور البحر والذهاب إلى الملك ستيفن، على أمل أن يعود من عنده وهو يقود قوة من الجند، يرغب فيها الكونت غيوفري على الفرار وذلك بعد رفعه للحصار] وفي الوقت نفسه تابع الذين كانوا في الحصن مقاومة الكونت، معتمدين ليس فقط على شجاعتهم وعلى المخزون العظيم من المؤن الذي خزنه الطاغية رتشارد دي لي هي هناك، بل أيضاً على دفاعات الأبراج التي لا ترام، وقد قذفوا المهاجمين بالحراب الحربية، وبالشائم المقذعة، ورد عليهم المهاجمون كل رماية برمية، لكن ليس كل كلمة بكلمة، غير راغبين في أن تكون ردودهم فارغة، وقاتل الرب الذي بيده جميع القوى والممالك لصالح الكونت، فصد أعداءه، وأنجح مقاصده، ذلك أنه عندما أبحر رتشارد دي لي هي، وقع بأسر القرصان الذين حملوه إلى أراض أجنبية.

وحملت الأخبار غير المفرحة إلى الذين كانوا يقاومون الكونت، وارتدت وجوه المحاصرين وعلاها الحزن، وتهاوى أملهم المهزوز، ولم يعد في مقدورهم سوى التفكير بالفرار، ولم يجدوا أمامهم منفذاً لفعل ذلك، ولهذا سلموا الحصن القوي المشحون بالمؤن، وأعلنوا عن رغبتهم بالاستسلام لسلطة الكونت ووضع أنفسهم تحت تصرفه، وتعهدوا بأيان مغلظة بالولاء له، وإثرتنفيذ هذه الأعمال، قدر الكونت أن حلول الشتاء قد اقترب، وبعدها أخذ ما أخذه من القلعة أذن لجنده بالانصراف.

واستمر الصراع طويلاً فيما بين ستيفن، الملك المزيف، وغيوفري كونت أنجو، وكان شأن غيوفري يزداد علواً دوماً وهو يزداد نشاطاً في نفسه، بينما كان ستيفن يضعف يومياً.

واعتاد الملوك والأمراء التوجه إلى الحرب بعد انقضاء الشتاء القاسي والعاصف، وعندما تبدأ رائحة الربيع الدافئة تملأ الهواء، وتتحول البراعم إلى زهور، وعندما تغدو حدائق الورود تعج بالورود الجديدة بعدما كانت

قبل قليل جرداء، وعندما تأخذ أزهار الليلك البيضاء تتمايل أمام
الأعين...

يرسم هنري أوف هنتنغدون *Huntingdon* صورة مختلفة
تماماً حول الصراع بين أسرتي بليوس وأنجو في سبيل السيطرة على نورما
ندي وانكلترا والتحكم بهما، ولم يكتف المؤرخ في اظهار بعض التعاطف
—المحق— نحو ستيفن، بل نظر إلى حوادث حكمه وتفحصها في
الاطار الانكليزي —والسكوتلندي— تماماً، وسيظهر هذا على الفور في
وصفه لموت هنري الأول، ووصول ستيفن إلى العرش في سنة ١١٣٥.

إثر وفاة الملك هنري الكبير (١١٣٥) تناول الشعب البحث بحرية
حول أخلاقه، وذلك حسب العادة، بعد وفاة الناس، فقد أصرب بعضهم
واتفقوا على أنه كان متميزاً تماماً بثلاث مواهب، وكانت هذه:

حكيمته العظيمة، لأن آراءه كانت عميقة، وكانت بصيرته نافذة،
ولفصاحته الأسرة ولنجاحه بالحرب، فبالإضافة إلى كثير من النجاحات
والإنجازات، كان هو المنتصر على ملك فرنسا [لويس السادس]، ولثرائه،
الذي فاق به جميع سلفه من الملوك، واتخذ آخرون —على كل حال—
مواقف مخالفة، وعزوا إليه ثلاثة معائب: فبالنسبة لثرائه، صحيح أنه كان
عظيم الثراء بالمقارنة مع أجداده، إنه أفقر الناس بالضرائب والمكوس،
وأرهقهم بالمتاعب على اختلاف أنواعها، وكان بلا رحمة، وفي هذا المجال
اقتلع عيني قريبه، كونت مورتين الذي كان لديه أسيراً، علماً بأن هذه
الفعلة الشنيعة والمرعبة لم تكن معروفة، وكشفت بعد وفاته مع أسرارها،
وقد ورد ذكر أمور أخرى وحوادث، أنا لن أقول عنها شيئاً، وكان شيقاً،
ذلك أنه كان مثله مثل الملك سليمان مستعبداً من قبل الاغراء الجنسي
النسائي، وكانت الأخبار منتشرة من حوله ومتداولة، لكن كل ما فعله

الملك هنري سواء بالطغيان أو عدلاً كملك يبدو رائعاً بالمقارنة مع الأيام المقبلة بعده التي ألهبت الأمور بوساطة عنف النورمان.

فقد جاء ستيفن بكلّ سرعة، وهو الأخ الأصغر لثيوبولد كونت بليوس، وكان صاحب عزيمة، ورجلاً جريئاً، لم يقيم اعتباراً ليمين ولائه لما تيلدا ابنة هنري، جاء متحدياً الرب بالاستيلاء على عرش انكلترا بجرأة ووقاحة، وكرس وليم رئيس أساقفة كانتربري الملك الجديد، مع أنه كان أول من أقسم يمين الولاء لما تيلدا، ولهذا يالأسف زاره الرب ومعه الحكم نفسه الذي أوقع على الرجل الذي ضرب أرمياء الراهب الكبير، فمات خلال العام، وكذلك حدث لروجر الأسقف القوي لسالسبري، وكان قد أدى يمين الولاء نفسه، والآن أقنع الآخرين أن يفعلوا الشيء نفسه، وصرف جميع قواه في سبيل رفع ستيفن إلى العرش، وتعرض هو أيضاً لحكم الرب العادل، فألقي بعد أمد في السجن، وواجه نهاية مؤلمة، أوقعها عليه الملك نفسه الذي ساعد على صنعه.

وباختصار حوّل جميع الايرلات والبارونات الذين قد أدوا يمين التبعية لما تيلدا، ولاءهم إلى ستيفن وقدموا له فروض الطاعة، ولقد كان فآلاً سيئاً أن تقوم انكلترا كلها بسرعة، وبدون تردد أو صراع، وبلحظة مثل طرفة عين، فتخضع لستيفن، وبعدها جرى تنويجه عقد بلاطه في لندن.

سنة ست وثلاثين ومائة وألف

وجاء الملك ستيفن في السنة الأولى من حكمه إلى أكسفورد، فأخبر أن داود ملك السكوتلنديين، تظاهر بأنه قادم لزيارته زيارة صداقة، فزحف إلى كارت ايل ونيوكاسل، واستولى عليها مخادعة، ورد الملك على الرسول الذي حمل إليه الأخبار: إن ما حصل عليه بالمخادعة سأرغمه على التخلي

عنه، وبناء عليه حشد الملك ستيفن على الفور أعظم جيش حشد في انكلترا عرفه الناس حتى الآن، وقاده ضد الملك داود، ولقد التقيا في دور هام، وهناك تصالح ملك السكوتلنديين مع ستيفن وسلمه نيوكاسل غير أنه احتفظ بكارايل وذلك بموافقة من ستيفن، ولم يقدم الملك داود الولاء للملك ستيفن، لأنه كان أول الناس من غير رجال الدين، قد أقسم يمين الولاء لابنة الملك المتوفى، التي كانت ابنة أخته، وقد اعترف بها ملكة على انكلترا بعد وفاة أبيها، لكن الملك هنري ابن الملك داود، قدم الولاء لستيفن، وأعطاه ستيفن بالاضافة لما تقدم بلدة هنتنغدون.

وبعد عودة الملك ستيفن من الشمال، عقد بلاطه خلال عيد الفصح في لندن، بطريقة أروع مما عرف قط من قبل، ليس فقط بعدد الحضور بل بما جرى عرضه من روائع من ذهب وفضة وجواهر، وثياب ثمينة، وكل شيء كان فائقاً.

سنة سبع وثلاثين ومائة وألف

في السنة الثانية من حكمه، أمضى الملك ستيفن عيد الميلاد في دنستابل Dunstable ، وفي الصوم الكبير أبحر إلى نورماندي، وعبر معه الاسكندر أسقف لنكولن وعدد كبير آخر من النبلاء، ونجح الملك هناك بفضل خبرته بالحرب في جميع ماقام به، وأحبط خطط أعدائه، وهدم قلاعهم وحصل على أعلى المفاز والأعجاذ، وأقام سلماً مع الملك الفرنسي، الذي قدم ابنه يوستاس الولاء له من أجل نورماندي، التي هي اقطاع تابع للتاج الفرنسي.

وكان غيوفري كونت أنجو العدو للدود للملك ستيفن، لأنه كان قد تزوج ماتيلدا ابنة الملك هنري، وهي التي كانت امبراطورة ألمانيا، وكانت

قد تلقت أيمان التبعية بالنسبة لمملكة انكلترا، وبناء عليه ادعى الزوج والزوجة بحقهما بالعرش الانكليزي، لكنه وقد رأى أنه في الوقت الحاضر لا يستطيع التقدم بنجاح ضد الملك ستيفن، بحكم امتلاكه لقوات لا تحصى مع كميات هائلة من المال وجدها في خزائن الملك المتوفى، ولهذا تصالح كونت أنجوم مع الملك ستيفن، وبناء عليه وبعدما حقق النجاحات عاد الملك إلى انكلترا منتصراً، وكانت عودته عشية عيد الميلاد.

وكانت الستتان الأوليتان من حكم الملك ستيفن سعيدتان، لأن السنة التالية التي أنا مقبل الآن للحديث عنها كانت عادية وموائمة، لكن الستتان الأخيرتان كانتا مدمرتان ويائستان.

سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف

ذهب الملك ستيفن (١١)، في السنة الثالثة من حكمه، بنشاطه المعتاد، مسرعاً نحو بدفورد Bedford ، وحاصرها عشية يوم الميلاد، وشدد الحصار خلال مدة العيد كلها، مما أغضب الرب بقدر ما جعل ذلك الموسم ضئيلاً أو بلا قيمة.

وبعد استسلام بدفورد، قاد قواته داخل اسكوتلندا، ذلك أن الملك داود، قام نتيجة لليمين الذي أداه لصالح ماتيلدا ابنة الملك هنري، وتحت غطاء ديني، فجعل أتباعه يتعاملون بشكل وحشي، فقد اغتصبوا بشكل مكشوف النساء الحبالى، وبقروا بطونهن لاجراج الأطفال الذين لم يلدوا بعد، ورموا بالأطفال وأرجحوهم على أسنة رماحهم، وذبحوا رجال الدين عند المذابح، وقطعوا رؤوس تماثيل الصلب، ووضعوه على أجساد الذين ذبحوهم، وبالمقابل وضعوا رؤوس ضحاياهم فوق

التماثيل، وحيثما حل السكوتلنديون أو جاءوا كانت هناك المناظر نفسها من الرعب والوحشية: نساء يولولن، شيوخ يندبون وسط الذين يموتون من الآلام واليائسين من الحياة، ولهذا غزا الملك ستيفن اسكوتلندا وسلط السيف والنار على الأجزاء الجنوبية من ممتلكات الملك داود، الذي لم يتجرأ على التصدي له.

اتخذ الكاتب المجهول، لكن المعاصر الذي كتب أعمال ستيفن، موقفاً أقل حدة ونقداً تجاه السكوتلنديين.

كان ملك اسكوتلندا، الذي تحد بلاده انكلترا، حيث يفصل تهر بينهما، عظيم المشاعر الانسانية، وقد ولد لأبوين متدينين، ولم يتعد عن فضائلها وتقواهما، وكان مع مجموعة من الرجال العظماء، لابل في الحقيقة كان الأول بينهم، أدى يمين الولاء لما تيلدا، ابنة الملك هنري، في حضوره ولهذا غضب غضباً شديداً لأن ستيفن اغتصب تاج انكلترا، لكن بما أن ستيفن استقر بالملك بوساطة البارونات بدون حضوره وموافقته، فقد جلس بكل حكمة ينتظر النتيجة، ويراقب مجرى الأحداث.

وأخيراً استلم رسائل من ما تيلدا، تتشكى فيها بأنها حرمت من وصية أبيها، وسرق منها التاج الذي تمت ضمانته لها ولزوجها بأيمان مغلظة، فقد أزيحت الشريعة ورميت جانباً وديس على العدالة بالأقدام، وأيمان التبعية لها التي أقسمها البارونات الانكليز قد خرقت ولم يقم لها وزن، وباخلاص وأسف طلبت منه بحكم قرابته منها أن يعمل على ضمان حاجتها، وأيضاً بحكم كونه تابعاً شرعياً لها أن يقوم بمساعدتها في وقت ضيقها.

وشعر ملك اسكوتلندا بحزن عميق، وتعاضم غضبه من أجل المطلب الحق، وروابط الدم، وتقديراً ليمينه قرر القيام بغارة يخرق بها انكلترا،

اعتقاداً منه انه بقيامه بهذا يمكنه بمعونة الرب أن يرغب ستيفن على التخلي عن الحكم لصالح المالكة الشرعية للتاج، التاج الذي وضع له أنه تم الاستيلاء عليه بصورة غير عادلة، واعتنى ملك السكوتلنديين في بلاطه بالمنفيين الانكليز الذين حرضوه باستمرار لاتخاذ هذه الاجراءات، ولهذا قام الملك داود — لأن هذا كان اسمه — فنشر مرسوماً في جميع أرجاء اسكوتلندا يدعو فيه شعبه إلى حمل السلاح، وتغيير مجرى حياته، ومن ثم المبادرة للاقلاع بهجوم عاصف ومدمر هائل ضد الشعب الانكليزي.

وتدعى اسكوتلندا أيضاً ألباني Albany ، وهي بلاد مغطاة بمروج واسعة، وفيها غابات مزدهرة مع المراعي التي تطعم قطعان كبيرة من الأبقار والثيران، وفيها موانئ آمنة، وهي محاطة بجزر خصبة، والسكان المحليون متوحشون، وعاداتهم غير نظيفة، لكنهم غير معاقين بالبرد الشديد، ولا يعانون من العوز الكبير، سرعتهم كبيرة على أقدامهم وأسلحتهم خفيفة، ويتخذ منهم جند شجعان ذوي فعالية، وهم بين أنفسهم لا يعرفون الخوف ولا يبالون بالموت، ووحشيتهم بين الغرباء عنيفة ويبيعون نفوسهم بأثمان عالية.

ونعود الآن إلى حكاية هنري أوف هنتغدون

ظهرت الخيانة الانكليزية وتجلت بشكل واضح بعد فصيح ١١٣٨، فقد قام تالبوت Talbot، الذي كان واحداً من الثوار بالاستيلاء على إحدى القلاع في ويلز، وأعلن العصيان بها ضد الملك ستيفن، غير أنه حاصرها واستولى عليها، وتحصن الايرل روبرت أوف غلستر، وهو ابن طبيعي للملك هنري الأول في قلعة برستول المنيعة وفي قلعة ليدز، واستولى وليم فتز ألان Fitz Alan على قلعة شروبري، التي اقتحمها

الملك أخيراً، وشنق عدداً من الأسرى.

وفياً كان الملك مشغولاً على هذه الصورة في الجنوب، قاد داود صاحب اسكوتلندا ثانية جيشاً كبيراً إلى الشمال من انكلترا، وقد عارضه بشدة وقاومه نبلاء الشمال تحت قيادة ثيرستان Thurstan رئيس أساقفة يورك، ونصب العلم الملكي في نورثألرتون Northallerton ، وحيث أن رئيس الأساقفة منعه المرض من حضور المعركة، فقد فوض إلى رالف أسقف أوركني Orkney أن يشغل مكانه، ووقف رالف على ربوة صغيرة في وسط الجيش، ورفع من معنويات النبلاء الانكليز بخطاب ألقاه عليهم.

ثم صرخ الانكليز رادين عليه بصوت واحد رددت صدها الجبال والتلال قائلين «آمين، آمين»، وإثر هذا وفي الوقت نفسه ردد السكوتلنديون صيحات حربهم «ألبان، ألبان»، حتى وصلت إلى عنان السماء، ثم اختفت الأصوات وسط قعقة السلاح.

وفي الحملة الأولى نال رجال لوثيان Lothian شرف توجيه الضربة الأولى، فوجهوا نحو الفرسان الانكليز الدارعين زخات من الشباب، وذلك دون أذن من ملك السكوتلنديين، غير أنهم وجدوا الصفوف الانكليزية منيعة لا يمكن خرقها مثل جدار من الفولاذ، واختلط النبالة الانكليز بالفرسان وتوزعوا بينهم، وفيما هم كذلك أصابوا السكوتلنديين غير المسلحين برماياتهم المتوالية، ووقف الجيش الانكليزي بأجمعه مع النورمانديين متماسكاً حول العلم في كتلة مترابطة قوية.

ثم سقط مقدم رجال لوثيان نتيجة اصابة بنشابة، وأدى هذا إلى فرار جميع أتباعه، لأن الرب القادر كان غاضباً عليهم، وهكذا تحولت قوتهم وغدت أشبه بنسيج عنكبوت، وعندما رأت الكتلة الرئيسية من السكوتلنديين هذا، وكانت تقاتل في قطاع آخر بشجاعة، فقدت

إقدامها، وتراجعت هي أيضاً، وعندما رأت فرقة الملك داود هذا، بدأت أيضاً بالفرار، أولاً على شكل أفراد ثم بشكل جماعي، مع أن عساكرها كانوا نخبة اختارهم الملك من مختلف القبائل، واستمر الحال هكذا حتى وقف الملك لوحده ولم يبق معه أحد تقريباً، وبناء عليه أرغمه رفاقه على امتطاء ظهر جواده والنجاة بنفسه، لكن ابنه هنري الشجاع لم يبال بما كان يفعله بني قومه، وظل متمسكاً بالرغبة في متابعة القتال ونيل الفخار، فترك الذين يفرون وشأنهم، وقام بحملة شديدة على صفوف الأعداء، وتآلفت القوات التي كانت تحت امرته من انكليز ونورمانديين ارتبطوا ببيت أبيه، واحتفظوا بخيولهم، لكن هذه الفرقة من الخيالة لم تستطع أن تزلزل الرجال الذين غطتهم سوابغهم ودروعهم وقاتلوا على أقدامهم متراصين، وهكذا أرغم هؤلاء على التراجع بخيول معقورة، ورماح محطمة، وذلك بعد حملة رائعة، لكن غير موفقة.

ويقال سقط على أرض المعركة أحد عشر ألفاً من السكوتلنديين، وذلك بالاضافة إلى الذين عثر عليهم في الأحرار وحقول القمح وقتلوا هناك، ونال جيشنا النصر بعد هدر قليل من الدماء، وكان قاده هم:

وليم كونت أوميل Aumale ، ووليم بيفيريل peverel ، أوف نوتنغهام Nottingham ، وولتر اسبك Espec ، وغلبرت دي لاسي Lacy ، الذي كان أخوه الفارس الوحيد الذي قتل، وعندما نقلت أخبار المعركة إلى الملك ستيفن، قدم هو وجميع الذين كانوا معه الشكر إلى الرب القدير، وقد وقعت هذه المعركة في شهر آب (١٢).

وخلال حلول الآحاد الأربعة التي تقدمت على عيد الميلاد، عقد المندوب البابوي وهو أسقف أوستيا ostia مجمعا دينياً في لندن، ثم خلاله رسم ثيوبولد راعي دير بك Bec رئيساً لأساقفة كانتبري، وذلك بموافقة من الملك ستيفن.

سنة تسع وثلاثين ومائة وألف

وفي السنة الرابعة من حكمه، وبعد مضي عيد الميلاد، حاصر الملك ستيفن قلعة ليدز واستولى عليها، وقصد بعد هذا اسكوتلندا، فدخلها، وبوساطة السيف والنار أرغم ملك السكوتلنديين على طلب الصلح، وجلب إلى انكلترا هنري ابن الملك داود، ثم حاصر ستيفن لودلو Ludlow ، التي كان هنري خطف إليها من على ظهر حصانه بوساطة كلاب حديدي، فكاد أن يقع أسيراً، لكنه أنقذ من أيدي الأعداء بشجاعة من قبل الملك ستيفن.

وترك الملك ستيفن لودلو Ludlow دون الاستيلاء عليها وذهب إلى أكسفورد حيث اقترف عملاً دنيئاً جداً، تخطى به كل ماتقدم، فبعدها استقبل بحفاوة وود روجر أسقف سالسبري مع ابن أخيه الاسكندر أسقف لنكولن Lincoln ، قام هذا الملك باعتقاله بكل عنف في قصره، مع أنهم لم يرفضوا شيئاً من مطالب العدالة، وطالبوا بكل اخلاص بذلك، وألقى الملك بالأسقف الاسكندر بالسجن، وأخذ معه أسقف سالسبري إلى دفزس Devizes التي كانت قلعة هذا الأسقف، والتي كانت من أقوى القلاع في جميع أوروبا، وعذب هناك روجر باجاعته، وأهان ابنه الذي كان حاجب الملك ومستشاره بربط حبل حول عنقه وجره إلى قفص جعله زنزانه له، وحصل منه بهذه الطريقة على الموافقة على تسليم القلعة، ناسياً جميع الخدمات التي قدمها له الأسقف أكثر من سواه، ولا سيما الخدمات التي بذلها له في بداية حكمه، فعلى هذه الصورة جازى الأسقف على اخلاصه.

وبطريقة مشابهة استولى الملك على قلعة شيربورن Sherborne التي كانت أدنى قليلاً من قلعة دفرس، وبعدما حصل على أموال الأسقف، استخدم هذه الأموال في سبيل تأمين زواج لابنه يوستاس من كونستانس أخت لويس الملك الفرنسي، ثم أعاد الملك ستيفن معه إلى نيوآرك Newark الاسكندر أسقف لنكولن الذي كان قد ألقاه من قبل في سجن في اكسفورد، وكان هذا الأسقف قد شيد في نيوآرك قلعة حمراء كأنها وردة بطراز عمارتها وهندستها، وكان منظرها جذاباً وسط المروج، ويمر بقربها نهر ترنت Trent ، وما ان شاهد الملك هذه القلعة ووقع نظره عليها حتى فرض على الأسقف صوماً لم ترخص به الكنيسة، وأقسم أنه سيظل محروماً من الطعام حتي يستجيب إلى تسليمه القلعة، وقد واجه الأسقف بعض المصاعب في اقناع حامية قلعته، وبالدموع والرجاء الحار استجابوا إلى التنازل عن القلعة إلى الغرباء، وكان هناك قلعة أخرى من قلاع اسمها سلي فورد Sleaford ، لم تكن أقل جمالاً من القلعة المتقدمة، وقد تم التخلي عنها وتسليمها بطريقة مشابهة.

ولم يمض وقت طويل على هذا حتى قام هنري أسقف ونشستر، وأخو الملك، ونائب البابا بعقد مجمع ديني في ونشستر، وقد شاركه ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري وجميع الأساقفة الحضور بالطلب من الملك، وهم جاثين على ركبهم في أن يقوم برد ممتلكات الأساقفة الذين ورد ذكرهم أعلاه، مع تفاهم ضمني أنهم سوف يتغاضون عن الاهانات التي تعرضوا لها، ومهما يكن من أمر، لم يتحرك الملك ليتجاوب مع طلبات هذا المجمع المتميز، وأخذ برأي شرير واتبعه. فرفض الاستجابة لهذا المطلب.

وهياً هذا السبيل إلى الدمار النهائي لبيت ستيفن، ذلك أن الامبراطورة، ابنة الملك هنري المتوفى، والتي كانت قد تلقت عهد تبعية

الولاء من الانكليز، جاءت على الفور إلى انكلترا، وجرى استقبالها في قلعة آرونديل Arundel وحوصرت الامبراطورة هناك من قبل الملك، الذي إما أنه أصغى إلى مشورة غير مخلصه، أو أنه وجد أن القلعة قوية جداً وأنه لا يستطيع الاستيلاء عليها، لذلك أعطاها الأمان في أن تذهب إلى برستول.

وتوفي في تلك السنة نفسها روجر، الأسقف الذي تحدثت عنه قبل قليل، وذلك بعدما أنهكته المشاكل مع ثقل السنين، وقد يدهش القارئ تجاه هذا التبدل المفاجيء بالخط بالنسبة له، لأنه منذ شبابه والسعادة ترافقه، إلى حد يمكن للمرء أن يقول فيه، بأنها نسيت أن تقلب اتجاهها نحوه، فهو لم يواجه خلال حياته كلها أية حوادث معاكسة حتى تجمعت سحب التعاسة حوله، وتمكنت من قهره في آخر المطاف، لذا ينبغي على أي انسان ألا يعتمد على استمرار حسن الخط، وألا يفترض أن السعادة دائمة، وألا يظن أن بإمكانه الاستقرار طويلاً فوق دولابها المتحرك.

سنة أربعين ومائة وألف

وقام الملك ستيفن في السنة الخامسة من حكمه بطرد نيجل Nigel أسقف إيلاي Ely ، لأنه كان ابن أخ لأسقف سالسبري المتوفى، والذي كان الملك يبغضه إلى حد أن غضبه شمل جميع أقربائه.

ولم يعد هاماً المكان الذي أمضى فيه الملك عيد الميلاد والفصح، لأن هذا كله جعل البلاط رائعاً، واختفت الشعارات الملكية التي ورثها من الخط الطويل لأسلافه، والخزانة التي تسلمها مليئة، باتت الآن فارغة، وانعدم الأمن في المملكة، وانتشرت أعمال القتل، والاحراق، والنهب والدماء خلال الديار، وارتفعت صرخات اليأس، والرعب، والأسى في

كلّ مكان.

سنة إحدى وأربعين ومائة وألف

وفي السنة السادسة من حكمه، قام الملك ستيفن بعد عيد الميلاد بإلقاء الحصار على قلعة لنكولن، وكان المدافع عنها رانولف Rannulf إيرل تشستر، الذي استولى عليها بالخدعة، وبقي الملك هناك حتى الثاني من شباط، ثم اجتمع الايرل مع روبرت صاحب غلوستر، وكان ختن الايرل وابن الملك الملك هنري، وانضم إليهما عدد من النبلاء الأقوياء، وقرروا رفع الحصار، وعبر الايرل الجريء سبحة كانت صعبة جداً، وصف عساكره واستعد للاشتباك بالقتال في اليوم نفسه، وتشكل الصف الأول منه ومن رجاله، وكان قوام الصف الثاني الذين حرمهم الملك ستيفن من ميراثهم، وشكل روبرت ورجاله الصف الثالث، ووقف على الجناحين حشد من رجال ويلز الذين كانت شجاعتهم أعلى من تسليحهم.

. وفي الوقت نفسه حضر الملك ستيفن وهو عظيم القلق، قداساً دينياً، وفي تلك الأثناء وبينما كان يضع الشمعة —وهي التقدمة الملكية المعتادة— في يدي الأسقف الاسكندر، انكسرت، وكانت هذه الحادثة علامة فآل سيء بالنسبة للملك، وانقطعت آنذاك السلاسل الحاملة للصندوق الحاوي لجسد الرب، وذلك أثناء قيام الأسقف بالقداس، ووقع الصندوق على المذبح، وعدّت هذه اشارة إلى أن ملك الملك سيلحقه الدمار، ومع ذلك انطلق بكل شجاعة، وصف قواته بعناية، ووقف شخصياً على قدميه، وترجل وقتها رجاله ورفضوا صفوفهم من حوله، وصدرت الأوامر للأمرأء بأن يشكلوا مع رجالهم صفين من

الخيالة، لكن قوات الخيالة كانت قليلة جداً، فقد جلب الأمراء المزيفون المرائون قوى قليلة معهم، لكن قوات الملك كانت كبيرة جداً، وقد رافق بعضها الراية الملكية، وبما أن الملك ستيفن لم يمتلك صوتاً موافقاً، فقد طلب من بلدوين فتزغلبرت، وكان رجلاً نبيلًا وفارساً شجاعاً، أن يخطب بالجيش، وقبل أن ينهي خطابه سمعت أصوات الأعداء، وصدحت الأبواق، وجعلت حوافر الخيول الأرض تهتز.

وبدأت المعركة، وانقض المحرومون من ميراثهم، والذين وقفوا في الساقة، على الفرقة الملكية التي كان فيها الايرل آلان كونت ميولان، وهيوج ايرل ايسل أنغليا، والايرل سيمون، والايرل وارين Warenne ومع تلقى هؤلاء للصدمة تفرقوا في رمشة عين، فقتل بعضهم، ووقع بعضهم بالأسر، وفرّ بعضهم الآخر.

وهاجمت الفرقة التي كانت تحت إمرة الكونت صاحب أوميل Au-male ووليم صاحب يبرس Ypres ، الولزيين على الجناحين، وأرغمتهم على الفرار، لكن مالبت هذه الفرقة أن هوجمت من قبل رجال ايرل تشستر، ومزقوا في لحظة مثل الآخرين، وهكذا فرّ جميع فرسان الملك وكذلك وليم صاحب يبرس، وكان رجلاً من فلاندرز، من أصل أرستقراطي وصاحب مكانة عالية، وبما أنه كان رجلاً خبيراً بالحرب، ورأى من غير الممكن له أن يساعد الملك، وفرّ عونه إلى وقت أفضل، وهكذا ترك الملك ستيفن واقفاً وحده على قدميه وسط أعدائه، وأحاط هؤلاء بالقوات الملكية وهاجموها من جميع الجهات، وكان الشرريتطاير من السيوف لدى وقوعها على الخوذ، وكانت أصوات الأسى وصرخات الرعب يتردد صداها ويعود رجوعها من التلال ومن أسوار المدينة، وهاجمت الخيالة الجيش الملكي فقتلت بعضه، وداست بعضه الآخر، ووقع بالأسر أعداد كبيرة.

ولم تكن هناك استراحة أو وقت لتنفس الصعداء، إلا حيث كان الملك

نفسه، الذي كان قوياً جداً، وكان صامداً، لأن أعداءه كانوا يخافون من شدة ضرباته، وعندما رأى إيرل تشستر هذا حسد الملك على صموده، وحمل عليه حملة منكرة ومعه الدارعين من رجاله، ثم إن قوة الملك أشعت بالفعل وهو يقاتل ببلطته حيث قتل بعض مهاجميه ومزق صفوف آخرين، ثم ارتفع صوت نادى: «على الجميع التوجه ضده، إنه ضد كل واحد»، وأخيراً تحطمت بلطة الملك من الضربات المتوالية، ثم سحب ستيفن سيفه، وكان سيفاً جديراً بذراع ملكي، وفعل أفاعيل مدهشة حتى انكسر، وعندما رأى وليم أوف كاهاغنس Cahagnes هذا، وكان فارساً شجاعاً، حمل على الملك وأمسكه بوساطة الخوذة، وصرخ: «إلى كل واحد، إلى هنا، لقد أمسكت بالملك»، واندفع الجميع نحوه، ووقع الملك بالأسر، كما جرى أسربلدوين الذي تولى مخاطبة الجنود، وكان قد أصيب بجراح كبيرة، وقد نال من مقاومته مجداً سمردياً، ووقع رتشارد فتز أورس Fitz Urse أيضاً بالأسر، ونال هو فخاراً عظيماً أثناء القتال.

وتابع جيش الملك القتال حتى وقع بالأسر، وجرى تطويق هذا الجيش، وهكذا لم يستطع رجاله الفرار، فكان إما أن قتلوا أو أسروا، وأبيحت المدينة للناهيين، واقتيد الملك بشكل تعيس إليها.

وهكذا جرى حكم الرب على الملك ستيفن، وقد اقتيد أمام الامبراطورة ماتيلدا، وسجن في قلعة برستول، وعدّ الانكليز الامبراطورة سيدتهم باستثناء كنت، حيث قاتلت الملكة ضدها ومعها وليم أوف يبرس، وذلك بكل ما أوتيا من قوة، وقد اعترف بها في البداية أسقف ونشستر، ثم النائب البابوي، ثم مالبت أن اعترف بها اللندنيون، غير أنها امتلأت بغرور عظيم لأن أتباعها نجحوا نجاحاً عظيماً في حرب لم تكن نتائجه مؤكدة، ولهذا السبب جعلت كل واحد يتعد عنها، وهكذا طردت من لندن إما بسبب خياني أو لحكمة ربانية (لأن كل ما يفعله

الناس هو بإرادة الرب)، وبناء عليه قامت وهي تحمل حقد المرأة، فوضعت الملك ستيفن —وهو الملك المرسوم بإرادة الرب— بالأغلال.

وقامت ماتيلدا بعد وقت قصير ومعها خالها ملك السكوتلنديين وأخيها روبرت أوف غلوستر بحشد قواتها، وحاصرت قلعة أسقف ونشستر، وبعث الأسقف خلف الملكة ووليم أوف يبرس مع غالبية بارونات انكلترا، وحشد الطرفان جيشان كبيران، وكان هناك قتال في كل يوم، لكن لم تحدث معارك عظيمة واقتصر الأمر على المناوشات، وسجلت خلال هذه الاشتباكات أعمال شجاعة، ومع أنهم كانوا أشبه بالعميان في الحرب، كان من الممكن رؤية شجاعة كل واحد مع تقدير أعماله المجيدة، وهكذا كانت هذه الفرصة وقتاً ممتعاً لكل إنسان يحكم أنه كان من الممكن رؤية أفعالهم الرائعة.

وبعد انتظار طويل وصل جيش اللندنيين، ولأنه زاد من تعداد أعداء الامبراطورة، قضي عليها بالفرار، ووقع بالأسر عدد كبير أثناء الفرار، كان بينهم أخوها روبرت، الذي كان الملك مسجوناً في قلعته، والذي مكن أسره الملك من التبادل به، وهكذا حدث أن الملك الذي وقع بالأسر بحكم رباني، نال حريته برحمة من الرب، وقد استقبله بارونات انكلترا بفرح عظيم.

سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف

وفي السنة السابعة من حكمه، حاصر الملك الامبراطورة ماتيلدا في اكسفورد من عيد القديس ميكائيل [٢٩-أيلول] حتى حلول الميلاد، وقبيل حلول الميلاد بوقت وجيز هربت الامبراطورة عبر نهر التيميز المتجمد، وهي متدثرة بثياب بيضاء، فخدعت المحاضرين بظهورها

وكانها شبح من الثلج، ولقد فرت إلى قلعة وولنغ فورد Wallingford واستسلمت أكسفورد إلى الملك.

سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف

وفي السنة الثامنة من حكمه، حضر الملك ستيفن المجمع الديني الذي عقد في لندن في منتصف الصيام وقد عقده نائب البابا، الأسقف هنري أوف ونشستر من أجل الأوضاع المتردية جداً التي وضع فيها رجال الدين، حيث أن الاحترام لم يقدم لهم ولا إلى كنيسة الرب المقدسة من قبل الغزاة، وأودع رجال الدين السجن، واتخذوا رهائن مثلهم في ذلك مثل المدنيين، وبناء عليه قرر المجمع أن كل من يتعرض بالأذى إلى رجال الدين يحرم ويطرد من الكنيسة ولا يمكن تحليله إلا بوساطة البابا شخصياً، لكن هذا القرار لم يخفف الأذى عنهم بالفعل إلا قليلاً جداً.

واعتقل الملك في السنة نفسها الايرل غيوفري دي ماندفيل Mandeville ، في البلاط الملكي في سانت ألبان، بتهمة استحقاقها الايرل الاعتقال، وكانت للمصلحة أكثر منها تطبيقاً للعدالة العامة، ولو لم يقدم الملك على هذه الخطوة لكان طرد من عرشه بوساطة مؤامرات الايرل ولكي يكسب الايرل غيوفري حريته تنازل عن قلعة لندن، وعن قلعة والدن Walden وقلعة بليشي Pleshey وهكذا حرم من جميع ممتلكاته، ولذلك استولى على دير رامسي Ramsey ، وطرد الرهبان منه، وحصنه بمجموعة من اللصوص وبذلك حوّل بيت الرب إلى وكر للصوص، ولقد كان في حقيقة الأمر رجلاً عظيماً الشجاعة، لكنه كان متصلباً وعنيفاً في أعماله اللاربانية، متيقظاً تجاه الأعمال الدنيوية، ومهملاً للأعمال الروحانية.

سنة أربع وأربعين ومائة وألف

ألقى الملك ستيفن الحصار في السنة التاسعة من حكمه على قلعة لنكولن، وبينما كان يعد أعمال الحصار من أجل الهجوم على القلعة، التي استولى عنوة عليها رانولف إيرل تشستر، اختنق حوالي الثمانين من رجاله في الأنفاق، لذلك رفع الملك الحصار وتخلّى عنه في حالة من الفوضى.

وسبب في السنة نفسها الايرل غيوفري دي ماندفيل الكثير من المتاعب للملك، وميز نفسه أكثر من الآخرين، وفي شهر آب أظهرت الحكمة الربانية عدالتها بشكل رائع، حيث واجه اثنان من النبلاء الذين حوّلوا الدير إلى مواقع حصينة، وطرّدوا الرهبان، عقوبة مماثلة لأن ذنبهما كان نفسه، وكان روبرت مارميون Marmion أولهما، فقد كان قد اقترف هذا الجرم في كنيسة كوفنتري Coventry كما أن غيوفري دي ماندفيل كان قد اقترف الشيء نفسه — كما قلت — في دير رامسي، وفيما كان روبرت مارميون متقدماً ضد أعدائه، قتل تحت أسوار الدير، وكان وحده الذي سقط، مع أنه كان محاطاً بقواته، وقد مات وهو محروم كنسياً، فخضع إلى الموت الأبدي، وبطريقة مماثلة جرى تمييز الايرل غيوفري بين أتباعه، وأطلق عليه سهم من قبل أحد الجنود الرجالة العاديين، ومع أنه جرح جراحة خفيفة فقد توفي خلال عدة أيام وهو محروم كنسياً، وكان هذا هو الحكم العادل للرب، دائم الذكرى خلال الأجيال، وعندما كان هذا الدير محولاً إلى حصن رشح الدم من جدران الكنيسة والأماكن المجاورة، شاهداً بذلك على الغضب الرباني، ومبشراً بدمار غير الربانيين، وقد شوهد هذا من قبل الكثيرين، وقد شاهدت ذلك أنا نفسي بعيني.

سنة خمس وأربعين ومائة وألف

وفي السنة العاشرة من حكم الملك ستيفن، كان هيوغ بيغود Bigod أول من قام بالتحركات، وفي الصيف شرع الايرل روبرت مع كتلة أعداء الملك يعملون لبناء قلعة في فارنغدون Faringdon ، ولم يضع الملك الوقت، حيث جمع الجيوش وزحف إلى هناك على رأس حشد كبير ومرعب من اللندنيين، وبعد هجمات يومية على القلعة، وفيما كان الايرل روبرت مع حلفائه ينتظرون وصول قوات جديدة لم تكن بعيدة عن جيش الملك، جرى الاستيلاء على القلعة بعد سقوط كثير من القتلى.

سنة ست وأربعين ومائة وألف

وحشد الملك ستيفن في السنة الحادية عشرة من حكمه جيشاً عظيماً، وبنى وسائل حصار لا تقهر ضد قلعة والنغفورد، وكان رانولف ايرل تشستر، الذي انضم الآن إلى الجانب الملكي، حاضراً هناك مع قوة كبيرة، وحدث بعد هذا أنه عندما كان الايرل حاضراً بأمان في بلاط الملك في نورثامبتون، ودون أن يخشى من أي سوء، اعتقل، وأودع في السجن حتى تنازل عن قلعة لنكولن الحصينة، الذي كان قد استولى عليها بطرق بارعة، كما تنازل عن القلاع الأخرى التي عادت بملكيتها له، وبعد هذا أطلق سراح هذا الايرل وسمح له بالذهاب إلى حيث أراد.

سنة سبع وأربعين ومائة وألف

وفي السنة الثانية عشرة من حكمه، لبس الملك ستيفن التاج أثناء عيد الميلاد في لنكولن، الأمر الذي لم يقدم عليه ملك قبله لأسباب غيبية، وأظهر هذا مدى تصميمه، وكيف أنه أعار قليلاً من الأهمية لمثل هذه الغيبيات، وبعد مغادرة الملك جاء إيرل تشستر إلى لنكولن مع قوة مسلحة لمهاجمة القلعة، لكن قائد قواته، وكان رجلاً عظيم الشجاعة والخط، لاقى مصرعه عند مدخل الباب الشمالي للبلدة، ثم تبع ذلك أن فقد الأيرل نفسه عدداً كبيراً من أتباعه، ولذلك أرغم على التراجع، وبناء عليه قدم سكان البلدة أثناء احتفالهم بنجاحهم في الدفاع شكراً خاصاً إلى العذراء المباركة حاميتهم والمدافعة عنهم.

وقام في أحد العنصرة لويس ملك فرنسا، وتيري كونت فلاندرز، وكونت سانت جايل (صنجيل) مع حشد كبير من كل جزء من فرنسا، وعدد عظيم من الإنكليز، بحمل شارة الصليب، والسفر نحو القدس، عازمين على طرد الكفار الذين استولوا على مدينة الرها (١٣).

سنة ثمان وأربعين ومائة وألف

محقت في هذه السنة جيوش امبراطور ألمانيا وملك فرنسا، مع أنها قيدت من قبل قادة لامعين، وبدأت زحفها بفخار وثقة، لكن الرب ازدراهم، وتضاعفت دعارتهم وفجورهم حتى عليين، ولأنهم تخلوا عن أنفسهم بشكل مكشوف لصالح الزنا والاتصالات الجنسية البغيضة إلى الرب، وإلى اللصوصية وكل نوع من أنواع الآثام، وعانوا في البداية من

المجاعة بسبب الارشاد الفاسد لامبراطور القسطنطينية، وتعرضوا بعد هذا للدمار بسيوف الأعداء، والتجأ الملك لويس والامبراطور إلى أنطاكية، ورجبوا بعد هذا وهم في القدس مع بقايا أتباعهم بالقيام بعمل مفيد، وأراد ملك فرنسا، في أن يفعل شيئاً ما يرد إليه احترامه، فألقى الحصار على دمشق وذلك بمساعدة من فرسان داوية القدس مع قوة حشدت من جميع الأرجاء، لكن كان يعوزه رضا الرب، ولهذا لم ينل النجاح، فعاد إلى فرنسا.

سنة تسع وأربعين ومائة وألف

وفي السنة الرابعة عشرة من حكم الملك ستيفن رسم داود ملك السكوتلنديين هنري ابن بنت أخته فارساً، واجتمعت بهذه المناسبة قوة كبيرة، وامتلك داود حاشية واسعة، وكان لدى ابن أخته أتباعه من نبلاء غربي انكلترا، وشعر الملك ستيفن بالخوف، وخشي من أن يأخذوا طريقهم إلى مهاجمة يورك، ولهذا تركز شخصياً في تلك المدينة ومعه جيش كبير، وبقي هناك جميع أيام شهر آب، وقام في تلك الأثناء يوستاس بن ستيفن، الذي رسم أيضاً فارساً في العام نفسه، بغزو بلدان البارونات الذين كانوا حضوراً مع هنري ابن الامبراطورة، وحيث لم يجد من يعترض سبيله عاث في البلاد بالسيف والنار، غير أن ملكي انكلترا و اسكوتلندا، وكان أولهما في يورك وثانيهما في كارل آيل، خشيا من بعضهما بعضاً، فتجنبوا المواجهة واللقاء، وهكذا انفصلا بسلام، وعاد كل منهما إلى بلده.

سنة خمسين ومائة وألف

وفي السنة الخامسة عشرة من حكمه، هاجم الملك ستيفن مدينة وورستر الجميلة، وبعدها استولى عليها جعلها طعمة للنيران، غير أنه لم يستطع الاستيلاء على القلعة التي كانت داخل المدينة، وكانت ملكيتها عائدة إلى وولران Waleran كونت ميولان Meulan ، وكان الملك ستيفن قد منحه إياها، وكانت هذه المنحة لغير صالحه، وبعدها أكمل الجيش الملكي نهب المدينة، عاث فساداً بالمناطق العائدة للأمراء المعادين، وحيث لم يقاومهم أحد، حملوا كميات هائلة من الغنائم والأسلاب.

سنة إحدى وخمسين ومائة وألف

وتوفي في هذه السنة غيوفري الجميل، كونت أنجو، صهر الملك هنري الأول، وابن فولك ملك القدس، وهو نفسه كان رجلاً عالي المكانة.

ونالت وفاة غيوفري عناية أكثر اشراقاً من قبل جون مارموتير
Marmoutier

وحدث أنه عندما كان في الحادية والأربعين من عمره، وفي اليوم السابع من أيلول لسنة إحدى وخمسين ومائة وألف، واجه الدوق المنتصر لكل من نورماندي، ولشعب أنجو، وتورين، ومين، وهو عائد من اجتماع ملكي، مرضاً شديداً، وأصيب بالحمى في شاتودولور، وسقط على فراشه، ثم نظر نحو مستقبل بلاده وشعبه بروح تتطلع إلى ماسيكون، فحظر على

ابنه هنري أن يدخل عادات نورماندي أو انكلترا إلى بلاده، أو أن يفعل العكس، حسبما يمكن أن يحدث تبعاً لتعاقب تبدلات الحظ.

ثم بعدما قام بإعطاء بعض المنح، والأعطيات والحسنات، ظهرت علامات موت هذا الأمير العظيم من خلال أحد المذنبات، فرد جسده روحه ورفعها من الأرض إلى السماء، فهل كان عجيباً لو أن الموت الذي يعارض الطبيعة ويجردها صارع من أجل غيوفري منذ شبابه، حيث أنه كما يقول شيشرون:

«غالباً ما يبدو موت الشباب مثل إطفاء نار متقدة عظيمة بكثير من الماء، ومثل تفاحة غير ناضجة قطعت قسراً من الشجرة، ومع هذا إنها تسقط وكأنها ناضجة وجاهزة، وهكذا تنتزع القوة الحياة من الشباب، وبأخذها النضج من المسنين».

ودفن غيوفري في الكنيسة العظيمة القداسة المكرسة للقديس يولييان في لامانس، في ضريح عظيم جداً، بناه بشكل لائق الأسقف التقي وليم أوف بيوس فيم، وجرى صنع تابوت يشبه الكونت المحترم هناك، وقد تم ترصيعه بشكل مناسب بالذهب والأحجار الكريمة، وجاء هذا مذكراً بالموت للمتعجرف وبالنعمة للمتواضع، وجرى تعيين قسيس من قبل الأسقف، ليبقى دوماً إلى جانب مذبح الصلب حيث مدد جسد الرجل المتوفى، وفرض لهذا القسيس عطاء دائم، وكان عليه أن يقدم كل يوم أضحية إلى الرب من أجل الكونت، حتى يتفضل الرب المقدس والرحيم فينزل رحمة يزيل بها تعاسة الكونت، ذلك أنه الرب الذي يعيش أبداً ويحكم دوماً.

قام هنري أوف هنتنغدون بعقلانية بتمجيد اتحاد ستيفن هنري أوف أنجو ودوق نورماندي خليفة له وذلك على الرغم من عدم محبته له — ستيفن — وميله إليه.

سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف

ترك غيوفري لابنه هنري أوف أنجوينورماندي ادعاء الحق بوراثة عرش انكلترا، الأمر الذي لم يفلح به شخصياً، وحدث الآن أن انفصل لويس السابع ملك فرنسا عن زوجته، ابنة كونت بواتو على أساس القرابة المحرمة، وإثر هذا تزوجها الدوق الجديد هنري، ومن خلالها استولى على بلاد بواتو، وزاد من مكانته وعلوه كثيراً (١٤)، وكان هذا الزواج السبب في إثارة كراهية عظيمة وخلاف بين ملك فرنسا والدوق.

وقام الآن يوستاس ابن الملك ستيفن مع ملك فرنسا بحملات على نورماندي، وقاومها الدوق بكل شجاعة وردهما مع الجيش الفرنسي، ثم حشد الملك لويس جميع خصومه، وهاجم قلعة منيعة الجانب، كانت لاترام وكان اسمها نوف مارشي Neufmarche واستولى عليها، وأعطاهما إلى يوستاس ابن ملك انكلترا، الذي زوجه من ابنته.

واقترح الملك ستيفن في السنة السابعة عشرة من حكمه تتويج ابنه يوستاس، وطلب من رئيس الأساقفة والأساقفة الآخرين الذين جمعهم القيام برسم — يوستاس — ومباركته، فقبل طلبه بالرفض، لأن البابا حظر برسائله رئيس الأساقفة ومنعه من تتويج ابن الملك لأن الملك ستيفن كان بالنسبة له قد استولى على العرش بشكل غير شرعي، وانزعج كل من الأب والابن من هذا، وغضباً غضباً عظيماً، فأمرًا بسجن رجال الكنيسة في أحد البيوت وحاولا بالتهديد ارغامهم على أن يفعلوا ماطلباه منهم، وقد خاف هؤلاء وارتعبوا لأن الملك ستيفن لم يحب رجال الدين مطلقاً، وسلف له أن تولى سجن اثنين من الأساقفة، ومع هذا صمدوا على الرغم من أنهم خافوا على رؤوسهم، وبعد طويل وقت نجوا دونها

ايذاء، مع أنهم جردوا من مقتنياتهم، التي أعادها الملك إليهم فيما بعد، عندما تاب.

وحاصر الملك في السنة نفسها قلعة نيوبيري Newbury ، التي لم تكن بعيدة عن ونشستر، واستولى عليها، ومن هناك تولى حصار وولنغفورد، وبنى قلعة حصار على مدخل الجسر، فحال بذلك دون الوصول إلى المحاصرين ودون إيصال المؤن إليهم، وعندما ضغط على هؤلاء بشدة، طلبوا من مولاهم، دوق نورماندي، إما أن يرسل المساعدات إليهم، أو منحهم الاذن بتسليم القلعة إلى الملك.

سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف

وفي السنة الثامنة عشرة من حكم الملك ستيفن، أرغمت الضرورة هنري صاحب أنجو ودوق نورماندي على القيام بزيارة غير متوقعة إلى انكلترا، وبوصوله بدت هذه البلاد التعيسة، والتي عانت من قبل من العيث والفساد، وكأنها تكسب حياة جديدة.

وعندما وطأ الدوق العظيم شواطئ انكلترا، امتلأت الأرض بالأخبار، مثل حقل قصب حركته الريح، وانتشرت الأخبار بسرعة، وكما هي العادة جلبت الفرح والسعادة إلى بعض الناس والخوف والأسف إلى آخرين، لكن الذين اعتراهم السرور لدى سماعهم خبر وصوله، انزعجوا قليلاً لدى معرفتهم أنه جلب معه عدداً قليلاً من الرجال، وفي الوقت نفسه كان انزعاج أعدائه من أخبار وصوله ضعيفاً أيضاً، ورأى بعضهم أن عبوره للبحر الهائج في وسط الشتاء عمل شجاع، ووجد بعضهم أن ذلك كان حماقة، ولكن الشاب الشجاع حشد إليه جميع مؤيديه ومزجهم: هؤلاء الذين جلبهم مع الذين وجدهم، وبما أنه كان يكره

التأخير فوق كل شيء، ألقى الحصار على قلعة مالمزبري Malmesbury.

وبما أن فضائل هذا الرجل كانت كثيرة وعظيمة، فإنني سأتولى معالجتها بسرعة حتى لا تطول حكاية أعماله وتأخذ حيزاً كبيراً، وحوصرت القلعة (لأنه كان رجلاً لا يحب تأجيل الأعمال) وهوجمت، ومالبت أن استولى عليها، وعندما سقطت البلدة، قاوم الحصن الكبير، لصالح الملك، وتولى الدفاع فيه جوردان، وبات من الممكن السيطرة عليه بوساطة التجويع فقط، وخرج جوردان وذهب مسرعاً نحو الملك ستيفن ليخبره بما حدث، ولقد انزعج الملك لدى سماعه هذه الأخبار السيئة، وأربد وجهه وعلاه الحزن بدلاً من مظهر الفخار والعظمة، وبادر بنشاط كبير فجمع قواته، وعسكر على مسافة لم تكن بعيدة عن مالمزبري.

واستعرض في اليوم التالي جيشه، الذي حوى عدداً كبيراً من الفرسان المتميزين الرائعين، وكان جيشاً لجباً فيه كثير من البارونات، وكانت راياتهم تلمع بالذهب، وكانت جميلة ومرعبة بالفعل، لكن الرب الذي عنده وحده ومعه الأمان والسلامة، لم يكن معهم، لأن بوابات الفيضان من السماء انفتحت، وجاء برد شديد وريح صرصر، وانهمرت الأمطار في وجوههم، حتى بدا كأن الرب نفسه كان يقاتل لصالح الدوق، غير أن الجيش زحف بانتظام، وكأنه يقاتل قدرات الرب وطاقاته، ولهذا عانى كثيراً.

واعتمد جيش الدوق الشاب على الشجاعة أكثر من اعتماده على الأعداد، خاصة وأن عدالة القضية التي كانوا يقاتلون من أجلها قد ضمنت لهم أنهم مدعومين بنعمة الرب، وقد اصطفوا ليس بعيداً عن أسوار بلدة مالمزبري، على طرف نهر صغير، أعطته الأمطار الغزيرة والثلوج قوة أصبح بها خيفاً إلى حد أنه ما إن يصبح الإنسان هناك حتى يعجز عن الخروج.

وكان الشاب النبل على رأس جيشه، وكان جماله الجسدي أخاذ للنفس، وقد تميز بسلاح جدير به، وكان مناسباً له إلى درجة يمكن القول فيها إن سلاحه لم يمنحه الشهرة بل هو منح السلاح شهرته، وجعل الكونت مع رجاله السبخة وراء ظهورهم، وكانت هذه السبخة في وجه جيش الملك، ولذلك كانوا لا يستطيعون إلا بصعوبة حمل أسلحتهم فوق رماحهم المبللة.

وبما أن الرب عزم على أن ينال طفله البلاد من دون سفك للدماء، وألا يتمكن أياً من الفريقين من عبور النهر، ولأن الملك بات غير قادر على تحمل المطر المنهمر والفيضان الناتج عنه، عاد أدراجه نحو لندن، وبذلك باتت هزيمته كاملة، ولذلك استسلمت القلعة المحاصرة إلى الدوق، الذي بادر مسروراً وبكل سرعة نحو انجاز ما توجب عليه وجاء من أجله، أي التفريج عن قلعة والنغفورد التي كانت على حافة المجاعة.

وقد حشد كتلة كبيرة من العساكر ليحمل المؤن إلى الحامية المحاصرة، وسهل الرب نواياه بشكل كبير، حيث حمل هذه المؤن ووصل بها دون أن يلقي معارضة، مع أنه كان هناك الكثير من القلاع في تلك المنطقة كانت في أيدي القوات الملكية، فمن خلال عون الرب واراوته لم يستطيعوا منعه من الذهاب والإياب، وبعد مضي وقت قصير حشد الدوق المقدام جميع الفرسان الذين وقفوا إلى جانبه وشرع في حصار قلعة كرومارش Crowmarsh ، وقد بدأ هذه المهمة المتعبة والصعبة بحفر خندق حول كل من قلعة الملك وجيشه الخاص، وبذلك بات طريقه الوحيد للخروج يمر عبر قلعة والنغفورد، بينما لم يبق للمحاصرين طريق للخروج.

وعندما سمع الملك بهذا جمع جميع القوات التي توفرت له من المناطق الخاضعة له، وانحدر غاضباً نحو الدوق، الذي لم يكن خائفاً أبداً، مع أن قواته كانت أقل من قوات الملك، وقد أمر على الفور أن يطم الخندق الذي أمر بحفره لحماية جيشه، ورفع الحصار، وزحف بشكل رائع

لمواجهة الملك، وعندما رأى الجيش الملكي المشهد غير المتوقع، وهو جيش عدوه، وقد اصطف للقتال واقفاً أمامه، استولى عليه الرعب فجأة، ولكن الملك لم يكن خائفاً أبداً، وأمر رجاله بالزحف إلى خارج المعسكر على شكل صفوف قتالية، لكن البارونات، أولئك الخونة لانكلترا، رفضوا هذا وعارضوه، ودعوا إلى التوصل إلى مصالحة، ومع أنهم لم يحبوا شيئاً أكثر من حبهم للتمزق، كانوا غير راغبين في انشباب القتال وحدوث معركة، لأنهم لم يرغبوا في أن يربح أيّاً من الطرفين، لأنه إذا ما انهزم أحد الطرفين سيكون من السهل وقوعهم تحت سيطرة الطرف الآخر، لكن إذا ظلّ كل طرف يخشى الآخر، فإنه من غير الممكن ممارسة السلطة الملكية عليهم.

ولم يرغب الملك ولا الدوق في أن يرغباً على إقامة هدنة، وقد أدرك كلّ منهما خيانة مسانديه، لكن كما هي العادة، كان الرب واقفاً إلى جانب الدوق، غير أنهم وافقوا على أنه ينبغي هدم القلعة الملكية التي حاصرها الدوق، وعقد الملك والدوق مؤتمراً منفرداً، غير واحد من الأنهار الصغيرة، وتباحثا فيما بينهما حول السلام، واشتكى كلّ واحد منهما إلى الآخر من خيانة نبلائه، وهنا بدأت معاهدة السلام، ولكنها لم تكتمل حتى مناسبة أخرى.

ولم ينته صراعهما عندما عاد كلّ واحد منهما إلى مقره، لكن الضوء بدأ يبرز حول حظ الدوق العظيم، حيث أن اثنين من أكبر أعدائه وأعظمهم قوة، وأعني بهما: يوستاس ابن الملك، وسيمون إيرل نورثامبتون تمزقا وغابا بحكمة من الرب، واختفيا في الوقت نفسه، ونتيجة لهذا فقد جميع خصومه بشكل مفاجيء الأمل والشجاعة.

لقد ماتا كلاهما بالمرض نفسه في أسبوع واحد نفسه، ودفن الايرل سيمون، الذي فعل كلّ شيء غير شرعي أو خلقي، في نورثامبتون، ودفن ابن الملك في دير أسسته أمه في فيفرشام Faversham ، وكان

فارساً مجرباً، لكنه كان رجلاً غير رباني عنيف جداً مع قادة الكنيسة، وكان مضطهدهم الثابت المصمم، وبازالة الرب لأعظم أعداء محبوبه هنري، مهد له بلطف السبيل إلى حكمه السلمي.

وتناول الحصار الثالث قلعة ستام فورد، وسقطت البلدة دونما تأخير، لكن حامية القلعة راسلت الملك طالبة المساعدة، وكان الملك يحاصر ابسوتش Ipswich ، التي كان يدافع عنها، ويقف ضده فيها هيو بينغود، وبما أن الملك لم يكن يرغب في رفع هذا الحصار، وبالتالي لا يمكنه الذهاب لنجدة تلك الحامية، فقد استسلمت القلعة إلى الأمير هنري، وكذلك استسلمت القلعة التي كان يحاصرها الملك، وترك الدوق النورماندي ستام فورد وذهب إلى نوتنغهام، وايتولى على البلدة على الفور، وقد أحرقت هذه البلدة إثر هذا من قبل حامية القلعة، ولحزنه على ما حدث أخذ الدوق جيشه إلى مكان آخر.

وكان في الوقت نفسه رئيس الأساقفة ثيوبولد يبذل غاية جهده في سبيل إعداد اتفاق سلام، حيث ناقش هذا الأمر مراراً مع الملك، وعالجه مع الدوق عن طريق المبعوثين.

ورأى هنري أوف بليوس، رئيس أساقفة ونشستر، وهو الذي خبط المملكة بإعطاء أخيه ستيفن التاج، أن كل شيء قد دُمر بوساطة النار والقتل، وبعدهما رأى هذا أسف لما حدث، وسعى نحو وضع نهاية لهذه الشرور بتمكين الأميرين من الاتفاق.

ووضعت حكمة الرب، التي خلقت كلاً من الخير والشر، نهاية لآلام انكلترا، وحققت الوصول إلى محصلة لما بدأ بجعل السلام مؤكداً على الطرفين، وأن ينتشر ذلك باخلاص.

ولكم كان السرور عظيماً، والبهجة كبيرة، أيها اليوم المبارك، الذي استقبل فيك الملك نفسه الأمير الشاب في ونشستر، في استعراض رائع

للأساقفة والنبلاء خلال أصوات تحيات الجماهير.

واستقبله الملك وكأنه ابنه المتبنى، واعترف به وريثاً له، ومن هناك أخذ الملك الدوق إلى لندن، حيث جرى استقباله بفرح عظيم من قبل الجماهير، وبمواكب رائعة لائقة برجل عظيم مثله، وهكذا بفضل من رحمة الرب بزغ فجر السلام على مملكة انكلترا المدمرة، ووضع نهاية ليلها المضطرب.

وبعدما انتهى هذا افتراق الملك ستيفن عن ابنه الجديد بسرور ومحبة على أن يلتقيا ثانية في أقرب وقت، لأن السلام كان قد تأكد قبل عيد الميلاد.

سنة أربع وخمسين ومائة وألف

والتقيا ثانية في الثالث عشر من كانون الثاني في أكسفورد، وذلك بعد مضي سنة أمضاها الدوق في الاستيلاء على انكلترا، أو بالحري في إعادة توحيدها، وقدم هناك جميع عظماء انكلترا — بناء على طلب من الملك — الولاء مع يمين التبعية إلى مولاهم الدوق، ولم يستثنوا سوى التمجيد والاخلاص اللذين هما من حقوق الملك طوال حياته، وتركوا جميعاً هذا الاجتماع الرائع وقد امتلأوا بالغبطة، وكانوا مسرورين بسبب السلام الجديد.

ولم يمض وقت طويل حتى التقيا ثانية في دنستابل Dunstable ، حيث ظهرت بعض الغيوم المكدرية في الأفق، ولم يكن الدوق راضياً تجاه القلاع التي بنيت في كل مكان لأسباب شريرة بعد وفاة الملك هنري

الأول، والتي لم تهدم حسبما تم الاتفاق عليه في السلام الذي عقد أخيراً بينه شخصياً وبين الملك ستيفن، وكان عدد كبير منها قد هدم، باستثناء بعضها من خلال الملك ستيفن، فهو قد وفرها لبعض رجاله إما بنية سيئة أو عطفاً عليهم، وبدا هذا التصرف وكأنه يلغم المعاهدة، وتشكى الدوق حول هذا الأمر إلى الملك، لكنه دافع، فتغاضى مكرهاً عن هذه القضية، وتخلّى عنها لوالده الجديد، ذلك أنه خشي أن تفسد اتفاقهما، وقد افترقا متصادقين.

وبعد هذا بوقت قصير، عاد الدوق بإذن من الملك، منتصراً إلى نورماندي، فهذا ما كان هنري، أكثر الشباب شهرة، قد فعله في زيارته الثانية إلى انكلترا.

هذا وآمل ألا يصدر حكم ضدي لإقلامي على رواية أخبار العديد من أعماله الرائعة بشكل موجز إيجازاً شديداً، حيث يتوجب عليّ رواية أخبار العديد من الملوك مع أخبار أفعالهم عبر عدد كبير من القرون، ولا شك أن هذا عمل متعب سوف يحتاج إلى عدة مجلدات، وكانت فكرتي هي أن أقوم باختصار التاريخ في كتاب واحد، على أن لا أتجاهل تماماً ما سيكون في المستقبل.

ونعود الآن إلى العمل، فعندما عاد الدوق إلى فرنسا، استقبل استقبالاً كله سرور وتمجيد من قبل أمه ماتيلدا، مع اخوانه وجميع شعب نورماندي، وأنجوى، وفين وبواتو، وكان الملك ستيفن الآن يحكم بسلام وذلك للمرة الأولى، وبفضل ابنه المتبنى نال التشريف اللائق بملك، لكن كم هم حقى الناس الفانون، ولكم هي خطاياهم التي لا تنتهي! فقد حاول بعض الناس «الذين أسنانهم حراب ونشاب، وألسنتهم سيوف حادة» قدر استطاعتهم أن يروا عدم الوفاق بين الملك والدوق الغائب، ولم يكن باستطاعة الملك، أو لم يرغب في مقاومة ضغوطهم، وبعد وقت قصير اعتقد بعضهم أنه توقف عن المقاومة، وصحيح أنه

تظاهر بعدم الرضا، لقد كان بالواقع راغباً بالأصغاء إلى آرائهم الشريرة.
ومهما يكن من أمر، إن الرجال شيء، وحكم الرب شيء آخر، وهو
الذي أنهى ما شرع به، بأن جعل نهاية مؤامرات ذوي الآراء الشريرة
تصل إلى لا شيء، فقد حاصر الملك ستيفن قلعة دريك Drake
قرب يورك، وبعدها هدمها واستولى على عدد آخر من القلاع ذهب إلى
دوفر للتحادث مع كونت فلاندرز، ووقع أثناء المؤتمر مريضاً، وفي
الخامس والعشرين من تشرين الأول لعام ١١٥٤ فارق الحياة، ودفن في
دير فيفرشام إلى جانب زوجته وولده، وقد حكم غير سعيد ومع متاعب
شديدة لمدة تسع عشرة سنة.

وبسرعة أرسل رئيس الأساقفة ثيوبولد مع عدد كبير من النبلاء
الانكليز رسائل لإخبار مولاهاهم دوق نورماندي حتى يحضر سريعاً ويتولى
مقاليد المملكة، وقد تأخر بسبب الريح والبحر ولأسباب أخرى، غير أنه
نزل إلى اليايسة قبيل حلول عيد الميلاد بعدة أيام في نيوفورست، ومعه
زوجته وإخوانه، والعديد من النبلاء وقوة كبيرة، ومكثت انكلترا بدون
ملك لمدة ستة أسابيع، لكن بنعمة من الرب لم يضطرب الحال، إما
بسبب حب ملك المستقبل أو خوفاً منه، وبعدها نزل هنري إلى اليايسة
ذهب إلى لندن، وهناك بورك بشكل لائق ورائع جدير برجل له مكانة
عالية، وحين نال المباركة كملك، تم ذلك وسط غبطة عظيمة،
وصيحات كلها فرح وسرور، وجرى تتويجه بشكل رائع ومهيّب.

القسم الثالث

هنري الثاني: ١١٥٤-١١٨٩

حكم في سنة ١١٢٤، فولك الخامس، كونت أنجو، إحدى أعظم
اقطاعيات فرنسا فقط، وأصبح بعد ذلك بثلاثين سنة حفيده هنري
بلانتاغنت ملك انكلترا، ودوق نورماندي وأكوتين مع كونه كونت
أنجو، وكان هنري حاكماً ناجحاً إلى أقصى الحدود، غير أن مجرد حجم
ممالكه أوجد له مشاكل واسعة عملاقة، وأنجب هو وإليانور النارية،
دوقة أكوتين أربعة أولاد، كانوا يمثّلون ثلاثين في قوتهم مثل أبيهم،
وكان لويس السابع ثم فيليب الثاني ملكي فرنسا، سادة قارين للأراضي
الأنجيفية، ولهذا كانا حليفين نافعين لهم، وذلك مثلما كانت إليانور، التي
أصبحت أخطر خصوم هنري، وفيما بعد سجينته التي لاحول لها
ولاطول، وكان توماس بكت **Becket** في البداية المستشار المخلص
للملك، ثم رئيس أساقفة كانتربري المعادي له، ذلك أنه كان واحداً من
الشخصيات الرئيسية.

ورسم «تاريخ الشؤون الانكليزية» الذي كتبه وليم كاهن نيوبيرغ
المشهد أثناء بداية حكمه، ولكن المصدر الأساسي هو الجزء الثالث من
كتاب «صورة التاريخ» تأليف رالف أوف ديسيتو **Diceto** عميد
كاتدرائية القديس بولص من حوالي ١١٨٠ حتى وفاته في حوالي
١٢٠١.

في السنة ١١٥٤ لتجسيد ربنا، وبعد موت الملك ستيفن، جاء هنري حفيد الملك الأول، عن طريق ابنته الامبراطورة المتوفاة، من نورماندي، واستحوذ على مملكته الموروثة أمام الجميع، وقد جرى رسمه وتعميده ملكاً، بينما صرخ الشعب في أرجاء انكلترا «ليحيا الملك حياة طويلة»، وفي الحقيقة ظهرت شرور كبيرة أثناء الحكم المتقدم، وأمل الشعب، بعد معاناته الماضية، من أجل أشياء أفضل من الملك الجديد، خاصة عندما رأى هذا الشعب انه امتلك حكمة متميزة، ومثابرة، وغيره من أجل العدل، وظهر في كل خطوة من خطواته انه أمير عظيم، ومنذ البداية أصدر مرسوماً ضد المرتزقة الذين تدفقوا في ظل حكم الملك ستيفن على انكلترا من جميع المناطق الأجنبية، من أجل الحصول على الغنائم وكذلك في سبيل حرفة القتال، لاسيما الفلمنكيين منهم، حيث عمل حشد كبير منهم في البلاد، وأمر هؤلاء بالعودة إلى بلادهم، وعين لهم يوماً إذا ما تأخر أحدهم عنه وبقي في انكلترا فإنه يتعرض لبعض المخاطر ويواجهها، واستولى عليهم الرعب بسبب هذا المرسوم، وتسلبوا هاربين في وقت قصير، بدوا فيه وقد اختفوا مثل اختفاء الشبح، واندحش كثير من الناس أمام سرعة مغادرتهم، وأمر بعد هذا بهدم جميع القلاع التي لم تكن موجودة في أيام جده، وذلك باستثناء عدد قليل منها قامت في مواقع هامة ومفيدة، وقد رغب في ابقاء بعض هذه القلاع لنفسه، أو وضعها في أيدي رجال أمناء للدفاع عن المملكة.

وأولى هنري الثاني في هذه الأيام الأولى لحكمه عناية حقة لمسألة النظام العام، وعمل جاهداً في سبيل بعث النشاط القانوني في انكلترا، هذا النشاط الذي بدا وكأنه مات ودفن أيام الملك ستيفن، وعين القضاة في جميع أرجاء المملكة مع موظفين قانونيين لقطع دابر مساويء الأشرار، ولإيصال العدالة إلى المظلومين تبعاً لأهمية قضاياهم، وكان سواء انشغل في مسائل فرح ومتعة أو في شؤون الدولة يراقب مراقبة حثيثة المصالح

الملكية، وغالباً إذا ما كان أي واحد من قضاته متراخياً أو خشناً جداً، كان يصغي هو إلى شكاوى أهل المنطقة، ويقدم علاجاً ملكياً، واصلاحاً فعالاً لإهمالهم أو تجاوزهم.

تلك كانت الأعمال الأولى للملك الجديد، وقد أكسبته الحمد والثناء من قبل محبي الأمن وألجمت الأشرار وقطعت أذاهم، وأرغم الذئاب المفترسون على الفرار أو على التحول إلى شياء، أو أنهم إذا لم يتغيروا حقيقة، فقد اضطروا خوفاً من القانون على السكون دونما إيذاء مع الشياء، وحل العمل بالمحراث محل العمل بالسيف، وأخذ مقص تقليص الأشجار مكان الرمح، ومامن أحد ربط نفسه الآن بأعمال القتال، بل تمتع بنعمة من الرب بمذاق السلم، الذي تطلعوا إليه وانتظروه طويلاً من قبل، وكان هذا شأن الناس سواء اهتموا بمباهجهم أو انصرفوا نحو أعمالهم.

مع بداية حكم هنري، ظهر توماس بكت وبرز في خدمة ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري، ويقدم لنا وليم فتنز ستيفن صورة لاهوتية، لكن فيها حياة، عن طفولة بكت وأعماله المبكرة.

علم الرب وقضى أن يكرس توماس المبارك [لخدمته] قبل أن يخرج من الرحم، وأظهر لأمه أي نوع من الرجال سيكون، ذلك أنها رأت في المنام أثناء حملها به أنها تحمل في رحمها جميع كنيسة كانتربري، وفي اللحظة التي رأى فيها الطفل ضوء النهار، حملته الوصيعة ورفعته بين يديها قائلة: « لقد رفعت من الأرض رئيس أساقفة مستقبلي»، وبينما كان رضيعاً في المهد، حلمت أمه في إحدى الليالي أنها كانت توبخ المريضة لعدم وضعها غطاء عليه، وردت عليها المريضة قائلة: «لا ياسيدي، لديه أفضل أغطية» وقالت لها السيدة: «أرينيها»، وجلبت المريضة الأغطية إليها وأرتها إياها، وعندما حاولت فتحها لم تستطع ذلك وقالت لأمها: «إنها واسعة جداً لا أستطيع مدها فوق الفراش»، وبناء عليه أجابتها

أمها: «تعالى إلى القاعة وافتحىها هناك»، وبذلت الممرضة جهدها لفعل ذلك، لكنها أخفقت، وقالت: «ببساطة إنني لأستطيع مدها كلها هنا»، وقالت الأم المندهشة وقتها: «أذهبى إلى الشارع، إلى مكان السوق، الذي هو الآن فارغ، فلا شك أنك ستنجحى في مدها هناك»، لكنها لم تستطع أن تفعل ذلك لاهي ولا الممرضة، فقالت والدهشة تعلوها:

«إن الغطاء واسع إلى حد أننى لأستطيع إيجاد نهايته، وأعتقد أن انكلترا كلها ستكون صغيرة جداً ليغطيها»!

لقد ولد توماس من زواج شرعى، ومن أبوين شريفين، وكان والده غلبت في بعض الأحيان عمدة لندن، وكان اسم أمه ماتيلدا، وكانا معاً من أهل لندن، من الطبقة الوسطى، ولم يكونا ممن يربح المال عن طريق الربا، أو متورطاً بالأعمال، بل عاشا بشكل محترم على دخلهما.

ويمكن لنا أن نستنتج أن والده تلقى بعض الاشارات العلوية فيما يتعلق بمستقبله، ونعلم ذلك من أنه عندما كان طفلاً أمره أبوه أن يذهب إلى روبرت رئيس ميرتون Merton حتى يتعلم لبعض الوقت في ذلك البيت الدينى، وجاء في أحد الأيام أبوه لرؤيته، وعندما جلب الطفل إلى حضرة راعي الدير مع والده، قام الأب بالسجود أمامه متعبداً إياه، وغضب الراهب وقال والدهشة تعلوه: «ما الذى تفعله أيها الرجل الأحمق، أتسجد أمام قدمي ابنك؟ إن التمجيد الذى تفعله له، ينبغى بالحري أن يفعله لك»، ورد عليه الأب بصوت منخفض: «إننى أعلم يامولاي الذى أفعله: إن هذا الطفل سيكون عظيماً في نظر الرب».

وهكذا أمضى توماس سنوات طفولته، ثم عندما صار صبياً، وبعد ذلك عندما وصل سن البلوغ ببساطة في بيت أبيه وفي مدرسة المدينة، وعندما كان شاباً درس في باريس، وشارك بعد عودته في بعض شؤون مدينة لندن، حيث صار كاتباً ومحاسباً لدى عمدة المدينة، وخلال هذه

الوظائف وجه نفسه بطريقة جديدة بكل مديح، وحصل على معلومات عن العالم، لذلك لم يجد في مستقبل الأيام صعوبة في ادارة شؤون كنيسة انكلترا ورعاية مصالحها العامة مع شؤون المملكة ومشاكلها بحذر وحكمة، وبرهن على كفاءة وعظمة حقيقية.

وأظهر بكت امكانيات واعدة في عمله لدى رئيس الأساقفة ثيوبولد، مما جعل الملك يتخذه مستشاراً لانكلترا في سنة ١١٥٥، وأعطاه هذا مسؤولية الاشراف على الأعمال الديوانية لهنري، وكذلك نال دوراً في الادارة الملكية.

سنة خمس وخمسين مائة وألف

وبعد تتويج هنري الثاني ملكاً على انكلترا على يدي رئيس الأساقفة ثيوبولد، وبناء على توصية من رئيس الأساقفة هذا، وبوساطته، وبتحريض أيضاً من هنري أوف بليوس، أسقف ونشستر، أخو الملك ستيفن، جعل توماس مستشار الملك، مؤثراً إياه على الآخرين، لكونه رجلاً يقظاً، وفاعلاً، وعى مسائل عظيمة في عقله، وكان مجرباً في عدد كبير من الأعمال، ولقد قام بأعباء واجباته العملاقة وماقتضاه منه منصبه في سبيل شكر الرب ولصالح رخاء المملكة وتقديمها كلها، وكانت انجازاته كبيرة إلى حد يمكن للمرء أن يشك فيه: هل خدم هو الملك بتميز عظيم وكفاءة أكثر، أم عمل في سبيل المنفعة العامة أكثر في السلم أو في الحرب.

وتمتعت انكلترا النبيلة بربيع ثان، جاء بالفعل من خلال نشاط وآراء المستشار، ومن خلال التعاون المخلص لرجال الدين والايالات والبارونات، فقد جرى احترام الكنيسة المقدسة، وأضيفت المناصب

الشاغرة على الأساقفة ورعاة الديرة وعلى رجال الدين الأمناء من دون رشوة أو شراء، وحقق الملك بفضل من ملك الملوك في أعماله الازدهار، فازدادت مملكة انكلترا في غناها، وانهمرت عليها البركات، ونبتت من نبع الخصب والكثرة، فقد زرعت التلال، وبذرت الوديان بالقمح، وامتلأت، وعجت الحقول بالقطعان والحظائر بالأغنام.

وكانت لندن مسقط رأس بكت أوسع مدن البلاد وأكثرها ازدهاراً، وفي سبعينات القرن الثاني عشر عندما كتب فترزستيفن سيرة حياة بكت، غدت عاصمة انكلترا، فقد أعاد فترزستيفن إلى الحياة أبنيتها وشعبها من خلال وصفه المشرق.

يوجد في كنيسة القديس بولص المقر الأسقفي، وقد كانت في إحدى المرات رئاسة أساقفة، واعتقد بعضهم أنها ستكون كذلك مرة أخرى، لولا أن لقب رئاسة الأساقفة للشهيد المبارك توماس، ولولا أن وجود جسده قد حفظ ذلك الشرف والمكانة إلى الأبد لكنيسة كانتربري، حيث هو الآن، لكن بما أن القديس توماس جعل المدينتين ممجدين: لندن بولادته، وكانتربري بموته، فإن كل واحدة منهما يمكنها محقة ادعاء التقدم على الأخرى وذلك بالنسبة لاحترام ذلك القديس، وفيما يتعلق بممارسة العبادة المسيحية يوجد في لندن وفي ضواحيها ثلاث عشرة كنيسة دير عظيمة، وإلى جانبها هناك مائة وست وعشرين كنيسة أبرشية أصغر.

ويوجد إلى الشرق قلعة بالاتين Palatine [قلعة لندن] وهي قلعة عظيمة جداً وحصينة: وقامت الأسوار على أساسات عميقة، وهي مثبتة بملاط مزج بدماء الحيوانات، ويوجد إلى الغرب قلعتان محصنتان تحصيناً عظيماً، ويمتد من هناك سور عملاق وكبير جداً له سبع بوابات مزدوجة، وأبراج على طول الجانب الشمالي توزعت على مسافات منتظمة، وكانت لندن في إحدى المرات مسورة وقد استدار حولها السور

من جهة الجنوب، غير أن نهر التيمز العملاق، والمليء بالأسماك بكثافة مع مدّ البحر جرى ضد الفتحات التي وجدت في السور، ومع الأيام هدم هذه الأسوار، وفي أعلى المجري النهرى إلى الغرب هناك القصر الملكي لـ [وستمنستر] وهو واضح تماماً مرئي فوق النهر، ذلك أنه بناء لامثيل له في شرافاته الدفاعية وحصانته، وهو يتعد حوالي المليون عن المدينة، ويتلاقى هناك مع ضاحية شعبية.

وهناك في كلّ مكان خارج هذه البيوت في الضواحي، وعلى مقربة منهم حدائق واسعة وجميلة عائدة إلى السكان، وقد زرعت هذه أيضاً بالأشجار، كما ويوجد على الجانب الشمالي مراعي وأراضي مرجية جميلة، يجري خلالها أنهار صغيرة، في نهاياتها طواحين تصدر أصواتاً مفرحة، ويقوم بالجواريق القريب غابة عظيمة، فيها مراعي حيث هناك مساكن حيوانات متوحشة مثل: الوعول، والأيل، والخنزير الوحشي والجواميس، ولم تكن الأراضي المفلوحة التابعة للمدينة حقولاً جرداء، بل كانت سهولاً خصبة مليئة بالمزروعات، تنتج محاصيل ممتازة، وتملاً مخازن الفلاح بكميات الحبوب.

وكان هناك أيضاً خارج البلدة في الجانب الشمالي آباراً جوفية، مياهها حلوة نقية، تتدفق فوق الحجارة البراقة، وبين هذه الآبار آبار مقدسة منها بئر كليركن Clerken وبئر القديس كلمنت، وهي آبار مشهورة ويتردد على زيارة هذه الآبار كثير من الناس، ويؤمنها عدد كبير من التلاميذ من المدارس، والشباب من المدينة وذلك عندما يذهبون في نزهات للاستمتاع بالهواء النقي في أمسيات الصيف، والحياة في الواقع في هذه المدينة طيبة عندما يكون لها حاكم طيب.

ويمضي الذين يشاركون في مختلف الأعمال، والذين يبيعون البضائع، أو يؤجرون أنفسهم للعمل، كل صباح إلى أماكن أعمالهم تبعاً لمصالحهم، وبالإضافة إلى هذا يوجد في لندن على ضفاف النهرين الخمور المعروضة

للبيع في السفن والحانات العائدة لباعة الخمر حوانيت تقدم الأطعمة المطبوخة للناس، وهكذا يمكنك أن تجد الطعام تبعاً للموسم: من اللحوم المشوية والمقلية والمغلية، والأسماك الكبيرة والصغيرة، وهناك لحوم عادية للفقراء، وأنواع فاخرة للأغنياء، وتتوفر أيضاً أنواع الطيور من صغير وكبير، وإذا ما حدث بشكل غير متوقع أن استقبل أحد السكان بعض الزوار المتعينين من سفرهم، والذين يمكن أن يفقدوا وعيهم إذا ما توجب عليهم الانتظار حتى جلب بعض الطعام الجديد لطبخه، أو حتى يجلب الخدم الخبز، أو الماء للاغتسال، إنهم يسادرون مسرعين إلى ضفة النهر فيجدون هناك كل ما يحتاجونه، ومهما كانت عظمة أعداد حشود الجند والرحالة الذين يدخلون إلى المدينة، أو يستعدون لمغادرتها، في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل، إنهم لن يصبروا كثيراً عن الطعام، ومثلهم الذين يخرجون من المدينة من دون عشاء، فلقد كان بإمكان كل إنسان تجديد نشاطه وانعاش نفسه بالطريقة التي يرغب بها، والذين يرغبون بتسلية أنفسهم بشكل مميز، لا يحتاجون للبحث حتى يجدوا سمك الحنش أو طيور أفريقيا أو الكروان الاينوفي، ذلك أن هذا المطبخ العام كان موائماً جداً للمدينة، وجزء من أجزاء خدماتها اللطيفة، ذلك أن الحكمة الموروثة عن أفلاطون قررت أن فن الطبخ هو تقليد لصنع الدواء، وهو يزين مناطق الحياة الحضارية.

ويوجد مباشرة خارج أحد الأبواب حقل منبسط ناعم [سمت فيلد] بالحقيقة والاسم، ويقام هناك خلال كل ستة أيام من أيام الأسبوع —مالم يعترض ذلك يوم عيد رئيسي— عرض شهير للخيول الجميلة للبيع، ويحضر هناك الأيرلات والبارونات والفرسان الذين يكونون في المدينة، ويخرج عدد كبير من أهل المدينة إلى المعرض للمشاهدة أو للبيع، وإنه لمن الممتع أن ترى الخيول القصيرة والسريعة بألوانها اللامعة، وهي تجري في حلباتها في حركات رشيقة تضع خلالها حوافرها الأمامية على

جهة واحدة، ثم يمكن للمرء أن يشهد إثر هذا الخيول الصالحة للسادة، وهي تتحرك حركات أقل انسيابية لكن فيها رشاقة وقوة وذلك أثناء ركضها، وتجدها هنا خيولاً أصيلة، لكن لم تتعود بعد على اللجام، وهي تقفز قفزات عالية أثناء سيرها، وكانت هناك أنواع أخرى من الخيول المعدة للنقل وهي قوية ونشيطة، وبعد هذا كله هناك خيول الحرب، وهي عالية الثمن ذات قوام جميل ومنظر بهي مع أذنين تتحركان بسرعة، ورقبة مرتفعة وأرداف كبيرة، وعندما تعرض هذه وتظهر طريقة سيرها، يجرب الباعة أولاً الخيول اللطيفة، ثم الخيول السريعة، حيث تتحرك الأطراف الأمامية معاً وكذلك الخلفية، وعندما يكون هناك سباق على وشك الشروع به، تدخل به الخيول القوية والسريعة وهنا تتعالى الأصوات، وتصدر الأوامر باستبعاد الحيوانات الضعيفة، ويحضر الفرسان الذين سيمتطون هذه الخيول السريعة أنفسهم للسباق، وقد يكونون ثلاثة، وأحياناً اثنين على حسب الاتفاق، وينبغي أن يكون هؤلاء الفرسان بارعين في قيادة الخيول، ويضعون بالعادة اللجم في أفواه الخيول، ومن أجل أن يبدأ السباق بشكل جيد هناك رئيس مسؤول، وتحضر الخيول وتدخل في أجواء السباق حسب الامكان، وتتحرك أطراف الخيول، وهي عديمة الصبر أثناء الانتظار لذلك لا يمكنها الوقوف بثبات، وعندما تصدر شارة السباق يعدون بأقصى ما أمكنهم، ويندفعون في الحلبة بسرعة شجاعة، ولأن الفرسان حريصين على نيل النصر، فإنهم يستخدمون مهامزهم لحث الخيول المطلقة العنان، ويحثونها أيضاً بالصراخ وبالسوط، ولا بد أنك ستوافق هرقل على قوله: « كل شيء بالحركة»، وستعرف أن زينون قد أخطأ تماماً عندما قال: «لا توجد حركة ولا يوجد هدف للوصول إليه».

وإلى جانب هؤلاء تقف في طرف آخر من الميدان بضائع أهل المنطقة من أدوات الفلاحة إلى الخنازير بأطراف طويلة، والبقر بأثداء مليئة،

والثيران ذوات الحجم الهائل، والأغنام ذات الأصواف، وتقف أيضاً أكاديش صالحة للفلاحة، بعضها كبير مع فلوله، ويتبع بعضها الآخر عن قرب مهرها.

ويقدم إلى هذه المدينة كل أمة تحت قبة السماء، ويجلب التجار بسرور بضائعهم بوساطة البحر، فالعرب يرسلون الذهب، والتوابل السبئية والبخور، ويجلب السكيزيون الأسلحة، وتأتي زيوت التمور من بلاد بابل الغنية والكبيرة، وترسل بلاد النيل أحجاراً كريمة، ويجلب رجال النروج وروسيا الفراء وجلود السمور، ولم تكن الصين غائبة بحريها الأرجواني، ويأتي الغاليون ومعهم خمورهم.

وبالنسبة للتاريخ ظهر أن لندن أقدم بكثير من مدينة روما، ومع أنها تنحدران من الحدود التراجانيين، لقد تأسست من قبل بروتوس قبل روما التي تأسست من قبل روميلوس وريموس، حيث ما برحوا يمتلكون الشرائع نفسها من أصلهم العام، وهذه المدينة مثل روما مقسمة إلى أقسام، ولها مجلس عمد سنوي بدلاً من المجالس، ولها تنظيم للسلادة ومجالس إدارية أدنى، وتمتلك في شوارعها مجاري وقنوات مياه، وفيها أماكن محددة لسماع القضايا ولعرضها والحكم فيها، وفيها عدد من المحاكم، وهي تعقد اجتماعاتها المنفصلة في أيام محددة.

ولا أعتقد بوجود مدينة سجلها أفضل بالنسبة للكنيسة ولأعمالها، فهي تقدم الاحترام والتبجيل للأوامر الربانية، وتحافظ على أيام الأعياد، وتقدم المساعدة والضيافة للغرباء، وتؤكد أعمال الخطوبة، وتعقد الزيجات، وتحتفل بالأعراس، وتقيم الاحتفالات، وتحتفي بالضيوف، ويمكن أن نضيف أيضاً: تهتم بالجناز ودفن الموتى، ومصائب لندن هي السكارى الحمقى الذين يشربون بلا حدود، والحرائق المتوالية.

ونضيف إلى ماتقدم أن غالبية الأساقفة ورعاة الديرة في انكلترا هم

من أهل لندن ورجالها الأحرار، ويمتلك كل واحد منهم بيته الفخم في بلدته، ففيها يعيشون ويمضون معظم أوقاتهم، ويذهبون إلى لندن عندما يستدعون لحضور اجتماع مع الملك أو مع مطرانهم، أو ينحدرون إلى هناك لقضاء مشاغلهم الخاصة.

وينشغل الشباب في أيام الأعياد خلال الصيف في رياضات الرمي، والركض، والقفز، والمصارعة، ورمي الحجارة، وقذف الرماح إلى ما وراء اشارات محددة، وبالقتال بالسيف والترس.

وتقود أفروديت رقصات الفتيات، حتى تجد الأرض تهتز تحت الأقدام المتطايرة، حتى ظهور القمر.

وفي الشتاء هناك قبل كل يوم عيد تقريباً، وقبل الغداء، إما خنازير وحشية مسلحة بأنياب قاطعة تقاتل من أجل حياتها، أو من أجل لحمها، أو ثور قوي مع قرون متينة للنطح، أو دبة كبيرة تترك لانشاب قتال مع كلاب صيد تطلق عليها.

وعندما تثور الزوابع العظيمة في الشمال، ويتجلد السور الشمالي من المدينة، ينطلق إلى هناك جماعات من الشباب للعب فوق الجليد، فبعضهم يركض بسرعة فائقة فوق الجليد وهو مفتوح الساقين أو يتزلج فوق كتلة كبيرة من الجليد، ويصنع آخرون مقاعد من كتل ضخمة من الجليد، وفي الوقت الذي يجلس فيه أحدهم فوق المقعد، يركض الآخرون بأيدي متشابكة نحو الأمام ويجرون المقعد خلفهم، وغالباً ما يندفعون بسرعة عظيمة إلى حد أنهم قد ينزلقون فينكبون جميعهم على وجوههم، ويضع آخرون أكثر براعة في رياضة الشتاء، على أقدامهم عظام الساق لبعض الحيوانات، ويربطوها بإحكام حول كعابهم، ويحملون في أيديهم أعمدة مغطاة بالحديد، يضربون فيها من وقت لوقت ضد الجليد، وتراهم مندفعين بسرعة فائقة فوق الجليد، حتى لكأن أحدهم طائر يطير، أو رمية

قذفت من آلة حرب، ويقوم في بعض الأحيان اثنان منهم، بناء على اتفاق ضد بعضهما من مسافة بعيدة جداً، وعندما يقتربان من بعضهما بعضاً، يرفعان الأعمدة ويسدد كل واحد منهما على الآخر، والذي يحدث هو أن يسقط أحدهما أو كلاهما، لكن ليس بدون جراحة جسيمة، لأنها عندما يسقطان تندفع أجسادهما إلى مسافة بعيدة عن بعضهما بفعل قوة ركضهما، وحيثما لامس الجليد رأسيهما، يكشط الجلد تماماً، وغالباً ما يحدث أن تنكسر ذراع أو ساق، إذا ماسقط الضحية مع عموده تحت خصمه، لكن أعمارهم فيها جشع نحو الفخار، فالشباب يتشوقون إلى النصر، ويمارسون المباريات الخادعة من أجل تعويد أنفسهم على الشجاعة في معارك حقيقية.

ويجد كثير من الناس المتعة بالرياضة مع الطيور في الهواء، ومع الصخور والنسور والعقبان، ومع الكلاب التي تصطاد فريستها في الغابات، وامتلك السكان الحق بمطاردة الفرائس في مدل سكس وفي هارتفورشير، وفي جميع منطقة تشلترن Chiltern ، وفي كنت حتى نهر كري Cray.

وأنجبت هذه المدينة في العصور المسيحية الامبراطور قسطنطين الكبير ابن الامبراطورة هيلينا (حنه)، وهو الذي منح روما وجميع الشارات الامبراطورية للرب وللقديس بطرس، وللبابا سلفستر، البابا الروماني [منحة قسطنطين]، فله فؤوض منصب السياسة، فهو لم يعد يشعر بالسرور إذا مدعي باسم الامبراطور، بل بات يفضل لقب «المدافع عن الكنيسة الرومانية المقدسة»، وخشية منه أن ينزعج المولى البابا بضجيج الحياة المدنية وصراعاتها التي تحدث أثناء حضوره، أثر هو نفسه أن يترك المدينة التي منحها للمولى البابا، وبني لنفسه مدينة بيزنطة، وفي العصور الحديثة أنجبت لندن أيضاً الملوك الرائعين المشهورين:

الامبراطورة ماتيلدا، والملك الشاب هنري بن هنري الثاني، ورئيس

الأساقفة توماس المبارك، ذلك الشهيد الرائع في سبيل المسيح، فهي لم تنجب قديساً طاهراً خيراً منه، ولا واحداً عزيزاً أكثر منه على قلوب الرجال الطيبين في جميع أرجاء العالم اللاتيني.

هناك تعارض معتبر بين رواية فترزستيفن، وماكتبه بمهارة روائية جيرالد أوف ويلز، وفي نظرة نحو أخبار حوادث أيام هنري الثاني الأخيرة، نجد هذه الرواية القصيرة عنه وعن إليانور أوف أكوين تظهره في ذروة حقله وضمينته.

عندما انقضت ستا الحرب (١١٧٤) وتوقف القتال مع التعذيب، عزا الملك نجاحه — مثله في مثل فرعون آخر — لا إلى الرحمة الربانية بل إلى قوته، وجعل قلبه قاسياً، وعاد برعونته إلى بؤرة شروره المعتادة، أو بالحري، عاد إلى بؤرة أعظم شروراً، ومنذ أن انحدر أخذت الأشياء تزداد سوءاً، ولكي أتولى ذكر واحدة من هذه المساويء، وأدع البقية: لقد تولى سجن زوجته الملكة إليانور عقوبة لها على تدمير زواجهما، ذلك أن خيانتها الزوجية التي كانت سرية من قبل، باتت الآن مكشوفة وواضحة، وهي لم تكن مع «وردة نقية» حسبما دعيت بشكل زائف وسميت، بل بالحري مع واحدة غير طاهرة أو نقية، وبما أن الناس يقلدون ملوكهم، هو لم يسيء فقط بسلوكه الشخصي، بل بالمثل السيء الذي ضربه (١٥).

هذا ومعروف عظيم المعرفة كيف تصرف إليانور ملكة فرنسا عندما كانت في فلسطين فيما وراء البحار، وكيف تصرف لدى عودتها نحو زوجها الأول، ثم نحو زوجها الثاني، وكيف أن أولادها بعثوا آمالاً عظيمة عندما كانوا شباباً، لكن هذه الآمال ذبلت وتلاشت.

فمن ابنتيها: الصقلية والسكسونية، توفيت الأولى دون أولاد، وتوفيت الثانية بدون سعادة، واحدة بدون نتاج، والثانية لم تكن خلوة من

التعاسة، أما فيما يتعلق بالآخرين: الفرع الاسباني والفرع الألماني، والفرع البريتاني، ستكون الأجيال المقبلة في وضع يمكنها من الحديث عن مصيرهم، دعونا لانمضي فيما بينهم، حيث أن بعضهم قد يجد هذا مضراً ومؤذياً، ومن المؤمل، بإرادة الرب أن يأتي بعض الخير من الزواج الاسباني السعيد.

ومن المعروف أيضاً بشكل واضح أن ابنتها من الملك لويس ملك فرنسا: واحدة تزوجت من هنري كونت شامبين، وتزوجت الثانية من أخيه ثيوبولد كونت بليوس، وقد سقطتا مع ما أنجبته في فلسطين وفي بلاد الاغريق..

ولكي نبين كيف كان نسل الملك هنري ممتحنين، علينا فقط أن نتذكر أن الامبراطور هنري الخامس الذي تزوجت إليه ماتيلدا، ابنة هنري الأول وأم هنري الثاني، قام من أجل مطامح دنيوية بأسر أبيه الطبيعي وتقييده بالأغلال، ثم كرر فعلته هذه مع أبيه الروحي — أعني بذلك البابا باسكال — وبعد ذلك تخلى عن حكم الامبراطورية، وذهب للترهب في غربي بريطانيا، قرب تشستر، وعاش حياة قداسة وتوبة حتى موته، وعندما عادت الامبراطورة ماتيلدا إلى أبيها في بلدها، زوجها من غيوفري كونت أنجو، مع أن زوجها كان مايزال حياً، ورزق غيوفري منها بثلاثة أولاد، اثنان منهم توفيا بسرعة كبيرة وبترًا وهما في ريعان الشباب على الرغم من الآمال العظيمة التي علقت عليهما، وبدأ الثالث بشكل أفضل مما انتهى إليه.

ومجدداً، عندما كان غيوفري أوف أنجو كبير أمراء فرنسا، استفاد من الملكة إليانور، ولهذا السبب غالباً ما حذر ابنه هنري، وأنذره، وأخبره ألا يلامسها، وقد قيل إن سبب ذلك لكونها زوجة مولاه، ولكونه قد عرفها هو نفسه شخصياً، وآخر هذه الآثار المربعة المغضبة، لقد روي أن الملك هنري قد نام زانياً مع ملكة فرنسا المذكورة، وانتزعها من مولاه وزوجها

من نفسه، وإنني أتساءل: كيف يمكن لأي شيء سعيد أن يأتي من هذه الزيجات؟.

وليس على غرار جيرالد أوف ويلز، قام المؤرخ رالف أوف ديسيتو **Diceto** بالكتابة حول الأحداث التاريخية بطريقة إيجابية، وقد بدأ حكايته عن حكم هنري الثاني مع حوادث سنة ١١٥٥.

ولد الولد هنري في لندن لهنري ملك انكلترا والملكة إليانور في ٢٨ شباط، وقد جرى تعميده من قبل رتشارد أسقف لندن.

وتم انتخاب روبرت عميد سالسبري أسقفاً لإكستر **Exeter** ، وجرت سيامته من قبل ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري.

وجرى تتويج فردريك ملك ألمانيا امبراطوراً من قبل هادريان في كنيسة القديس بطرس [روما]، وغادر هنري أوف بليوس أسقف ونشستر، انكلترا دون الحصول على إذن الملك، ونتيجة لذلك أمر الملك بهدم ستة من قلاعهم. وتم حرمان وليم بيفيريل **Peverel** أوف نوتنغهام من ميراثه لأنه أعطى السم إلى رانولف إيرل تشستر، واستولى الملك على حصن غلوستر وعلى قلعتي بردجنورث **Bridgnorth** وويغموور **Wigmore** ، الذين حصنهم هيوغ أوف مورتايمر **Mortimer** ضده.

سنة ست وخمسين ومائة وألف

عبر الملك هنري القناة من دوفر، ونزل خارج وزانت **Wissant** ، حيث قابل ثيري كونت فلاندرز والكونتسه سييل، التي كانت عمته.

سنة سبع وخمسين ومائة وألف

أنجبت الملكة إليانور ولداً ذكراً في اكسفورد، أطلق عليه اسم رتشارد، وعبر الملك هنري عائداً إلى انكلترا، وأعاد مالكولم ملك اسكوتلندا إليه مدينة كارل آيل، وبلدة بامبره، ونيوكاسل فوق التاين Tyne، ومنطقة لوثيان Lothian.

ووصل ثيري كونت فلاندرز والكونتسه سييل إلى القدس.

سنة ثمان وخمسين ومائة وألف

ذهب هنري ملك انكلترا ليلبس التاج في وورستر، غير أنه بعد القداس الديني وضع التاج على المذبح، غير راغب في أن يتوج ثانية [لأنه كان لديه اهتمام ضئيل بالرسوم].

وولدت الملكة إليانور ولداً سمي غيوفري.

وجرى صك نقد جديد في انكلترا.

وقدم توماس، مستشار الملك إلى باريس، وسط احتفال عظيم، بغية تلقي مرغريت ابنة ملك فرنسا، لتكون زوجة لهنري ابن ملك انكلترا.

وعبر هنري ملك انكلترا القنال فورسماعه نبأ وفاة أخيه غيوفري، واستولى على ننتس Nantes.

ومضى لويس السابع ملك فرنسا متقدماً خلال نورماندي، عازماً على الوفاء بنذره في جبل القديس ميكائيل، وقد جرى استقباله في الكنائس

الكاتدرائية برسوم دينية، وجاء الناس واحداً واحداً للترحيب به، وقدموا له كثيراً من الهدايا.

وقدم ملك انكلترا إلى باريس بناء على دعوة الملك لويس السابع ملك فرنسا، وجرى استقباله بالقصر، وأعطى مكاناً للإقامة في رواق كهنة نوتردام.

سنة تسع وخمسين ومائة وألف

قاد هنري الثاني ملك انكلترا جيشاً ضد طولوز، واستولى على عدد من القلاع الحصينة في تلك المنطقة، ولقد قيل:

لم يهاجم ملك انكلترا طولوز نفسها احتراماً للملك فرنسا الذي كان مقيماً بها، أما بالنسبة للملك فرنسا، فقد رغب عن طواعية بالبقاء بها مساعدة لكونت سانت جايل (صنجيل) الذي تزوج من أخته وأنجب منها أولاداً، وهكذا غدا الملكان متعاديان.

سنة ستين ومائة وألف

كان هناك انشقاق كنسي بعد وفاة البابا هادريان، فقد جرى انتخاب اثنين من البابوات، مع أن الاسكندر كان هو البابا الحقيقي، وقبل ملك انكلترا وكذلك ملك فرنسا بالاسكندر واعترفاً به كبابا، لكن امبراطور ألمانيا وجميع رجال الدين الألمان أيدوا أوكتافيان، وبعث الامبراطور إلى ملكي فرنسا وانكلترا يطلب منهما أن يقدموا مساندتهما إلى هذا البابا

نفسه، لكنه عبثاً فعل.

وتوفيت ملكة فرنسا، ابنة ألفونسو امبراطور اسبانيا أثناء الولادة، وقد ولدت ابنة، لحسن حظها بقيت حية، ولم يتقيد الملك لويس بوقت الحداد المعتاد، بل خلال أسبوعين تزوج من أدلا، ابنة الكونت ثيوبولد كونت بليوس، ورفض سمسون رئيس أساقفة رايمس تعميدها ملكة، لأن زواج أخت أدिला من فيليب أخي الملك قد فسخ بسبب القرابة الوشيعة بينهما.

وخطب هنري ملك انكلترا مرغريت ابنة ملك فرنسا، التي كانت تحت حمايته لابنه هنري، وبهذا ربح السيطرة على قلعة غيسور Gisors وكانت لديه نوايا منذ زمن طويل تجاه هذا الحصن، الذي كان موكلاً إلى فرسان الداوية، حتى يحين الوقت، يوم العرس بين الولدين حيث يجري تثبيته، ومهما يكن من أمر لقد ادعى ملك فرنسا الآن مع اخوان الملكة أن تاريخ اليوم قد حدد أبكر مما توقعوه، وكانوا لهذا مزعوجين جداً، وانطلاقاً من شعور العداوة نحو ملك انكلترا، انطلق ملك فرنسا وكونت ثيوبولد مع حلفائهما نحو تحصين دفاعات شومونت Chau-mont ، أملين بذلك تسبب الأذى وجلب العار لعدوهم، وجاء على كل حال ملك انكلترا مسرعاً مع رجاله وحاصر القلعة، وعندها انهزم الملك الفرنسي وكونت ثيوبولد، وبعد مضي عدة أيام أرغم القلعة على الاستسلام، واحتجز خمساً وخمسين من فرسان ثيوبولد أسرى في داخلها، وجرى الاحتفال بزواج ابن ملك انكلترا من ابنة ملك فرنسا بموجب السلطة المفوضة لهنري أوف بيزا، ووليم أوف بافيا، وهما كاردينالان كاهنان ومندوبان للكرسي المقدس، ومع هذا كله كان الطفل مايزال فقط في السابعة من عمره والطفلة في الثالثة، وحدث هذا في نوفبورغ Neufbourg يوم الخامس من تشرين الثاني.

سنة إحدى وستين ومائة وألف

جرت سيامة رتشارد رئيس شمامسة كوفنتري أسقفاً للكنيسة نفسها، وكان أبوه رتشارد أسقف تشستر، والذي تولى السيامة هو رئيس الأساقفة ثيوبولد، لأن القاعدة قضت أنه إذا كان أولاد الكهنة سلوكهم بالحياة جديراً بالتقدير، لايجري استبعادهم من المناصب المقدسة، ولا من الكاتدرائيات الكنسية، لابل حتى ولا من البابوية نفسها، فعلى سبيل المثال كان نيكولاس رجلاً من أصل انكليزي، وكان أبوه كاهناً، فغدا هو بابا باسم هادريان الرابع.

سنة اثنتين وستين ومائة وألف

حشد لويس ملك فرنسا وهنري ملك انكلترا قواتهما من جميع الجهات، وبدا أن الصدام المسلح بينهما أمر لا يمكن تجنبه، وعلى كل حال لقد تصالحا مع بعضهما بعضاً وجرى الصلح قرب فرتفال Freteval.

وولدت ملكة انكلترا بنتاً في روان، وقد منحتها اسمها، أي إليانور، وتوفي رتشارد أسقف لندن في الخامس من أيار. وأقسم أساقفة انكلترا ورعاة ديرتها يمين التبعية لهنري الابن الأكبر للملك، وكان الملك هو الذي أصدر أوامره إليهم للقيام بذلك، وكان توماس، مستشار الملك الأول بينهم في تأدية يمين الولاء، واحتفظ باخلاصه للملك مادام حياً، وبقدر ما رغب في أن يحكم.

والتقى فردريك امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة مع لويس

ملك فرنسا على مقربة من بيسانكون Besancon ، لاتخاذ قرار حول أي واحد من البابوين سيفضلان، وأعنى بذلك: أوكتايفان أو الاسكندر، وبذلك ينهيا الانشقاق الذي عانت منه الكنيسة.

وأوجدت وفاة ثيوبولد رئيس أساقفة كانتبري في ١١٦١ ضرورة اختيار خليفة له.

وجرى استدعاء جميع رجال الدين في منطقة كانتبري إلى لندن، وبحضور هنري ابن الملك والقضاة تم انتخاب توماس رئيس شمامسة كانتبري بشكل مهيب وبالاجماع رئيساً للأساقفة، وحمل هنري أسقف ونشستر الأنباء في أن توماس قد انتخب بلا معارضة، إلى قاعة الرهبان في وستمنستر، يوم الأربعاء قبل أحد الشعانين.

وتمت سيامته في يوم الأحد التالي من قبل هنري أسقف ونشستر، الذي كان آنذاك نائب الكرسي المقدس في لندن .

وجرى إرسال الرسل إلى البابا الاسكندري بأن المقترعين من الأساقفة في كانتبري قد اختاروا رئيساً لهم، باجماع كل الأصوات، وقد سيم رئيساً للأساقفة من قبل مجتمعهم، ولدى سماع البابا بهذا أعطى موافقته، وبناء عليه، عندما قرئت رسائل الأساقفة، ورسالة راعي دير الثالوث [أي راعي كاتدرائية كانتبري]، ورسالة الملك وضع الطلب بالموافقة أمام مجمع الكرادلة الكنسي، وقد وافق الجميع بدون اعتراض أو تردد وإثر هذا جرت مناولة طيلسان رئيس الأساقفة إلى الرسل وسط احتفاء عظيم واحتفال، وتناول رئيس الأساقفة توماس —المقيّد بالشروط المعتادة، وفي ظل قيود القداسة— الطيلسان من على المذبح العالي لكاتدرائية كانتبري.

وعندما ارتدى هذه الأثواب، التي حبست، بناء على أوامر الرب، على

أعلى رجال الدين، لم يغير فقط مظهره الخارجي، بل طرائق تفكيره وتوجهات عقله، حيث توقف عن الرغبة بالاهتمام بمسؤوليات المستشارية، وأراد بالحرى أن يعفى منها، وبذلك يمكنه أن يكرس المزيد من الوقت لمخاطبة رعيته، والاشراف على شؤون الكنيسة، ولهذا بعث توماس برسالة إلى ملك انكلترا، الذي كان آنذاك في نورماندي قدم بها استقالته من المستشارية وتخلّى عن الختم، وكان السبب الوحيد لهذه الاستقالة المفاجئة هو تصوره لواجبات المنصب الجديد.

يتعارض اطراء فترزستيفن حول تحول بكت مع معايير تحليل ديسيتو

في سياحته كان توماس بكت قد مسح بدهن الرحمة الربانية المرئية، حيث وضع جانباً الرجل الدنيوي، وتلبس يسوع المسيح، وتخلّى عن الواجبات الدنيوية لأعمال المستشارية، وكان مهتماً بالقيام بواجبات رئيس أساقفة جيد، وفي سبيل هذه الغاية راقب عقله مراقبة دقيقة، وكانت خطاباته حزينة، ولمصلحة ونجاة المستمعين إليه، وكانت أعماله أعمال رحمة وشفقة، وكانت قراراته مقرونة بالعدل والمساواة.

وكان يرتدي قميصاً من الشعر من أكثر الأنواع خشونة، وكان هذا القميص يصل إلى ركبتيه، وهو مليء بالطفيليات والحشرات، وغذى نفسه بقليل من الطعام، وكان شرابه المعتاد هو الماء المعد لطبخ العلف، وكان على كلّ حال أول من يتذوق الخمرة قبل أن يقدمها إلى الذين يجلسون إلى المائدة معه، وكان يأكل بعض اللحم الموضوع أمامه، غير أنه تغذى بشكل رئيسي على الخبز، علماً أن كلّ شيء كان نقياً للنقي، والمسألة هنا هي لوم الشهية وليس لوم الطعام، وعرض مراراً ظهره العاري لسوط النظام، ولبس فوق قميصه الشعري مباشرة رداء الرهبان، بحكم كونه راعي رهبان كانتيري، وارتدى فوق هذا ثوب شماس

ليماشي عادات رجال الدين، وكانت ربطة العنق، وهي رمز النير الجميل للمسيح، حول رقبته ليل نهار، وكان مظهره الخارجي مظهر رجل عادي، لكنه في داخله كان مختلفاً، وفي هذا قلد القديس سيباستيان والقديسة سيشيليا، فالأول مارس تحت رداء جندي أعمال جندي المسيح، وبينما غطت القديسة جسدها بمسح خشن لايساوي شيئاً، تزينت خارجياً بثوب حيك من الذهب.

وكان يغسل في زنزانته الخاصة كل يوم أقدام ثلاثة عشر متسولاً، وهو راعع على ركبتيه، وذلك تخليداً لذكرى المسيح، ومن بعد تزويدهم بالطعام كان يعطي لكل واحد منهم أربعة شلنات، وإذا حدث في أية مناسبة — وهذا أمر نادر — وحيل بينه وبين ممارسة هذا العمل شخصياً كان يحرص عظيم الحرص أن يوكل إلى أحدهم القيام بذلك، وعندما يكون وحيداً، إنه لدهش حقاً كيف كان يستغرق بالبكاء، ويتمثل عندما يكون أمام المذبح آلام الرب وكأنها قائمة بالجسد أمامه، وكان يناول القربان المقدس بطريقته الخاصة التي كان يقوى بها إيمان وسلوك الذين يشاهدون ذلك.

زد على هذا كان يرعى في بيته المعوزين والمحرومين، فيعطي الثياب لعدد كبير حتى يتمكنوا من مقاومة قساوة الشتاء، وكان في كاتدربري يستقبل كثيراً منهم شخصياً، ويجلس ملاصقاً لهم كأنه واحد من رهبانه، فيدرس واحداً من أكبر المجلدات، ويذهب بعد هذا ليزور الرهبان المرضى، من أجل أن يعلم ما يحتاجون إليه وليلبي رغباتهم، ولقد كان المستشار للمظلوم، وللزوج الأرملة، والصديق لليتامى، يضاف إلى هذا كان متواضعاً مواسياً للطيف وقاسياً تجاه المتكبر.

وكان رئيس الأساقفة توماس الرائع، معارضاً لتوقعات الملك، وكذلك لتوقعات كل انسان آخر، لذلك هجر العالم بشكل كلي، ولهذا عانى من تلك المحنة بشكل مفاجئ، التي هي من عمل يد الرب، وهي المحن

التي دهش الناس جميعاً تجاهها.

ثم نعود إلى ديسيتو ومعالجته للشقاق المتصاعد بين الملك ورئيس
الأساقفة.

سنة ثلاث وستين ومائة وألف

عندما أعد الملك هنري ملك انكلترا أراضي في نورماندي، وبريتاني،
ومين، وأنجو، وتورين، وأكوتين، بما رآه مناسباً، عاد إلى انكلترا، ورسا في
ثاوثامبتون في يوم ٢٥ كانون الثاني، وجاء توماس رئيس أساقفة كانتربري
لمقابلة الملك وعانقه، لكن بدون مشاعر طيبة، مشيحاً بوجهه بعيداً، الأمر
الذي كان بإمكان كل واحد من الحضور أن يراه، ووضع توماس الذي
ارتقى من رئيس لشمامسة كانتربري إلى رئيس للأساقفة، جانباً استقالته
من رئاسة الشمامسة وأجلها لبعض الوقت، وذلك على الرغم من طلب
الملك الملح جداً، وأخيراً استقال من هذا المنصب لأن الملك استجاب
لذلك، ومع أنه بهذا استرد رعاية الملك التي حرم منها نتيجة لهذا
التأخير، هو لم يعترف بهذا بشكل صريح (١٦).

جرى في ٢٢ تموز استدعاء روجر دي كلير، إيرل أوف هارتفورد إلى
وستمنستر وذلك من قبل توماس رئيس أساقفة كانتربري ليقدم له الولاء
من أجل قلعة تونبردج وأراضيها، لكن الإيرل رفض بتصميم طلب
رئيس الأساقفة، مؤكداً أن الاقطاع المختلف عليه كان عائداً إلى الملك
وليس إلى رئيس الأساقفة، وحقوق الخدمات العسكرية المترتبة عليه
والشؤون المالية العامة عائدة إلى الملك.

وقدم مالكولم ملك اسكوتلندا، وريس Rhys أمير جنوبي ويلز،

وأوون Owen أمير شمالي ويلز، وجميع نبلاء ويلز، السولاء إلى ملك انكلترا، وإلى ابنه هنري، وجرى ذلك في وودستوك يوم الأول من تموز.

وجرى بحث عام وتقصي في جميع أرجاء انكلترا لإيجاد من يمتلك حق الخدمة المدنية تجاه كل واحد على حده، وفي أثناء البحث في كنت قرر القضاة أن وليم أوف روس Ros يجب عليه تقديم السولاء إلى الملك وليس إلى رئيس الأساقفة، وذلك في أي عمل من أعماله، وهكذا سببت الكراهية الشخصية الأذى للكنيسة بشكل عام.

وعندما نقل رئيس الأساقفة توماس منصب مسؤولية المعيشة في آينزفورد Eynesford الشاغر وسلمه إلى واحد اسمه لورانس، ادعى وليم صاحب آينزفورد أنه هو نفسه يمتلك الحق للتعين في ذلك المنصب وطرد لورانس، ورد عليه رئيس الأساقفة فحرمه من الكنيسة، ولأن هذا حدث دون إخبار الملك، كان الأخير غاضباً، وأكد بالحقيقة أن كرامة الملك غير مفصولة عن كرامة مملكته، وأنه مامن قائد وجندي تابع للملك، ومامن واحد من وزرائه، ولا واحد من التابعين له (مهما كانت مكانتهم) سواء احتفظوا بقلعة أو بلدة أو غابة، يجوز حرمانه من الكنيسة بقرار من أي واحد من دون علم الملك، وذلك خشية تدنيس الملك من قبل المحروم، لدى زيارة قائد محروم له وقيام الملك بمعاقبته أو باستقباله في مجلسه.

وبعث الملك هنري أرنولف أسقف ليزوكس Lisieux ، ورتشارد رئيس شامسة بواتيه بسفارة إلى البابا الاسكندر، الذي كان آنذاك في منطقة الشقاق في فرنسا، ولقد عانيا لمدة ثلاثة أشهر، وتعرضا للمخاطر من البحر الهائج والأمواج العاتية ست مرات، ومع أنها بذلا جهوداً عظيمة ليحصلوا على التأييد بشأن قوانين المملكة في سلطات البابا، لقد كانا غير قادرين على تحقيق أي شيء، لذلك عندما عادا أخيراً لم يكن بإمكانهما فعل أي شيء للتخفيف من غضب الملك الذي انفجر الآن

ضد عدد كبير من الأشخاص.

سنة أربع وستين ومائة وألف

وقيل رغب ملك انكلترا في انزال عقوبات قاسية على بعض أعضاء رجال الدين الذين كانوا مدانين بجرائم، مقدراً أن تسلم مثل هؤلاء الرجال عقوبات أدنى مما يستحقون يحط من النظام ككل، ولهذا رسم بتحويل رجال الدين الذين عدّوا مجرمين بشكل واضح من قبل قضاته، إلى أسقفهم، والذين يجدهم الأسقف مجرمين، عليه أن يجردهم من سلطاتهم بحضور واحد من قضاة الملك، ويتوجب عليه أيضاً بعد المحاكمة أن يسلمهم لتلقي العقوبة.

وإثر هذا وضع رئيس أساقفة كانتربري أمام المحاكمة بسبب أعماله كمستشار، وظهر أمام المحكمة في ١٢ تشرين الأول في نورثامبتون، واجتمع هناك الأساقفة والإيرلات والبارونات من جميع المملكة، وذلك بناء على الأمر المستعجل من الملك، وجرى استدعاء روجر رئيس أساقفة يورك، وظهر هناك، وكان قد جرى بأمر من مستشارية توماس تعيين مشرفين على ممتلكات الأسقفيات، وبما أن توماس تجاوز كمستشار حدود سلطاته في حاشية الملك (استحوذ لسنوات كثيرة على قلعتي بيركهامستد وآي، وكان يفعل بهما ما يشاء) بدا ذلك لمعظم الناس متوائماً مع القانون الذي ينبغي اتخاذه لحساب مبلغ المرباح، ومع هذا كله، كان قبل أن يرسم رئيساً للأساقفة قد نال من هنري ابن الملك وولي عهده حق الحرية والاعفاء من الواجبات القاضية بتقديم حساب، وعلى كل حال، بما أنه كان من غير الممكن بالنسبة لتوماس أن يوثق هذا الإعفاء ويبرهن أنه قد منح له، قام قادة الكنيسة بإصدار حكم ضده، ولم يستطع هو لا

الاعتراف بالتهمة ولا بالادانة، بل ادعى ان ذلك كان لصالح رجال الدين.

وعلى هذا كان رئيس الأساقفة في وضع صعب، متهم بعدد كبير من التهم، ومصاب بكثير من الالهانات، ومحروم من تأييد الأساقفة، فقام برفع الصليب الذي كان يحمله، وغادر قاعة المحكمة، وفي الليلة التالية ترك المدينة بشكل سري، وأخفى نفسه عن مشاهدة الناس خلال النهار، وارتحل أثناء الليل، وبعد سفر عدة أيام وصل إلى ميناء سندويش Sandwich ، ومن هناك عبر في قارب صغير إلى فلاندرز، وأرسل الملك بعد اختفاء رئيس الأساقفة رسالاً إلى البابا الاسكندر الثالث في سنس Sens.

وكان بين التعليمات التي حملها الرسل من الملك عرضاً إلى البابا أن بإمكانه أن يبعث بقاضيين إلى انكلترا، يتوليان بحضور من الملك ورئيس الأساقفة حل الخلاف اللاديني بين الملك ورئيس الأساقفة، الذي جرت مناقشته في نورثامبتون، وإيجاد حل لأي قضية يمكن أن تظهر أثناء سير المناقشات، وذلك بعد سحب الاستئناف، وعلى كل حال عندما وصل رسل الملك إلى قصر رئيس أساقفة سنس، لم يكن رئيس الأساقفة موجوداً، لذلك لم يستطع بلاطه اعطاء جواب حاسم لمطالبهم، حيث أن ما طلب لا يتماشى مع القانون ولا مع العقل.

سنة خمس وستين ومائة وألف

وولدت آديلا ملكة فرنسا ولداً أطلق عليه اسم فيليب، وولدت إليانور ملكة انكلترا ابنة سميت جوانا، وعاد البابا الاسكندر إلى ايطاليا، ورحب به في روما.

وعندما كان الملك مقيماً في وستمنستر [القصر الملكي قرب لندن] جاء رينالد رئيس أساقفة كولون إلى انكلترا ليتسلم ماتيلدا، كبرى بنات الملك هنري، لتكون زوجة لهنري، دوق ساكسوني (١٧)، وحدث أنه عندما جاء نبلاء المملكة في أبهة عظيمة لإستقباله واللقاء به، رفض روبرت إيرل أوف ليستر، ورئيس القضاء الملكي، أن يعانقه، على أساس أنه منشق عن الكنيسة، ثم قلبت جميع المذابح التي أقام عليها المنشق قداساً.

هرب بكت إلى البابا في سنس، وذهب من هناك إلى دير سسترشيان **Cistercian** في بونتغني **Pontigny**، وتبنى هناك طريقاً للحياة كرسه على العزلة والدراسة، وزار في أحد الشعانين ١١٦٦، عندما كان حاجاً، فيزلي، حيث تسولى حرمان عدد من الأساقفة الانكليز كانوا يساندون الملك.

سنة ست وستين ومائة وألف

[بعث رئيس الأساقفة من منفاه رسالة إلى الملك جاء فيها:]

«من توماس رئيس أساقفة كانتربري إلى ملك انكلترا:

إنني أرغب رغبة عظيمة في رؤية وجهك والحديث معك، وذلك لصالحك، ولكن أكثر لصالحك، ذلك أنك برؤيتك لوجهي ستعيد إلى ذاكرتك الخدمات التي قدمتها لك، عندما كنت تحت طاعتك، لقد خدمتك باخلاص مرضياً ضميري، حتى —لعل الرب يساعدني في يوم الحساب— عندما يقف الجميع أمام حكمه ليتسلموا الثواب أو العقاب تبعاً لما عملوه عندما كانوا أحياء، ولا بد أنك ستتحرك شفقة عليّ، أنا

الذي توجب عليّ أن أعيش بمثابة متسول بين الأجانب، حتى في هذا الحال — شكراً للرب — لدينا كثيراً من الخيرات والنعمة».

ووضعت الملكة إليانور ولداً ذكراً سمته جون (١١٨).

ودعا الكاردينالان: وليم أوف بافيا، وجون أوف نابل — نائبا الملك — ملك انكلترا، ورئيس أساقفة كانتربري إلى الحضور معاً إلى مونت ميريل Montmirail، ومع أن رئيس الأساقفة شعر أنها يميلان أكثر إلى جانب الملك، سمح بمعالجة القضية، وجلس الكاردينالان جلسة علنية، وبذلك كان من الممكن إعادة اعتبار كاملة له شخصياً ولأتباعه وذلك وفقاً للقانون اللاهوتي، لكن رئيس الأساقفة المسلوب لم يرغب في أن يتعرض للمحاكمة، ولم يكن من الممكن إرغامه بأي شكل من الأشكال، حيث أن النائبيين اللذين لم يستطيعا إرغامه، ولم يرغباً بالقيام بذلك، عادا إلى البلاط البابوي مخففين.

وجاء الملك لويس السابع، ملك فرنسا إلى بونتغني، حيث أظهر الرهبان كلّ لطف نحو رئيس الأساقفة توماس لمدة عامين، ومن أجل ألاّ يتعرض رهبانية سسترشيان في انكلترا إلى أي أذى أخذه معه إلى سنس، ودفع نفقاته لمدة أربع سنوات في دير القديس كولومب Colombe.

سنة سبع وستين ومائة وألف

تزوجت ماتيلدا ابنة الملك هنري الثاني من هنري دوق ساكسوني، وقد رافقها إليه كلّ من إيرل آرندل وإيرل بمبروك وعدد كبير آخر.

وتخاصم ملكا فرنسا وانكلترا: وأحرق النورمان كومونت Chau- mont قرب غيسور Gisors وأسروا عدداً كبيراً من الفرسان

والمدينين، وانتقاماً لما حدث أحرق الملك الفرنسي أندل Andelys وهو بيت ريفي لرئيس أساقفة روان، وعاد إلى فرنسا في اليوم نفسه، بعدما خسر أكثر من ألف رجل أثناء السفر، ووقع بعد هذا عدد كبير من الفرسان الفرنسيين بأسر النورمان في بيرش Perche، ثم تصالح الملكان، وخطب رتشارد دوق أكويتين وابن الملك الانكليزي، إلى أليس الفرنسية، ابنة الملك.

سنة تسع وستين ومائة وألف

تزوجت إليانور ابنة ملك انكلترا من ألفونسو الثامن ملك كاستيل.

وعقد يوم ١٨ تشرين الثاني مؤتمر فيا بين الملك لويس السابع ملك فرنسا، والملك هنري الثاني ملك انكلترا، قرب باريس، حيث كان رئيس أساقفة كانتربري مقيماً، لكن توماس لم يقدم نفسه إلى ملك انكلترا، وكان هناك نقاش طويل حول إقامة سلام فيا بين الملك ورئيس الأساقفة، وبناء على نصيحة ملك فرنسا والأساقفة والنبلاء، زود ملك انكلترا بالتماس منه على شكل رسالة جاء فيها مايلي:

«نلتمس من مولانا الملك، بناء على نصيحة من البابا ورعاية، ومن أجل محبة الرب والبابا، وتشريفاً للكنيسة المقدسة، وفي سبيل نجاته ونجاة ولي عهده أن يتقبلنا ويشملنا برعايته وأن يعفو عنا وعن الذين معنا، والذين غادروا انكلترا من أجلنا، وأن يمنحنا سلامه مع الأمان الكامل منه ومن رجاله، بدون مشاعر رديئة، وأن يعيد كنيسة كانتربري إلينا حرة، وكاملة حسبها كانت بأيدينا بعدما صرت رئيساً للأساقفة، وأن يعيد جميع الممتلكات والمقتنيات التي كانت لنا، لتملكها بشكل حر، ومجيد وسلام، وذلك مثلما كانت الكنيسة وكنا أنفسنا وامتلكنا عندما

رقينا إلى رئاسة الأسقفية، وكذلك الأمر نفسه بالنسبة لأتباعنا، وعليه أيضاً أن يأذن لنا في استحواذ الكنائس العائدة لرئاسة الأساقفة، والتي غدت شاغرة بعدما تركنا البلاد، وبذلك يمكننا أن نفعل بها ما نرغب به ويرضينا».

ولم يعط ملك انكلترا موافقة كاملة لسببين: بما أنه لم يطرد رئيس الأساقفة، هو لم يكن ملزماً —تماشياً مع سمعة المملكة— بتغيير أي شيء باسم إعادة الاعتبار، كما أنه لم يكن ملزماً بأن يعلن إلغاء تمليك الممتلكات الشاغرة، التي جرى منحها لبعض الأشخاص، لكن حتى يعبر عن نفسه بأنه حاكم ملتزم بالقانون، أعلن أمام ملك فرنسا، أنه جاهز لإرضاء رئيس الأساقفة من جميع الجوانب، أو أنه إذا ما قرر مناقشة القضية، وعرضها للمحاكمة في القصر في باريس، بوجود نبلاء فرنسا هناك، أو بوجود الكنيسة الفرنسية واستخدامها لنفوذها، أو بوجود علماء من مختلف المناطق، يتولون فحص الأعمال بشكل عادل.

وهكذا تمكن ملك انكلترا، الذي أثار من قبل كراهية عدد كبير من الناس ضده، بوساطة هذه الكلمات أن يكسب الكثيرين إلى جانبه، وبهذه الوساطة كان من الممكن لملك انكلترا ولرئيس الأساقفة الوصول إلى نوع من الاتفاق، وذلك إذا مازفرض الملك رفضاً تاماً إعطاء رئيس الأساقفة قبلة السلام.

سنة سبعين ومائة وألف

عقد الملك يوم عيد الميلاد بلاطه في بلدة نينتس Nentes، بحضور الأساقفة والبارونات لجميع بلاد بريطانيا، وقد أقسم هؤلاء يمين الولاء له ولابنه غيوفري معاً، وعاد في أيام الصيام إلى انكلترا، وعندما

تعرض عدد كبير من حاشيته لمخاطر عاصفة بحرية هبت بشكل مفاجيء، نجا هو نفسه منها دون أن يصاب بأذى بفضل نعمة التقوى للرب.

وفي أثناء غياب بكت عن انكلترا، قرر هنري الثاني استخدام رئيس أساقفة يورك لتتويج ابنه الملك الشاب، وبهذا أعاد الخلاف الطويل بين رئيسي الأساقفة الانكليزيين حول الريادة.

وجرى في ١٤ حزيران رسم هنري، أول أولاد الملك هنري، ملك انكلترا، ولادة، ملكاً، وكان ذلك في وستمنستر، من قبل روجر رئيس أساقفة يورك.

وعبر الملك القناة، بعد تتويج ابنه، وعقد مؤتمراً في مونتميريل بينه وبين رئيس الأساقفة توماس، حيث كان ملك فرنسا حاضراً، لكن بعد جهود كبيرة، عندما جاءت ساعة العناق، ولأن رئيس الأساقفة قال: «إنني أقبلك تمجيذاً للرب»، رفض الملك القبله لأنها عرضت مشروطة، فلأن أجدادنا اعتادوا أن يولوا اهتماماً عظيماً للصيغ في القانون، هكذا اعتاد الملك على التمسك بنهايات بعض العبارات في كلمات رئيس الأساقفة، مع أنه تلفظها بضمير نقي، مثل أن تقول أحياناً: «حافظاً أمري» وأحياناً: «حافظاً مجد الرب» وأحياناً أخرى: «حافظاً إيمان الرب».

والتقى ملك فرنسا ووليم رئيس أساقفة سنس، وأسقف نافار-Nev-ers ثانية في فرتفال Freteval، وعندها — على كل حال — تفارق ملك انكلترا ورئيس الأساقفة مرتين، وترجلا مرتين، ومرتين امتطيا فرسيهما، وأمسك الملك مرتين بالركاب لرئيس الأساقفة، ثم حدث لقاء آخر في أمبوايز Amboise، للوصول بسرعة لتفاهم أسهل، وهنا توصل الملك ورئيس الأساقفة إلى اتفاق، وتدبر هذه المرة السلام بينهما

روترو رئيس أساقفة روان [الذي كتب]:

«إلى هنري ملك انكلترا، وإلى ابنه هنري ملك انكلترا، التحيات.

هل لك أن تعلم أن توماس، رئيس أساقفة كانتربري، قد أقام سلاماً معي، وفقاً لرغباتي، وبناء عليه إنني أمر أن يستطيع هو وأتباعه امتلاك سلام، وأن تنظر أنت إلى ذلك وترعاه، وفي أن يحصل هو وأتباعه الذين غادروا انكلترا من أجله، على مقتنياتهم بسلام وشرف، وأن يكون الحال مثلما كانوا عليه قبل ثلاثة أشهر من مغادرتهم انكلترا، واستدع إليك بعضاً من خيرة الفرسان ذوي الشرف في سولتوود Saltwood، وعليك —اعتماداً على أيماهم— أن تقوم بالبحث بشأن تقرير اقطاع رئيس أساقفة كانتربري هناك، واعمل مايلزم لتتأكد من حصول رئيس الأساقفة على اعتراف به كجزء من اقطاعه.

الشهود: رئيس الأساقفة روترو أوف روان، في شينون».

وبناء على هذه الضمانة عاد رئيس الأساقفة إلى انكلترا، ورسا في ميناء سندويش في الأول من كانون الأول .

وبعدما عاد توماس رئيس أساقفة كانتربري، وإثر دخوله إلى انكلترا، كتب رسالة إلى البابا، جاء في بعضها مايلي:

«....بعد وصولنا إلى كنيستنا، واستقبالنا بمحبة عظيمة من قبل رجال الدين والشعب، جاء إلينا عدد من الرسميين التابعين للملك وهم غاضبين، وقد طلبوا بناء على رغبة الملك ولصالحه أن نقوم بتحليل الأساقفة الذين كان قد جرى حرمانهم، أو جمدوا، لأن ماصنع ضدهم تنامي ليصل إلى العدالة على أنه ضد الملك، وقد أزاح جانباً عادات المملكة وقلبها... وقد أجبناهم: إذا مارغب أسقفا لندن وسالسبري أن يقسما أمامنا أنها سيطيعان أمرنا، إننا سنحللها من أجل سلام الكنيسة وصدوراً عن احترام الملك، وعندما حملت هذه الاجابة إلى الأسقفين،

أجابا أن قسماً من هذا النوع لا ينبغي تأديته إلا إذا توافق مع رغبات الملك!».!

وبينما كان توماس، رئيس أساقفة كانتربري في طريقه لزيارة الملك الشاب هنري، الذي كان في ذلك الوقت مقيماً في وودستوك، جرى استقباله بحفاوة كبيرة من قبل سكان لندن، وفي يوم ١٨ كانون الأول، عندما كان ضيفاً في ساوثوورك Southwark، وصل رسل من عند الملك الشاب إليه، محظرين عليه، بناء على أوامر الملك، أن يذهب إلى رؤيته، وبناء عليه، وعوضاً عن الذهاب، عاد إلى كنيسته، وهكذا رجع إلى كانتربري، وأعدّ العدة للاحتفال بعيد الميلاد هناك، وذلك بوجود عدد كبير من رجال الدين جاءوا من مختلف المناطق، للاجتماع هناك في سبيل معالجة عدد من مختلف الأعمال.

وفي يوم الميلاد صعد توماس —رئيس أساقفة كانتربري المنبر— ليتولى أداء موعظة للشعب، وعندما انتهى، وقام بالصلوات المعتادة للرب، وللبابا، وللملك، ولخلاص الشعب، وفيما الشموع مضاءة، قام بكل وقار بحرمان نيغل دي ساكفيل Nigel de Sackville، وهو ظالم عنيف لكنيسة هاردرز Hardres وكاهن الكنيسة نفسها، وحرماً أيضاً روبرت دي بروك الذي شوه فرساً من خيول رئيس الأساقفة نفسه كان يحمل طعاماً، وذلك بهدف الاهانة والحط من القدر.

وفي اليوم الخامس من أيام عيد الميلاد، عند حلول الظلام، وفيما رئيس الأساقفة مقيم في جناحه، ومعه أعوانه، حمل الغضب الشديد وليم دي تريسي Traci، ورينالد فتزأورسن Fitzursen، وهيوج دي مورفيل Moreville، ورتشارد برتو Brito وكان هؤلاء فرساناً أربعة جاءوا من نورماندي، حملهم الغضب على اقتحام الجناح، وهددوا باسم الملك، الذي كان مقيماً في نورماندي، وطالبوا بأن على رئيس الأساقفة أن يعيد الأساقفة الانكليز المجمعين إلى مراكزهم، وأن يحلل

المحرومين، فأجابهم: إنه ليس من صلاحية القاضي الأدنى إلغاء حكم الأعلى، ولا يمكن لأي إنسان أن يؤثر بما رسم به الكرسي المقدس، ومهما يكن الحال، إذا ما أقسم أسقفنا لندن وسالسبري أنها سوف يطيعان أوامره، سوف يحللها من أجل سلام الكنيسة، ومن خلال الاحترام للملك، واستبد بهم الغضب الشديد، وارتدت وجوههم، وبادروا نحو تنفيذ الجريمة النكراء التي دبروها، ومن أجل تنفيذها انسحبوا مسرعين.

ودخل رئيس الأساقفة إلى قلب الكنيسة، وذلك على الرغم من تحذير أعوانه، وكان الوقت قد قارب ساعة انشاد قداس العشاء، وهكذا تبع الرجال المتقدم ذكرهم، والعازمين على تنفيذ الجريمة خطوات رئيس الأساقفة، بعدما سلحوا أنفسهم، وعندما وصلوا إلى الكنيسة وجدوا أبوابها مفتوحة، تماشياً مع تعليمات رئيس الأساقفة التي قال فيها:

«نحن سوف لن نحول كنيسة الرب إلى قلعة، إنها ينبغي أن تبقى ملاذاً عالمياً في الأيام التي أطيح بها بالنظام فحلت الفوضى»، وفيما الحركة تغطي كل الجوانب، دخل الأربعة بوقاحة إلى الكنيسة، وبدأوا يصرخون: «أين الخائن للملك؟ أين رئيس الأساقفة؟» وعندما سمع رئيس الأساقفة ذكر اسمه، نزل من الدرجة الثالثة أو الرابعة للمنصة لمقابلتهم، وكان لتوه قد بدأ يصعد إلى المنصة، وقال: «إذا كنتم تطلبون رئيس الأساقفة، إنني هنا»، ورد على أجوبتهم الحشنة: «أنا مستعد للموت، إنني أفضل تأكيد العدالة، وحرية الكنيسة، على حياتي، وأعلن أن أتباعي ليسوا مسؤولين ليكونوا عرضة للعقوبة، ذلك أنهم لم يكونوا المثيرين للحالة» وعندما اندفع منفذوا الجريمة نحوه بسيوف مشهورة، قال: «إنني أعهد بنفسي وبشؤون الكنيسة إلى مريم المباركة، حامية قديسي هذه الكنيسة، وإلى دايونيسيوس المبارك» (١٩).

وفي أيام حياة بكت قدم وليم فترزستيفن صورة رفيعة التلوين وصف بها مقتل رئيس الأساقفة من قبل الفرسان الأربعة.

وضربه أحد الفرسان بسطح سيفه بين كفيه، وهو يقول: «طر، إنك رجل ميت»، غير أن رئيس الأساقفة وقف دونها حراك وقدم رقبتة [للقطع]، وأوقف نفسه وكرسها للرب، بينما كانت شفتاه ترددان أسماء رؤساء الأساقفة المقدسين الذين استشهدوا قبله، وصرخ واحد من الأعداء قائلاً: «أنت أسيرنا، تعال معنا» ووضعوا أيديهم عليه وأرادوا جره إلى خارج الكنيسة، ولكنهم كانوا يخشون أن الناس قد يتولون انقاذه من بين أيديهم، وأجابهم رئيس الأساقفة قائلاً: «لن أتحرّك من هاهنا، عليكم هنا اتمام عملكم وتنفيذ رغباتكم واطاعة أوامركم»، واصطرع معهم بقوة وإرادة، وذلك بينما أمسك به الرهبان وردوه أيضاً إلى الخلف، وكان معهم أيضاً السيد ادوارد غرم Grim، وقد صب عليه سلاحه [ليصد الضربات]، ولقد تلقى أول ضربة بالسيف وجهها وليم دي تريسي نحو رأس رئيس الأساقفة، وجرح بهذه الضربة جراحة كبيرة رئيس الأساقفة في رأسه أثناء انحنائه نحو الأمام، وكذلك أصيب غرم اصابة بالغة.

ومسح رئيس الأساقفة بذراعه الدم الذي تدفق من رأسه، وقدم الشكر للرب قائلاً: «بين يديك، أضع أيها الرب روحي»، ولقد قال ذلك بعدما ركع، وكان يصفق بيديه، ويمدّهما نحو الرب، وتلقى ضربة ثانية على رأسه، سقط على إثرها منكباً على وجهه، إلى جانب المذبح الذي كان هناك، وكان مكرساً للقديس بندكت، ولقد اعتنى به ومنحه — على كلّ حال — النعمة في أن سقط بشكل مجيد، مغطى حتى عقيقه بردائه، وكأنه كان يصلي ويتعبد، ولقد سقط على الجانب الأيمن، وكأنه يتقدم نحو اليد اليمنى للرب، وفيما هو ممدد من اثر الضربة، ضربه رتشارد بریتو ضربة شديدة إلى حد أن السيف تحطم أمام الرأس وبلاط الكنيسة، وكان يردد حين ضربه: «خذ هذه الضربة من أجل حبي لمولاي وليم،

أخو الملك» [الذي حرم توماس زواجه من الكونتيسة وورين Wa-
[renne] لقد أصيب رئيس الأساقفة المقدس بأربع إصابات،
تلقاها جميعاً على رأسه، وكانت كل واحدة منها مميتة، فقد فصل غطاء
الرأس عن الجمجمة، ثم تمت مشاهدة كيف أن أطرافه أطاعت حركات
روحه، وظهر واضحاً أن ما كان يدور في عقله، اختلج في جسده، وأنه في
تصديه للضربات وفي محاولة تجنبه لها لم يكن يصارع ضد الموت، بل
تقبل الموت عن طواعية، ولرغبته في أن يكون مع الرب، وليس نتيجة
ضربات قاتلة من سيوف الفرسان، ووضع واحد اسمه هيوغ هورسي
Horsea ولقبه موكلارك Mauclerk قدمه على رقبة الشهيد
الممدد، وأخرج برأس سيفه الدم والدماغ من قحف الرأس المقطوع،
وكان هذا مشهداً محزناً مرعباً، لم يسمع بمثله من حيث الوحشية، من
جانب الذين يدعون المسيحيين، وهبت عاصفة مخيفة تعلقت غيومها
بقبة السماء، وهطل مطر سريع، وكانت هناك رعود تزجر حول السموات،
وتحول بعد هذا لون السماء إلى أحمر قانيء تجاوباً مع الدم الذي سفك،
وتعبيراً عن الرعب والغضب.

وتحدث ديسيتو عن الأحداث التي تلت مقتل بكت، وهو وإن كتب
بطريقة أقل إثارة من طريقة فترزستيفن، كان الغضب الشديد تجاه مقتل
رئيس الأساقفة ما يزال واضحاً.

ونهب روبرت دي بروك مع أصحابه ممتلكات رئيس الأساقفة،
واستولوا على ثياب رجال الدين والخدم، لابل حتى استولوا على الأدوات
من أيدي العمال، وهربوا بسرعة كبيرة ومعهم جميع الخيول التي وجدوها
في الاسطبلات، وعدّوها بين الأسلاب.

وحمل جسد رئيس الأساقفة الغارق في البلاط على الجانب الأيمن من
مذبح القديس بندكت، ووضع أمام المذبح الرئيسي، وكان ذلك عند
الغسق، وهناك بات ما كان معروفاً فقط من قبل حاجبه واضحاً لجميع

الحضور، ذلك أنه صحيح أن رئيس الأساقفة أخفى بهدوء ثوبه الرهباني، الذي ارتداه لزمّن طويل، بتغطيته بردائه الرسمي، اهتم أيضاً في تطويع جسده بارتداء ثياب داخلية مصنوعة من الشعر، وكان اليوم التالي هو يوم الأربعاء، وراجت في الصباح الباكر لهذا اليوم اشاعة شريرة، تأكدت فيما بعد، بأن المجرمين الأشرار الذين نفذوا جريمة القتل قد تآمروا على أن يجروا جسد رئيس الأساقفة ويخرجوه من المكان المقدس، وأن يرموه خارج أسوار المدينة ليمزق من قبل الكلاب، أو من قبل الطيور، ولذلك قرر راعي دير بوكسلي ورئيس وأعضاء دير كنيسة كانتربري قراراً حكياً، في أن يقوموا بدفن الجثة وإن كان الوقت متأخراً، وبداء لهم أنه لا توجد حاجة لغسله بالماء، خاصة وأنه كان نال النقاء بسبب التقشف الطويل لرئيس الأساقفة، لهذا مسح بقطعة من القماش الشعري، وقد تطهر بدمه نفسه.

سنة إحدى وسبعين ومائة وألف

كان الملك هنري ملك انكلترا في تلك الآونة مقيماً في نورماندي، في أرغنتان Argentan، عندما حمل بعض الناس إلى مسامعه الاشاعات المؤسفة، انقلب فوراً إثر سماعه للقصة الشريرة، إلى جميع أنواع البكاء وضروب التعاسة، وبدل ثيابه الملكية تبديلاً كاملاً ولبس الأثمال ووضع على رأسه الرماد، داعياً الرب القدير ليكون شاهداً لصالح نفسه، أن الفعل الشريرة لم تنفذ بإرادة منه، ولا يعلم منه، كما أنها لم تكن واردة في مخططاته، ما لم يكن قد أذنب في اعطاء الشعور أنه حمل قليلاً من الحب لرئيس الأساقفة حتى ذلك الوقت، وعلى رأس هذا كله وضع نفسه مباشرة أمام عدالة الكنيسة، ووعد بكل تواضع في أن ينفذ كل ما سوف

تقرره.

وأرسل الملك رسالاً إلى البابا للدفاع عنه، وليبرهنوا على براءته، ولم يرغب البابا في رؤيتهم، كما أنه لم يعانقهم، كما لم يسمح لهم بالركوع أمام قدميه، وحاول الرسل ثانية، فاستقبلهم بعض الكرادلة، لكن فقط للتحدث إليهم، ولهذا سقطوا في لجة من الفوضى لوقت طويل، وشعروا لذلك بالحزن وتدني المعنويات، لكنهم تابعوا تزويد الذين كانوا أكثر مواءمة بشكل مستمر، حتى يمكن بوساطة تدخلهم أن يقبل البابا بإعطاء بعضهم فرصة اللقاء به، غير أنهم لم يتقدموا في هذا المجال مطلقاً، واقترب حلول يوم الأربعاء المتقدم على عيد الفصح، الذي اعتاد فيه البابا، تبعاً لعادات الكنيسة الرومانية، إما أن يعلن عن حرمان عام أو تحليل من حرمان، ووصل إلى مسامعهم عن طريق بعض العاملين لدى البابا، أن البابا قرر بلا تراجع أن يفرض عقوبة الحرمان ضد ملك انكلترا بالاسم وضد جميع أراضيه على طرفي القنال.

وعندما حل ذلك اليوم حرم البابا بشكل عام القتلة الشريرين جداً الذين ذبحوا رئيس أساقفة كانتبري مع جميع الذين زودوهم بالمساعدة أو بالرضى، والذين يمكن أن يقدموا المساعدة لإيوائهم، ومع هذا بقي القتلة في نيرسبرا Knaresborough في مقاطعة نورثامبريا North-umbria لمدة سنة.

وبداً في حوالي عيد الفصح المولى يسوع المسيح، الموجود دوماً في قديسيه وفي كل مكان، يشع بشكل اعجازي على الحياة الجديدة بالمدح لشهيده الأعظم روعة، وأعني به توماس رئيس أساقفة كانتبري، ويشع أيضاً على ثباته الذي لا نظير له في وجه الموت، وتجلي هذا بوساطة معجزات متوالية، وبذلك نجد أن الذي أوقف نفسه ونفوس أتباعه، وعاش مع الحرمان في سبيل حماية حرية الكنيسة المهددة، ينبغي أن يُعترف أنه قد حاز على نصر جدير بالتقدير.

وفي ٦ آب وصل الملك الكبير إلى انكلترا، وكان أثناء سفره قد زار هنري أوف بليوس أسقف ونشستر، الذي كان على فراش الموت، ووجه هذا الأسقف النقد واللوم إلى الملك بشأن وفاة الشهيد الرائع، وتوقع له أن يعاني كثيراً بسبب ذلك الموت، ومات هذا الأسقف العجوز، بعد أن اكتملت أيامه، في يوم ٨ آب.

سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف

سمع في ليلة عيد الميلاد رعد في إيرلندا وانكلترا، وفي جميع أرجاء فرنسا، وكان مفاجئاً وشديداً، منذراً بوقوع شيء جديد وغير اعتيادي.

ومنذ أن وصل الملك إلى إيرلندا حيث نزل إليها مع جيش في تشرين الثاني ١١٧١، ولمدة تقارب العشرين أسبوعاً، لم يصل إليه ولا تقرير من مملكته أو أي جزء من ممتلكاته التي كانت واسعة جداً وعريضة، والذي حال دون الوصول إليه وجود رياح مضادة مستمرة.

وبينما كان الملك متأخراً في إيرلندا، بدأ هيوغ أوف سينت مور ورالف دي في Fayes، وهو عم الملكة إليانور، في حرق عقل الملك الشاب، وإبعاده عن أبيه، وقد قيل كان هذا بناء على نصيحة من الملكة، وقال له: إنه لمن الواضح أنه من غير اللائق أن تكون ملكاً ولا تمارس حكم المملكة.

وأصيب كثير من رجال جيش الملك هنري الثاني في إيرلندا بالاسهال في المعدة، بسبب أكلهم لحماً جديداً وشربهم الماء، وهو أمر لم يعتادوا عليه من قبل، ثم إنهم عانوا من نقص بالخبز.

وعندما فهم سكان إيرلندا تمام الفهم كيف أن نوايا ملك انكلترا

تتعلق بالكامل في تأسيس السلم والحفاظ عليه، وأنه لم يشجع على الجريمة بالتورط بها، كما أنه لم يسرع قط بإصدار الحكم على أحد بالاعدام، عند هذا وعندما جمعهم بمرسوم صادر عنه التقوا به للبحث حول السلم، لأنه لم يكن هناك مؤسسات شعبية بينهم ولاسلطات قائمة يمكنها أن تمنحهم الأمان، من خلال الخوف من العقوبة، ولأنهم عانوا مراراً من قتل آبائهم لبعضهم بعضاً في حروب أهلية، فقاموا بنقل شؤون العدالة والسلطة بينهم إليه وفيه، وهكذا حصلوا على السلم بسبب الملك.

ونظراً لأن العديد من القضايا المختلفة استدعت وجود الملك، ركب هنري ظهر سفينة عند حلول الظلام، ووصل في اليوم التالي إلى ويلز، ورسا على مقربة من سينت ديفد، وذهب من هناك مباشرة إلى بورتشستر دون أن يلتفت إلى اليمين أو إلى اليسار، وكأنه يريد مستعجل، وهنا صعد إلى أحد المراكب، وقال وداعاً لانكلترا، وبعد عبور لطيف وصل إلى نورماندي، وعندما وصلت أخبار قدومه إلى مسامع ملك فرنسا، قال مندهشاً:

«في ساعة ملك انكلترا موجود في ايرلندا وفي ساعة ثانية هوفي انكلترا، وفي ساعة تالية هوفي نورماندي، لا بد أنه طار ولم يسافر بواسطة فرس أو سفينة».

وعندما وصل هنري إلى نورماندي بادر على الفور إلى زيارة ألبرت وثيرودين، وهما كاردينالان وممثلان للبابا، وبعد مناقشات ومباحثات طويلة، أولاً في سيفني Savigny ثم في أفرانشر Avranches، أقسم الملك بحضور المندوبين أن موت الشهيد الرائع توماس لم يتم الإعداد له بالتوافق مع رغباته، ولا بمعرفته، ولم ينفذ بواسطة خططه، ولكن بما أن المجرمين اغتتموا فرصة قتل الرجل المقدس بسبب كلمات تلفظها بدون انتباه عندما كان غاضباً بشدة، فإنه طلب بكل تواضع

التحليل منهما، وقد منح ماطلبه، وعلى هذا بات هو في نظر الكنيسة قد حظي بالتحليل الكامل، ووعد، بناء على رغبات الكاردينالين وأمرهما، أنه سيدفع ابتداء من حلول الصوم وكل سنة مبلغاً من المال يكفي بتقدير فرسان الداوية للدفع إلى مائتي فارس للدفاع عن أراضي القدس لمدة سنة.

ووعد أن دعاوى الاستئنافات يمكن القيام بها بكل حرية، وأن الممارسات التي فرضها حكمه ضد حرية الكنيسة سوف تزال، وسيتم بالكامل رد جميع الممتلكات العائدة إلى كنيسة كانتربري، تلك الممتلكات التي نقلت بعد مغادرة رئيس الأساقفة صاحب الذكرى المقدسة، كما سيسمح لرجال الدين وسواهم من كلا الجنسين، الذين غادروا المملكة تعاضداً مع توماس بالعودة بسلام من الملك وأن يستلموا جميع مقتنياتهم، ولوعوده هذه ولتنفيذه إياها، منح البابا الملك غفراناً من ذنوبه، وقام الملك هنري الشاب ابن هنري الثاني بإقسام اليمين والوعد مثلما فعل أبوه.

ووصل في آب التالي الملك الشاب وزوجته مرغريت، ابنة لويس ملك فرنسا، إلى انكلترا، وتوج رئيس الأساقفة مرغريت ملكة على انكلترا في ٢١ آب، في ونشستر، ووضع التاج الملكي على رأس الملك الشاب مع أسقف افروكس Evreux وكان يتلو معه القداس وكذلك فعل الأساقفة المساعدون العائدين لكنيسة كانتربري.

وبناء على طلب ملك فرنسا ورغباته، جرى منع حضور التتويج على رئيس أساقفة يورك، وأسقف لندن وسالسبري [لأنهم تولوا تتويج الملك الشاب أثناء غياب بكت عام ١١٧٠]، كما حظر عليهم اعاقاة التتويج بأية طريقة من الطرق.

سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف

وخطب هنري الثاني، ملك انكلترا، لابنه جون المدعو Laukland [لأنه لم يعط شيئاً عندما وزع هنري الثاني ممتلكاته في ١١٦٩] الذي كان في السابعة من عمره، الابنة الكبرى لـ «همبرت Humbert» كونت مورين، التي ولدتها له أرملة الدوق هنري صاحب سكسوني، وبما أن هذا الكونت لم يكن لديه أمل بالحصول على ولد ذكر جرى وضع أربعة من قلاع، المشهورة بأنها أفضل القلاع التي حصنها البشر أو الطبيعة تحت وصاية الملك، وذلك بناء على رغبته.

وبناء على نصائح شريرة قام الملك هنري ابن الملك، بالتخلي عن أبيه فغادر أرغنتان Argentan ليلاً، ولم يعلم عبيد والده الذين تولوا خدمته شيئاً حول ما حدث، وهكذا ذهب في ٢٣ آذار عبر مورتان Mor-tagne — وهي قلعة عائدة إلى ثيوبولد كونت بورش — إلى ختنه الملك لويس ملك فرنسا، وكان والده في تلك الليلة نائماً في ألكون Alencon وقد أوقف وأخبر بفرار ابنه، فقام على الفور بامتطاء ظهر فرسه، وسار ومعه عدد قليل من أتباعه، على طول الحدود، حيث وضع قلاعه في حالة الدفاع، ومع تغييره لعدد من المطايا وصل عند الفجر إلى غيسور Gisors التي كان الملك لويس قد أعطها إلى الملك الشاب بائنة [دوطة] عن ابنته مرغريت، واختار رتشارد دوق أكويتين وغيوفري دوق بريتاني، وهما الابنان الأصغر للملك، أن يلتحقا بأخيها بدلاً من أبيهما، وقيل كان هذا لاتباعها نصيحة أمهما إليانور، وبات هناك في كل مكان تآمر، ونهب، وحرق، وإذا ما أخذنا النذر من المواسم، نجد أن الابن حمل السلاح ضد أبيه في الوقت الذي كان فيه المسيحيون يلقون في كل مكان أسلحتهم، احتراماً لعيد الفصح، وشقاقاً من هذا النوع لا يمكن أن ينتهي بسعادة (٢٠).

وجاء مائة وأربعون فلمنكياً إلى قرب باسي Passy وأغاروا على نورماندي باستخدامهم لأحد الجسور، وامتلاً المكان على الفور بأصوات الأبواق، وبصراخ الناس، وبالرجال المسلحين يركضون هنا وهناك، وجعلت المقاومة النورماندية الشجاعة الفلمنكيين يفكرون بالانسحاب بأقصى سرعة ممكنة، لكن الجسر الذي عبروا عليه كان قد جرى تدميره من قبل إحدى النساء الصغيرات، وكان الماء عميقاً في طريق تراجعهم، وقد اندفعوا نحو الماء فغرقوا جميعاً، وعندما سمع ملك فرنسا بهذا قال:

«إن عناصر الطبيعة إلى جانب النورمان، فعندما غزت أنا نورماندي آخر مرة مات جزء كبير من جيشي عطشاً، ويمكننا اليوم أن نشكو من كثرة الماء».

وأرسلت رسائل من الملك الكبير ومن الكردناليين إلى انكلترا في ٦ تموز تحث على العمل من أجل كنيسة كانتربري، وعندما اجتمع الأساقفة للتداول حول هذا، قام أودورئيس كاتدرائية كانتربري مع الجزء الأكبر من الدير باصرار منذ البداية في طرح رأي لم يسمع به من قبل، في أنه يتوجب اختيار رئيس الأساقفة من قبل جماعتهم، وأن يعلن اسمه بشكل عام من قبلهم، وحيث أن هنري الثاني كان آنذاك مهتماً عظيم الاهتمام في أن يكون الانتخاب بدون اضطراب، جرى اختيار اثنين من بين العدد الكبير للرهبان وهما: أودورئيس دير كانتربري ورتشارد رئيس دير دوفر، وعندما قدمهما الرهبان إلى الأساقفة، كانت كل رهبانية تأمل في انتخاب رئيسها، وقام غلبت أسقف لندن قبلهم جميعاً وصب كثيراً من المديح على الرئيس أودو، ثم نزل باتفاق مع الأساقفة ووقف في الجانب الآخر قائلاً: «لقد انتخبنا الرئيس رتشارد»، وحدث هذا كله في بيعة القديسة كاترين بحضور قاضي الملك وبموافقة منه، وجرى بشكل علني في اليوم نفسه الذي انعقد فيه المجلس لانتخاب رئيس أساقفة لكانتربري، تلاوة الرسالة التالية التي وصلت من البابا:

«من البابا الاسكندر، إلى اخوانه المحترمين رؤساء الأساقفة، والأساقفة، وإلى أبنائه مطارنة الكنائس الأخرى، وإلى جميع رجال الدين مع شعب انكلترا، تحيات ومباركات رسولية.

نشرت انكلترا شذى ومحاسن المعجزات التي عملها الرب القدير خلال فضائل توماس المقدس والمبجل، الذي كان من قبل رئيساً لأساقفة كانتربري، ولقد أشعت حياته بمجد عظيم جداً، وقد ختمت أخيراً بالمعركة الرائعة للشهادة، ومامن واحد يسمع عن حياته التي هي موضع الإعجاب، ويقدر آلامه الرائعة، يمكنه أن يمتلك أدنى شك حول قداسته، ولإخبارنا بشكل مستمر من قبل جميع المؤمنين بأخبار المعجزات العظيمة التي لاتعد، والتي جرت من خلال فضائله، وتماشياً مع شهادات التقدير لكثيرين، نقرر هنا بكل إجلال، أمام المجمع الديني العظيم الذي ضم رجال الدين وغير الدين «تطويب» رئيس الأساقفة السالف الذكر، ورسمنا بادراج اسمه في جدول أسماء القديسين، وبناء عليه إننا ننصح، ونأمر من خلال سلطتنا جميعكم أن تحتفلوا بوقار بعيد الشهيد الرائع السالف الذكر كل سنة في يوم آلامه.

صدر في سغني Segni، ١٣-آذار.

وما ان انتهت قراءة الرسالة حتى رفع الذين كانوا هناك أصواتهم بمديح الشهيد، والانتصار لصراعه الرائع، وأنشدوا: «الحمد للرب».

وبناء على تحريض من لويس ملك فرنسا ضم الملك الشاب إلى جانبه فيليب كونت فلاندرز وأخيه ماثيو كونت بولون، وقد كسبها بوساطة وعود سخية، وحشدوا عدداً كبيراً من الرجال المسلحين فور الدعوة إلى ذلك وبأقصى سرعة ممكنة، وذلك للوقوف في وجه المقاومة الصادرة عن النبلاء الفلمنكيين، وهاجموا نورماندي في أبهة عظيمة، وجرى الاستيلاء على قلعة أوميل Aumale بسرعة كبيرة، وكان ذلك على حساب

سوء سمعة عدد من الناس، ثم شرعوا بحصار درنكورت Drincourt وهي قلعة جيدة التحصين، وكانت بأيدي نخبة من الفرسان، وجرى اقتحامها أيضاً، ثم وضعت تحت الحراسة، ثم تابعوا من هناك زحفهم نحو قلعة أركوي Arques وأصيب كونت بولون بجراحة قاتلة من قبل أحد المرتزقة، وحدث ذلك يوم عيد القديس جيمس ٢٥ تموز، وكان الكونت فيليب راغباً بالعودة السريعة، ولقد كان بإمكانه وقتذاك العودة إلى بلده وهو فرح بالنصر، لولا أن ذلك العمل الخياني عثم على نجاحه، ولولا حدوث وفاة أخيه، التي وقعت بعد وقت قصير، مما أكد عدم تأكده من نتائج الحرب، ولهذا عاد من خلال منطقة ايو Eu التي كانت تحت الاشراف الكامل للملك الشاب.

وما أن سمع الملك هنري بأن فيليب كونت فلاندرز قد غادر نورماندي، حتى بادر على الفور إلى حشد جيش كبير قدر المستطاع، وقدر أنه إذا ما التقى بملك فرنسا داخل حدود نورماندي يستطيع أن يشتبك معه في معركة.

ولدى سماع ملك فرنسا بهذا، ولمعرفته أن ملك انكلترا كان قوياً جداً، ويحمل مشاعر مريرة نحوه، مثله مثل دب سرقت جرائه، فأخذ يجول في الغابة وهو يزجر غضباً، قرر أن أفضل طريق عملي ينتهجه من أجل رجاله ومن أجل نفسه، هو الفرار، وبناء عليه امتطى فرساً سريعاً، وتراجع منسحباً بالسرعة القصوى نحو فرنسا، وتركت الأثقال العائدة للفرنسيين لتنهب من قبل المحاصرين، والنورمان الآخرين الذين وصلوا إلى هناك، ونهبت في يوم ٩ آب جميع المؤن والأطعمة التي جرى جلبها للجيش الفرنسي على ظهر الشاحنات والعربات وخيول التحميل من قبل المرتزقة البرابانكونيين Brabancon.

وطالب وليم ملك اسكوتلندا بأنه يتوجب على هنري الثاني أن يعيد إليه الممتلكات الموجودة في نورثامبرلاند Northumberland التي

كانت أعطية إلى جده الملك داود، فهذا يؤكد له بوثيقة رسمية، وهي الممتلكات التي بالواقع احتلها داود لعدة سنوات، لكن مطلبه رفض، ولذلك جمع جيشاً من الأعداد الكبيرة للغالويين Galwegians وجعله تحت تصرفه، وكان سلاح هؤلاء خفيفاً، وكانوا رجالاً يتمتعون بالرشاقة، يمكن تمييزهم بسهولة برؤوسهم الصلعاء، وكانوا يحملون سكاكين على الجانب الأيسر، كافية لإخافة أي جندي، كما أنهم كانوا راغبين في رمي الرماح إلى مسافات طويلة، واعتادوا على أن يرفعوا رماحاً طويلاً إشارة على أنهم زاحفين نحو المعركة، واستحوذ الملك وليم على جواز آمن خلال ممتلكات هيوغ أسقف درم Durham وبدأ يغيث فساداً في انكلترا، ملقياً النار في المدن، ومستولياً على كميات هائلة من الأسلاب، وأخذاً النساء أسرى، وممزقاً الأطفال نصف أحياء بعد اخراجهم من بطون أمهاتهم، وبغية إيقاف هذه الفظائع ومنعها، حمل النبلاء الانكليز السلاح بالسرعة القصوى، وأرغموا على الفور ملك السكوتلنديين على الفرار، والانسحاب إلى اسكوتلندا، وساروا في إثره فدمروا بالنار جميع لوثيان Lothian وكل شيء وجد خارج أسوار المدينة وقع في أيدي الانكليز كأسلاب، وبناء على طلب ملك السكوتلنديين جرى عقد هدنة حتى ١٣ كانون الثاني [١١٧٤]، وعاد النبلاء الانكليز منتصرين.

سنة أربع وسبعين ومائة وألف

قام الملك الشاب وبصحبه ثيوبولد كونت بيرشي Perche وكونت ألكون Alencon ومعهم حوالي الخمسين فارساً، بمهاجمة مدينة سيز Sees ولكن الذي حدث أنه مع أن سكان المدينة لم يكن لديهم أميراً أو قائداً، قاوموا بشجاعة، وهكذا لم يتم تحصيل شيء.

وخشية من هنري الثاني من أن يقوم الملك الشاب، أو واحد من الجيران على الحدود بمهاجمة بلاده والعيث فساداً في نورماندي، عهد بحماية نورماندي إلى أقرب الأصدقاء إليه وإلى الذين سلف لهم أن قدموا له تأييداً مخلصاً، وأخذ هو نفسه اثنين فقط من المرافقين هما:

أليورد دي فافاشي Alured de Vavaci وغيوفري استورمي Esturmi كاختبار لإخلاصهما له، ودخل في ٣٠ نيسان إلى مين، فتدفق السكان عليه من جميع الاتجاهات ومنحوه ولاءهم بكل شكل ممكن، سواء أكان ذلك خشية من الحرب، أو خوفاً من أي نوع آخر من الأزمات، لابل حتى من مخاطرة بالحياة.

وهكذا ارتحل خلال البلاد، وقد أحاطت به أعداد كبيرة من الجند، فتولى تمثيل ثقة الناس به، وحث النبلاء المحليين على الدفاع عن مناطقهم وحمايتهم، وعندما وصل إلى الحدود مع أنجو صرف كل واحد كان معه باستثناء الرجلين اللذين ذكرا أعلاه، ورحب الأنجليفون بالملك بسرعة أكبر وبأعداد أعظم من سكان مين، لأنهم خضعوا لرغباته بحب أكبر وبأستعداد أعظم.

والآن وقد سار كل شيء طبقاً للخطة، احتفل هنري بعيد الشعانين في بواتيه، وعندما سمع أن جيش ابنه رتشارد كان يحتل مدينة سينتس Saintes أخذ سكان بواتيه معه، وذهب مسرعاً ليفرج عن المدينة، ولم

يظهر جند رتشارد احتراماً للرب أو للكنيسة المقدسة، ودخلوا الكنيسة الكبرى وبأيديهم المشاعل ووسائل الإضاءة الأخرى، وحولوها على الفور إلى حصن، وملأوها بالسلاح وبمؤن الطعام، ووصل الملك إلى المدينة بسرعة أكبر مما توقع هؤلاء الجند، وأخبر أن المدينة مدافع عنها بوساطة ثلاثة حصون، وقد ركز أولاً القتال على المدينة، وتمكن في البداية من الاستيلاء على الحصن الذي بني منذ وقت بعيد عند مدخل المدينة، وتابع من هناك فهاجم القلعة بنجاح ممائل، وكانت قلعة أكبر من الحصن الأول، لكن أقدم بكثير منه، ووصل أخيراً إلى الكنيسة الكبيرة، التي اكتظت بجند مسلحين وامتلات حتى حدود الانفجار بالرماة، وكانت مداسة من قبل حفظة بيوت الدعارة، ولاحظ وهو يقترب منها أنه إذا ما اقترب شيء ضد الديانة المقدسة، سيعاني من ذلك كل إنسان، ومع ذلك اقترب منها وهو لا يريد أن يؤذي الكنيسة أو يقترب العنف ضدها أو الاستخفاف بها، بل أراد تنظيفها من الدنس، وسحب من الكنيسة الذين خرقوا حرمتها، لقد سحبهم جراً إلى خارجها، لأن كل من خرق حرمة القانون، عبثاً يثيره ضده، وألقى القبض على حوالي الستين من الفرسان مع نحو أربعمئة من الرماة من داخل هذا الحصن، وفي داخل الحصنين الآخرين.

ولمعرفة هنري ملك انكلترا بما كان يجري في فلاندرز قرر العودة، فأوكل أكوتين إلى ستة من النبلاء، وبني على الحدود بين نانتس Nantes وأنغر Angers قلعة أنفق عليها كثيراً، وسميت أنسينس Ancenis ظهرت فيها جميع معارف وبراعة النجارين من أنجو ومين، وأوكل شؤون هذه القلعة بشكل خاص إلى موريس أوف كرون Craon وأسند إليه حمايتها، وأصدر عند وصوله إلى نورماندي مرسوماً في بونفيل سمى فيه جميع الذين عهد إليهم بأمور الحدود والذين جعلهم شحن لقلاعه.

وأقسم فيليب كونت أوف فلاندرز، أمام لويس ملك فرنسا ونبلاء المملكة، بوضع يده على بعض الآثار المقدسة، أنه سيقوم خلال خمسة عشر يوماً بعد مضي عيد القديس جون المقبل في ٢٤ حزيران، بغزو انكلترا بقوة كبيرة، وأن يخضعها ويضعها تحت ولاية الملك الشاب، وتأثر الملك الشاب بهذا العرض للولاء، فذهب إلى وزانت Wissant يوم ١٤ تموز ليرسل رالف أوف لي هي Haie إلى انكلترا مع جيش كبير، وبعث كونت فلاندرز بثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً أمامه من أجل العبور، والذين أرسلهم لم يكونوا ماحداث وتوفر من السكان المحليين، بل جنوداً ذوي خبرة اختير عدد كبير منهم من الفلمنكيين، وبعدما نزل هؤلاء في انكلترا في أورول Orwell يوم ١٥ أيار، في وقت كان فيه حلفاؤهم في خطر، هاجموا من هناك نوروك Norwick يرافقهم إيرل هيوغ، واستولوا عليها في ١٨ حزيران، ونهبوها، وحملوا مبالغ ضخمة من المال، كما حملوا معهم عدداً كبيراً من الأسرى وأرغموهم على دفع فدية كبيرة.

وعندما رأى قضاة هنري الثاني سوء الأوضاع وترديها في انكلترا أرسلوا إليه عدداً كبيراً من الرسائل عبر القنال، غير أنهم لم يتلقوا أية أجوبة مؤكدة بأن هنري قد خطط للعودة إلى انكلترا، وقاموا بمحاولة أخيرة بهذا الصدد فبعثوا رتشارد الأسقف المنتخب لونيستر ليتحدث إلى الملك، وكان رجلاً يعرفون بشكل مؤكد بأنه كان صديقاً حميماً للملك وقريباً منه أكثر من الآخرين، وكان بارعاً وعالي الحماسة، ويمكن الاعتماد عليه في أن يبين للملك جميع الخسائر، والمصاعب، والمخاطر التي تحملها شعبه، وأن يقدم له صورة صحيحة عن الصراعات التافهة للنبل، والحالة غير المستقرة في المدن، وتدمير الناس وضيقهم، الذي سيزداد سوءاً بحكم أنهم يتطلعون نحو التغيير، وقد يقومون بحركات سيكون من الصعب معالجتها.

وهكذا عبر الأسقف المنتخب القنال بسرعة، ووجد الملك في بونيفيل، عاقداً مؤتمراً عاماً مع النورمان في يوم ٢٤ حزيران.

وعندما عرف النورمان أن الأسقف المنتخب لونشستر قد وصل، وعلموا سبب قدومه، قالوا: «بما أن الانكليز أرسلوا عدداً من الرسل، وأرسلوا الآن هذا الرجل، يبدو أن شيئاً ليس أقل من الهجوم على قلعة لندن قد استدعى الملك للعودة إلى انكلترا».

واستقبل الملك هذا الرسول الخاص بالحفاوة الجديرة به، وأظهرت الحوادث المدى الذي وثق به بكلماته، وناقش مع رفاقه في ذلك اليوم نفسه مسألة الدفاع عن حدود المنطقة وحماية القلاع، واستعد للعودة خلال أيام قليلة، ومعه جميع حاشيته وأهل بيته، ومصطحباً برفقته الملكة إليانور، والملكة مرغريت، وابنه جون وابنته جوانا وزوجات أولاده.

وأرسل أمانة إيرل تشستر، وكونتيسة لستر مع عدد كبير آخر كان قد أخذهم أسرى إلى بارفليز Barfleur حيث توفر عدد كبير من السفن الراسية، وجمهور كبير ينتظر وصول الملك، وعبر جيش كبير من المرتزقة البرابانكونيين مع أسلحته وعتاده، القنال عند كوسترهام Quistreham وأسرع الملك إلى المرسى في ٨ تموز، وتحركت السفن وأقلع في منتصف النهار، وما ان تحركوا داخل البحر، حتى أصبحت الأمواج تبدو قاسية، وهبت الرياح واستمرت كذلك، فجعلت البحارة مترددين بشأن العبور، وأظهروا أمام الملك مشاعر خوفهم، وعبرت وجوههم عن علامات الشك والدهشة.

وعندما علم الملك أن الرياح كانت تهب ضده مباشرة، وذلك عندما كانت السفن قد شرعت في أخذ طريقها المباشر إلى انكلترا، وأن عاصفة قوية تزداد سوءاً، عندها رفع عيناه نحو السماء وقال أمام كل واحد:

«إذا كان السلم بين رجال الدين والشعب هو غاييتي، وإذا كان رب

السموات قد قضى باستعادة السلم عندما أصل، عندها يمكن برحمته أن يمنحني رسواً سالماً، لكن إذا كان معادياً، وإذا كان قد قرر زيارة المملكة بالعصا، ليكن حظي بعدم الوصول مطلقاً إلى سواحل بلادي».

ومن الممكن افتراض أن صلاته قد سمعت، ذلك أنه وصل في اليوم الذي أُلْعِق فيه عند حلول الظلام إلى ساوثامبتون، مع كل شيء سليماً، وتناول هناك وجبة بسيطة من الخبز والماء، ووضع جانباً أعمال استرداد النظام، وتجنب مقابلة الشعب حتى يفي بوعوده التي قطعها على نفسه أثناء صلاته، بالقيام بالصلاة في مشهد الشهيد الرائع توماس.

وقام بعد برهة قصيرة برحلة سريعة عبر انكلترا، وعندما وصل إلى كانتربري قفز من على ظهر حصانه، وخلع ثيابه الملكية، وارتدى ثياب حاج تائب متضرع، وذهب في يوم الجمعة ٢٥ تموز إلى الكاتدرائية، وهناك وسط الدموع المنهمرة والتنهيدات والحزن الواضح شق طريقه إلى قبر الشهيد الرائع، وسجد أمامه ماداً ذراعيه نحو الأمام، وبقي هناك وقتاً طويلاً وهو يتضرع ويصلي، وخلال هذا الوقت، وأمام أسقف لندن الذي كان يعظ الناس، أعلن أمام الناس، وهو يدعو الرب ليكون شاهداً عليه، أنه لم يأمر، ولم يرغب، ولم يتأمر بشأن موت رئيس الأساقفة، ولكن بما أن القتلة قد أثروا بكلماته التي لم يقدرها تمام التقدير عندما تلفظ بها، فقد سأل التحليل من الأساقفة الحضور، ووضع جسده للقصاص الصارم بالضرب بالعصا، وقد تلقى ثلاث، لابل حتى خمس ضربات من كل واحد من الرهبان بدوره، وكان قد اجتمع منهم عدد كبير.

ونفض من صلواته، ووضع عليه ثيابه التي خلعها من قبل، وقدم التمجيد للشهيد السامي القدير بهدايا ثمينة، وعين مبلغاً قدره أربعين جنيهاً ليكون إيجاراً سنوياً لتزويد وسائل الاضاءة بشكل دائم حول قبر الشهيد احتراماً له.

وأمضى بقية النهار ومجمل الليلة التالية في تأنيب النفس وندامتها،
منصرفاً إلى الصلاة وعدم النوم، وتابع صومه لمدة ثلاثة أيام، وحيث أن
ندامة الروح، والأسف العميق، وتواضع الروح هي التضحيات التي
ترضي الرب أكثر من أي شيء، في كل وقت، وذلك تقليداً للملك داود،
كان يدعو بشكل متواصل قائلاً: «لقد أذنبت ضد الرب، لقد أذنبت
ضد الرب»، ولهذا استحق أن يسمع من النبي كلمات: «لقد غفر لك
الرب أيضاً ذنوبك».

ولاشك أنه الآن قد أَرْضَى الشهيد، ويمكننا القول بأمان بأن ذنبه قد
غفر وأزيع عنه، ففي ذلك السبت بالذات، عندما صلى من أجل أن
يظهر توماس الرحمة نحوه، ألقى الرب بين يديه وليم [الأسد] ملك
السكوتلنديين، فقد استسلم إليه ليكون معتقلاً لديه في رتشموند،
وبذلك تحققت نبوءة [ميرلين Mirlin] التي قال فيها: «سيعثر
بين فكيه على قطعة لفقت في خليج أرموريكا Armorica» ولقد
أراد بخليج أرموريكا قلعة رتشموند، لأنها كانت قد احتلت من قبل
أمراء بريتانين بوساطة قانون الوراثة الآن والذي كما هو منذ قديم الزمان.

ووصف جوردان فانتوسمي **Fantosme** قبل ١١٨٣ في تاريخه
المنظوم ردة الفعل البهيجة لهنري الثاني لدى اعتقال وليم الأسد:

وهكذا رافقوا الملك حتى

وستمنستر

وأبدى اللندنيون سروراً عظيماً لدى وصول

مولاهم

وأعطوه الهدايا وقدموا له الاحترام العظيم

غير أنه كان حزيناً ومهموماً إلى حد ما

بسبب ملك اسكوتلندا الذي تصرف
بشكل مجنون

وروجر دي ماوبري Mowbray وهو مقاتل نبيل
الذي كان يعاثر فساداً في أرضه ليلاً ونهاراً
وقبل أن تحل ساعة ذهابه إلى الفراش
وصلته قطعة من الأخبار كسب منها
شرفاً عظيماً

دخل الملك إلى حجراته الخاصة
عندما جاء الرسول، عانى من
كثير من المتاعب

هو لم يشرب ولم يأكل لمدة ثلاثة أيام
من الأسبوع

ولم ينم ولو للحظة واحدة بسبب بعض الأخبار
بل أنهك نفسه في الليل والنهار
بالترحال.

لقد عمل بشكل حكيم جداً وسينال جائزة جيدة
كان الملك متكئاً على مرفقه وقد نام قليلاً
ووقف خادم عند قدميه وأخذ يمسحها بلطف
لم يكن هناك صوت ولا صراخ، كما لم يكن من

بتكلم هناك

ولم يكن أبصا لاطبل ولا مزمار ولا أي شيء يصدر عنه صوت
في تلك الساعة.

عندما وصل الرسول إلى الباب وبلطف
دعا

وقال الحاجب: من هناك؟

أنا رسول، صديق، حن الآن مسرعا عبر هذا الطريق
لورد رانولف غلانفيل بعث بي إلى هنا
حتى أتكلم مع الملك، لحاجة ماسة
بعثني من أجلها

وقال الحاجب: دع العمل الآن
حتى الصباح

وقال الرسول: بحق إيماني، أنا سوف
أنكلم إليه الآن مباشرة

في قلب مولاي حزن وأسى
لذلك دعني ادخل أبها الحاجب الجيد
وقال الحاجب: أنا لن أحرق
إن أفعل ذلك

الملك باسم، عليك الانسحاب

وفيا هما يتكلمان، أفاق الملك
وسمع صراخاً عند الباب: افتح.. افتح
وقال الملك: من هذا، هل يمكنك اخباري؟
وقال الحاجب: سيدي، ستعرف
مباشرة

إنه رسول من الشمال، حسناً
إنك تعرفه

رجل من عند غلانفيل، اسمه
هو برين Brien

وقال الملك: بإيماني، أنا الآن مرتبك جداً
إنه يحتاج للعون، دعه يأتي إلى هاهنا
ودخل الرسول الذي كان من أصل طيب
وحيا الملك قائلاً كما ستسمع بعد قليل:
سيدي الملك، علّ الرب الذي يسكن
في التثليث يحفظك

يحفظ شخصك أولاً، ثم جميع
أصدقائك المقربين

وقال الملك: برين ما الذي تحمله من أخبار؟
هل دخل ملك اسكوتلندا إلى رنشموند؟

هل جرى الاستيلاء على نيوكاسل الواقعة على التاين، وكذلك
على الحصون؟

هل أودنيل أوف أمفرافيل Odinel of Umfravile أسر وحمل
بعيداً

وجميع باروناتك طردوا من ممتلكاتهم؟
يايمانك أيها الرسول، أخبرني الصدق
لقد خدموني بسوء، لذا يمكن أن
يعاقبوا بسببها.

ثم قال الرسول: سيدي، اسمعني قليلاً
باروناتك في الشمال أناس طيبون مستقيمون
باسم مولاي تلتطف واصغ إليّ
لقد بعث لك بوساطتي تحية وصدقة
وبعثت بتحيات أكبر مولاتي التي تعرفها
أنت معرفة جيدة

لقد أرسل معي يقول لك: إنك سوف تقترب
خطأ في تعذيب نفسك

لقد جرى أسر ملك اسكوتلندا وجميع باروناته
فقال الملك هنري: هل تقول الصدق؟

نعم ياسيدي، الصدق، وفي الصباح سوف تعلم بذلك:

رئيس أساقفة يورك، رجل حكيم ومتعلم
سيبحث إليك باثنين من المبعوثين الخاصين
لكن أنا بدأت أولاً، وأنا الذي أعرف الصدق
لم أنم سوى قليلاً خلال الأيام الأربعة الأخيرة
كما أنني لم أكل ولم أشرب، لذلك أنا جائع جداً
لكن، من فضلك أعطني جائزة لإخباري إياك
ورد عليه الملك: ستكون مخطئاً إذا
شككت بذلك

إذا كنت قد أخبرتني الحق، ستكون غنياً بما فيه الكفاية
هل جرى أسر ملك اسكوتلندا؟ أخبرني الحق
نعم ياسيدي، بإيماني، لأصلب
على الصليب

أو أشنق بهبل، أو أحرق على نار عظيمة
إذا غداً، قبل الظهر، لم يتأكد هذا كله
عندها قال الملك: الحمد للرب من أجل ذلك
وللقديس توماس الشهيد ولجميع
قديسي الرب

وبناء عليه ذهب الرسول إلى مضافته
وكان لديه الكثير الوفير لياكل ويشرب

وكان الملك في تلك الليلة فرحا مسرورا إلى حد
أنه ذهب إلى الفرسان
وأيفظهم جميعا قاتلا:
أيها البارونات، استيقظوا، إنها ليلة طيبة بالنسبة لكم
لقد سمعت شيئا سيجعلكم جميعا مسرورين
وقع ملك اسكوتلندا بالأسر، هكذا
صدفا أخبرت
الآن للتو وصلت الأخبار إلي، عندما نوجب
أن أكون في العرائس.
وفال الفرسان. الآن شكرا للمولى الرب
الآن انتهت الحرب، ومملكك
في سلام
وبدأ هذه الليلة حملته جدا للملك هنري
وفي اليوم التالي، قبل الظهر، الأخبار نانة
ووصلت إليه
من دس أسافند يورك، الذي
بمدحيه ووجهر
الذي حبا مولاه واهتم بالانخلاص
عندما رأى الملك الرسل، لم يكن قط

أعظم سروراً
وخمن أنهم سيقولون الشيء نفسه، ولهذا
أجابهم:
سمعت الأخبار في الليلة الماضية عندما كنت
قلقاً جداً
للذي جلبها إليّ جائزة
سوف تعطى
وتناول عصاً صغيرة، وأعطاهما لبرين
عشرة من أرضه سوف يعتقون للمتاعب
التي قاساها

ونعود الآن إلى رواية ديستو عن حملات هنري الثاني ضد أعدائه.

الآن وقد نفذ جميع الوعود التي قطعها على نفسه أثناء الصلاة، بكل
تقوى، عاد الملك الكبير، ومكث قليلاً من الوقت في لندن، حيث
اكتشف أن النبلاء الانكليز قد قدموا لمواجهة هناك، عندها انطلق على
رأس قوة، ووصل إلى هنتنغدون Huntingdon فاستولى على القلعة
التي كانت تحت الحصار منذ ٨ أيام، وحدث ذلك في اليوم التالي لوصوله.
واستولى نبلاء نورثامبرين Northumbrian ومعهم ابن الملك،
والأسقف المنتخب للنكولن، الذي كان قائدهم، على كيركباي مالزيرد
kirkby Malzeard وعلى قلعة روجر ماوبري Mowbray
بالقوة، وعندما جمع الملك جيشاً كبيراً في بري سينت إدموند، مع حشد

من الجند كان يتدفق من جميع الاتجاهات، أمرهم، بناء على نصيحة عامة، القيام بحصار قلعتي هيوج بيغود Bigod إيرل نورفولك: فراملنغهام Framlingham وبنغي Bungay وكان لدى الإيرل خمسين فارساً، وجيشاً جيد الحجم، لكنه بالواقع أدنى كثيراً بالقوة، ويائساً من قدوم أي انسان لمساعدته، ولهذا أرغم بسبب الضرورات على أن يقدم رهائن وأن يدفع مائة قطعة ذهبية حتى يحصل على السلام من الملك، وفي يوم ٢٥ تموز قدم الولاء للملك، وأقسم على الاخلاص له، وجدد تابعيته له.

وكان ماحدث لجيش الفلمنكيين، الذي أعده الكونت فيليب ليرسله أمامه إلى انكلترا قبل قدومه إليها، وذلك بعدما كان قد أعطى وعداً مؤكداً للملك الفرنسي بوضع يديه على بعض الآثار المقدسة: فقد أقسم يميناً بعدم غزو انكلترا بقوة معادية، وعاد أفرادهم إلى بلادهم بناء على إذن من هنري، وغادر أيضاً جيش الملك الشاب الذي كان تحت قيادة رالف أوف لي هي، بدون اعاقه ومعه أسلحته وعتاده، وهكذا حدث في الساعة الحرجة، من خلال تدخل القديس توماس الشهيد، أن بات الملك الكبير مسيطراً على جميع انكلترا، والآن وقد حاز ذلك فقد أقلع يوم ٧ آب من بورشستر Porchester ومعه ملك السكوتلنديين، ووصل في ١١ آب، بعد رحلة موفقة إلى روان، التي وجدها تحت الحصار.

وكان لويس ملك فرنسا، والملك الشاب، وفيليب كونت فلاندرز قد جمعوا القوات من جميع المناطق، فتوفر لديهم جيشاً كبيراً، وهكذا خلفوا السين على يسارهم، وحاصروا روان في ٢٢ تموز، أملين أنهم إذا استولوا على روان، يمكنهم إزالة ماتلطحوا به من عار سببه خرق اليمين أثناء الحصار الفرنسي لفيرنويل Verneuil والعمل الخياني الذي شغل الدور فيه وسببه الفلمنكيون أثناء حصار درنكورت Drincourt وقاوم النورمان الذين توفر منهم الآن قلة بمقارنة بالحشد الكبير الذي

وصل، بشجاعة، واعتمدوا على دفاعات الأسوار، واستخدموا حجارة
مربعة، وقطع طويلة من الخشب مدببة، فأرغموا الأعداء على فرار
طويل، وذلك بعدما هاجم هؤلاء الأعداء الأسوار الخارجية بتشكيلات
قتالية واستخدموا آلات الحصار، ولم يعرف الذين كانوا تحت الحصار
الاستراحة، واستطاعوا أن يضعوا قوتهم تحت الاختبار بنشاط أكبر واصرار،
وتبادل الفرنسيون والفلمنكيون حملات القتال، وعندما شرع الفرنسيون
يضعفون شجع الفلمنكيون أنفسهم وانخرطوا بالعمل، واستخدموا كل
مالديهم من قوة للغم الأسوار، وبقي النورمان غير هيايين لتهديدات
الأعداء وهجماتهم، واثقين من توقعات النصر، ونجّوا من الهجمات
المتوالية والاشتباكات الحادة بكل ثبات، وكان عددهم يزداد يومياً،
وكانت المؤن والأطعمة لديهم وفيرة، وفي الجانب المقابل أخذ كثير من
الناس بالفرار من الجيش كلّ يوم، لأنهم كانوا تحت خطر المجاعة.

واستمرت هذه الحالة الحرجة لأيام كثيرة، حتى تسلم الملك الفرنسي
تقارير معتمدة أن ملك انكلترا قد اقترب من روان في قوة معتبرة، وهكذا
آل إلى حالة رعب وحيرة، ذلك أنه بات خائفاً حسبما استخلص من
الأقاويل، أن الملك سوف يهاجم فرنسا ويلقي الحصار على باريس،
وبحث مع مستشاريه حول أفضل طريقة لايقاف الحصار، بدون أذى
لأنفسهم، وبعد اتخاذ قرار عام، أقدم الفرنسيون مع الفلمنكيين على
احراق آلات حصارهم، وعلى تمزيق خيمهم، وعلى إلقاء النار في
أكواخهم وفي أبنية الأسواق، وفي يوم ١٤ آب تراجعوا وانسحبوا من قرب
المدينة، وذلك على الرغم من موت الاشاعات والأقاويل، وبهذا أزاحوا
جانباً جميع تهديداتهم، وتبجحاتهم، وقطعهم العهد على أنفسهم بهدم
روان، العهد التي غالباً ما قطعوها بحماقة وعجلة، وهاجم أناس من
منطقة الحدود الجزء الأقصى من التحصينات ونهبوا بسرعة أعداد كبيرة
من السلاح وكذلك العتاد.

وكان الفرنسيون قلقين بشأن النفقات، كما كان الفلمنكيون خائفين على حياتهم، لذلك اجتمعوا معاً للبحث حول الأضرار التي لحقت بهم، وبما أن الفريقين رأيا أنها يبددان جهودهما قررا إيقاف الهجوم على النورمان والانسحاب من الحدود، ونظروا نحو سلمهم أنفسهم وهدوتهم، لذلك قرروا بذل أقصى ما يستطيعون لردم الهوة بين ملك انكلترا وبين أولاده، ويمكنك القول: إن الأولاد قد أضروا قضية أبيهم، وجلبوا بغضاء رجال الدين ولعنة الناس، ومع هذا ينبغي العفو عنهم لأنهم كانوا شباباً.

وتوجه الرئيس المنتخب لأساقفة كانتبري إلى روما بغية تجنب كائن الانشقاق. وكان العالم بأسره مرعوباً في هذا الوقت من الإصابة بعدوى صادرة عن غيوم الهواء الفاسد، وكانت تسبب سعالاً عاماً واسهالاً بالمعدة، وكان هذا خطراً بالنسبة للجميع، وأدى إلى موت كثيرين، ووصل إلى روما، وبعدما اجتاز ماوراء حدودها، ذهب ليجد البابا الاسكندر—الذي كان آنذاك حياً— في أناغني Anagni ووجد هناك في البلاط نواباً للملك الشاب مضادين له، ويفعلون كل ما يستطيعون لتسويد صورة الأسقف المنتخب، وأخيراً طرحت مسألة: موافقة من على الانتخابات والاجراءات التي أعقبتها ستفضل؟ أهى موافقة الملك الكبير أم الملك الشاب؟ واستغرق النقاش حولها وقتاً وبحث فيها باستمرار، وبدأ أنه تم التوصل إلى حل عادل لها، ثم أثرت شكوك كبيرة حول ولادته، وهنا أقسم عدد كبير من الرجال العقلاء، الذين توفر عدد كبير منهم إلى جانب رئيس الأساقفة، على الأناجيل، أنهم لم يسمعوا لاقبل الانتخاب ولاخلاله أكثر من أنه تم الحمل به وولادته على فراش زواج شرعي، وبعد هذا جرى في ٢ نيسان تأكيد الانتخاب.

وعاد رئيس الأساقفة إلى لندن، وجرى استقباله بحفاوة من قبل حشد

من بارونات انكلترا، احتشدوا هناك يوم ٣ أيلول، لكن بسبب أن السعادة غالباً ما مزجت بالحزن، ما ان أكمل رحلته بسعادة حتى دمرت —بالأسف— كاتدرائية كانتربري بالنار يوم ٥ أيلول.

وجرت دعوة أعيان الكنائس الشاغرة للاجتماع بغية انتخاب أساقفة لأنفسهم، وبما أن مندوبي الملك الشاب قد أخبروا البابا بأشياء كثيرة حول الأسقف المنتخب لكنيسة إيلاي Ely وخشية من الاساءة إلى سمعته وتشويهها بين الناس الطيبين، أقسم في احتفال مهيب جرى في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر أنه بريء من موت رئيس الأساقفة توماس، وأنه لم يعرف شيئاً عن الموضوع ولم يشارك به لابقول أو عمل، وأنه لم ينم بعد سيامته مع أية امرأة.

رفض هنري الملك الكبير الطغيان بقلبه وروحه، وعدّ من واجبات الجلالة الملكية ابعاد رعاياه عن الجولان حول البلاد، لسلب الفقير، وايزاء الأراامل واليتامى، واغتصاب العذارى، واهتم بشكل خاص بمنعهم عن سفك الدماء، فضلاً عن هذا لقد عرف أن التذلل غير الاعتيادي الذي أبداه الفرنسيون والفلمنكيون ورغبتهم في صنع سلام بينه شخصياً وبين أولاده صادر عن عجزهم عن مقاومته، وكان سيتجنب الفرنسيين حتى عندما يحملون الهدايا، مالم يكن قد أغري بأي نوع من الاذلال والتحالف مع أعداء من هذا النوع، من خلال رؤيته المستقبلية بإمكانية استدعاء أولاده —الذين كاد كل واحد منهم أن يظن أنهم ضلوا بالفعل— إلى ثمار حياة أفضل، أولاده الذين أحبهم كثيراً، والذين جعل منهم سادة لكثير من الأمم، والذين لم يتوقف قط عن محاولة رفعهم إلى أعلى مراتب الشرف، حتى يكبحوا الناس، ويحكموهم بحكمة، ولإرعاب الطغاة، ومحقق أعدائه.

وبما أن أعداءه كانوا يتفوهون كلام سلام، وأرادوا التباحث معه، ذهب لمقابلتهم في ١١ تشرين أول، بين تور وأمبويسز **Amboise**

والذي ظهر قد نشر في الوثيقة التالية:

«من ملك الانكليز إلى جميع رعاياه المخلصين، التحيات:

اعلموا انني بنعمة من الرب قد أقمت سلاماً مع الملك الفرنسي، ومع أولادي ورجالي، في سبيل تمجيد الرب ومجدي، وتم الاتفاق بأن أعطي ابني الأكبر هنري خمسة عشر ألف قطعة ذهبية من الأموال الأنجيفية كل سنة مع قلعتين في نورماندي حسب رغبتني، ولسوف أعطي رتشارد نصف دخل بواتيه مع قلعتين لا يستطيع منهما إلحاق الأذى بي، وإلى غيوفري نصف دخل بريتاني، ولقد عاد جميع رجالي الذين تركوني إلى طاعتي والولاء لي، وذلك بحضور أولادي وبأمر منهم، وقد أقسموا يمين التبعية لي ضد جميع الناس، وسيحتفظون بالأراضي التي كانت بأيديهم عندما تركوني، إن ملك اسكوتلندا مع إيرلي لستر وتشستر مع آخرين عقدوا اتفاقات معي أو أعطوني رهائن قبل هذا السلام، هم تحت رحمتي، وخارج هذه الاتفاقية مع أولادي، أما الرجال الذين أسرتهم، والذين لم يقدموا رهائن ولم يعملوا اتفاقية، سوف يحررون، على أساس ضمانات أمنية جيدة وبناء على طلب أولادي، وعادت إلي جميع القلاع التي كانت بيدي أو بأيدي رجالي في بلادي عند بداية الحرب، وجميع القلاع التي حصنت ضدي سوف تعود إلى ماكانت عليه عندما بدأت الحرب».

ووضع الرب في أيدي الملك الكبير لدى هزيمته لأعدائه تسعمائة وستة وتسعين فارساً، لم يرغمهم على دفع فدية أنفسهم بالمال، وفي الحقيقة فك أسار المهزومين من الأغلال إذا قدموا له رهائن، أو لمجرد إعطائهم كلمتهم، وكانت هناك قلة حفظت بالاعتقال الشديد، وهم الذين تدفع جرائمهم الهائلة وماسبوه من كراهية كبيرة، تدفع أكثر

الأمراء رحمة إلى الغضب والتفكير بالعقوبة.

ومن جانب آخر أطلق الملك سراح الذين أسرهم هو أو حلفاؤه، أو الذين اعترض سبيلهم بموجب قانون الحرب أو الوسائل الأخرى، وجاء إطلاقهم مقابل المال، وقد تجاوز عددهم المائة قليلاً.

ولوحظ يوم ٤ تشرين ثاني، في حوالي منتصف الليل، ولمدة ساعة وأكثر أن لون السماء الشمالية كان أحمر بلون الدم.

ووضع وليم ملك السكوتلنديين بالأغلال واعتقل في نورماندي، وقد سمح له أن يزار من قبل حشد كبير من رعاياه، وأقام الأساقفة ورعاة الديرة والإيرلات والبارونات العائدين لمملكته سلباً مع الملك الانكليزي في فالونز Valognes يوم ٨ كانون الأول.

وقدم ملك السكوتلنديون الولاء لهنري الثاني، وربط ورثته في أن يفعلوا الشيء نفسه، ووعد أن تكون الكنيسة السكوتلندية خاضعة للكنيسة الانكليزية، وأنها لن تؤوي لاجئين معادين لانكلترا، وكعلامة أخيرة على خضوعه سلم قلعتي روكسبرغ Roxburgh وبيروك Berwick إلى رجال هنري الثاني.

وكان لغيوفيري، أبو هنري الثاني، وكونت أنجو، ابنة تدعى إمّا Emma ولدت له بشكل غير شرعي تماماً من اتصاله بسيده من لامانس، وعرف داود أمير شمالي ويلز بأمرها وأنها أخت هنري، فطلب منها أن تكون زوجته، وقد حصل عليها بعد إلحاح شديد، وقد استهدف من وراء ذلك إعطاء الفخار إلى أولاده بالانحدار من بيت ملكي إذا مارزق أولاداً، وأن يدخل الرعب إلى قلوب الويلزيين بسبب أقربائه الجدد.

سنة خمس وسبعين ومائة وألف

ترك وليم ملك اسكوتلندا رهائن في نورماندي، ورجع إلى انكلترا في ١١ كانون الأول [١١٧٤]، وقد بقي حراً دون سجن حتى يتم تسليم القلعتين اللتين ورد ذكرهما في الاتفاقية إلى حفظة تابعين لملك انكلترا حسبما تم الاتفاق.

وجرت إزالة جميع القلاع في انكلترا ونورماندي التي اعتقد الملك أنها ظلمت الفقراء خلال الصراع الطويل مع أبنائه.

وهكذا أمكن لأبناء ملك انكلترا، الذين أبعدهم آراء الرجال الفاسدين عن أبيهم، أن يعودوا إلى الرعاية وإلى حياتهم القديمة والطبيعية، ولهذا قرروا إزالة جميع الشكوك بتقديم الولاء والطاعة لأبيهم، وقدم ذلك أولاً الولدان الأصغر: رتشارد وغيوفري في لاماناس، وبعد هذا فعل ذلك أيضاً الملك الشاب في بور Bur يوم انيسان.

وجاء ملكا انكلترا معاً، وهما اللذان في السنة الخالية لم تكن المملكة كبيرة بما فيه الكفاية لاستيعابهما، وعبرا إلى انكلترا في مركب واحد يوم ٩ أيار، ولقد أكلوا معاً في الأوقات المعتادة للطعام على المائدة نفسها، وأراحا أطرافهما في غرفة النوم نفسها، وأكرم الشهيد الكاشف توماس وفادتهما معاً بالتساوي أثناء حجتهما إلى كانتربري، يوم ٢٨ أيار، ولقد اعتنى بهما بالطريقة نفسها، باستثناء أن الملك الكبير مكث طوال الليل مستيقظاً، وهو يصلي، وظل صائماً يعذب نفسه حتى اليوم الثالث.

وقيل بأن فيليب كونت فلاندرز أمسك وولتر أوف فونتين Fon-taines في حالة زنا مع زوجته الكونتيسة ايزابل، فعرضه للضرب حتى الموت في ٢ آب، وبادر إلى تعليق جسده بشكل معكوس فوق مقعد مرحاض، رابطاً قدماء مع بعضهما، وحضر بسرعة مشنقة، وهكذا لم يفقد

شيئاً من الوحشية، واكتمل غضبه ضد الرجل الميت، فأمر بعرضه بشكل عام لينظر الجميع إليه.

وكان جون عميد سالسبري قد دعي إلى تسلم الأسقفية في آينشام Eynsham يوم ٢٦ تشرين الثاني، فاستلم حكم كنيسة شرق أنغليا Anglia بموافقة الشعب من نوروك Norwick وبرضا الملك، ومباركة رئيس الأساقفة، وبموجب سلطات الكاردينال، وتمت سيامته من قبل رئيس أساقفة كانتربري في لامبث Lambeth يوم ١٤ كانون الأول.

وحول الملك الكبير نظراته نحو حاجيات أولاده، ودفع عن الملك الصغير ديوناً هائلة، فقد تم الاعتراف بكل ما أخذه وزراء الملك الكبير من أجل استخدامات الملك الصغير على الطعام والشراب في نورماندي، ومين، وأنجو، وذلك خلال السنوات الثلاث التي مضت، وعندما دفع خازن الملك تماماً لكل شيء، جرى صرف الدائنين.

سنة ست وسبعين ومائة وألف

عين الملك، بناء على نصيحة ابنه، وموافقة أساقفته، والإيرلات والبارونات، والفرسان والرجال الآخرين الذين كانوا حضوراً، قضاة، ثلاثة لكل واحدة من مناطق المملكة الستة، وقد أقسموا على توفير العدل لكل انسان، وقد تم هذا يوم ٢٦ كانون الثاني في نورثامبتون.

وبناء على أوامر صدرت عن الكاردينال هيج بيرليوني Pierleoni اجتمع رجال الدين لجميع انكلترا في لندن يوم ١٤ آذار، ووقف رئيس أساقفة يورك ضد رئيس أساقفة كانتربري، مدعياً أن البابا غريغوري

الكبير قال: «ليكن هناك تمييزاً في المكانة بين أسقفي لندن ويورك تبعاً لدرجة قدم السيامة»، وطالب بتطبيق ذلك على كانتربري ويورك، واستمر يقول إنه بحكم سيامته ينبغي أن يجلس على يمين الكاردينال، ومن جانب آخر قال رئيس أساقفة كانتربري بأن كنيسة امتلكت الرتبة والتقدم والرفعة تماشياً مع أوضاع الآباء الكنسيين، ومع المراسم الملكية، والامتيازات البابوية، لذلك ادعت دوماً بحق أنها الأولى بين جميع كنائس انكلترا.

ومع استمرار الأسقفين في عملهما الغبي هذا، جلس في يوم الثلاثاء التالي الكاردينال في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر، ووصل رئيس أساقفة كانتربري، يساعده أسقف إيلاي Ely وماكاد يجلس على يمين الكاردينال، حتى انفجر قتال فيما حول المكان، وازداد الاضطراب والشجار سوءاً، وارتفعت الأصوات، وتعاظم التهديد، وجرى ضرب بعض الناس، فغادر الكاردينال مسرعاً جداً، وجرت مهاجمة رئيس أساقفة يورك شخصياً، وقد قال بحضور الملك والكاردينال:

يقع اللوم على تسبب الجراحة له، وتمزيق ثيابه، على أسقف إيلاي.

ولهذا السبب كانت هناك اتهامات ودعاوى من كلا الجانبين، وجرى إهمال المجلس والتخلي عن الاجتماع، وتكلم الكاردينال إلى رجال الدين والشعب في الساحة الداخلية لوستمنستر، وطالب بالسماح له بالانسحاب والمغادرة، لكن جرت تهديته بعد ذلك برجاوات من الملك، وقد قبل تماشياً مع رغبات الأساقفة [ثم صدر عن البابا المرسوم التالي]:

«البابا الاسكندر

رغبة في حفظ التمجيد الكلي لكنيسة يورك، وسيراً على خطى أسلافنا، أصحاب الذكرى السعيدة الأحبار: كاليكستوس، وأونوريوس، وانوسنت ويوجينيوس، وبموجب السلطات الرسولية: نحظر على رئيس

أساقفة كانتبري انتزاع أي اختصاص من يورك، ونحظر أيضاً الشيء نفسه على رئيس أساقفة يورك، كما لا يجوز أن تكون يورك خاضعة لكانتبري، وذلك توافقاً مع الحظر الصادر عن القديس غريغوري، بل عوضاً عن ذلك إن التمييز بالمكانة ينبغي أن يحفظ بينهما، على أساس ماشرعه ذلك الأب، أي إن الذي يحتل المكان هو الذي سيم أولاً.

وكانت مقاطعات الحدود العائدة لكل من آنجوميين تعاني من نقص الخبز، وأمن هنري الثاني مايكفي لطعام عشرة آلاف من الناس كل يوم اعتباراً من انيسان حتى بات هناك مايكفي من القمح الجديد، وبناء على الأمر الملكي جرى توزيع كل ماكان محفوظاً لاستخدامات الملك سواء في الاهراءات أو أقبية الخمور أو المخازن، على زملائنا الأتقياء وعلى جميع الفقراء.

وجمع فولغرين Vulgrin كونت أنغوليم Angouleme عصابة من البرابانكونيين الأشرار، وتجراً على الاغارة على بواتو، وحشد بالمقابل جون أسقف بواتو العساكر من جميع الجهات، كما وجمع كثيراً من المرتزقة الذين توحدوا مع ثيوبولد شابوت Chabot قائد فرسان رتشارد دوق أكويتين —الذين كان آنذاك في انكلترا مع أبيه الملك— لانقاذ الشعب الذين أوكل إليه أمر حمايته، من أيدي أعدائه، وانقسموا إلى ثلاث فرق، والتقوا بهؤلاء الأشرار، الذين خربوا القلاع، وأفرغوا الحقول من سكانها، وأحرقوا الكنائس، ومارسو الطغيان على الراهبات في دير باربزيوكس Barbezieux وقد جرى قتل العديد منهم في المعارك، وأعداد ليست قليلة أغلقت عليها القلاع وأحرقوا فيها، وقرر البقية منهم الفرار، فتخلوا عن معداتهم وتركوها غنيمة، وعلى هذا تمت حماية أهل بواتو لافضل السيوف والخوذات بقدر ماكان ذلك بفضل العناية الربانية، حيث خرقوا فرق تشكيلات أعدائهم بدون أذى، والذين فقدوه كان أربعة من عددهم فقط، وهكذا جاءت السلامة على أيدي رجال

الدين الذين أظهروا أنهم لا يفتقدون الروح، بل السلاح.

واستدعى الملك الملك الشاب الذي كان مشغولاً في الخارج، وجاء رجال الكنيسة وبارونات المملكة معاً إلى لندن، فقد جرى إرسال سفراء في قطار كبير من قبل وليم ملك صقلية ليطلبوا يد جوانا أصغر بنات الملك للزواج، وقد استجيب للطلب بعد مداولات، وكان ذلك يوم ٢٠ أيار، وتحول طلب الزواج والوعد بالاجابة بالأيان من جانب الملك، إلى خطبة وزواج مؤكد، وأرسل ملك انكلترا رسلاً إلى صقلية بهدف اقامة حلف مع ملك صقلية فعال، وأن يزدادا تقارباً، وأن يوثقا التحالف، وبعدما اتفقوا على الهدايا التي ستمنح بسبب الزواج، عجلوا بالعودة، وتم هذا بحضور الكاردينال، وبموافقة رؤساء الأساقفة والأساقفة، وجرى تمتينه برضا النبلاء.

وفي يوم ٢٧ آب، أبحرت جوانا ابنة الملك الصغرى للزواج من ملك صقلية، وتولى أسقف ونشستر تأمين النفقات والمؤن المحتاجة للرحلة، مع عدد كبير من الخدم، وبناء على أوامر الملك جرى تعيين رجال شرفاء كمرافقة، وقد توجب على بعضهم الذهاب حتى سانت جايل، وعلى آخرين تسلق جبال صقلية والذهاب إلى قصر بلرم، ولم يتوجب عليهم العودة حتى يشهدوا حفل الزواج، ويروا ملك صقلية وجوانا تتوجا برباط الزواج.

وما ان عبر سفراء ملك صقلية البحر الهائج، حتى جرى تعيين ابنة ملك انكلترا زوجة للملك أمام مجموعة من النبلاء في كنيسة سانت جايل، في يوم ٩ تشرين الثاني، وذلك على يد جون أسقف نوروك - Nor-wick حسبما كان قد وعد في بلرم يوم ٩ آب.

وكان جون أسقف نوروك قد أبحر نحو صقلية، بناء على أوامر الملك، وذلك في أحوال مناخية خطيرة وقد تحمل العديد من المصاعب، وكان

من المتوجب عليه التوجه مباشرة إلى روما لولا أن اللومبارد كانوا مايزالون متورطين بالانشقاق، وكانت المنطقة الجنوبية التي كان بإمكانه العبور منها، متأثرة بشكل حاد بالمجاعة، وكان من الصعب جداً تأمين العلف للحيوانات، وتآلم الأسقف أثناء سفره خلال أوفرن Auvergne من عويل الناس الذين كانوا مرميين في الشوارع، وقد تورموا من الجوع، وكان مايزال بحالة صحية جيدة عندما دخل إلى مدينة فالانس Va-lence غير أنه تساءل عن أمانة مضيفيه، فلقد امتلأت الفرش بالحشرات، التي سببت عدم نومه ليلال، واجتاز الأسقف بلاد امبرون Embrun وتجنب منطقة جبل جنفري Genevre ووصل إلى الحدود الايطالية، ثم أبحر فوق بحر تيرهنيان Tyrrhenian.

ومن هناك، وبسبب وعورة المنطقة، اعتمد على عدد من السفن المتنوعة، والخفيفة والسريعة، وفضل مراكب التجديف واعتمد عليها أكثر من اعتماده على السفن الشراعية، وقد عبر دوقية أبوليا، وإمارة كابوا Capua ورؤوس كاليريا Calabria بعد المضيق، وإنني لم أحذف ذكر المخاطر المعروفة أيضاً للناس الذين أبحروا إلى ايطاليا بعد سقوط طروادة، وتجنب الأسقف رأس بالينوروس Palinurus وصخور سيلا Scylla ودوامة تشاربيدز Charybdis مع شيء من الخوف، وكانت لحظات رهيبة لدى التفكير أن أعماق البحار الهائجة يمكن أن تبتلع الانسان بلحظة، وهكذا حكم على الرحلة بقلّة الراحة، وبدوام القلق، فلقد كان التهديد من امكانية هجمات القراصنة يمكن أن يرعب أكثر البحارة ثباتاً، ونشأت الاصابة بدوار البحر من الحالات الصعبة التي عاش فيها المجدفين، فقد تأثرت أجهزتهم الحيوية بالهواء غير الصحي، ويمكن للمرء أن يتخيل أنواع المخاطر التي يواجهها الناس في الخارج [وذلك بين جميع مشاكلهم الأخرى] عندما كانت أوراق الأشجار في صقلية مع براعم الكرمة والقصب في المستنقعات كانت كلها قد ذبلت

بسبب الجفاف، فقد كان الوقت آنذاك هو منتصف آب، وعندما كانوا على وشك الإرساء، كان مركبهم صغيراً بالكاد يمكنه استيعاب ثمانية رجال، وقد غمرتهم مياه الأمواج، وكانوا يائسين وهم يحاولون استرداد قوتهم، ولقد ناموا مرغمين تحت السماء المكشوفة لعدة أسابيع، واضطروا أثناء الليل للتعامل مع الحجارة الصماء عوضاً عن الفراش الناعم الوثير، أو أن التيار منحهم استخدام الرمال، وعلمتهم الحياة أن يحشوا فرشهم بالحصباء.

وبعدما أمضى الأسقف عدداً كبيراً من الأيام في هذا النوع من الشقاء، دخل إلى بلرم، وهناك التقى بثلاثة من أصحابه الرسل، وتسلم في خلال أيام قليلة اجابة مرضية من الملك الصقلي، ولو أنه امتلك الوقت لسأل فيما إذا كانت صقلية قد دعيت بالمثلثة بسبب قمم جبالها الثلاثة أو بسبب شكلها المثلثي، لكنه كان يمضي خريفاً غير منتظم، وفقد اثنان من المرافقين الذين ورد ذكرهم أعلاه حياتهم في حادث من الحوادث، وأصيب الثالث بحمى شديدة ألزمته الفراش، وهكذا عاد الأسقف لوحده إلى انكلترا، بعد بعثة ناجحة، انتهت بزواج الأميرة من الملك الصقلي، ووجد الملك في نوتنغهام ليلة عيد الميلاد.

سنة سبع وسبعين ومائة وألف

وتألفت مدينة بلرم وقتذاك باحتفالات زواج ملك صقلية من ابنة ملك انكلترا، وتدفق رؤساء الأساقفة والأساقفة والكونتات والبارونات ورجال الدين والشعب في لحظة واحدة ليباركوا الزواج وليشهدوا تتويج الملكة الجديدة، وقام وولتر رئيس أساقفة بلرم بإتمام مراسم الزواج في ١٣ شباط.

وتوجه الملك هنري إلى فرنسا يوم ١٨ آب، وذلك بعدما تولى تنظيم مملكته وفقاً لرغباته، [وهناك أبرم مع ملك فرنسا الاتفاق التالي]:

«أنا لويس ملك فرنسا، وأنا هنري ملك انكلترا، نرغب أن يعرف كلّ انسان أننا، وعدنا بكل وقار، بإلهام من الرب، أن نحمل الصليب ونذهب إلى القدس، ونرغب أيضاً أن يعرف كلّ انسان أننا منذ الآن ودوماً نريد أن نكون أصدقاء، وأن كل واحد منا على استعداد لحماية الحياة والأطراف والشرف الدنيوي للآخر ضد جميع الناس، وبقدر ما أوتي من قوة، وإذا ما حاول انسان أن يؤذي أي واحد منا، فإنني أنا هنري سوف أقسم على حماية مولاي لويس ملك فرنسا ضد جميع الناس بقدر ما أوتيت من قوة، وأقسم أنا لويس على حماية هنري ملك انكلترا ضد جميع الناس بقدر ما أوتيت من قوة، ذلك أنه تابعي وحليفي، وأن نحفظ العهود التي ندين بها لرجالنا ماداموا مخلصين لنا. وأبرم هذا في نونانكورت يوم ٢٥ أيلول».

وأخضع صلاح الدين، وهو مُعذب بوحشية لاسم المسيحية، مصر وسورية، واستولى بالقوة على بابلين ودمشق. وعندما جمع كونت أوف فلاندرز ووليم إيرل دي ماندفيل قوة كبيرة من سكان القدس لمهاجمة حارم Agarenes على الحدود مع أنطاكية، حاصرا حماه Hareng يوم ٤ تشرين الثاني، وكان يوم عيد، واعتقد صلاح الدين، الذي حقق المكانة السامية بقوة السلاح لابقوة الأصل والنبالة، أن مدينة القدس المقدسة كانت شاغرة من المحاربين، على هذا حشد جيشاً كبيراً، وغزا أراضي عسقلان بالقوة، وأقام معسكره في مكان اسمه الرملة، وقام ملك القدس والبطريك وجيش صغير من فرسان الداوية والاستتارية بقي معهما، مع عدد قليل من المقاتلين، بإعداد أنفسهم بسرعة للحرب، معتمدين لاعلى السيف والرمح، والقوس والنشاب بل على عون الدين فقط، ولقد سلحوا أنفسهم بشارة صليب الرب واستلهموها على الفور،

وساروا مسرعين خلال الليل لمقابلة المسلمين، متذكّرين أن من السهل إلحاق الهزيمة بحشد كبير من قبل عدد صغير، وأنه لافرق في أعين الرب بين الربح بين كثير أو بين قليل، وعندما جاء الصباح انعكست أشعة الشمس على ترستهم المذهبة، وتسلق المسيحيون قمة جبل هناك، بينما اصطف المسلمون للقتال في سهل تحت الجبل، وبدأ لمن يستطيع الرؤية بوضوح أن المسلمين تفوقوا بالعدد على المسيحيين بنسبة واحد لمائة، ولهذا تعلم المسيحيون من السيدة الحاجة إيجاد مخرج جديد، فحولوا صفوفهم الأربعة التي عبأوها للقتال إلى صف واحد على شكل إسفين، وبذلك تمكنوا بثبات من تلقي الهجمات القاسية التي شنها الناس المطوقين لهم من جميع الجهات، وبينما كان المسيحيون في هذا الوضع الخطر، وحينما باتت المسألة مسألة حياة أو موت، أخذ أودو مقدم فرسان الداوية — مثله مثل يهوذا المكابي — أربعة وثمانين من فرسانه معه، والتحم بطرفهم مع فرسانه، مدافعاً عن شارة الصليب، وشرع الفرسان رماحهم، وحملوا كأنهم رجل واحد، غير ملتفتين إلى يمين أو يسار، وبعدما تعرفوا إلى الصف الذي تحت إمرة صلاح الدين والذي يضم عساكر كثيرة، هاجموا بشجاعة، وخرقوه ومروا فيه بدون تردد، وتابعوا الضرب بدون توقف، فمزقوهم، وسحقوهم وفرشوهم فوق التراب، وتملكت الدهشة صلاح الدين تجاه هذا النجاح، وعندما رأى رجاله قد تفرقوا في جميع الاتجاهات، وأرغموا على الهزيمة، وصاروا طعمة للسيوف، قرر هو نفسه اللجوء إلى الفرار، فألقى بسرعة أثقاله، وتسلق ظهر واحد من جمال السفر، ونجا بكل صعوبة من الموت مع عدد قليل من الرجال، ولم يعبأ بالعار الذي تركه لأحفاده، وصح عليه القول: «يطارد واحد ألفاً، ويهزم اثنان ألفين»، وهكذا ربح المسيحيون يوم ٢٥ تشرين الثاني ونالوا النصر، وبفضل الأوامر الربانية تم تدمير قوة المسلمين وأشعلت النيران يوم ٢٩ تشرين الثاني في جميع أنحاء المملكة.

وجاءت في يوم ١ كانون أول ربح عالية من الشرق، فحطمت الأشجار، ودمرت الأبنية.

سنة ثمان وسبعين ومائة وألف

ثلج ثقل.

وكان على الساحل أعمال ترايبة كبيرة مشكلة من المروج، وقد جرى تدميرها بفيضان من البحر، لاسيما من الشمال، وفي ٨ كانون الثاني جرفت الرياح العاتية من الشمال السكان، والمواشي، والقطعان في جميع الاتجاهات.

ومتن هنري ملك انكلترا سيطرته على جميع الدفاعات في المقاطعات الواقعة تحت سيطرته، والقائمة على مقربة من الحدود مع فرنسا والقنال الانكليزي، وبعدما رتب كل شيء حسبما رغب، عاد إلى انكلترا في يوم ١٥ تموز، وإثر عودته زار قبر توماس الشهيد الرائع.

وذهب وليم رئيس أساقفة ريمز Reims إلى كانتبري يوم ٢٧ تموز مع مرافقة كبيرة، وكان قصده الوفاء بالندور التي قطعها على نفسه أثناء الصلاة، إلى توماس الشهيد الرائع، وجاء ملك انكلترا، مع عدد من الأساقفة والعديد من النبلاء لملاقاته، وتم استقباله بحفاوة عظيمة، وقد أمضى ثلاثة أيام في قصر الملك في لندن، على حساب المملكة، وعندما بعث الملك إليه هدايا ضيافة تألفت من عدد من آنية الزينة الثمينة، تمنع عن لمس أي منها، وذلك خلافاً لعادات الفرنسيين، وتقبل فقط بعض الأشياء التي لم تقدم على شكل هدية، بل كدليل محبة من الملك.

وأعطى الملك هنري ملك انكلترا ابنه غيوفري حزام الفروسية في
وودستوك Woodstock يوم ٩ آب.
وفي يوم ١٣ أيلول كان هناك كسوف للشمس.

سنة تسع وسبعين ومائة وألف

ترك الملك هنري الشاب ابن الملك، انكلترا، وأمضى ثلاث سنوات
في المبارزات، وأنفق كثيراً من المال، وحينما كان مندفعاً يجول حول جميع
أرجاء فرنسا، خلع الشارات الملكية، وحول نفسه من ملك إلى فارس،
وقد حصل على النصر في كثير من المنازلات، وجعلته شعبيته مشهوراً،
وكان الملك الكبير مستوراً تجاه ذلك وقد تولى تعداد انتصاراته وأعجب
بها، ومع أن الملك الشاب كان ما يزال دون السن القانونية، أعاد والده
إليه جميع ممتلكاته التي سلف انتزاعها منه، وظل هكذا مشغولاً بأعمال
الفروسية، حتى لم يعد ينقصه الفخار، عندها أبحر من وزانت Wiss-
ant وقد استقبل بحفاوة لائقة به من قبل أبيه الملك، في يوم ٢٦ شباط.

وسمعنا أنه في عيد الفصح، وفي احتفال عظيم، تزوجت أغنس ابنة
لويس السابع من ألكسيوس بن مانويل، امبراطور القسطنطينية، وأراد
الرب هذا الزواج أكثر حظاً من الزواج فيما بين ابنة شارلمان والامبراطور
قسطنطين، الذي انسحب من زواج بلا أولاد، وكان قسطنطين قد طرد
أمه إيرين من حكم الامبراطورية، لكن عندما عادت إيرين إلى السلطة
سملت عيناه.

وقرر الدوق رتشارد صاحب أكويتين قهر غيوفري دي رانكون المتبجح،
فجمع قوة وحاصر يوم ١ أيار قلعة تيلبيرغ، وكانت هذه العملية مغامرة

مرعبة جداً، وكانت شيئاً لم يتجرأ أي من أجداده على محاولته، فقد كانت القلعة المذكورة في تلك الأيام محاطة بثلاثة خنادق مع ثلاثة أسوار لمقاومة العصيان، ومشحونة بشكل جيد بالأسلحة والحواجز والموانع، ومحلاة بالأبرجة المقامة على مسافات معينة، وكانت محصنة بشرفات حجرية، وفيها وفرة بالمؤن، ومليئة بآلاف الرجال المدربين على القتال، لهذا لم تخش من وصول الدوق، وأغار الدوق نفسه بعنف على المنطقة، وحصل على كثير من الأسلاب، وقطع كروم العنب وأحرق القرى، وأزال البقية وعاث فساداً فيه.

ووصل إلى القلعة، فنصب خيامه وآلات قتاله إلى جانب السور، وأرعب بذلك ساكني القلعة تماماً، لكن مع ذلك بدا لهم أنه من العار البقاء داخل أسوار القلعة دونما هجوم، فاتفقوا على الاندفاع نحو الخارج من خلال الأبواب، والانقضاض بشكل مفاجيء على جيش الدوق، وعندما لاحظ الدوق هذا، استنفر رجاله، وأرغم العدو على التراجع، وكان هناك قتال عنيف عند الباب، واستخدم وقتذاك كل شيء في القتال من : الخيول، والرماح، والسيوف، والخوذ، والأقواس، والقسي العقارة، والترسة، والدروع والهراوات أو الحراب، وفي الأخير كسبت الخبرة الجولة، ولم يعد بإمكان أصحاب القلعة الصمود أمام الحملة العنيفة للكتيبة القيادية التي وجهها الدوق من الخارج، وانسحبوا بسرعة إلى خلف الأسوار، ولم يتوقف الدوق فدخل البلدة، وكان هناك اندفاع إلى هنا وهناك في أرجاء المكان، ثم تلا ذلك حرق ونهب، وفي يوم ١٠ أيار استسلمت القلعة، وخلال أيام سويت الأسوار بالأرض، وخضعت بقية القلاع في المنطقة وهزمت خلال شهر واحد، والآن وقد تم وكمل كل شيء كما رغب به، عبر الدوق رتشارد إلى انكلترا، واستقبل بحفاوة عظيمة من قبل والده هنري الثاني.

وتفوق الملك لويس السابع ملك فرنسا على أجداده في أبهته مع

كرمه، وكان قد فرّج عن القديس توماس أثناء وجوده في المنفى، والقديس توماس هو رئيس أساقفة كانتبري السالف، وقد عاش لسنوات عديدة في فرنسا، وتلقى من الملك الفرنسي كثيراً من الألفاف بما توافق مع أخلاقه، وأمل في أن يظهر طاعته للرب بمعاملة رئيس الأساقفة بتقوى واحترام، ومع انتشار الحكايات عن معجزاته في الطول والعرض، قرر لويس أنه يرغب في تقديم تبجيله لجسده بكل تقوى، بغية أن تعبر صلواته واستغفاراته من المملكة الفانية إلى المملكة السموية، ولم يتقدم له أو لواحد من أجداده، في أي وقت من الأوقات سواء أكان ذلك في السلم أو في الحرب، زيارة انكلترا، واتخذ لويس لنفسه ثياب حاج واسمه، واصطحب معه مجموعة متواضعة من النبلاء، وقام بزيارته بكل تقوى وإخلاص.

وما ان سمع هنري الثاني ملك الانكليز وأبوه، بقرب وصوله حتى بادر إلى التوجه لاستقباله، وسار بسرعة مزدوجة والتقى بالملك الفرنسي في دوفر في ٢٢ آب، وقدم إليه كلّ حفاوة ممكنة التصور، وكانت هناك مسيرة وقورة في الكنيسة الكبيرة، حضرها رئيس الأساقفة، والأساقفة والإيرلات والبارونات، ورجال الدين والشعب، وتمت يوم ٢٣ آب، كما وكانت هناك تراتيل وأناشيد وسرور عظيم احتفالاً بوصول شخص عظيم مثل هذا الأمير، وأنا لأعرف كم من الفضة الفرنسية والذهب قد أعطى بمثابة هبات، ومنح ملك فرنسا منحة سنوية هي مائة وحدة قياس باريسية من الخمرة، لصالحه ولصالح ورثته، تقدم بشكل دائم احتراماً للشهيد، وكانت هذه الخمرة مكرسة لتستخدم من قبل رهبان كانتبري، ونحن نحیی ذكراه، وخشية أن يظهر الفرنسيون أنهم يبتغون أي شيء سوى الشهيد، فقد منعوا أيديهم من الامتداد إلى خزانة أموال الشهيد، وهو شيء ربما كان في أذهانهم.

وهكذا أمضى ملك فرنسا ثلاثة أيام في كانتبري في صيام وصلاة،

وقيام، وتقبل من هنري بعض الهدايا الصغيرة، كعلامة على المحبة، وغادر لويس ثانية يوم ٢٦ آب من دوفر.

ولندع الآن لبعض الوقت الحملات والسياسة، ونتوجه نحو كتاب آدم آينشام «حياة القديس هيوغ أوف لنكولن»، وكانت شخصية محط اعجاب كبير ومحبة في دير لى غراند تشارتريوس **Grande Char-treuse** قرب غرينوبل، وقد جرى اختيار هيوغ من قبل هنري الثاني ليكون رئيساً لديره الجديد في ويتهام في سمرست، الذي تأسس عام ١١٧٧، وكان مايزال يصارع من أجل وجوده منذ ثلاث سنوات عندما وصل هيوغ إلى هناك.

أسس هيوغ أخوانيته في دوثنان Dothan التي ترادف اسمها مع الفقر المدقع، فقد كانوا يعيشون في غابة قرب الفيلا الملكية في ويتهام، وهو اسم تنبؤي معناه باللاتينية بيت، أو منزل العقل، وهو ما أصبح المكان بعدما جاء إليه فيلسوف المسيح الحقيقي، وأوجد هيوغ الاخوانية ليعيش أفرادها في خلوات مصنوعة من أعواد الخشب، ومحاطة بخندق ضيق وحاجز، وإلى أن وصل، ومن ثم حتى تمكن من إعادة تنظيم الاخوانية، نقول باختصار:

إنهم افتقدوا كل شيء، لا بل كل شيء ضروري حتى لأبسط متطلبات اخوانيتهم، ولم يكن قد تقرر بعد أين ستبنى الكنيسة مع الخلوات ودير الرهبان أو الدير الصغير، مع الساحات وبيوت الضيوف واستراحة الاخوان، وكان السكان القدماء مايزالون يعيشون هناك في مكان توجب تسليمه إلى الرهبان، كما لم يكن قد تم تجهيز أي شيء ليتمكن هؤلاء من التخلي عن بيوت أجدادهم وتسليمها هؤلاء الذين جاءوا ليخلفوهم، وما كان ذلك بالممكن دون أن يشعروا بالاهانة وبخسارة كبيرة لأنفسهم.

وبادىء ذي بدء عقد هيوج اجتماعاً مع الذين لديهم ممتلكات أو أشياء أخرى سوف يتخلون عنها لأن الأصوات ومجىء الزوار بشكل متواصل سوف يخرب، أو على الأقل سوف يسبب الاضطراب لخلوة الرهبان ولصمتهم الدائم، وبتفويض من الملك عرض عليهم واحداً من اختياريين، إما: أن يعطوا حقولاً وأماكن للسكنى من النمط نفسه الموجود في ويتهام أو أي عزبة ملكية يختارونها، أو أن يتم تحريرهم من التبعية الاقطاعية وأن يذهبوا ليعيشوا حيث شاءوا، وعندما اختار بعضهم الأرض واختار آخرون الحرية، كان هيوج مقررًا مزج العدالة بالكرم، فقال هذا لهنري الثاني ملك انكلترا:

«والآن عليك يامولاي أيضاً أن تنظر أنهم نالوا تعويضات مالية من أجل بيوتهم، ومقابل كل نوع من أنواع الأتعاب التي أنفقوها على ممتلكاتهم وأبنيتهم من كل نوع، وإلا فإنني لأستطيع قبول هذا المكان»، وهكذا أرغم الملك على أن يشتري بأثمان مرتفعة أشياء ظن أنها لاتساوي شيئاً تماماً، من مثل: أكواخ قديمة، ودعامات ملتوية، وجدران نصف مهدمة، وبذلك أنفق مبالغ كبيرة مقابل منافع قليلة، وعندما جرى الدفع للباعة، كانوا مسرورين تماماً تجاه هذا الأسلوب الجديد من الشراء، الذي أغناهم بشكل معتبر، وباركوا الراعي الجديد الذي جلب خبزه من مكان بعيد، وهو الخبز الذي منح القوة لكل انسان.

وعلى كل حال لم يكن رجل الأعمال راضياً بالصفقة، التي بدت له عادلة لكن غير كريمة، ولهذا تكلم ثانية إلى الملك وهو يتسّم: «انظر يامولاي الملك، كيف تمكنت أنا الفقير الغريب من اغنائك في أرضك بكثير من البيوت»، وضحك الملك لدى سماعه هذا وأجابه قائلاً: «إنني لأرغب بتسلم هذا النوع من الغنى، الذي جعلني تقريباً معدماً، كما انني لأعرف أي انسان يمكن أن تكون هذه الأشياء ذات نفع له»، فقال له: «عظيم جداً، أرى أنك غير مهتم كثيراً بصفقتك، ويمكنك

العمل على الاحتفاظ بكرمك باعطائي هذه الأبنية، فأنا ليس لدي مكان أريح فيه رأسي» ووجد الملك نفسه غير قادر على الاجابة، وصدق مندهشاً بالسائل، ثم قال مجيباً له: «إنك راع غير اعتيادي، هل تعتقد حقيقة انني غير قادر على أن أبني لك أبنية جديدة؟ أخبرني على الأقل ما أنت مقبل على عمله هؤلاء؟ فأجاب هيوج قائلاً: «إنه غير لائق بكرمك الملكي أن تسأل عن مثل هذه التوافه، إن هذا أول طلباتي منك، وبما أنها توافه لماذا لايجري منحها فوراً؟».

وشعر الملك، الذي امتلك حسّ الدعابة، بالسرور الكامل تجاه سرعة بديته، وعن عمد أطال المساجلة الكلامية قائلاً:

«هل يمكن أن يكون هناك انسان على أرض غريبة بمثل هذه الجرأة؟ ماالذي يمكن أن يحدث لو أنه استخدم قبضته، طالما لسانه بمثل هذا العنف، ومن أجل ألا نعاني من الأسوأ، دعوه يأخذ الذي أراد»، وعندها أعاد هيوج الأبنية التي كان قد تسلمها إلى أصحابها القدماء، مع أنهم كانوا قد تسلموا أثمانيها، وقام الملاك إما ببيعها مرة ثانية، أو بنقلها ليعيشوا فيها في مكان آخر، وهكذا تبين أنه: موهوب بالبصيرة والتقوى مثل نحميا، وبفضائل سليمان، وبغيرة داود، وبذلك أمكنه بناء قدس بلا دماء، وانطلق على الفور يعمل على انشاء المبنى الذي نراه اليوم.

وعندما اكتمل تشييد الأبنية التي تطلبتها عادات الاخوانية، وأصبح عدد الاخوان تاماً، ركز الراعي الجيد جهوده على تدريب النفوس التي أسند إليه أمر رعايتها في مجال الاحتراف المقدس، وصرف الكثير من الوقت والجهد في سبيل تصنيع وشراء، والحصول على المخطوطات الدينية بكل وسيلة ممكنة، لأن هذه المخطوطات كانت عوناً كبيراً له في مهمته.

وفي إحدى المرات كان يتحدث مع الملك فورد ذكر قلة الكتب،

وعندما وجهت إليه النصيحة في أن يبذل جهده في الحصول على المطلوب ونسخها بوساطة نساخ مخلصين، أجاب أنه لا يمتلك الرق للكتابة، وهنا سأله الملك: «كم من المال تعتقد عليّ أن أدفعه لك لتدارك هذا النقص؟» فأجابه: «إن قطعة نقدية فضية واحدة ستكون كافية لوقت طويل»، وعندها ابتسم الملك وقال: «ما أثقل هذه المطالب التي طلبتها منا»، ثم أمر على الفور بإعطائه عشر قطع تسلم إلى الراهب الذي كان مرافقاً له، ووعدته كذلك بأن يرسل إليه نسخة من الكتاب المقدس تحتوي على العهدين، وعاد الراعي إلى بيته، غير أن الملك لم ينس وعده، وحاول جاهداً أن يجد نسخة فخمة حقاً من الكتاب المقدس، وبعد جهود حثيثة وبحث نشيط، بلغه أن رهبان القديس سوزن Swithun [ونشستر] قد صنعوا حديثاً نسخة ممتازة من التوراة نسخت بشكل جميل، استخدمت للقراءة في غرفة طعام الدير، وقد سر كثيراً بهذا الاكتشاف، واستدعى على الفور راعي الدير، وسأله إعطاءه الهدية التي صنعها وتسليمها له، واعدأ إياه بجائزة قيمة، واستجيب لطلبه بكل سرعة، وعندما تسلم راعي دير ويتهام ورهبانه نسخة الكتاب المقدس وتفحصوها كانوا مسرورين بها كثيراً، وأعجبهم صحة النص كثيراً، وزاد هذا حتى على جمال النسخ والروعة الكاملة للنسخة المخطوطة.

وعندما أخبر راهب من ونشستر زار ويتهام هيوج بأن هنري الثاني قد أخذ نسخة الكتاب المقدس الجديدة والجميلة من دير، أعاد هيوج على أنسور هذه النسخة الخطية الثمينة إلى ملاكها الأصليين، وذلك على الرغم من خوف رهبان ونشستر من غضب الملك، وكان هيوج على كل حال فادراً على التعامل مع الغضب الأنجيلي لهنري، وتظهر القصة التالية كيف أثار أسقف لنكولن حنق الملك بحرمانه رئيس الأحرار الملكية.

وعندما بات تصرف الأسقف الجديد لدير لنكولن معروفاً في البلاط،

بذل عدد من الناس جهودهم لزيادة تأجيج غضب الملك ضد هيوج بكلمات كلها سم مثل قولهم:

«إن النكران الأسود للرجل لاحسانك غير العادي نحوه واضح الآن تماماً، والجائزة التي تلقيتها مقابل ما بذلته من جهد في سبيل تقدمه ظاهرة تمام الظهور».

وتصرف الملك بصبر وأناة وذلك على الرغم من غضبه، وأرسل من استدعى الأسقف، وعندما عرف أنه قرب وصوله، ركب فرسه، وانسحب مع جميع نبلائه، الذين كانوا بعدد معتبر، إلى غابة مجاورة.

وجلس أرضاً في بقعة جميلة، وشكل الإيرلات والبارونات حلقة من حوله، وأمر هؤلاء بعدم الوقوف أو تحية الأسقف عندما يصل، ولكي نجعل القصة الطويلة قصيرة، جاء الأسقف وقدم التحية للملك وللجماعة، لكن ما من واحد ردّ عليه تحيته، وعندما رآهم جالسين هناك صامتين وغير عابتين، جاء ووضع يده بلطف على كتف أحد الإيرلات الذي كان يجلس إلى جانب الملك، وجعله يعطه مكانه إلى جانب الملك، وتلا هذا صمت عميق، وانتظر كل واحد منهم وقتاً طويلاً.

وأخيراً رفع الملك رأسه وأمر واحداً من خدمه بإعطائه إبرة وخيطاً، وبعدما تسلمهما بدأ بنفسه يخيّط رباطاً وضعه حول اصبع مجروح في يده اليسرى، وساد الصمت، في حين عمل هذا لبعض الوقت لكي ينجنب الاحراج في صنع لاشيء، ولقد اعتاد الناس الغضابي على التصرف وفق هذه الطريقة، لأن غضبهم ألزمهم بالصمت، ولا يمكنهم أن يجدوا متنفساً له.

ونظر الأسقف إلى ما يجري، ولاحظ أن مظاهر عرض الغضب لصالحه، وتأمل هذا الصراع للعواطف الانسانية وكأنه واقف من أعلى برج للمراقبة وللتحليل العقلي، والتفت أخيراً نحو الملك وقال: «كم تشبه

أبناء خالكم في فالاسي Falaise » ، ونفذ هذا التعليق الذي قاله بلطف وصوت منخفض إلى أعماق الملك، فضغط على أصابعه وأخذ يضحك دون أن يسيطر على نفسه، واستلقى على الأرض لوقت طويل دون أن يتمكن من كبج سروره، واندھش الناس الذين فهموا العبارة اللاذعة تمام الاندھاش واحتاروا كيف أمكن لرجل في وضع هيوج أن يتجراً بالمزاح في حضرة ملك جبار في مثل تلك اللحظة، وعلى كل حال لم يستطيعوا منع أنفسهم من الابتسام، وانتظروا بعض الوقت ليسمعوا رد الملك، وكان معظمهم غير فاهم لمعاني ما قاله هيوج، وكانوا في ضياع تجاه التبدل المفاجيء لميول الملك وتصرفاته.

وأخيراً بات الملك مدركاً لحالة إلتباسهم فقال مايلي:

«لايمكنكم فهم الطريقة التي أهاننا بها هذا المتخلف، لذلك سوف أشرح: كان من المعروف أن أم جدنا العظيم وليم فاتح هذه الأرض، كانت من أصل وضيع، وأنها جاءت من فالاسي وهي بلدة نورمانية هامة، مشهورة بصناعة الجلوديات، فلقد رأي هذا المزوج أخيط أصابعي ولهذا أطراني لمشاھتي أخوالي في فالاسي» .

ثم قال مخاطباً الأسقف : « والآن أخبرني أيها الصديق الطيب ، لماذا رأيت من المناسب دون اخباري، القيام بحرمان رئيس أحراجي، ولماذا عاملت طلباتي التافهة منك بمثل هذا الاستخفاف، حيث لم تقدم شخصياً لتشرح لي لماذا رفضتها، كما أنك لم ترسل أي اعتذار مع رسلنا؟ وعلى الفور أجاب الأسقف على هذه الاحتجاجات بهذه الكلمات:

«إنني أعلم أنك عملت بجهد لتجعلني أسقفاً، ولهذا إنني مكرس لانقاذ روحك من المخاطر التي قد تلم بها، لولا أنني حريص على تأدية واجبي الصريح نحو الكنيسة التي عهد بها إلي، وإنه لمن الضروري حرمان المعتدي على كنيسة والظالم لها، وأكثر من هذا القيام برفض كل

من يحاول أن يملك بشكل غير شرعي شيئاً من أوقاف تلك الكنيسة، ولقد رأيت من غير الضروري الاتصال بسموك، لأنك عاقل تماماً وقادر على ملاحظة ما هو صحيح، ومن المؤكد أنك ترغب في اظهار موافقتك على ما تعرف أنه كذلك».

ولم يجد الملك أي اعتراض على هذا التوضيح، والآن وقد زالت آخر آثار غضبه المتسرع، عانق الأسقف بوجه مشرق، وعهد بنفسه لصلواته بشكل ملح، وترك له حرية القرار بشأن مسألة تحليل الرجل المحروم، الذي اعتذر وتذلل كثيراً، وأقسم يميناً حسب الصيغة التي وضعتها الكنيسة، وبعدما جلد مع شركائه، جرى تحليله، ومنحه الأسقف تبريكاته، وقد كرس حياته كلها له، وأصبح صديقه الخاص ومعاونه.

وقدم ديسيتو وصفاً لطريقة تفكير هنري الثاني الفجة العادلة في تغييراته القضائية في انكلترا (١١٧٩).

طلب الملك الكبير، هنري الثاني، ملك الانكليز في هذه الأيام صنع أشياء كثيرة كانت صعبة التحقيق، فقد وجد العمال لا يرغبون في ممارسة الأعمال العامة، ولا يهتمون بواجباتهم، ويصرفون اهتماماتهم نحو شؤونهم الذاتية، وبات قلقاً أكثر فأكثر تجاه الصالح العام، وهكذا عهد بشؤون القضاء في بعض الأماكن لرجال آخرين أمناء، وعلى هذا توجب على السلطات العامة في الأقاليم قمع المجرمين والذين يستولون على الأموال ويسيطرون على الجلالة الملكية، فهؤلاء يستحقون الغضب الملكي، وستنزل العقوبات بالذين يسارعون لاصطياد الحيوانات المتوحشة بالتغريم وبالسجن الطويل، ويتوجب أن تقمع عقوبات المجرمين، وينبغي أن ينال الذين يلقي القبض عليهم عقوبات ثقيلة، ويجب معاقبة القاتل بشنقه، والخائن بإدانته ونفيه، أما الذين ألقى القبض عليهم لإقترافهم

جرائم أصغر، فتقطع أصابعهم، وعلى رجال العدالة منع أعمال العدوان والتعويض عن الأضرار.

ومرة أخرى بعد مضي بعض الوقت، اهتم الملك اهتماماً كبيراً باظهار العدالة لكل انسان، وأمر بتأمين المزيد من الحماية لرعيته، وأراد امتحان اخلاص عدد كبير من الناس، وبحث بعناية عن محبي العدل بين مختلف طبقات الناس، وشهد الحصول على الرجال الذين يمكن ايجادهم بين الآلاف، الرجال الذين لا تفسدهم الأموال، لأن عرضاً مالياً يمكن أن يغير عقل انسان ما، ومع الناس المتغربين يمكن تبديل الأحكام التي لا يجوز تبديلها، وقام رجال الدين بالتفريغ عن شكاوى الفقراء، كما قاوم الفرسان المخولين بالسلطة الناس الذين كانوا أكثر قوة وأجبروهم على التعايش مع القانون العام، وهكذا باتت مآسي المظلومين واضحة، ذلك أنه عين رعاة ديرة جدد، وإيرلات جدد، وقادة جدد، بعضهم من أفراد بيته وبعضهم من أقرب الناس إليه وكلفهم بالاستماع لكل قضية واتخاذ القرار حولها.

وبعدما عين الملك عدداً كبيراً من رجاله المخلصين من جميع الطبقات ووجدتهم يضررون بالرفاه العام، وبما أن آيا منهم لم يعد النظر في أي قرار، وعندما لم يجد أيه وسيلة لمساعدة أفراد الشعب، قرر أنه يستطيع أن يفرز بعض الرجال عن المجموع العام، رجال مع أنهم كانوا يعيشون بين الناس، كانوا فوقهم، وكانوا ممن شعرو جرب أشياء أكثر من الناس، ولهذا حوّل كل شيء كان عرضه للتغيير ونقله إلى الكنيسة، وعين أساقفة: ونشستر، وإيلاي، ونوروك مشرفين رئيسيين على العدالة في المملكة، لكن لبعض المناطق فقط، معنقدا أن الذين سلف له تعيينهم منذ وقت طويل مضى كانوا أقل احتراماً، فإن هؤلاء الأفراد من جهة أخرى كانوا أصلب عوداً، ويخشون الرب عن إيمان، الرب ملك الملوك، وخالق الناس، وهم سوف يحكمون اعتماداً على ضمائرهم، فينتقمون للأفاعيل، ولا يلتفتون

يمنة ولايسرة، وهم لن يظلموا الفقير في محكمة ليست فاسدة بقبولها الرشوة، ووقتها إذا ماتورط رجال الدين في قضايا غير دينية مضادة للقانون، وبسبب هذا استدرجوا للمساءلة، يمكنهم الاحتجاج أنهم قاموا بها قاموا به بناء على طلب الملك، وأن مقاصد الملك كانت تقوية، وأنه رغب في إرضاء الرب عن أعماله، وأن ينال ثناء الناس، وتقرر جلوس هؤلاء الأساقفة وأتباعهم من القضاة لسماع القضايا، لكن جرى الاحتفاظ ببعض القضايا للملك، وقد تقرر عرضها في وستمنستر يوم ٢٧ آب.

وكانت هذه السنة سنة جيدة: بعد مرور شتاء جاف، وبعد هبوب رياح شمالية في الربيع وبعدما عبرت بلطف وسط البلاد من الغرب إلى الشرق، سقت أمطار خفيفة الحقول في ١٣ حزيران، فأنعشت نفوس الفلاحين الذين اعتقدوا أن بذورهم قد ضاعت، وساعدت هذه الأمطار على نمو أشجار الفواكه وصغار الحيوانات التي كانت أشبه بالموتى، وكان المناخ لطيفاً نحو البذور، لامس فقط الجذور الصغيرة، وتتابع هطول المطر والرياح فاعاد الخصب، وساعدت الحرارة الصادرة عن أشعة الشمس على زيادة خصوبة الفواكه، وبشكل غير متوقع أعطت الأرض التي كانت من قبل جافة، مواسم عظيمة، وعلى هذا كان بإمكانك أن ترى في بعض الأماكن سبع سنابل على ساق واحدة، وعليك أن تتذكر أن شيئاً ما أو شيئاً آخر يحدث فجأة، بدون أمل، وبشكل غير اعتيادي، وربما يحدث هذا لك في أيامك.

وثانية أنزلت السماء نعمها ورحمتها على رعاياها وكذلك فعلت الطاقات والقوى الأرضية، وهكذا نجد أن كل إنسان كانت لديه قضية في محكمة مدنية أو دينية بات لايشك أن المحصلة ستكون خيرة بالعون الرباني، لأن المراسيم صدرت — كما قلنا من قبل — بتعيين أساقفة في المناطق بناء على أوامر من الملك، وأن يجلس هؤلاء للاستماع إلى

الخلافات ويبتون فيها، لكنهم كانوا لا يملكون حق فرض عقوبة الاعدام، فإذا كنت أميناً يمكنك القدوم بسلام إلى المحكمة المشكلة برئاسة رئيس أساقفة كانتربري، وأنت مطمئن تماماً في نفسك حول المشكلة التي ستعرض، ومن أجل عدم انحراف مساعديه الذين يقدمون له المشورة وكذلك الطاقم الذي يتولى الأمور الإجرائية، وابتعادهم عن جادة الصواب، ولكي لا يتم افسادهم بالمال لصالح الخصوم، أقسموا يميناً على الكتاب المقدس وفقاً للقانون المدني، وبما أن الجميع يتحملون مسؤولية عامة فقد أقسموا على الأناجيل أنهم لن يلوثوا مطلقاً أيديهم بالمال، وأنه ليس هناك استثناء لأحد، ووعد رئيس الأساقفة بهذا في خطبته التي ألقاها في باغهام Pagham.

وغالباً ما عبر كادوالون Cadwallon الذي امتلك إمارة في جنوبي ويلز، الحدود القديمة بين الانكليز والبريطانيين، وكان يدخل إلى التخوم فيقتل بعنف عدداً كبيراً من الناس، وقد أمضى حياته بالقيام بالغارات والهجمات السرية، وأخيراً جرّ إلى أمام الملك، بعدما جرى اتهمه من قبل كثيرين، وعندما كان مع الملك كان تحت حمايته، ولكن بسبب جرائمه الوحشية كان دوماً خائفاً جداً.

وفي طريق عودته إلى بلاده وقع في كمين وألقي القبض عليه وقتل يوم ٢٢ أيلول، وقد أضر هذا السلطات الملكية ضرراً كبيراً، وهتك القانون العام الذي توجب أن تحفظ به المملكة سليمة، لأن كادوالون، وإن استحق الشنق مرات كثيرة لجرائمه، توجب حفظه احتراماً للملك الذي كان عائداً من بلاطه، ولأنه كان قد حصل على أمان لمدة محددة من الزمن.

ومع أنه مامن أحد خاف من هذه الحادثة، ومامن شيء يشبهها قد حدث في أيامنا، لم يدعها الملك تذهب بدون عقوبة، فقد عاقب المعتدين بقسوة، فإذا مادعيت إلى البلاط الملكي لانتحاج إلى الخوف،

وواسى الويلزيون بعضهم بعضاً، لأن موت واحد من رجالهم كان معناه جنائز حزينة وبغيضة لكثير من النورمان والانكليز من سكان التخوم، فقد اعتقل الملك الذين عرف أنهم القتلة مع الذين شكك فيهم، وبرهن على تجريمهم في محاكمة علنية، وأصدر أحكاماً قاسية قضت بشنق بعضهم على المشنقة، وبتدمير مقتنياتهم بعد مصادرتها، وأرغم آخرين على العيش حياة تعيسة بمثابة هائمين في الغابات.

وكان القدر لطيفاً تجاه لويس السابع ملك فرنسا في أيامه الأخيرة، فيما يتعلق بزواجه الثالث، فلقد تزوج ثلاث مرات بشكل قانوني، وفي الوقت الأعظم سعادة — كما كتب في الحوليات الفرنسية — نتج عن زواجه الثالث انجاب ولي للعهد ذكر، وكان الملك قد رزق من زواجه الأولين بأربع بنات فقط، ورزق بعد طول انتظار، إنما بسعادة بولده فيليب، من زواجه الثالث، من أديلا ابنة ثيوبولد العظيم، كونت بليوس، وقد أحب الشعب هذا المولود، وكان رجال الدين على استعداد لتقبله، وذهب فيليب عندما كان في الرابعة عشرة من عمره إلى ريمس، وذلك بعدما التقى برؤساء أساقفة المملكة، وأساقفتها وبأمرائها، فقد كان بحاجة إلى موافقة هؤلاء تماشياً مع عادات المملكة، ورسم في الأول من تشرين الثاني ملكاً على فرنسا، وجاء هذا بموجب حق الوراثة، وبرضى والده الذي كان أباً وحاكماً لجميع رعاياه، وجرى الرسم في ظل وقار جميع القديسين حتى يتولوا حمايته ضد أعدائه، وكان الذي تولى رسامته وليم رئيس أساقفة ريمس، وهو خال الملك، وفي أثناء هذا التتويج كلف فيليب ملك فرنسا فيليب كونت فلاندرز أن يكون تابعه الشخصي الذي يحمل سيفه، ويعدّ الاحتفالات الملكية، وامتلك كونت فلاندرز حقاً مضاعفاً بهذا المنصب، وجاء ذلك من خلال والده ومن خلال زوجته.

وحضر الملك هنري، ابن هنري الثاني، ملك انكلترا، وزوج أخت ملك فرنسا، هذا التتويج للروابط الوشيعة التي تربطه بالمتوج، ولأنه

دعي لمشاهدة الاحتفال، ومع أن بريطانيا تستحق إلى أبعد الحدود أن ندعى عالما آخر، وغالبا مانسمع أن البريطانيين منقسمين بين أنفسهم، يبقى من الواضح أن مامن واحد من ملوك بريطانيا أو انكلترا اعترف بأن ملك فرنسا متفوق عليه، وهم بالبحري اعتادوا أن يكونوا في الغالب أصدقاء، وقد قرروا في الرسائل المتبادلة فيما بينهم دعوة أحدهم الآخر بالأخ، وهذه عادة نحد حتى شارلمان قد راعاها بعدما جرى تنويجه امبراطورا للرومان، ولاحظ هنري الملك الشاب أنه حظي بتميز واهتمام أثناء الاحتفالات المهيبة، وقد مارس هذا الامتياز فتحدث مع جميع النبلاء أثناء وجوده، وهكذا تعلم من أفواه الشعب الفرنسي ماتعلق بالأحداث المستقبلية، واحتفظ الملك هنري الثاني بالتاج على رأس الملك الجديد، وذلك خشية من قول الذين قالوا إنه مازال شابا وأن التاج يجرحه، وأن هناك من هم أكثر لياقة بالقبام بهذا الواجب منه، فهو قد رفض دعوى هؤلاء، وكان من معاني هذا أن الفرنسيين إذا ما احتاجوا في أي وقت إلى مساعدة، يمكنهم بأمان طلبها من واحد ساعد أثناء تنويج ملكهم.

سنة ثمانين ومائة وألف

وكان الملك هنري يعلم أنه غالبا ماتسود آراء المستشارين الأشرار، في ظل كل أمير جديد، لاسما إذا ما كان ملكا شابا، لهذا اتخذ الملك هنري ملك انكلترا الاحتياطات خشية أن يتحول هذا لغير صالحه، لقد خشي من أن يقدم الذين يضمنون له السوء ويرغبون به إليه، فيقترحوا على ملك فرنسا بعض الخطط الضارة بالنسبة لأراضي نورماندي، لأن الذين عاشوا قرب حدودها حافوا من قوة النورمان ومما ينمتع به اسمهم من جبروت، فهذا كان معروفا في جميع أنحاء العالم، وجرى تكليف رتشارد

أسقف ونشستر من قبل الملك بالعناية بهذه المسألة، فعبر القنال يوم ٦ أيار، وأخذ معه سفيراً تابعاً وهو وولتر صاحب كاوتننس، وهو حافظ ختم الملك، وعندما وصلا إلى باريس وجدا الملك لويس طريح الفراش، قد حنته طول أيام عمره مع المرض.

وانتخب رجال الدين في ليموغز Limoges سيراند Se-brand عميد كنيسة بواتو أسقفاً لهم، وجرى هذا دون الحصول على موافقة هنري الثاني ملك انكلترا، أو رتشارد دوق أكوئين، وكعقوبة لهذا السلوك المهين، تمت مصادرة ممتلكاتهم، وهدمت بيوتهم، واقتلعت كرومهم، وعندما سمع البابا الاسكندر بهذا، أرسل تعليماته إلى وارين رئيس أساقفة بورغز، ليتولى البحث في المسألة، وليسعى لايجاد تسوية، ومهما يكن الحال، عندما جاء رجال الدين من ليموغز إلى رئيس الأساقفة، وجدوه ميتاً، وهنا حتى لا يبدو أن جهودهم قد ذهبت عبثاً، دس رئيس كهنة برايف Brive رسائل البابا، التي كانت مازال مختومة في أيدي الرجل الميت قائلاً: «إن مالم يمكنه انجازه أثناء حياته، دعوه ينجزه في موته»، وقالوا: إنه بهذه الوساطة البارعة توصل أسقف ليموغز إلى مصالحة مع الملك ومع الدوق.

وجاء الملك هنري الشاب، ابن الملك الكبير إلى انكلترا في الأول من نيسان، وقد استقبل بحفاوة عظيمة من قبل والده، وأقسم في ردنغ بحضور الآثار المقدسة، أنه سوف يتبع جميع توجيهات والده في جميع المسائل، لاسيما في توزيع البلدات، والقلاع والمنافع حسبما هو وارد في مرسوم كان موجوداً هناك، وبعد هذا عبر الملك الكبير القنال من بورتماوس، وعبر الملك الشاب من دوفر، واحتفل الملك الكبير لدى وصوله إلى فرنسا بعيد الفصح في لامانس، وتزوج فيليب ملك فرنسا من مرغريت ابنة بلدوين كونت هينولت، التي كانت أمها مرغريت أخت كونت فلاندرز، وجرى العرس في لى ترونشت Tronchet واحتفل

بالعرس في بابوم Bapaume وقد سمعنا الكثير عن روعة ذلك الزواج الذي لا ينسى، وقد حدث في يوم ٢٩ أيار، وهو يوم عيد القديس دينس، وكان غي رئيس أساقفة سنس هو الذي تولى سيامة مرغريت زوجة فيليب، ملكة لفرنسا.

وبعدما كان لويس السابع، قد تخلى عن صلاحياته وسلطانه للملك فيليب، سلمه خاتمه أيضاً، وهكذا بات من غير الممكن اتخاذ أي قرار يتعلق بالمملكة بدون معرفة ابنه، وثار نزاع بين الملك فيليب وأمه أديلا، فقد جرى الاستيلاء على عدد من القلاع مما تسلمته الملكة هدية زواج، وقام وزراء الملك فيليب فطردوا بعنف شحن هذه القلاع، وذلك بناء على تعليمات من الملك، وعلى كل حال تصالح الملك مع أمه عندما طالبا بتحكيم ملك انكلترا، وكان ذلك في مؤتمر الملكين الذي عقد في قصر غيسور Gisors يوم ٢٨ حزيران، [وصدر عن هذا المؤتمر الاتفاق التالي نصه]:

«أنا فيليب ملك فرنسا بنعمة الرب، وأنا هنري ملك انكلترا بالنعمة نفسها، نرغب في أن نضع أمام انتباه جميع الناس، أننا الآن وفي المستقبل جددنا بإيمان وأيمان المعاهدة والصداقة التي عقدها سيدي الوالد ملك فرنسا، وهي المعاهدة التي أكدتها أنا هنري الثاني ملك انكلترا في آيفري بحضور الكاردينال بيتر، ورتشارد أسقف ونشستر، وقد أزيل كل سبب للخلاف بيننا، ويتعهد كل واحد منا أنه لن يطلب من الآخر أية أراض أو بلدان، أو أية أشياء أخرى يمتلكها، والاستثناءات لهذا سوف تكون أفرين Auvergne التي سببت الخلاف بيننا، واقطاع شاترو Chateauroux والايجات الصغيرة لأراضي بيري Berry وإذا ما احتل أي جزء منها، سواء ضدنا معاً، أو ضد واحد منا، أو على أي حال إذا لم نكن نحن قادرين على الوصول إلى اتفاق من خلال مناقشاتنا، فيما يتعلق بهذه المناطق التي استثنيناها من مواد الاتفاق العام،

فإنني أنا فيليب ملك فرنسا قد اخترت ثلاثة أساقفة وثلاثة بارونات، واخترت أنا هنري ملك انكلترا، ثلاثة أساقفة وثلاثة بارونات للبحث في هذه المسألة، وسنعتزف بصدق بما سيوصون به مهما كان، ونعد بإيمان وأيمان أننا سنلتزم بجميع الشروط المتقدمة، وأبرمت هذه الاتفاقية يوم ٢٨ حزيران فيما بين غيسور وتراي Trie».

واستلقى الآن لويس السابع مريضاً مرضاً شديداً في باريس، وقد أمر أن يجلب إلى أمامه جميع ذهبه، وكل فضته وجواهره وخواتمه، وثيابه الثمينة، وشارات زيتته الملكية، ثم قام بناء على نصيحة أسقف باريس وراعي دير القديسة جينيف Genevieve بإصدار تعليماته بتوزيع ذلك كله بين الفقراء، وفي يوم ١٣ أيلول توفي، ودفن في دير تابع لرهبة سستريسيان Cistercian يدعى باربو Barbeaux الذي كان قد بناه على نفقته الخاصة.

وجاء فيليب أيمري، وهو رجل من مواليد تور، إلى انكلترا، بناء على دعوة الملك له، وتولى مهمة اصلاح النقود، وهكذا جرى في ذلك الشتاء، في يوم ١١ تشرين الثاني سحب النقود القديمة، وحل محلها بالتداول في جميع أرجاء المملكة نقود جديدة شكلها دائري، وتقرر استخدامها في جميع مجالات الأعمال، وأسند إلى فيليب نفسه واجب مراقبة فوائده الخزينة، وهكذا بات عليه أن يكبح أساليب وخطط المزيفين، وعندما اكتشف أن الذين يتولون ضرب العملة يتلاعبون بالنقود، تعرض لنقد شديد، وعلى كل حال هو لم يتعرض لغضب الملك الذي حرره من خوف العقوبة، ومع هذا كله عزل من عمله وأعيد إلى فرنسا بدون وداع.

سنة إحدى وثمانين ومائة وألف

قل اجتمع أربعة ملوك في معركة واحدة، وما هو أكثر إثارة وعجباً أن أربعة اجتمعوا بسلام في مؤتمر وغادروه متفقين وهؤلاء هم: فيليب ملك فرنسا، وهنري ملك انكلترا، وهنري ابن ملك انكلترا، ووليم ملك اسكوتلندا، لقد جاءوا واجتمعوا معاً، ثم افترقوا بسلام، وقرر فيليب ملك فرنسا، بناء على نصائح ملحة واقتراحات متتابعة أن يحدو حدو هنري ملك انكلترا، الذي تدبر ممارسة الحكم فوق مملكته الواسعة، مع أنها كانت مهددة بغارات السكوتلنديين والويلزيين المتوحشين، ومن أجل أن يتعلم بدقة أكثر مذهب هذا الملك، قرر بناء على نصائح مستشاريه الداخليين، أن يخضع نفسه تماماً لتوجيه هنري وقيادته.

ووضع ملك انكلترا الكبير جميع نورماندي تحت اشراف ولده الملك الصغير، وأوعز إلى جميع وزراء تلك البلاد بطاعته، وتركه ليتولى المراقبة العامة مع الحماية لفيليب ملك فرنسا، إذا ما اقتضت الحاجة، والآن وجميع المقاطعات كانت تدار وفقاً لرغباته ولقوانينه السلمية، وكانت كلها تتمتع بفوائد السلم الذي جاء بوساطة حكمه، عاد إلى انكلترا يوم ٢٨ تموز، وقام بزيارة كانتبري وهناك صلى ووهب صلواته للقديس توماس.

وعندما سمع فيليب كونت فلاندرز كيف أن فيليب ملك فرنسا وهنري ملك انكلترا متعايشان بشكل حميم، جند أكبر عدد تهيأ له من الفلمنكيين حتى يتمكن من القتال ضد مولاه الاقطاعي، وأعلن أن الأمور قد وصلت إلى نقطة بات عليهم فيها إما تدمير حصون أعدائهم، أو أسرهم ومن ثم إرغام الملك على التسليم والتفاوض، وحاول الآن أكثر من هذا فبعث برسل إلى فردريك امبراطور الألمان، ثم ذهب إليه

شخصياً لاقتناعه بالوقوف ضد ملك فرنسا، ومدّ حدود مملكته إلى القنال الانكليزي، وهكذا لم يَقم الكونت فيليب رعاية إلى العمر الغض لمولاه الملك، وتناسى تماماً العهود التي أكدّها للملك لويس في أنه سيراقب الأمور وسيُتولى حماية ابنه وتوجيهه إلى ما هو صحيح، وهنا هاجم نويون Noyon مع أكبر قوة استطاع حشدّها وقد عاثوا فساداً في المنطقة الموجودة حول سنلس Senlis فهدموا البيوت واقتلعوا الكروم.

وكان هنري الملك الشاب ابن الملك الكبير، ورتشارد دوق أكوتين، وغيوفري دوق بريتاني —ثلاثة أولاد يحملون شهادة على انجاب أمهم— متشوقين إلى شغل الفراغ الناجم عن غياب أبيهم، بتقديم البرهان على شجاعتهم، وقد خططوا للتصدي بكل ما أوتوه من قوة لخطط هؤلاء الرجال الأشرار الذين يرغبون بالتسلط على الملك البريء، ملك فرنسا الشاب، وحشدوا ثلاث قوى من جميع أرجاء البلاد، وجاءوا بمثابة قوة واحدة لمساعدته.

وقرروا أولاً أن يتخلصوا من كونت ستيفن، السيد الشرير لقلعة سانسير Sancerre وتمكنوا في أيام قليلة من نهب ممتلكاته وتدميرها، مع بلداته وقلاع وأراضيه، وأعطوا بمثابة غنيمة نحو خمسة آلاف آلة فلاحية مع ثيرانها إلى شعب برابانت، وبما أن قوات الكونت كان مُتفوق عليها وكانت غير قادرة على المقاومة، فقد انكب الكونت على قدمي ابن أخته الملك فيليب وسأله العفو والمغفرة ونال ذلك منه تجاه أعماله العدوانية، وتحرك الملكان (فيليب وهنري الشاب) نحو الأمام ومعهما قواتهما، فألحقا خسائر فادحة بدوق بيرغندي، وبالكونتيسة صاحبة شامبين التي كانت أختاً لكلا الملكين، وبأتباعهما، اللذين —ثانية— كانت قواتهما قد تم التفوق العددي عليها، ثم تحركا نحو الخلف شمالاً، فأرغما كونت فلاندرز على التراجع، وخشي الكونت من مواجهة الملك هنري ابن ملك انكلترا وجهاً لوجه، فأغلق على نفسه أبواب قلعة كريبي

Crepy واتخذ موقف الدفاع، وقد قيل لولا المشورة الخادعة التي تلقاها ملك انكلترا من مستشاريه لم تعق خطته، لجرى ارغام الكونت الذي اتخذ موقف الدفاع في قلعته، على الاستسلام، لأنه امتلك من الطعام مايكفي لعدة أيام فقط.

سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف

التقى فيليب ملك فرنسا مع ملكي انكلترا: الأب والابن، وفيليب كونت فلاندرز، والكونتات الذين جاءوا من جميع مناطق فرنسا، وكانوا بناء على نصائحه قد حنثوا بعهودهم تجاه مولاهم، التقوا في سنليس **Senlis** بعد عيد الفصح، وكان هناك هنري أسقف ألبانسو وممثل البابا، ووليم رئيس أساقفة ريمس مع كثير من الأساقفة، ومن الممكن رؤية مااتفقوا عليه من الوثيقة التالية:

«من ملك الانكليز إلى رتشارد أسقف ونشستر. التحيات:

أعاد فيليب كونت فلاندرز بيرفورد **Pierrefords** إلى ملك فرنسا، وأعادها الملك إلى أسقف سواسون، وأعادها الأسقف إلى أغاثا أرملة هيوغ أوف أوسي **Oisi** التي تملكها بحق الوراثة، باقرار صحيح منه في بلاطه أوفي بلاط الملك، وبقي كونت كليرمونت ورالف دي كوسي **Chuci** تماماً في أيدي ملك فرنسا، محررين من كونت فلاندرز، وحلل فيليب كونت فلاندرز ابني هنري من جميع الاتفاقات المعقودة بينهما، ووافق على وجوب قيام بارونات الفلمنكيين بالخدمة لدى مقابل أجر أعطيتهم إياه، وسيفقدون ايجاراتهم بدون تعويض إذا لم يقوموا بخدمتي، واتفقنا زيادة على هذا أن لايفقد أحد من رجاله أراضيه في فلاندرز بسبب خدمتهم لي،

وذلك إذا ماجءوا لخدمتي في أراضِي، ومادام قد عاد كل شيء إلى السلام، فالذين تخلوا عن الولاء والتبعية لملك فرنسا، سوف يعودون إلى الخضوع له، وذلك بناء على رأي وعمل ملك الانكليز، وتمت تسوية مسألة الأضرار على كلا الطرفين بتعويضات متبادلة».

وبينما كان روجر رئيس أساقفة يورك حياً، طلب من البابا الاسكندر الامتياز التالي:

إذا ما قام واحد من رجال الدين العاملين تحت ادارته بكتابة وصية وهو على فراش الموت، لكنه لم يوزع ممتلكاته بيديه، لرئيس الأساقفة الحق في أن يضع يديه على مقتنيات الرجل الميت، وبما أنه يتوجب على كل من يصدر قرارات قانونية حول انسان آخر، أن يتنبه لنفسه، هكذا نفذ حكم الله العادل، فبعد وفاة رئيس الأساقفة جرت مصادرة كل شيء وجد في خزانته، وبلغ هذا أحد عشر جنيهاً من فضة العملة القديمة، وثلاثمائة قطعة ذهبية، وطشت من الذهب، وسبعة طشوت من الفضة، وتسعة كؤوس من الفضة، وثلاثة طشوت من خشب القيقب، وثلاثة ممالح من الفضة، وأربعين ملعقة من الفضة، وثمانية صحون من الفضة، ووعاء كبير من الفضة وقواعد فضية.

وثار هنري دوق السكسون، وزوج ماتيلدا كبرى بنات ملك انكلترا، ضد فيليب رئيس أساقفة كولون، وسبب له مضاراً كبيرة جداً، وحشد رئيس الأساقفة قوى من جميع المناطق من حوله، وقاوم الدوق برجولة، وتلقى العون والعناية من الامبراطور، وتطورت الأمور بشكل وصل إلى حد أنه عندما أعلن قرار جميع أمراء الامبراطورية، أرغم الدوق على الخضوع للنفي، فجاء إلى ختنه في نورماندي ومعه الدوقة مع اثنين من أولاده: هنري وأوتو، وابنة كانت في سن الزواج، أما الابن الثالث ويدعى لوثر فقد بقي في ألمانيا، وقد استقبل هناك بحفاوة، ومكث هناك أكثر من ثلاث سنوات وهو يلقي الرعاية والعناية والكرم الملكي.

سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف

في سنة ١١٤٣ توفي جون بورفيروجنتوس Porphyrogenitus امبراطور القسطنطينية، متسماً في أنطاكية، خلفاً وراءه ولدين، وقد اختفى الابن الأكبر خلفاً ولدأ اسمه أندرونيكوس، وجرى تعيين الابن الأصغر، أي مانويل، امبراطوراً، ذلك أنه كان أكثر شعبية لدى الاغريق.

وتوفي الآن في حوالي هذا الوقت مانويل في القسطنطينية، بعدما حكم لحوالي أربعين سنة، تاركاً وريثاً له ابنه الأصغر ألكسيوس، الذي كان قد رزق به من ابنة الأمير ريموند، أمير أنطاكية، الذي كان عم إيلانور صاحبة أكوطين، وتظاهر أندرونيكوس بالسلام، فجاء إلى القسطنطينية وأقسم يمين التبعية لألكسيوس في كنيسة أياصوفيا، ووضع التاج الملكي على رأس ألكسيوس، وركب وسار خلال المدينة وألكسيوس على كتفيه.

لكن مالبت أندرونيكوس أن غير سياسته: فذبح بشكل وحشي البروتوفستياروس Protovestiarus [المسؤول عن القصر]، وقتل الامبراطورة، أم ألكسيوس، وكل واحد عرف أنه كان مخلصاً للامبراطور مانويل، واغتصب العرش لنفسه، وقد قيل إنه أغرق ألكسيوس ثم تزوج من أرملته، يعني أغنس ابنة الملك لويس السابع ملك فرنسا.

وفيما أجاب الموت البشري على كل إيماءة عملها الملك الكبير حول كل شيء تقريباً، كان هذا الملك حريصاً على ممارسة توقعاته من أجل ازدهاره، خشية أن يتبدد كل شيء مفيد للسلام، وكان قلقاً حول إقامة سلام أكثر ثباتاً بين أولاده، وذلك حتى يتجنب الخصام بين الأخوة الذي هو أمر طبيعي في كثير من الأجيال، وهكذا سأل الملك الشاب أن يتلقى الولاء والتبعية من أخيه غيوفري من أجل دوقية بريتاني، التي تملكها غيوفري بمثابة بائنة —دوطة— لزوجته كونستانس، وكانت الابنة

الوحيدة والوريثة لكونت كونان Conan وكان كونتات بريتاني مرتبطين منذ قديم الزمان برباط الخضوع هذا لدوقات نورماندي، من خلال منحة من ملوك فرنسا.

وجرى تنفيذ ماطلبه الأب في أنغر Angers وحتى يعقد الأب الأمور أكثر، طلب بعد ذلك من ابنه هنري أن يتخلى لأخيه رتشارد عن دوقية أكويتين حتى يملكها رتشارد وورثته بشكل دائم، ثم أعلن الملك الشاب أخيراً لوالده أنه متحالف مع عدد كبير من بارونات أكويتين ضد أخيه رتشارد، وأنه التجأ إلى هذا في الوقت الذي قام فيه رتشارد، ضد رغباته ومصالحه، بتحسين قلعة كليرفو Clairvaux بشكل كبير، وهذه القلعة قد كانت من أقدم الأزمنة خاضعة لكونتات أنجو،

لكن حتى لايزعج والده، أقسم بكل تأكيد على كل ما سأله والده، وكان ذلك في ميربو Mirebeau واشترط أن يقوم رتشارد بعدم تقديم له الولاء والتبعية أن يقسم أيضاً على التبعية له على الآثار المقدسة، ولدى سماع هذا، انفجر رتشارد غاضباً، وقال كما يبدو: بما أنه انحدر من الأب نفسه ومن الأم نفسها مثله مثل أخيه، لايجوز بالنسبة له الاعتراف بأخيه الأكبر منه بالتفوق عليه مع نوع من الخضوع، لكن بحكم قانون المنفعة للأخ الأكبر الحق بالأشياء العائدة للأب، ثم ادعى حقاً مساوياً لأخيه في الأشياء العائدة للأم.

وعندما سمع الملك الأب هذا انفجر غاضباً، وهدد بخلق المتاعب لرتشارد، وقال بصيغة توبيخ بأن الملك الشاب كان على وشك القيام بتأديب رتشارد وإزالة غطرسته، وطلب من غيوفري دوق بريتاني الوقوف باخلاص إلى جانب أخيه بحكم أنه مولاه الاقطاعي، وهكذا حمل الملك الشاب السلاح ليس ضد والده، كما فعل ذلك مراراً، بل ليقدم العون

إلى البوتيفيين Poitevins الذين كان رتشارد يتولى ظلمهم بعنف ويغير عليهم بشكل غير عادل، وهؤلاء البوتيفيون كانوا يقاتلون ليكونوا خاضعين له بموجب القانون العام، دون أن يكون أي واحد من أخوته متسلطاً عليه.

ولقد تحدثوا فيما بينهم، لكن عندما لم تظهر بارقة أمل بالسلام، جمع الملك الشاب جيشاً كبيراً، وترك والده الذي يعرف أن حكم أكويتين عائد إليه طوال حياته، وأمر جميع حلفائه حيثما كانوا وأينما كانوا وكان عددهم بالالتحاق به للقتال ضد رتشارد، لكن حدث أن حياته قطعت وهي قصيرة، وكأنها قطعت بيد حائك، وانقطعت معها آمال عدد كبير كانوا يقاتلون من أجله ويأملون بالحكم معه بعد وفاة والده.

فالذي حدث أنه في يوم ١١ حزيران، في منطقة تدعى تورين Tu- renne في غسكوني، بين أناس متخلفين تماماً في قلعة مارتل، توفي هنري الملك الشاب، بعدما عاش ثمان وعشرين سنة، وأربعة عشر أسبوعاً وستة أيام، تاركاً للرأي الحكيم الموافقة على أن الأبناء الذين يثورون ضد آبائهم، الذين يدينون بكل شيء لهم: بوجودهم وبما يعيشون منه، وبمن من ثرواتهم يتوقع أن يصبحوا أغنياء، جديرون فقط بالحرمان من الميراث.

ودهن جسد الملك الشاب بكل عناية، ولف بالأردية الكتانية التي لبسها وقت تنويجه، وحمل على أكتاف رفاقه خلال القرى والقلاع والبلدات، والناس يهرعون من كل جانب للنظر، حتى وصلوا إلى لامانس، حيث وضع في شرفة جوقة المرتلين في كنيسة القديس جوليان، وهرع أعيان البلدة فجأة إلى الكنيسة، وبموافقة شعبية عامة جرى دفن جسد الملك هناك بسرعة، وذلك مثلما رقد جسد جده لأبيه في المكان نفسه، لكن نقل فيما بعد إلى روان بناء على طلب روبرت عميد روان، لأن الملك عندما كان حياً اختار ذلك المكان ليكون موضع دفنه، وأدخل

بالتوقيع اللائق بأمير إلى كاتدرائية روان ووضع على الجانب الشمالي للمذبح المرتفع.

سنة أربع وثمانين ومائة وألف

وبعدما رتب ملك الانكليز جميع المقاطعات التي تحت حكمه وفقاً لرغباته، وباتت جميع رعاياه تتمتع بمنح السلام، عبر إلى انكلترا في ١١ حزيران، وعبر خلال فلاندرز بأذن وترحاب من الملك الفرنسي وقدم في هذه الآونة دوق سكسوني مع بيته وحاشيته ومقتنياته إلى انكلترا، وبعد أيام قليلة ولدت الدوقة في ونشستر ولداً ذكراً أطلق عليه اسم وليم.

وجاء فيليب رئيس أساقفة كولون برفقة فيليب كونت فلاندرز في رحلته إلى انكلترا ليقدم الصلوات إلى القديس توماس في كانتربري، وقدم الملك لاستقبال رئيس الأساقفة والكونت، وطلب منها السفر حتى لندن، وعندما وصلا استقبلا استقبلاً لانظير له، وكانت المدينة مليئة بالزينة، وكانت الشوارع مكتظة بحشود مسرورة، وجرى الترحيب بالزائرين بحفاوة وسرور عظيمين، ورافق رئيس الأساقفة موكب رسمي، وتم الترحيب به في كاتدرائية القديس بولص، كما واستقبل في وستمنستر أيضاً، في اليوم نفسه، وكان هنالك موكب رسمي آخر مع تزيينات ملكية رائعة، وكان الانفاق كبيراً، وقدمت في الموائد العظيمة أطعمة أكثر مما يستطيع الضيوف تناوله، ومكث رئيس الأساقفة خمسة أيام بمثابة ضيف في القصر الملكي في وستمنستر، وعندما غادر أتحف بكثير من الهدايا.

واعترف البابا برهبانية سانتياغو Santiago العسكرية، وتميز هؤلاء الجنود عن الآخرين بالسيف الأحمر الذي كان شعارهم —رنكهم— وكانت قاعدتهم في اسبانيا، وكان المطلوب منهم استخدام

طاقاتهم في الصراع ضد المسلمين.

ومات أرنولد مقدم فرسان الداوية في فيرونا Verona.

سنة خمس وثمانين ومائة وألف

قام هرقل بطريك القدس مع روجر مقدم بيت الاسبتارية، برحلة إلى الغرب، وقد هتافوا خلال ايطاليا إلى فرنسا يطلبان العون، لكن ليس من المولى البابا، ولا من امبراطور الرومان ولا من ملك فرنسا، وعوضاً عن ذلك أبحرا إلى انكلترا، وقدا إلى الملك في ردغ وقد شرحا الأسباب التي حدثت بهما للقيام برحلتها الكبيرة (فهي رحلة لم يكن لها نظير) ورويا بالتفصيل المضار العظيمة التي لحقت بالمدينة المقدسة، وقد حركا عواطف الجماعة كلها، ودفعوا الملك وجميع الحضور إلى التهنيد والدموع، ووضعوا بين يدي الملك بعض الأشياء التذكارية المتعلقة بميلاد يسوع المسيح، وبآلامه ثم بقيامته، ذلك أنهم أعطوه قطعة من صليب الصلبوت، ومفاتيح برج داود، ومفاتيح كنيسة القيامة، وعرض الملك هذه الأشياء كلها بتبجيل عظيم.

وجرى تنصيب رتشارد، الرئيس الجديد لأساقفة كانتبري يوم ١٩ أيار، وتم استقباله بموكب مهيب في دير القديس أوغستين، وأقام غداً هناك، ترأسه روجر راعي الدير، وقد ارتدى قلنسوة الأسقفية في موكب يوم ٢٦ أيار.

وعندما كان هربرت، وهو رجل انكليزي من مدلسكس، مسافراً خلال جزيرة صقلية، جرى تعيينه رئيساً لأساقفة كوزنزا Cosenza بموافقة من وليم ملك صقلية، ثم كان هناك زلزال عظيم، وقد خسف

١٩ أيار، وتم استقباله بموكب مهيب في دير القديس أوغستين، وأقام قداساً هناك، ترأسه روجر راعي الدير، وقد ارتدى قلنسوة الأسقفية في موكب يوم ٢٦ أيار.

وعندما كان هربرت، وهو رجل انكليزي من مدلسكس، مسافراً خلال جزيرة صقلية، جرى تعيينه رئيساً لأساقفة كوزنزا Cosenza بموافقة من وليم ملك صقلية، ثم كان هناك زلزال عظيم، وقد خسف برئيس الأساقفة، ورجال كنيسة وأهل بيته وحاشيته وجزء كبير من المدينة، وجرى تهديم عدد كبير من القلاع وتعرض كثير من الناس للقتل، واختفت مدينة وغرقت في البحر الأدرياتيكي بكاملها أثناء الليل عندما كان جميع الناس نيام، وكان هناك زلزال في انكلترا أيضاً، في الشمال، وتهدمت بعض الأبنية في بعض الأماكن.

وكان هناك خسوف للشمس في بعد ظهر يوم ١ أيار.

وزار ملك فرنسا ملك انكلترا الذي كان مريضاً في بيوفوير Beauvoir يوم ٩ تشرين الثاني ومكث لمدة ثلاثة أيام.

سنة ست وثمانين ومائة وألف

في ٢٧ كانون الثاني توج رئيس أساقفة فينا فردريك امبراطوراً للامبراطورية الرومانية المقدسة، وكان ذلك في ميلان، وفي اليوم نفسه توج بطريك أكويلا aquileia هنري ملكاً للألمان، وقد دعي منذ ذلك اليوم بلقب قيصر، وتولى أسقف ألماني تتويج كونستانس عمة وليم صاحب صقلية، وجرى هذا في دير القديس أمبروغيو Ambrogio.

واجتمع الملكان الفرنسي والانكليزي، وكونت فلاندرز، وكونتيسة

شامبين، ومرغريت أرملة الملك هنري الشاب، في غيسور يوم ١٠ أيار، ونوقش الخلاف بين ملك انكلترا، ومرغريت حول بائنتها —دوطتها— وحول حصة الزواج، وجرى التوصل إلى تسوية مصالحة.

وكان هناك خسوف للقمر يوم ١٦ نيسان بعد غياب الشمس مباشرة، وكسوف للشمس يوم ٢١ نيسان، بعد الفجر مباشرة.

واستولى الملك هنري على قلاع أكوئين التي كانت على درجة عالية من الحصانة بفضل الطبيعة وبراعة الانسان، وأعطاهم للشحن التي أرادها، ومع أن رتشارد كونت بواتو كان مغضباً جداً لم يشتك لوالده، وهكذا مع تمتع انجو، وتورين، ومين، وبريتاني، ونورماندي، بالأمن والهدوء، عاد الملك إلى انكلترا، ونزل سعيداً في ثاوثامبتون يوم ٢٧ نيسان، وعبرت الملكة مع الملك على المركب نفسه.

وبعد نزول الملك إلى اليايسة، زار أسقف ونشستر في مارول Marwell وأمضى الليل في ونشستر، وكان رئيس أساقفة كانتربري قادماً لرؤية الملك، وعندما سمع الملك بذلك بادر مسرعاً للقاء به، وأظهر له كل احترام يستحقه، وفي هذا المقام تجاوز تواضعه وماعتاد عليه أجداده، وجرى استقبال رئيس الأساقفة في موكب مهيب في ونشستر يوم ١ أيار.

وتوفي غيوفري دوق بريتاني، ابن ملك انكلترا يوم ١٨ آب، وكان في الثامنة والعشرين من عمره، ودفن في شرفة جوقة المرتلين في نوتردام باريس، وخلف ابنتين من زوجته كونستانس ابنة كونت كونان صاحب بريتاني.

وعادت مرغريت أخت الملك فيليب، ملك فرنسا وأرملة هنري الملك الشاب، إلى باريس مع قطار كبير، وكان ذلك يوم ٢٤ آب، ثم تزوجت بعد هذا من بيلا ملك هنغاريا، ودلماشيا، وكرواتيا، وراما.

وبناء على أوامر من الملك اجتمع رتشارد عميد لنكولن ومعظم رجاله في آينشام يوم ٢٤ أيار، وبعد اجتماع طويل حول مشاكل كنيستهم، جرى انتخاب هيوج — وهو بيرغندي من غرونوبل، كان رئيساً لرهبانية كارثوشيان Carthusian في انكلترا — أسقفاً للنكولن، وكان ذلك بحضور عدة أساقفة، وتم ارسال عدة رسل إلى بيرغندي لإخبار رئيس رهبانية دير لى غراند تشارترو Chartreus الذي أعطى موافقته، وهكذا رسم هيوج، الذي تمتع بشعبية واسعة، أسقفاً للنكولن يوم ٢١ أيلول في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر.

بحث آدم أوف آينشام في مسألة انتخاب أسقف لنكولن، وتتبع بوصف حي سياحته وتعميده.

كان هذا الكرسي المقدس شاغراً منذ قرابة الثانية عشرة سنة، وأدرك الملك ملامته تجاه أوضاعه المهملة، وأن شعوره المحزن يرجع بشكل واضح لعدم اهتمامه به، ولهذا قرر بذل مجهوده لتدارك واصلاح الفوضى التي نجمت عن طول الاهمال، وذلك من خلال العناية باختيار راع نشيط.

وبما أن رجال الدين كانوا منقسمين بشكل لا أمل بتداركه، فقد قيل: إن كل واحد منهم رغب بانتخابه هو ولا أحد سواه، وحثهم عدد كبير من الناس ونصحوهم بمحاولة الحصول على هيوج راعي وايتهم ليكون أسقفاً لهم، ذلك أنه كان رجلاً متميزاً بمحاسنه، وقد أثنى كثير من القوم على قداسته وحكمته، ورفعوا جاذبيته وتقواه إلى السموات، واتفق الجميع على أنه كان هو الشخص الوحيد الذي حوى الفضائل كلها مع أصالة المولد، وكان هناك اتفاق عام أنه لا يمكن إيجاد أسقف مناسب أكثر منه.

أما وقد وصف هذا من قبل جيرالد رئيس شامسة القديس داود،

وذلك بين بعض الحوادث الأخرى الهامة المرتبطة بالقديس، يبدو من المفيد نقل كلماته واقتباسها، فهاكم روايته:

«وفي العودة إلى أسقف لنكولن، أعتقد أن عليّ عدم حذف حادثة لاشك أنه أريد بها أن تكون شارة وبشارة حول معاني قدومه، ففي اليوم —أو قريباً منه— الذي توج فيه هيوج أسقفاً للنكولن، كان هناك قرب عزبته على مقربة من ستو Stow التي تقع على مسافة تقارب الثمانية أميال من لنكولن، بقعة جميلة محاطة بالأشجار والبحيرات، وصلت إليها فجأة بجعة لم تر هناك من قبل، وقد تمكنت خلال أيام من قتال وقتل البجعيات الأخريات هناك، وذلك بفضل وزنها وحجمها، واستبقت ذكراً واحداً، أبقتة للصحبة وليس بقصد الانجاب، وكانت هذه البجعة أكبر من بقية البجعيات مثلما تكون البجعة عادة أكبر من البطة، ولكنها شابهت في كل شيء آخر في لونها وبياضها بجعة عادية، باستثناء أنها لم تمتلك العرف الأسود والمنتفخ، الذي يوجد عادة فوق المنقار، وبدلاً من ذلك كان ذلك الجزء من المنقار عريضاً وبراقاً، ولونه أصفر، وكذلك كان رأسها والجزء الأعلى من رقبتها.

وما ان وصل الأسقف إلى قصره للمرة الأولى، حتى تحول هذا الطائر الملكي في مظهره غير الاعتيادي وحجمه، بشكل مفاجيء إلى طائر مدجن تماماً، فقد ترك نفسه يمسك بدون صعوبة، وقد حمل إلى الأسقف لينظر إليه، وقد سمح له على الفور باطعامه، وبقي معه بمثابة حيوان أليف، وبدا بعد وقت قصير أنه فقد توحشه، ولم ينأى عن ملاحظته، لابل بدا أنه لايعبأ بالأصوات الصادرة عن الحشود في كل مكان، ولايهتم بسواد المشاهدين الذين يأتون ويذهبون بشكل متواصل، واعتاد هذا الطائر عندما كان الأسقف يتولى اطعامه أن يدس رقبته

الطويلة في الفتحة الواسعة لكم قميصه، وهكذا ارتاح رأسه على الطيات الداخلية، وكان يمكث هكذا لبعض الوقت يتنفس بلطف، وكأنه يتكلم بغرام وسعادة مع صاحبه، ويطلب شيئاً ما منه.

وزيادة على هذا ذكر الموظفون ومساعدوهم الذين كانوا مسؤولين عن العزبة، أن الطائر كان يظهر نشاطاً عظيماً ليس معتاداً قبيل عودة الأسقف من سفر كان بالعادة يغيب فيه ثلاثة أيام أو أربعة، فكان يطير على وجه النهر، ويضرب الماء بجناحيه، ويصدر أثناء ذلك أصواتاً عالية، وكان يقوم من وقت إلى آخر بمغادرة الماء، ويسرع إلى الدخول إما إلى القاعة أو إلى البوابة، وكأنه ذاهب لمقابلة صاحبه لدى وصوله، ومن المتصور أنه كان مثله مثل طيور السماء حساس جداً بسبب طبائعهم الاحترازية، وكذلك هم يتوقعون وقوع تغييرات في عناصر الهواء أو حدوث حوادث قبل وقوعها، ويبدو ذلك من تصرفاتهم، ولعل هذا الطائر كان يعرف قرب وصول مولاه بالغريزة من استعدادات ونشاط خدمه، ومثير للانتباه، أنه كان على كل حال صديقاً وأليفاً مع واحد فقط هو الأسقف، وفي الحقيقة، أبقى كل إنسان، كما رأيت بنفسى، بعيداً عن مولاه، عندما كان معه، بالتصويت عليهم، أو بتهديدهم بجناحيه ومنقاره، كما كان ينطق بصوت مرتفع كما كانت عادته مع البجعيات، وبدا كل ذلك وكأنه قرر أن يوضح تماماً أنه يعود له فقط، وأنه كان رمزاً مكرساً فقط للقديس وحده.

وعندما زار الأسقف ذلك المكان في عيد الفصح الأخير الذي حل قبل رحيله من الأرض، لم يكتف الطائر بعدم القدوم لمقابلته كما هي العادة، بل إنه رفض أن يغادر البقعة التي كان يسبح فيها، حتى يجلب إليه، وكان مدهشاً لكل إنسان، أنه مكث فوق الماء ينظر بحزن وكأنه مريض، وكانت حركاته واهنة، وأخيراً أمر الأسقف أن يجلب إليه، أرضي أم لم يرض، ولمدة ثلاثة أيام حاول عدد كبير من الناس بصعوبة

فعل ذلك، لكن جاءت جهودهم بلا ثمار، وأمسك في النهاية بين بعض النباتات النامية الكثيفة في منطقة نائية من البحيرة هناك حيث كان قد التجأ خوفاً من الامساك به، وعندما أحضر إلى الأسقف كان مدلى الرأس، وتنبعث منه رائحة التعاسة، وصورته صورة الحزن، وكانت واقعة غريبة أدهشت كل من رآها.

وكانت زيارة الأسقف قصيرة جداً، وبعد ستة أشهر سار على طريق جميع الأجساد، ولم ير ثانية من قبل صديقه الطائر، وعند ذلك لاحظ الذين تفكروا حول المسألة أن الأجواء الحزينة كان معناها أنه سيودع حزينا قريباً مولاه لآخر مرة، ولقد عاش بعده، على كل حال، لمدة طويلة».

وعلى الرغم من أن هدي العظیم تجنب قرائي التعب بالدوران معهم طويلاً، أعتقد أن عليّ أن أبين أنه كان أقل اعتدالاً في قضية الطعام بعد وصوله إلى مركز الأسقفية، مما اعتاد عليه من قبل، فهو لم يلمس اللحوم سواء في مرض أو في صحة، لكن كثيراً ما أكل السمك، ولم يتمنع عن الخمرة كلياً، بل شربها باعتدال لحاجات الجسد الضعيف وذلك حسبما نصح الرسول، وكذلك رغبة منه في أن يضرب مثلاً في أن كل شيء لكل الناس، وابتغى أيضاً أدباً وتيسيراً أن يجعل الذين كانوا يأكلون معه مرتاحين ولا يشعرون بالخرج، فقد كان يجلس إلى المائدة مسروراً وفيه حيوية، ولكن بالوقت نفسه كان حزينا متحرزاً، متذكراً على الدوام، لابل ناقلاً للذين حثوه على أن يكون مسروراً، النص الذي جاء في سفر إستير وفيه: «جعلنا جمال القديسين مسرورين»، وإذا ما حدث أحياناً في الحفلات الكبرى سواء في بيته أو عندما يكون ضيفاً في مكان آخر، وتكون هناك موسيقى أو تمثيل، كان يظهر أعظم تمنع، فنادراً ما رفع عينيه من على الأرض، وأظهرت كل كلمة أو حركة بدت منه للذين كانوا حضوراً المدى الذي انسحب فيه وانعزل به نهائياً بشكل

كامل، وكأن مشاعره الخارجية هي فقط التي جذبت بهذه المتع الحلوة.
وبسبب براءته النقية، التي جعلته مخزناً عظيماً للاخلاص والبساطة،
امتلك القديس عواطف غير عادية نحو الأطفال، بسبب سذاجتهم
الكاملة، وبهذا شابه كاتب الكمال الذي قال لمريديه:

«دعوا الأطفال الصغار يأتون إليّ ولا تمنعونهم فيهم ومعهم مملكة
السموات»، وكان حينها وجدهم، لطفهم بمحبة وبحنان ملائكي،
لا بل حتى عندما كانوا لا يستطيعون الكلام، ويصدرون أصواتاً مؤثرة،
واعتماد على أن يرسم علامة الصليب على جباههم وعلى أفواههم
وعيونهم، ويباركهم مرات ومرات، ويصلي لسعادتهم وتقدمهم، وكانوا
هم بدورهم يغدون أصدقاء له بسرعة مذهشة، حتى الذين بالعادة كانوا
يخافون من كل إنسان تقريباً، كانوا يقبلون عليه بجاهزية أكثر من إقبالهم
على آبائهم.

ولقد رأيت طفلاً كان عمره حوالي الستة أشهر، عندما رسم على
جبينه علامة الصليب بالزيت المقدس، عبر عن سرور عظيم بتحريك
أطرافه، حيث ذكرنا هذا بسرور التعميد، والقفز داخل جرن المعمودية،
واسترخى الفم الصغير والوجه في حالة ابتسامة مستمرة، وبدأ أمراً
لا يكاد يصدق أنه في السن الذي عادة يصرخ فيه الأطفال ويكون
أمكن لهذا الطفل أن يضحك بهذه الطريقة، ثم انحنى ومدّ نحو الخارج
ذراعيه الصغيرين وكأنه يحاول الطيران، وحرك رأسه إلى الأمام
والخلف، وكأنه أراد أن يظهر أن سروره كان أعظم مما يستطيع تحمله،
ثم أخذ يده بيديه الصغيرتين، وبذل جهد طاقته ليرفعها نحو وجهه، ثم
تابع لعقها عوضاً عن تقييلها، وقد فعل ذلك لوقت طويل، وكان
الحضور مندهشين برؤية المنظر غير الاعتيادي للأسقف والرضيع وهما
مسرورين برفقة بعضهما، وأعطى الأسقف الطفل تفاحة وعدة أشياء
أخرى يحبها الأطفال بالعادة، لكنه رفض ابداء السرور بها، وبدأ أنه

مستغرق ومندهش بالأسقف، ودفع بشدة يدي الممرضة التي كانت تمسكه، وחדق بشدة نحو الأسقف وشفق يديه وهو يبتسم طوال الوقت.

وعندما أبعد أخيراً، عبرت الجماعة عن دهشتها تجاه هذا المشهد غير الاعتيادي، وأعلنت أنها لم تشهد قط مخلوقاً صغيراً بهذا الحجم يعبر عن مثل هذا السرور العظيم.

وعندما كان هيو ج في دير فيكامب Fecamp . الواسع الشهرة حصل بالعض على قطعتين صغيرتين من عظم ذراع مريم المجدلية، الأعظم قداسة بين محبي المسيح، ولم ير أحد هذا العظم قط وهو معرّى مما لفّ به، سواء في ذلك راعي الدير أو الرهبان الذين كانوا حضوراً في تلك المناسبة، لأنه كان محاطاً بإحكام بثلاث قطع أقمشة، اثنتان من الحرير وواحدة من الكتان العادي.

وهم لم يتجرأوا حتى على الموافقة على توسلات الأسقف لرؤيته، ومهما يكن الحال، أخذ الأسقف سكيناً من واحد من الموثقين، وقطع بها بسرعة الخيط وكشف اللفائف، وبعدما تفحص العظم بكل تبجيل وقبله بكل تقديس حاول بلا نجاح كسره بأصابعه، وعندها عضه أولاً بقواطعه وأخيراً بأضراسه، وبهذه الطريقة اقتطع قطعتين صغيرتين منه، وناولهما على الفور إلى الموثق قائلاً له: «اعتن بهاتين القطعتين من أجلي عناية خاصة».

وعندما رأى راعي الدير والرهبان ما حدث، أصيبوا أولاً بالرعب، ثم استبد بهم غضب شديد، وصرخوا قائلين:

«ما هذا الاثم العظيم، لقد اعتقدنا أن الأسقف طلب أن يرى هذا الأثر المقدس والمبجل لأسباب تعبدية، فغرس أسنانه به وقضمه كأنه كلب!» وسكّن غضبهم بكلمات ملطفة، وجزء من كلامه جدير

بالتسجيل، من ذلك قوله:

«إذا كنت قمت منذ وقت وجيز مضى بحمل الجسد الأعظم قداسة، جسد مولى جميع القديسين، بأصابعي، وذلك على الرغم من عدم جدارتي، وعندما تركته لمستته بشفتاي وأسناني، فلماذا يتوجب عليّ ألا أغامر في أن أعامل بالطريقة نفسها عظام القديسين من أجل حمايتي، فبهذه الذكرى منهم تضاعف احترامي لهم وتبجيلي، وحصلت بدون تدنيس عليهم عندما توفرت الفرصة لي؟».

سنة سبع وثمانين ومائة وألف

في سنة ١١٨٧، كما أوضح ديسيتو كان الملكان الانكليزي والفرنسي يستعدان مرة جديدة للحرب.

وفيما مملكته تتمتع بمنح السلام، عبر الملك هنري القنال من دوفر يوم ١٧ شباط، ومضى من خلال فلاندرز، ومكث في قلعة اسمها هيسدن Hesdin ودخل بعد ثلاثة أيام إلى نورماندي إلى درينكورت Drincourt.

وولدت كونستانس كونتيسة بريتاني، التي كانت حاملاً وقت موت زوجها غيوفري ابن ملك انكلترا، ولداً ذكراً سماه البريتانيون آرثر.

وبينما كان ملكا فرنسا وانكلترا يحشدان الجيوش في بورغز Bourges ويعبئان قواتهما ويسلحانهما من أجل الحرب، عقدا هدنة في تشاتورو Chateauroux يوم ٢٣ حزيران لمدة سنتين، وقد دفع كلّ منهما إلى الآخر تعويضات عن الأضرار، وذلك بدلاً من اخضاع

المسائل لحكم رب الحرب المشكوك به.

وولدت مرغريت ملكة فرنسا للملك فيليب ولداً ذكراً؟ أطلقت عليه اسم لويس.

وكتب فرسان الداوية الرسالة التالية إلى المسيحيين:

«يالأسف، مامن رسائل أو صوت نائح يمكنه أن يصف، أو أن يعدد المصائب التي أنزلها علينا غضب الرب، نتيجة لإثارته بذنوبنا، فلقد حشد الأتراك جيشاً كبيراً من شعبهم وغزوا المملكة المسيحية، وحشدنا نحن قواتنا، وزحفنا في يومي ٣ و٤ تموز وقاتلناهم، وتحركنا باتجاه طبرية التي استولوا عليها بالقوة، وذلك باستثناء القلعة فقط، ولقد ساقونا ناكثين نحو شعب جبلي مرعب جداً، وهزمنا هزيمة شنعاء حتى أن صليب الصلبوت تم الاستيلاء عليه، وقتل ملك القدس، وكذلك مقدمنا، ومعهما جميع جيشنا تقريباً واخواننا، ونحن على هذا نعتقد أن مائتين وثلاثين رجلاً قطعت رقابهم في ذلك اليوم، وذلك دون أن نذكر الستين الذين قتلوا في الأول من أيار، وكان كونت طرابلس، واللورد أرناط صاحب صيدا، واللورد بالين (أوف ابلين) ونحن أنفسنا قد نجونا من ذلك المعترك المأساوي، بكل صعوبة، ووصلنا من هناك ونحن نمرغون بالدم المسيحي.

وقد ذهبوا ومعهم جيشهم كله إلى عكا، ثم استولوا على مجمل المنطقة تقريباً، مبقين القدس وعسقلان وصور في أيدينا، وقد قتل جميع سكان هذه الأماكن في المعركة، ومالم تصلنا المساعدات الربانية وعون الناس الشرفاء بكل سرعة، لن نكون قادرين على الصمود في وجوههم، وصور محاصرة حصاراً شديداً في هذه اللحظة، وهم يقاتلون باستمرار ليلاً ونهاراً، وهم في أعداد عظيمة إلى حد أن جميع المنطقة من صور إلى القدس نزولاً إلى غزة، تبدو وكأنها عش نمل».

وحمل رتشارد كونت بواتو، وابن هنري الثاني، والأول بين بارونات فرنسا، الصليب وتناوله من يد رئيس أساقفة تور، وذلك دون أن يسأل أباه، أو ينتظر حتى يسمع رغباته.

سنة ثمان وثمانين ومائة وألف

التقى في ٢٢ كانون الثاني ملكا الفرنسيين والانكليز للتداول، وبعد نقاش طويل، كان الملك الانكليزي الأول في تناول الصليب من رئيسي أساقفة صور وروان، وبعد ذلك تناول الملك الفرنسي الصليب من رئيسي أساقفة صور ورايمس، ثم أخذه فيليب أوف فلاندرز، والتحق به أيضاً عدد كبير، واتفقوا فيما بينهم على أن يرتدي الفرنسيون صلباناً حمراء، والانكليز صلباناً بيضاء، والذين هم من فلاندرز صلباناً خضراء، وبعدما حمل الملك الانكليزي الصليب أرسل محاسب بلاطه، ورتشارد باري Barre رئيس شامسة ليزو Lisieux إلى امبراطوري روما والقسطنطينية.

وفي هذه الآونة قتل غيوفري أوف لوزغنان Lusignan صديقاً لرتشارد كونت بواتو في كمين نصبه له، وحمل الكونت رتشارد السلاح لانزال العقوبة بمقتري هذه الجريمة، وقام وهو يتذكر أنه قد حمل الصليب، بالسماح لمن أراد من رجال غيوفري حمل الصليب، بفعل ذلك، وقتل عدداً كبيراً وجعلهم طعمة للسيف، واستولى على عدد كبير من القلاع، وثبت غيوفري لاعتماده على القوة والمال، الذي — كما قيل — جاءه من الملك الانكليزي، وقاوم الكونت وتقدم بعض الشيء، ولهذا السبب ابتعد رتشارد كونت أوف بواتو عن أبيه، ودخل الكونت رتشارد إلى بلاد غسكوني، وهاجم كونت طولوز، وتمكن خلال مدة

وجيزة من الاستيلاء على سبع عشرة قلعة في منطقة طولوز، لكن بعدما تلقى الدعم من البرابانكونيين، وغضب ملك فرنسا غضباً شديداً لإقدام رتشارد كونت بواتو على الهجوم على مملكته، وفاجأ قلعة تشاتورو Chateauroux في بيري يوم ١٦ حزيران وأرغم سكانها على تقديم ولاء التبعية له، وبدا هذا كله غير لائق تماماً بالملك، لاسيما بعدما حمل الصليب، لذلك عبر ملك انكلترا إلى انكلترا، بعدما أودع جميع أراضيه في حفظ ملك فرنسا، الذي تلقى الوصاية بإيمان طيب.

ثم كسب ملك فرنسا إلى جانبه بالوعد والوعيد بعض حفظة القلاع الذين كانوا خاضعين للملك الانكليزي، وعندما سمع الملك هنري بهذا عبر إلى فرنسا في حوالي ٢٥ تموز، وحشد جيشاً كبيراً من الانكليز، ومن التخوم، ومن الويلزيين والبريتانيين، غير أنه أبقاهم متوقفين لأيام كثيرة يعيشون في الخيام في نورماندي حتى أصبحوا متشوقين للهجوم على فرنسا.

والتقى أخيراً الملكان، وعقدا مؤتمراً في يوم ١٦ آب بين غيسور وتراي، استمر ثلاثة أيام، وعندما انفصل الملكان من الجانبين من دون اتفاق، أمر ملك فرنسا بقطع شجرة قرب غيسور لكن جذرها كان داخل المملكة الفرنسية، وغادر الملك الانكليزي غيسور في اليوم التالي، وجاز خلال فيرنون Vernon وغزا فرنسا، وعاث بالبلاد فساداً حتى مانتى Mantes.

و في يوم ١٨ تشرين الثاني عقد اجتماع فيما بين الملكين الانكليزي والفرنسي في بونزمولين Bonsmoulins كان رتشارد كونت بواتو قد أعدّه، وعندما وصلا إلى المؤتمر للتباحث اقترح الملك الفرنسي أن يرد إلى الملك الانكليزي كل شيء استحوذ عليه منذ حملة الصليب، وأن يبقى بعد هذا كل شيء على ماكان عليه قبل حمل الصليب، ورد عليه ملك الانكليز، بناء على نصيحة رجال الدين وكذلك البارونات أن من

الأفضل الدخول في سلام ثابت بدلاً من تطويل خصام الطلبات.

وعندما سمع رتشارد بن هنري وكونت بواتو، هذا، تكلم ضده، لأنه بدا له من غير المناسب إعادة كويرسي Quercy على أساس هذا الشرط، وأيضاً إعادة جميع المقاطعة وأشياء أخرى كثيرة في مملكته، تساوي ألف مارك أو أكثر كل سنة، من أجل إيجار تشاتورو، وقلعة ايسودون Issoudun وغراسي، وطلب كونت بواتو شيئاً آخر، فقد سأل والده أن يعطيه أخت الملك الفرنسي لتكون زوجة له، وطالب أن يقوم الملك هنري بتأكيد تملكه لأراضيه على أساس ولي عهد الملك ووريثه، وقد طالب بهذا كله من خلال الملك الفرنسي، ورد الملك الانكليزي أنه لن يفعل هذا، بسبب أنه سيبدو مسلوب الحرية مرغماً، وقام بعد هذا كونت بواتو، على مشهد من الجميع بتقديم الولاء للملك الفرنسي عن كل ما يمتلكه والده مما يعود إلى المملكة الفرنسية، وذلك باستثناء أراضيه أبيه مادام حياً، والاحتفاظ بالاخلاص الذي يدين به لأبيه، وهكذا انتهى المؤتمر، وجرى تمديد الهدنة حتى ١٣ كانون الثاني.

سنة تسع وثمانين ومائة وألف

رسالة أخبار من الشرق:

«هُزم جيش صلاح الدين عند أنطاكية، وشرع أمير أنطاكية يركب يومياً ويسير بعيداً حتى حلب، واستولى أدميرال مرغريت على يافا، وقتل جميع الأتراك الذين كانوا هناك، وقتل خمسة آلاف منهم وأسر ثمانية أمراء، واستولى أيضاً على جبيل وقتل كل واحد هناك، وهاجم صاحب مُلا Mulla وهو واحد من مقدمي صلاح الدين، صلاح الدين، وهذا ما فعله أيضاً صاحب ماردين، وقاتل الخليفة، صاحب

بغداد، الذي هو رئيس جميع الأتراك، صلاح الدين بقدر ما كان باستطاعته، وإنكم لتعلموا أن سلطان قونية قد زوج ابنته إلى ابن صلاح الدين، وزوج صلاح الدين ابنته إلى ابن السلطان، ومعروف بشكل واسع كيف أن قطزاً (★) Kuteyez ابن صلاح الدين قتل زوجته، ابنة السلطان، ذلك أنه من المؤكد وبلا أدنى شك، كما يقول الجميع، تحققت نبوءة دانيال القسطنطيني التي قالت:

إنه مع اقتراب حلول يوم الفصح، سيسترد الفرنسيون أرض الميعاد، وسيربطون خيولهم في حدائق نخيل بغداد، وسينصبون خيامهم خلف الشجرة الجافة، سيفصلون البيقية عن القمح، وأنتم تعلمون بشكل مؤكد أنه قد توفر ممر في البوسفور.

وبات معروفاً بشكل واسع أن السلطان يكره امبراطور القسطنطينية، لأنه لم يدفع له الأربعمئة دينار ذهبي التي توجب عليه دفعها كل سنة منذ أن أصبح امبراطوراً، كما أنه لم يدفع له الثلاثمئة دينار الأخرى، وانتبهوا أيها الأخوة لما قاله لنا الامبراطور في إحدى المرات، حتى لاتنخدع العين، وفيما عدا ذلك، يمكنني أن أخبركم أن كثيراً من الترك وقعوا بالأسر عند صور، إلى حد أن اثنين من الترك يمكن بيعهما بقطعة نقدية bezant واحدة، ويقال وضع صلاح الدين في سجنه رسولاً من يوستاس باتريكوس وبالين، الذي اتخذ لنفسه زوجة، زوجة ملك

★ — كذا، ولم يكن بين أولاد صلاح الدين من حمل هذا الاسم، ومن الممكن قراءة هذا الاسم «قطب» وبالفعل كان لصلاح الدين ولد اسمه موسى، ولقبه قطب الدين، ولد بمصر سنة ٥٧٣، أي كان عمره وقت هذه الحادثة حوالي اثنتي عشرة سنة. شفاء القلوب للحنبلي — ط. بغداد ١٩٧٨ ص ١٩٦.

القدس، عندما سلمه كونت طرابلس أرض الميعاد، وأنتم تعرفون أن الامبراطور قد أبدى احتراماً نحو رسل صلاح الدين في قصره أعظم مما أبداه نحو أي واحد آخر كان هناك من ذوي المناصب، وعندما سلم صلاح الدين جميع كنائس الأرض المقدسة إلى رسل الامبراطور، وبناء عليه من الممكن أن تدار وفقاً لعادات الاغريق، وعليكم ألا تثقوا باغريقي حتى لو عاهدكم بيده، وإنكم لتعلمون أن صلاح الدين أرسل، بناء على موافقة الامبراطور وثنه [كذا] إلى القسطنطينية ليعبد بشكل علني هناك، لكن بنعمة من الرب تم الاستيلاء عليه في البحر من قبل الجنويين، وقد أخذ مع السفينة إلى صور، وهناك الآن أنباء أن جيش صلاح الدين قد توقف عند أنطاكية.

ولقد قيل بأن النبوءة التي أخبر بها اغريقي مسن من أسترالكس Astralix اللورد وولتر مقدم الداوية، والتي أغضبت الاغريق سوف تتحقق الآن، وفيها أن اللاتين سوف يحكمون مدينة القسطنطينية وسيكونون سادتها، لأنه قد كتب على البوابة الذهبية التي لم تفتح منذ مائتي سنة انقضت، إنه: «عندما يأتي الملك صاحب الشعر الأحمر من الغرب، أنا سوف أفتح من قبل ذاتي»، وجرى تسميم آسان Asan ذلك الرجل الطيب، في ثيابه الامبراطورية، ووعد الامبراطور صلاح الدين بتقديم مائة شيني، وأعطاه صلاح الدين وعداً بجميع أرض الميعاد، إذا ماتولى الامبراطور منع وصول الملك الفرنسي، وأخبركم بصدق أنه إذا مالس أي انسان صليب القسطنطينية سوف يعتقل على الفور ويلقى به في السجن، وإليكم على كل حال نبوءة فلكي تركي قالت:

إنه في ثلاث سنوات، سوف يموت ثلث الأتراك بحد السيف، وسوف يفر الثلث الثاني إلى ماوراء الشجرة الجافة، أما الثلث المتبقي فسوف يعمد، ولهذا نحن نعرف أن صلاح الدين في الحقيقة لم يعد

بإمكانه إيجاد أي تركي يرغب في عمارة أرض الميعاد، أو يأخذوا أسرهم إلى هناك خوفاً من وصول الفرنسيين، وفي اليوم الذي غادر فيه حامل هذه الرسالة القسطنطينية، جاء بعض الرسل يقولون إن جيش صلاح الدين قد جرى تدميره عند أنطاكية، وأن أخاه وابنه قد وقعا بالأسر، وفي اليوم الذي غادرت أنا فيه أمر الامبراطور بمحق جميع اللاتين في امبراطوريته، وإنكم لتعلمون أنه بنعمة من الرب يوجد في مملكة قونية خمسة آلاف من الأرمن الجيدين مع خمسة وعشرين أميراً جاهزين للذهاب مع الفرنسيين للدفاع عن المسيحية، ولتحرير الأرض التي ولد فيها مولانا يسوع المسيح، ومات».

وعقدت بعد عيد الفصح المقبل مباحثات بين ملكي فرنسا وانكلترا ورتشارد كونت بواتو، مرتين في لى فيرت برنارد - La Ferte Ber-nard لكن في النهاية، انسحب الطرفان بعد محادثات مطولة بمثابة أعداء.

تم وصف الأيام المأساوية الأخيرة من حكم هنري الثاني، ثم موت الملك، بشكل جيد في كتاب «أعمال الملك هنري الثاني».

غادر فيليب ملك فرنسا واستولى على لى فيرت برنارد، وفي يوم الاثنين التالي، عندما بدا أن ملك انكلترا ورجاله قد غدوا على مسافة آمنة من النقطة القصوى لزحف الملك الفرنسي، أعد الملك الفرنسي جيشه وعبأ صفوفه للمعركة بهدف الهجوم على مدينة لامانس، وفعل هذا بعدما رأى مافعله ستيفن صاحب تور والمشرف على أنجو بإلقائه النار في الربض، لكن النار زاد التهابها وبيات حجمها هائلاً، فقفزت عبر الأسوار وجعلت المدينة نفسها طعمة للهب، ووقع عدد كبير من رجال جيش الملك الانكليزي بالأسر، أما البقية فقد عجزوا عن الهرب،

وكانوا يرغبون بالتراجع إلى المدينة، وتمكن الفرنسيون من شق طريق معهم، ولدى رؤية ملك انكلترا ما يحدث خاف كثيراً على جماعته، فحنت بوعوده، وهرب من المدينة مع سبعين فارساً، ذلك أنه كان قد وعد سكان المدينة أنه لن يتخلى عنهم في وقت المحنة، ومرد هذا بالدرجة الأولى إلى أن والده مدفون هناك، وفي الدرجة الثانية إلى أنه هو نفسه قد ولد هناك، كما أنه أحب تلك المدينة أكثر من حبه لغيرها، وطارده الملك الفرنسي لمسافة ثلاثة أميال، ولولا أن نهر سارث Sarthe الذي توجب على الفرنسيين عبوره، لم يكن يجري بارتفاع عظيم، لتولوا مطاردة الفارين الآخرين بسرعة كانت ستتمكنهم، كما تأكد بشكل عام، من أسرهم جميعاً.

وعلى كل حال جاء الملك الانكليزي ومعه حاشية صغيرة إلى شينون Chinon ثم انسحب إلى داخل القلعة التي كانت هناك، لكن بقية آل بيت الملك تراجعت إلى حصن قلعة لامانس، وعلى الفور حاصرها ملك فرنسا وهاجمها بآلات حربه ورمياته، وبعد حصار دام ثلاثة أيام استسلمت القلعة أخيراً مع ثلاثين فارساً وستين رجلاً مسلحاً.

وقدم في يوم الأحد التالي فيليب كونت فلاندرز، ووليم رئيس أساقفة ريمس وهيوج دوق بيرغندي إلى ملك انكلترا، الذي كان آنذاك في سامور Saumur لقد قدموا بمباردة شخصية منهم بدون رضا الملك، للسعي لإقامة تسوية بينهما، لكن ملك فرنسا كان قد أنذرهم قبل انطلاقهم في رحلتهم، أنه سيقوم رغماً عنه، بالإعداد لهجوم على المدينة من قلعة سان مارتن، التي كان قد عاد إليها عبر نهر اللوار.

وتمّ يوم الاثنين التالي في الثالث من تموز، وعلى حوالي الساعة الثالثة الاستيلاء عنوة على مدينة تور، وكان الهجوم عليها قد أقلع به من على ضفاف نهر اللوار، وذلك نتيجة لانخفاض مستوى مياه النهر، —انخفض حجم الماء إلى أدنى المستويات— فأسندت من هناك السلام

على الأسوار، وكان في داخل المدينة ثمانين فارساً ومائة رجل مسلح، فأخذوا جميعهم أسرى، وبات ملك انكلترا الآن في وضع حرج، لذلك أقام سلاماً مع ملك فرنسا، وفق الصيغة التالية:

«يضع هنري ملك انكلترا نفسه في جميع الأشياء والامور تحت رأي وإرادة فيليب ملك فرنسا، إلى حد أن كل ماأعده ملك فرنسا وأمر به سينفذه ملك انكلترا كلياً وبدون اعتراض.

أولاً: قدم ملك انكلترا مجدداً الولاء لملك فرنسا، بسبب أنه، كما ذكر أعلاه، قد سلم جميع ممالكه إلى ملك فرنسا، الذي كافأه في بداية هذه الهدنة.

ثانياً: قرر ملك فرنسا أن أخته أليس، التي يحتفظ بها ملك انكلترا تحت وصايته ستسلم وتوضع تحت وصاية واحد من خمسة [بارونات] سوف يختارهم رتشارد صاحب بواتو، زيادة على هذا تعهد ملك فرنسا أن تمنح أخته الأمان بيمين رجال هذه البلاد، لتكون زوجة للكونت رتشارد إثر عودته من القدس، ولسوف يحصل الكونت رتشارد على تبعية رجال أراضيه في هذا الجانب من القنال، وفي الذي يليه، وكذلك مامن واحد من البارونات أو الفرسان الذي سحبوا ولاءهم من ملك انكلترا في الحرب الحالية، والتحقوا بجانب الكونت رتشارد، سوف يعود في المستقبل إلى ملك انكلترا، فيما عدا الشهر الأخير قبل انطلاقه نحو القدس.

والوقت المحدد لهذه الرحلة سيكون منتصف الصوم، ولسوف يلتقي الملكان المذكوران مع رتشارد كونت بواتو في ذلك التاريخ في فيزلي.

وكذلك سوف يحلل جميع سكان الممتلكات الملكية العائدة لملك انكلترا في جميع أراضيه الملك الفرنسي بموجب عاداتهم القانونية ولسوف لن يقاضون في أية مسألة مالم تكن جناية اقترفوها.

وقد دفن في فونتيفرولت Fontevrault في دير الراهبات اللائي يعبدن الرب هناك.

ومدد في اليوم الذي تلا وفاته، عندما حمل إلى الدفن، في وضع ارتدى فيه ملابسه ببهاء ملكي، وقد وضع التاج الذهبي على رأسه، وفي يديه قفازين، وخاتم ذهبي على أصبعه، ممسكاً الصولجان بيده، مرتدياً حذاء مزركشاً بالذهب، وهناك مهازين على قدميه، متمنطقاً بسيفه، ووجهه غير مغطى، وعندما روي هذا لابنه الكونت رتشارد جاء مهرولاً بأقصى سرعة ليستقبل الموكب، ولدى وصوله أخذ الدم يتدفق من أنف الملك المتوفى، وكأن روحه تحركت سخطاً، وتبع الكونت المذكور موكب جسد والده وهو يبكي وينتحب، حتى وصل إلى فونتيفرولت، حيث دفن.

القسم الرابع

رتشارد الأول

١١٨٩-١١٩٩

شارك رتشارد قلب الأسد والده في بعض قدراته الادارية، لكن ما يميز به هو القتال، فلقد شن الحرب بشدة ووحشية وحماسة طوال معظم مدة حكمه، حيث حوّل ممالكه من خلال نشاطاته إلى حالة القرب من الافلاس، وحمله هوسه إلى الأراضي المقدسة في ١١٩١-١١٩٢، في حملة صليبية كانت من بعض الجوانب ناجحة، غير أنها انتهت بشكل مأساوي، ووقع بالأسر وهو في طريق عودته إلى انكلترا، وبقي معتقلاً ينتظر الفدية، في سجن ألماني في ١١٩٣-١١٩٤، وما أن عاد إلى موطنه، حتى رجع رتشارد إلى ساحة المعركة، وفي هذه المرة ضد زميله في الحملة الصليبية فيليب الثاني ملك فرنسا، وواجه رتشارد منيته المبكرة سنة ١١٩٩، أثناء مناوشة صغيرة مع حليف فيليب كونت أكوين.

ونبتت عداوة الملك الفرنسي نحو رتشارد من سبب رفض قلب الأسد الزواج من أخته أليس، وذلك على الرغم من خطبته لها منذ سن الطفولة، هذا من جانب، ومن جانب آخر لزواج رتشارد من بيرنغاريا النافارية، هذا ولم ينبج هذا الزواج لرتشارد ولياً للعهد، وأعطى هذا إلى أخيه جون مساحة واسعة لخطط تأمرية.

ونجد من جديد في الجزء الرابع أن كتاب «صورة التاريخ» لـ رالف

ديستو، هو المصدر الرئيسي لهذه المرحلة التي وصف بها حوادث حكم رتشارد.

بعدما رتب رتشارد كونت بواتو المسائل على أحسن ما يرام لضمان السلام والهدوء في أكويتين، وانجو، وتورين، ومين، وصل إلى نورماندي، وجاء وصوله بعد ثلاثة أسابيع من وفاة والده، في ٦ تموز ١١٨٩، والتقى بكل من رئيسي أساقفة كانتبري وروان في سيز Seez وسأل العفو، وتلقى الغفران لاقترافه جريمة حمل السلاح ضد والده، بعد حمله شارة الصليب للقيام بحملة صليبية، ومن هناك ذهب إلى روان حيث تسلم علم وسيف دوقية نورماندي من يدي رئيس أساقفة روان، وحدث ذلك أمام المذبح المرتفع في كنيسة العذراء المقدسة، وكان على مشهد من حشد من النبلاء.

ثم ذهب إلى انكلترا، واستقبل هناك استقبالا عظيما في ونشستر يوم ١٥ آب، وأسند إلى الملكة إليانور التي كانت تحت حراسة مشددة، سلطة العمل كناتبة لابنها، وفي الحقيقة أصدر التعليمات إلى أمراء المملكة، على شكل مرسوم عام، بأن كلمة الملكة ينبغي أن تكون قانونا في جميع المسائل.

وبما أن رتشارد كان قد قاوم والده، وبذل كما يبدو الكثير من الجهد لإثارة القوى الفرنسية التي كانت معادية للنورمان، لهذا كسب عدم رضا الناس الطيبين والعاقليين، وقد أراد الآن — على كل حال — أن يغسل جميع تجاوزاته الماضية، باظهار التشريف لأمه، وكان يأمل أن طاعته لأمه سوف تسهم في تلطيف أعماله العدوانية ضد أبيه.

وأظهرت هذه الحوادث صدق النبوءة التي حيرت الجميع بغموضها حيث قالت: «سوف يفرح النسر صاحب الرباط المقطوع بفرخه الثالث»،

فلقد دعوا الملكة النسر، لأنها مدت جناحيها — كما حدث — فوق مملكتين هما: فرنسا وانكلترا، فقد انفصلت عن الرباط الفرنسي من خلال الطلاق، بينما فصلها الانكليزي وأبعدها عن فراش الزوجية بحبسها بالسجن (لقد سجن ست عشرة سنة تماماً)، وهكذا كانت بالنسبة للبلدين «النسر صاحب الرباط المقطوع»، ومن الممكن فهم الجزء الثاني من النبوءة قوطها: «سوف يفرح بفرزحه الثالث» كما يلي: لقد كان أول أولاد إليانور هو ابنها وليم، الذي توفي وهو ما يزال طفلاً، وارتقى ابنها الثاني إلى مرتبة ملك، غير أنه حمل السلاح ضد والده، وسدد ديونه إلى الطبيعة، وكان رتشارد هو ولدها الثالث، وهو على هذا الفرخ الثالث، وهو أيضاً الذي سيتولى رفع اسم أمه إلى أعالي المجد.

وعندما علمت الملكة إليانور أن خيول الملك هنري الثاني محفوظة في اصطبلات الدير، وزعتهم ومنحتهم على شكل أعمال كرم تقوية، واحتفظت بخدمات الرجال الذين عهد إليهم بأمر العناية بالغابات، وهددتهم بانزال عقوبات قاسية بهم.

وبناء على دعوة من رئيس أساقفة كانتبري اجتمع الأساقفة الآخرون في لندن يوم ٣-أيلول من أجل تتويج الملك الجديد، وجاء أيضاً رعاة الدير ورؤساؤها، وحضرت الملكة إليانور بناء على طلب الإيرلات والبارونات، وكبار المسؤولين، هذا ومن غير الممكن تعداد أسماء جميع الأساقفة الذين حضروا، لكن رؤساء أساقفة كانتبري وتريف ودبلن كانوا هناك.

قدم كتاب «أعمال الملك رتشارد» تفاصيل حية ومشرقة وصف بها تتويج رتشارد.

هنا بداية احتفال تتويج ملك انكلترا:

جاء أولاً الأساقفة ورعاة الدير وعدد كبير من رجال الدين، كلهم قد

ارتدى ثياباً أرجوانية، تتقدمهم الصليبان، والشموع والمباخر حتى باب القاعة الداخلية، وهناك استقبلوا رتشارد المتقدم الذكر، وهو الذي كان سيتوج، وقادوه إلى داخل كنيسة وستمنستر على هذه الصورة حتى المذبح في موكب وقور تتخلله التراتيل.

وسار في المقدمة رجال الدين، في الملابس البيضاء، وهم يحملون الماء المقدس، والصليب والشموع والمباخر، ثم تلاهم رعاة الديرة، ومن بعدهم الأساقفة، وسار على أي حال وسط هؤلاء الناس أربعة من البارونات يحملون الشمعدان بالشموع.

وجاء بعدهم جون مارشال وهو يحمل في يديه مهمازين واسعين وثقلين أخرجاً من خزانة الملك، ومضى بعده غودفري دي لوسي وهو يحمل الصدرية الملكية.

وجاء من بعدهم اثنان من الإيرلات هما: وليم مارشال، إيرل بامبروك، ووليم إيرل سالسبري، وكان وليم مارشال يحمل الصولجان الملكي، الذي كان على رأسه شكل صليب ذهبي، وكان وليم إيرل سالسبري يحمل العصا الملكية التي كان على رأسها حمامة.

وجاء من بعدهم ثلاثة من الإيرلات هم: داود أخو ملك اسكوتلندا، وإيرل هنتغدون، وروبرت إيرل ليستر، وبينهما جون كونت مورتين وإيرل غلوستر، وهو أخو رتشارد، وكانوا يحملون ثلاثة سيوف مع أقربة ذهبية رائعة أخرجت من خزانة الملك.

وجاء بعدهم ستة إيرلات وبارونات يحملون لوحاً واحداً وضعت عليه الأردية الملكية والثياب. وقدم من بعدهم وليم دي ماندفيل كونت أوميل وإيرل ايسكس، وهو يحمل تاجاً ذهبياً بين يديه، وجاء بعده رتشارد دوق نورماندي وكونت بواتو، وسار عن يمينه هيوغ أسقف درم، وعن يساره رينالد أسقف باث Bath وحمل من فوقهم غطاء ذهبي، وسار إثرهم

شهور الإيرلات والبارونات والفرسان مع الآخرين بأكملهم، من رجال دين وغير رجال دين، وتابعوا سيرهم في داخل الكنيسة ومن خلالها وصولاً حتى المذبح.

وبعدما وصل الدوق رتشارد إلى المذبح أدى ثلاثة أيان لمن تقدم ذكره من رؤساء الأساقفة والأساقفة، والإيرلات، والبارونات ورجال الدين وبسواهم من الشعب، لقد أقسم ووعد على الأناجيل الأعظم قداسة وعلى الآثار المقدسة لعدد كبير من القديسين أنه سيعمل في نفسه سلام، والتشريف والاحترام نحو الرب والكنيسة المقدسة ورجال الدين بها جميع أيام حياته، ثم أقسم بعد هذا أنه سيطبق العدالة الطيبة نحو شعب الموكل إليه حكمه، ثم أقسم أنه إذا كان في مملكته أية قوانين سدة أو عادات سوف يدمرها، ويعلي شأن ما هو جيد مكانها.

ثم نزعوا عنه ثيابه التي كان يرتديها باستثناء قميصه، وسراويله، ولم يكن قميصه مخاطاً عند كتفيه.

ثم ألبسوه نعلين حيكاً من الذهب.

ثم وضع رئيس الأساقفة الصولجان في يده اليمنى والعصا الملكية في يده اليسرى.

ثم صب بلدوين رئيس أساقفة كانتبري الزيت المقدس فوقه على ثلاثة أجزاء من جسده، هي: على رأسه، وعلى كتفيه، وعلى ذراعه الأيمن، وذلك مع الصلاة المحددة لهذا العمل، وهكذا عمّده ملكاً.

ثم وضع على رأسه غطاء مقدساً من الكتان وقلنسوة فوقه، ثم ألبسوه الثياب الملكية، أولاً المتزر ثم القميص.

ثم أسند إليه رئيس الأساقفة السيف ليردع به الذين يقتربون إثماً ضد الكنيسة.

ثم ألبسه الإيرلان مهمازين ذهبيين من خزانة الملك.

ثم لبس الرداء، وبعدها اقتيد إلى المذبح، وهنا حذره رئيس الأساقفة ومنعه بوساطة سلطات الرب، أنه كرجل لا يجوز له استخدام مكانته لنفسه، ما لم يكن قد دار في خلده عدم الاحتفاظ بأيمانه ووعوده التي اتخذها قبل قليل، وقد أجاب أنه بعون الرب، سيراعي كل شيء قاله من قبل ويعلي شأنه باخلاص وإيمان.

ثم أخذ التاج من على المذبح، وأعطاه إلى رئيس الأساقفة، ووضعه رئيس الأساقفة على رأس الملك.

واقتيد إثر هذا الملك إلى عرشه، وعلى يمينه هيوج أسقف درم، وعلى يساره رينالد أسقف باث وهما يقودانه، وكانت الشموع والسيوف الثلاثة المذكورة من قبل تسير أمامه.

ثم بدأ القديس الرباني، وعندما وصل إلى المقدمة، قاده الأسقفان المتقدم ذكرهما نحو مذبح المقدمة ثم أعاده إلى العرش.

وبعد انتهاء القديس، وبعدما جرى تنفيذ كل شيء طبقاً للطقوس، قاد الأسقفان المتقدم ذكرهما، الملك المتوج عائدين أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، وهو يحمل الصولجان في يده اليمنى والعصا الملكية في اليسرى، وساروا بشكل منتظم من الكنيسة إلى منزله في موكب، ثم عاد الموكب إلى جوقة المرتلين.

ثم وضع الملك جانباً تاجه، وثيابه الملكية، وارتدى تاجاً ألطف وثياباً أخف، وبهذه الصورة جاء الرجل المتوج إلى الوليمة، وجلس رؤساء الأساقفة والأساقفة ورعاة الديرة وبقية رجال الدين معه إلى مائدته الخاصة، وجلس الإيرلات والبارونات والفرسان إلى موائد أخرى واحتفلوا بشكل رائع.

وبعد الفراغ من الوليمة، وصل قادة اليهود، معاندين لمرسوم كان قد صدر عن الملك، ففي اليوم المتقدم كان الملك قد منع بوساطة إعلان عام قدوم أي يهودي أو يهودية لحضور تتويجه، وألقى رجال البلاط القبض على اليهود، ونزعوا عنهم ملابسهم وتولوا ضربهم، وبعدما أنزلوا أقسى الضربات بهم رموهم خارج البلاط الملكي، فقتل بعضهم، وترك بعضهم الآخر يذهبون وهم نصف موتى، وكان أحد هؤلاء اليهود قد جرح جراحة شديدة مما تعرض له من ضرب وجلد، وجعلته جراحه يائساً من حياته، ولرعبه وخوفه من الموت تقبل التعميد على يدي وليم رئيس كنيسة القديسة ماري في يورك، وأعطى اسماً مسيحياً هو وليم، وبهذه الطريقة تجنب خطر الموت وأيدي معذبيه.

وعلى كل حال سمع شعب مدينة لندن بأن رجال البلاط قد تصرفوا بقسوة ضد اليهود، فانعطفوا بدورهم ضد يهود المدينة فسلبوهم وقتلوا كثيراً منهم من كلا الجنسين، وألقوا النيران في بيوتهم وحولوها إلى رماد وجرم يحترق، ومع هذا نجا عدد قليل من اليهود من هذه المذبحة، حيث اختبأوا خلف أسوار قلعة لندن، أو تخفوا في بيوت أصدقائهم.

وسمع الملك في اليوم التالي بأخبار الحادثة، فأمر باعتقال بعض هؤلاء المجرمين، وأحضرهم إلى أمامه، ثم صدر بحقهم حكم المحكمة، الذي قضى بشنق ثلاثة منهم على المشنقة: واحد منهم لأنه استولى على أشياء من واحد من المسيحيين، والاثنين الآخرين بسبب أنهما أشعلا النيران في المدينة، التي تسببت في إحراق عدد من بيوت المسيحيين، ثم بعث الملك وراء ذلك الرجل الذي جرى تحويله من اليهودية إلى المسيحية، وجلب معه الذين حضروا وشاهدوا تعميده، وسأله الملك فيما إذا كان الآن قد أصبح مسيحياً، وأجابه الرجل بأنه لم يصبح مسيحياً، ولكن بما أنه رغب في تجنب الموت سمح للمسيحيين أن يفعلوا به ما رغبوه، ثم سأل الملك رئيس أساقفة كانتبري والعدد الكبير الآخر من رؤساء الأساقفة

والأساقفة الذين كانوا حضوراً، ما الذي سيفعل معه، ورد عليه رئيس الأساقفة بشكل غير واضح وأدنى مما توجب عليه أن يظهر قائلاً: «إذا كان هو نفسه لا يرغب أن يكون من رجال الرب، دعه فليكن رجلاً من رجال الشيطان»، وهكذا عاد الرجل الذي جعل مسيحياً إلى شريعة اليهود (١٢١).

وتلقى الملك في اليوم التالي ولاء تبعية رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة والإيرلات والبارونات من جميع أرجاء بلاده. وأوضح ديسيتو الترتيبات التي نفذها رتشارد في مملكته الانكليزية.

ورغب رتشارد ملك انكلترا في أن يبدأ حكمه بتقديم منحة إلى الرب، تعطى إلى رهبان السسترشيان كل سنة، وقدرها مائة مارك تؤخذ من مختلف ممتلكاته وتوزع على دخولهم، وكان أول عمل قام به كملك هو إرساله رسالة تحمل خاتمه لإيصال قراره هذا.

وبناء على تعليمات الملك ورئيس الأساقفة، جرى عقد مجلس في بايبول Pipewell يوم ١٥ أيلول، للنظر في مسألة التعيينات للكراسي المقدسة الشاغرة، وهكذا جرى تعيين رتشارد أسقف أوف. إيلاي Ely خازن الملك، أسقفاً للندن، وصار وليم لونغ شامب: مستشار الملك، أسقفاً لإيلاي.

وكان عميد وكهنة لندن قد عبروا القنال، بناء على تعليمات من هنري الثاني، وذلك بهدف مشاركتهم في انتخاب الأساقفة، وتسلموا لدى عودتهم إلى انكلترا أربعين ماركاً من الخزانة لتغطية نفقاتهم.

وكمحاولة يائسة أخيرة للصمود في وجه توغل جيش صلاح الدين، ألقى غي لوزغنان، ملك القدس، الحصار على عكا، التي استولى عليها

المسلمون وكانت بحوزتهم منذ ١١٨٧، ونقل ديسيتو رسالة الأخبار هذه التي أرسلت إلى البابا والتي أوضحت كيف نجحت أخيراً حركة الملك الجريئة هذه:

«شرح ملك القدس، وفرسان الداوية وفرسان الاسبتارية، ورئيس أساقفة بيزا، وعدد كبير من رجال بيزا في حصار عكا في يوم ٢٨ آب، وذلك على الرغم من عدم رضا كونراد مركيز مونتفرات ورئيس أساقفة رافينا وعدد كبير آخر من المسيحيين الذين عارضوا بأرائهم هذه الخطة، ولدى وصولهم إلى هناك حاصروا المدينة بقوة جبارة إلى حد أن أيّاً من المسلمين لم يعد بإمكانه الدخول إلى المدينة أو الخروج منها، وفي اليوم الثالث وصل صلاح الدين على رأس جيش عظيم، وهاجم غيوفري لوزغان أخى الملك ومعه فرسان الاسبتارية، وأرغمهم على الانسحاب مع صفوف قتالهم، وهكذا فتح الطريق للذين رغبوا في دخول البلدة، أو مغادرتها، وأصيب المسيحيون منا برعب شديد، ولذلك تراجعوا نحو الخلف على الفور، وانسحبوا إلى إحدى الروابي المرتفعة التي وجدت هناك، غير أنهم لم يستطيعوا النجاة من صلاح الدين، الذي حاصره ومعه مائة ألف فارس، وعسكر قرب سفح ذلك الجبل، ولدى رؤية ملك القدس نفسه أنه بات محاصراً، بعث برسلاً إلى صور إلى المركيز ورئيس الأساقفة والفرسان الآخرين الذين كانوا مضادين لخطة، ورجاهم عدم توجيه اللوم إليه، لقلّة خبرته، كما كان، بل طلب منهم القدوم لتقديم العون إليه في وضعه المحرج، وانزعج مركيز مونتفرات انزعاجاً كبيراً لرؤيته المسيحيين في مأزقهم الصعبة، فاجتاز بحراً من صور وقدم إلى مساعدتهم مع رئيس الأساقفة وألف من الفرسان وعشرين ألفاً من الجنود الرجالة، وفي يوم ٢٤ أيلول، امتلاً صلاح الدين بالخوف أمام التطورات التي تلت وصولهم وتراجع قدر ميل واحد بصعوده الجبل.

وفي يوم ٤ تشرين أول اشتبكنا بمعركة مع المسلمين، فقد قاد الملك فرسان الاسبتارية مع الفرسان الفرنسيين في صف قتال واحد، وقاد المركز الصف القتالي الثاني مع رئيس أساقفة روان، ونحن أيضاً كنا معهم، وقاد اللاندغريف Landgrave الصف الثالث مع البيزيين والألمان، وكان في الصف الرابع أخو الملك، ومكث جيمس أوف أفسن Avesnes في المعسكر، وكنا جميعاً أربعة آلاف فارس ومائة ألف من الجنود الرجالة، هذا وامتلك عدونا صلاح الدين مائة ألف فارس، ومع هذا لقد كنا مسلحين بشارة الصليب المقدس، وعندما اشتبكنا بالقتال في الساعة الثالثة من النهار، أثر الرب جانبنا، فهربوا أمام سيوفنا وطاردناهم نحن حتى خيمهم أنفسهم، وتعرض الصف السابع من صفوف المسلمين إلى خسائر كبيرة على أيدي مهاجمينا النشطاء، ولقد قتلنا بلدوين [كذا] ابن صلاح الدين مع أخيه [ابن] تقي الدين الذي أصيب بجراحة قاتلة ومن المؤكد موته الآن أيضاً، ولقد تدبرنا قتل خمسمائة من فرسان صلاح الدين، وكان هذا أكثر بكثير مما تأملناه، وفيما نحن مشتبكين مع صلاح الدين في القتال، غادر خمسة آلاف فارس المدينة وقاموا بهجوم مفاجيء علينا، وعندما رأى صلاح الدين أحلافه تقائلنا، استخدم طاقاته وقواه ضدنا، ومع هذا ظللنا قادرين على الوقوف ضد صلاح الدين من أحد الجوانب وقاومناه مقاومة شجاعة من الجانب الآخر، وذلك قبل أن نتراجع إلى معسكرنا، ومهما كان الحال لقد قتل في ذلك اليوم مقدم فرسان الداوية مع عدد كبير جداً من رجالنا».

[وبعث ملك فرنسا إلى ملك انكلترا بالرسالة التالية]:

«من فيليب ملك فرنسا بنعمة الرب، تحيات وحب مخلص إلى أخيه الملك، والرجل المخلص، رتشارد ملك انكلترا.

ستعلم بسرور أن جهودنا في سبيل تقديم العون إلى مدينة القدس تتقدم تقدماً جيداً، ونطلب من الرب بصلوات متتابة أن يظهر مثوبته

لأعمالنا الإيمانية في أرض القدس، ولقد فهمنا من كلماتك، ومن المعلومات التي جلبها للتورسلك في أنك ترغب وتنوي السفر إلى القدس، وبعثنا إليكم بوساطة هؤلاء الرسل بموافقتنا على رغباتك وعلى خططك نحو هذه القضية، ولسوف نؤكد هذا من خلال رسائلنا بشكل رسمي واضح، ولسوف يهتم رسلنا بقضية سلامتك في هذه المسألة وسيسلمون إليك رسائل موافقتنا الرسمية.

وجرى تنفيذ هذه الأعمال في شهر تشرين الأول من سنة ألف ومائة وتسع وثمانين من سني ربنا» (٢٢).

وجاء جون أوف أناغني Anagni كاردينال القديس مرقص إلى انكلترا كنائب للكرسي المقدس، وقد رسا في دوفر في ٢٠ تشرين الثاني، وأصدرت الملكة إليانور في اليوم التالي تعليمات بوجوب عدم سفره أية مسافة أخرى بعد وصوله إلى انكلترا من دون معرفة الملك، وهكذا أمضى ثلاثة عشر يوماً ممة في دوفر على حساب رئيس الأساقفة.

وجاء الملك وليم ملك اسكوتلندا إلى كانتبري، يرافقه في رحلته رئيس أساقفة يورك وأسقف لنكولن، وقدم الولاء إلى الملك، ولاقى رعاية منه، ودفع له عشرة آلاف مارك لتحرير جميع ممتلكاته الاقطاعية، وثمان ولاء رجاله الذين ربطوا أنفسهم بملكنا وأعادوا هذا الولاء الآن إلى الملك وليم.

وقدم الكونت جون كونت مورتين وأخو الملك التماساً هاماً بحضور الملك، ونائب البابا والأساقفة، وتشكى أنه بعدما تقدم بطلب استئناف إلى البابا، قام الأسقف بوضع الحرمان على جميع أراضيه لأنه تزوج من ابنة وليم إيرل غلوستر، وعندما سمع النائب البابوي جون أوف أناغني هذا، استجاب للاستئناف وحرر أراضيه من الحرمان.

وكان رتشارد ملك انكلترا سيتفوق على جميع أسلافه بحكم امتلاكه

لثروة هائلة، لو أن المبالغ الموعودة دفعت خلال الأشهر الأربعة الأولى للحكم الجديد، وتأكدت بضمانات مساوية لدخله حتى في السنة التالية.

وبعدما ناقش عدداً من المسائل المتعلقة بأوضاع المملكة مع بعض المسؤولين في دوفر (٢٣)، عبر القنال في ١٤ كانون الأول، ونزل في اليوم نفسه على مقربة من غريفلاينز Gravelines.

وفي هذه الآونة، توفي وليم ملك صقلية، وصهر ملك انكلترا، دون أن يخلف وريثاً مباشراً، وخلفه تانكرد قريبه القريب.

عندما جرى الاقلاع بالحملة الصليبية، جرى فرض ضريبة عشور على جميع البضائع المنقولة في أرجاء انكلترا كلها، وذلك بهدف ارسال المساعدات إلى القدس، وجرى تحصيل الضريبة بعنف بلغ حداً أن رجال الدين والعلمانيين أصيبوا بالرعب أن المساعدة تستخدم كمجرد حجاب للسلب.

[وصدر عن الملكين الإعلان التالي]:

«يبعث فيليب ملك فرنسا بنعمة الرب، ورتشارد ملك انكلترا بالنعمة نفسها، ودوق نورماندي وأكوتين وكونت انجو، بتحياتهما الرقيقة باسم الرب إلى جميع من سيقراً هذه الرسالة.

ليكن معلوماً بينكم أننا وضعنا بكل تأكيد خطة، صغناها بناء على نصيحة رجال الكنيسة والنبلاء في بلادنا، في أننا سوف نساfer إلى القدس معاً، متخذين الرب دليلاً لنا، وقد وعد كل واحد منا أن يخدم الآخر باخلاص جيد وحب، ولسوف أنظر أنا فيليب ملك فرنسا إلى رتشارد ملك انكلترا على أنه صديقي ورجل مخلص، وأنا رتشارد ملك انكلترا سوف أنظر إلى فيليب ملك فرنسا، على أنه صديقي ومولاي، وبناء عليه قررنا أنه يجب على كل الموجودين في بلادنا والذين حملوا شارة الصليب المقدس، إما ان يتقدموا بالسفر قبلنا بأسبوع قبل حلول عيد الفصح، أو

أن يسيروا وسط جماعتنا، ما لم يحصلوا على إذننا بالبقاء، وكلّ من أراد البقاء وراءنا من دون علمنا وإذننا، سوف نحرمه، وسوف يفرض رجال الدين لدينا الحرمان على أراضيه، إن خطتنا، ورغبتنا ومانوصي به، هو أن يقوم جميع النبلاء في بلادنا — إذا ما امتلكوا الوسائل — بدعم بعضهم بعضاً بثرواتهم، وعلى كلّ حال إن ممتلكات الذين سيرتحلون إلى القدس سواء معنا أو قبل اقلاعنا بحملتنا، سوف تبقى سليمة دونما أذى كما لو أنها ممتلكاتنا، وإذا ما آذى أحد من الناس منافع هؤلاء الأشخاص سوف يقوم قضاتنا مع مأموري التنفيذ باتخاذ مايلزم من إجراءات ضده، وذلك في حدود مايسمح به القانون، وتماشياً مع عادات بلادنا، وإذا ما حاول أي انسان إثارة حرب ضد بلادنا أو أي جزء منها أثناء غيابنا، وخرق العدالة، سينال الحرمان، وإذا لم يقم خلال أربعين يوماً بتدارك ما اقترفه من أضرار، نعلن أنه وورثته سوف يجرمون من ميراثهم بشكل أبدي.

جرى إعداد هذه الترتيبات يوم ٣٠ كانون الأول في نونانكورت».

وعلى كلّ حال لم يكن من الممكن تأكيد هذه المعاهدة بين الملكين على الفور، لهذا قالوا:

بما أن اليوم الذي كتبت فيه كان يوم سبت، لذلك أجلت حتى العيد المقبل للقديس يوحنا المعمدان، يوم الأحد ٢٤ حزيران، عندما شرعا بالحملة الصليبية، وفي ذلك اليوم نفسه توفيت مرغريت ملكة فرنسا أثناء الولادة في باريس، ودفنت في كنيسة نوتردام العظيمة، وكانت أول ملكة من ملكات فرنسا تدفن هناك.

سنة تسعين ومائة وألف

وقرر عدد كبير ممن كانوا يستعدون لالتهاق بالحملة الصليبية إلى القدس في جميع أرجاء انكلترا أن عليهم أولاً النهوض ضد اليهود قبل محاربة المسلمين، وهكذا حدث في نوروك يوم ٦ شباط قتل جميع اليهود الذين وجدوا في بيوتهم، وفي ٧ آذار قتل عدد كبير منهم في ستامفورد في أحد الأسواق، وقيل تم في يورك يوم ١٦ آذار قتل حوالي الخمسين، وتولى كثير منهم جراحة بعضهم بعضاً، ذلك أنهم فضلوا لقاء الموت على أيدي أناس من شعبهم على الموت على أيدي غير المختونين، وقيل في ١٨ نيسان، يوم أحد السعف، جرى قتل خمسين منهم في بري سانت إدموند، ولقد ذبح اليهود من قبل الصليبيين أينما وجدوا، مالم يتدبر انقاذهم بعض المواطنين — البرجاسية — **Burgesses** — وعلى كل حال، ينبغي ألا يخامر الشك أو الاعتقاد أحد أن أي رجل عاقل قد فرح بالعمل الجريء والمخيف بقتل اليهود، لأنه كتب في مزامير داود ماسمعناه يردد أماناً مراراً: «لا تقتلوهم».

وفي هذه الآونة، عندما حوصرت عكا للمرة الأولى، نذر رجل انكليزي اسمه وليم، وكان شماس رالف أوف ديسيتو عميد كنيسة القديس بولص، وهو ذاهب إلى القدس: أنه إذا ما وصل سالماً إلى ميناء عكا، سوف يتولى تأسيس بيعة هناك بقدر ما تسمح له موارده، وأن يكرسها على اسم الشهيد المقدس توماس بكت، وسوف يتخذ هناك مقبرة تشریفاً له، وقد تحقق له ما أراد، وجاء عدد كبير من الناس من جميع الجهات إلى تلك البيعة، وجرى باتفاق عام تسمية وليم رئيساً لها، وبما أنه كان فارساً مكرساً للمسيح فقد اعتنى عناية خاصة بالفقراء، وعمل جاهداً جداً لدفن أجساد الموتى، من الذين قتلوا بالسيف أو الذين ماتوا على فراشهم، وكان هناك مقبرة أخرى دعيت باسم المشفى الألماني، وثالثة

أقدم من البقية حملت اسمها من القديس نيكولاس، وفيها جرى دفن
مائة ألف وأربعة وثلاثين ألفاً من الرجال في سنة واحدة.

وفي رحلتها إلى روما، أثرت الملكة إليانور، أم الملك رتشارد، عدم
ركوب البحر، خشية من مخاطرة، وسافرت عبر جبل جنيفر Genevre
وسهول إيطاليا.

وكتب «البابا كليمنت إلى وليم أسقف إيلاي: تحيات.

طبقاً للرغبات المعلنة والطلب المفيد لولدنا العزيز في الرب، رتشارد،
الملك اللامع للانكليز، نسند إليك، بموجب السلطات الرسولية، أيها
الأخ، مركز القاصد الرسولي في انكلترا وويلز، وفي كل من مقاطعتي
كانتبري ويورك، وفي مناطق إيرلندا، حيث جون كونت أوف مورتين،
أخو الملك، يمارس حكمه وسلطانه.

صدر في اللاتيران في ٧ تموز، في السنة الثالثة لحبريتنا.

وكتب «رتشارد ملك الانكليز إلى جميع رجاله المخلصين. تحيات:

نحن نقضي ونأمر، إنه بقدر ما أنتم مخلصون لنا وتحبون أنفسكم
وممتلكاتكم، عليكم إطاعة مستشارنا العزيز والمخلص أسقف إيلاي في
جميع أعمالنا، وأن تعملوا له مثلما تعملون لنا أنفسنا في جميع المسائل
الذي يصدر إليكم تعليمات حولها. شهدت أنا نفسي في بيوني Bay-
onne ٦ حزيران».

واتفق ملكا انكلترا وفرنسا على الالتقاء في فيزي في حوالي ٢٤ حزيران،
ليذهبا إلى القدس، وانطلق ملك فرنسا نحو جنوى وملك انكلترا نحو
مرسيليا.

وأقلع الملك رتشارد من مرسيليا يوم ٩ آب ١١٩٠، وبعد مرورهم بين
أمواج البحر المالح وصلوا إلى ميناء روما، وجرى استقبالهم من قبل

أسقف أوستيا مع رسل كثيرين من عند البابا، ورفض الملك دعوة البابا لزيارته، وذهب إلى الجنوب عبر كابوا Capua.

ووصل رتشارد الأول وفيليب الثاني صاحب فرنسا إلى صقلية في أيلول ١١٩٠، وقررا إمضاء الشتاء هناك، وسمع رتشارد في أثناء إقامته شيئاً حول نبوءة ورؤيا جوشيم أوف فيور **Joochim of Fiore** وطلب أن يسمع النبوءة بنفسه، ويصف صاحب كتاب «أعمال الملك رتشارد» الذي قاله جوشيم للملك كما يلي:

كان في تلك الآونة راعي دير سسترشيان في كالبريا Calabria اسمه جوشيم راعي دير كورازو corazzo امتلاً بروح التنبؤ، وكان يعظ الناس حول المستقبل، وأصغى الملك الانكليزي بانشرح إلى هذه النبوءات، وإلى حكمته وعقيدته، وكان جوشيم واسع المعرفة بالكتب المقدسة، وتولى تفسير رؤيا يوحنا اللاهوتي المبارك التي وردت في سفر الرؤيا، وكأنه كتب هذا السفر بيده، وكان الملك مسروراً ومعه كثير من الناس لدى سماعهم إياه وهو يفسر النص التالي:

«ظهرت آية عظيمة في السماء، امرأة متسربة بالشمس والقمر تحت رجليها، وعلى رأسها اكليل من اثني عشر كوكباً. وهي حبلت تصرخ متمخضة ومتوجعة لتلد. وظهرت آية أخرى في السماء، هوذا تنين عظيم أحمر له سبعة رؤوس وعشرة قرون، وعلى رؤوسه سبعة تيجان، وذنبه يجر ثلث نجوم السماء فطرحها إلى الأرض، والتنين وقف أمام المرأة العتيدة أن تلد حتى يتلع ولدها متى ولدت. فولدت ابناً ذكراً عتيداً أن يرعى جميع الأمم بعصا من حديد، واختطف ولدها إلى الله وإلى عرشه. والمرأة هربت إلى البرية حيث لها موضع معد من الله لكي يعولوها هناك ألفاً ومئتين وستين يوماً» [الرؤيا: ١٢ / ١-٦].

وجرى تفسير الرؤيا من قبل جوشيم راعي دير كورازو حسب الطريقة التالية:

«المرأة المتسربلة بالشمس والقمر تحت رجليها»: في هذا إشارة إلى الكنيسة المقدسة، وهي متسربلة بشمس العدالة، التي مولاهم المسيح، وهي التي تحت رجليها العالم، وكل خرق ورغبات شهوانية، تقمع دوماً. «وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكباً»: رأس الكنيسة هو المسيح، والإكليل هم المخلصون للكنيسة. «وهي حبلى تصرخ متمخضة ومتوجعة لتلد». في هذا إشارة إلى أن الكنيسة المقدسة دوماً مسرورة نحو ميلاد جديد، فمن خلال الصلب أنقذت النفوس بوساطة عمل الرب. «وظهرت آية أخرى في السماء، هوذا تين عظيم أحمر له سبعة رؤوس وعشرة قرون»: في هذا إشارة إلى الشيطان، الذي يمكن أن يقال حقاً عنه أن لديه سبعة رؤوس، ورأس الشيطان كله إثم، ويعادل سبعة، وكأن نهاية محدودة يمكن وضعها على اللا محدود، لأن رأس الشيطان هو اللا محدود، ذلك أن المعادين للكنيسة والآثمين محدودين بالعدد.

وعدد جوشيم سبعة من الأعداء الرئيسيين للكنيسة، هم حسب عرضه: هيرود، ونيرون، وقسطنطينوس، ومحمد (صلى الله عليه وسلم)، وملسيموتوس، وصلاح الدين، والمسيح الدجال. وعن هؤلاء قال اللاهوتي المبارك في الأبوغرافيا: «إنهم سبعة ملوك، خمسة منهم ماتوا، وواحد مازال موجوداً، والآخر سيأتي»، وفسر جوشيم هذا وأوضح أن الملوك السبعة هم أصحاب الأسماء السبعة المسماة أعلاه، الذين خمسة منهم أموات وهم: هيرود، ونيرون، وقسطنطينوس، ومحمد (صلى الله عليه وسلم)، وملسيموتوس، والحي من السبعة هو صلاح الدين، الذي هو في هذه الآونة عدو كنيسة الرب، فهو الذي وضع مدينة القدس تحت نير العبودية، مع مكان دفن الرب، والأرض التي وقفت عليها قدما الرب، ولقد قال: إنه بالقرب العاجل سيفقد مملكة القدس، ولسوف يقتل،

وينمحق من خلال نزعاته الجشعة، وستكون هناك مذبحة هائلة لم ير مثلها منذ بداية الخليقة، ولسوف يتشتت السكان المسلمون، وستفرغ مدنهم منهم، وسيعود المسيحيون وقتها إلى رعاية الرب وسيسكنون في هذه المدن».

وتوجه الراعي نحو رتشارد فقال:

«لقد أباح الرب هذا كله، ومن خلالك سيحدث أنه سوف يمنحك النصر على أعدائك، وسيمجد اسمك في الأبدية، وأنت سوف تمجده، وفيك سوف يمجد إذا ما حفظت العمل الذي بدأ، وسيظهر قريباً الواحد الذي هو المسيح الدجال»، وقال الراعي: «إنه قد اكتشف أن المسيح الدجال قد ولد، وأن خمس عشرة سنة قد مضت على ولادته، لكن لم يكتمل بلوغه وقوته بعد».

وبعدما أبدى عدد كبير دهشتهم تجاه الأشياء التي سمعوها، قال الملك للراعي: «أين ولد المسيح الدجال، وأين سيحكم؟» وأجابه جوشيم أنه يعتقد «أن المسيح الدجال قد ولد في مدينة روما، وسيستحوذ على الكرسي الرسولي هناك».

وأجابه الملك قائلاً: «إذا كان المسيح الدجال قد ولد في روما وسيستحوذ على الكرسي الرسولي، أعتقد أنه لابد وأن يكون هو كلمنت الذي هو الآن البابا»، وقد قال هذا لأنه كان يكره البابا، وقال الملك أكثر من هذا، لقد زاد قائلاً: «لقد اعتقدت أن المسيح الدجال كان سيلد في بابل أو في أنطاكية من أصول من دان، وأنه سوف يحكم في هيكل الرب». وعندما قدم راعي دير كورازو الشرح المتقدم بشأن قدوم المسيح الدجال، بذل عدد كبير من الناس، بما فيهم جميع رجال الدين الذين أجادوا معرفة الكتب المقدسة، غاية جهدهم للبرهنة على أنه كان مخطئاً.

سنة إحدى وتسعين ومائة وألف

وفي تلك الآونة كان رتشارد وفيليب يتشاجران فيما بينهما ويورطان نفسيهما في السياسات المحلية.

في يوم الجمعة الأول من آذار سنة ١١٩١ ذهب رتشارد، الملك الانكليزي، إلى مدينة مسينا ليتحدث مع تانكرد ملك صقلية، وكان هذا بناء على نصيحة من فيليب ملك فرنسا، وفي اليوم الثالث التالي قدم الملك الانكليزي إلى مدينة كاتانيا Catania حيث الجسد المقدس لأغاثا Agatha المقدسة، التي هي عذراء وقديسة.

وعندما سمع تانكرد ملك صقلية أنباء قدوم رتشارد، خرج إلى استقباله وسار نحواً من خمسة أميال خارج المدينة لتلقيه، وعندما راه عن بعد، وقبل أن يجتمعا بالفعل، ترجلا وركض كل واحد منهما نحو الآخر، وبادرا إلى التعانق بين بعضهما مع التحيات والقبلات، ثم امتطيا فرسيهما ودخلا إلى المدينة، ورحب بهما رجال الدين والشعب بالتراتيل والأغاني التي أنشدت في مديح الرب، وقد صليا أمام قبر أغاثا المباركة، ثم دخل الملك رتشارد إلى قصر الملك تانكرد ومكث معه ثلاثة أيام في وضع موائم.

وفي اليوم الرابع منح ملك صقلية ملك انكلترا عدداً كبيراً من الأواني المصنوعة من الذهب والفضة، وأهداه خيولاً وملابس ثمينة، لكن ملك انكلترا لم يرغب في قبول أي شيء، فيما عدا خاتم صغير، اختاره ليكون دليلاً على عواطفها المتبادلة بود، وعلى كل حال أعطى الملك الانكليزي تانكرد سيف آرثر المشهور، الذي كان فيما تقدم ملك البريطانيين، والذي دعاه البريطانيون إكسكاليبور Excalibur وأعطاه تانكرد أيضاً أربع

سفن كبيرة وخمس عشرة شيني.

وعندما عاد رتشارد، شيعه تانكرد شخصياً لمسافة يومين خلال تورمينا Taormina ، ثم عندما كان مستعداً للمغادرة قال له الملك تانكرد: «أستطيع الآن أن أعتقد وأبرهن أن ما أخبرني به الملك الفرنسي عنك في رسائله، صدر بالحري عن غيرة وليس عن حب لي، ذلك أنه أخبرني أنك لن تتعاون معي لأبصدق ولا بسلام، وأن الاتفاق الذي عقد فيما بيننا سيخرق، وأنت لن تقدم إلى هذه المملكة إلا مع العنف ضدي».

ورد ملك انكلترا على هذا بحزم، ولم يفصح في كلماته عما أضمره في قلبه قائلاً: «السوء لمقتري الشرور، أنا لا يمكنني أن أصدق أن هذا يصدر عنه، لأنه مولاي ورفيقي المربوط بالقسم خلال هذا الحج».

ورد الملك تانكرد على هذا قائلاً: «إنك لابد وستصدق أنني ماقلت إلا صدقاً، لأنني سأريك الرسائل التي بعثها الملك الفرنسي إلي».

وعندما استلم الملك الانكليزي الرسائل من يد الملك تانكرد، جاء الملك الفرنسي إلى تورمينا ليتحدث مع الملك تانكرد.

هذا من جهة ومن جهة ثانية عاد الملك الانكليزي إلى مسينا، ومكث الملك الفرنسي ليلة واحدة في تورمينا، ثم عاد في اليوم التالي إلى مسينا، وغضب الملك الانكليزي غضباً عظيماً منه، وبات لا يرغب في مصاهرته أو إقامة سلام معه، بل استهدف الحصول على فرصة ليتعد من هناك مع رجاله، ثم بحث الملك الفرنسي عندها بحثاً حثيثاً ليعلم ما القضية، وأخبر الملك الانكليزي الملك الفرنسي بالذي قاله له ملك صقلية، وجاء ذلك من خلال وساطة فيليب كونت فلاندرز وآخرين من أصدقائه ومعارفه، وأطلع الملك الفرنسي على الرسائل التي تسلمها من الملك تانكرد كبرهان، وعندما سمع الملك الفرنسي بهذا التزم الصمت، عارفاً نفسه أنه كان مجرمًا، ولم يعرف كيف يجيب، لكن بعدما استرد وعيه

وثاب إلى رشده أعلن قائلاً:

«إن هذه الكلمات زائفة وقد اخترعت حديثاً، ذلك أنني أعتقد، وأنا متأكد من ذلك، أنه يبحث عن مسوغ يمكنه من اتهامي، فمن الممكن من خلال هذا الزيف أن يرفض الزواج من أختي، التي أقسم على الزواج منها».

وعلى هذا رد الملك الانكليزي قائلاً: «إنني لأمقت أختك، لكنني لن أتخذها زوجة لي لأن أبي قد عرفها، وله ولد منها»، ووقف الملك رتشارد متصلياً ضد الملك الفرنسي، وبعد كثير من الأخذ والرد، حلل الملك الانكليزي من خطوبته لأخته أليس، وتسلم كجزء من الاتفاقية عشرة آلاف مارك من ملك انكلترا لصالحها، وعند عودة الملك الفرنسي إلى فرنسا ستعيد إليه أخته غيسور كلها، وجميع الأشياء الأخرى التي قررها لها كحصة زواج.

وعندها أعطى الملك الفرنسي إلى الملك الانكليزي براءة وترخيصاً في أن يتزوج من رغب بالزواج منها، وقدم تنازلاً آخر في أن يكون دوق بريتاني تابعاً مع وريثه لبريتاني، للملك الانكليزي بشكل أبدي، وهكذا ينبغي أن يغدو ملك انكلترا مع وراثته المسؤولين عن هذه الاقطاعية أمام الملك الفرنسي وورثته.

وغدا في ذلك اليوم كل من ملك انكلترا وملك فرنسا أصدقاء، وأكدا بأخلاص وأيمان اتفاقيتهما، ولقد أكداها أيضاً كتابة تحت ختميهما.

أما وقد تحلل رتشارد من يمينه نحو أليس بات الآن حراً ليتزوج من بيرنغاريا النافارية، وروى لنا ديسيتو أن إليانور الأكوثانية قد جلبتها إلى صقلية.

بعدما أمضت الملكة إليانور مع ابنها أربعة أيام في مسينا، عادت إلى انكلترا، وخلفت وراءها بيرنغاريا ابنة ملك نافار، التي كان رتشارد

سيتزوج منها (٢٤)، وفي يوم ١٠ نيسان أبحر الملك رتشارد مع جيشه على ظهر أسطول تألف من مائة وست وخمسين سفينة، وأربع وعشرين بارجة نقل، وتسع وثلاثين شيني، وأخذ معه أخته جوانا وكذلك بيرنغاريا، وأبحر ملك فرنسا من مسينا يوم ٢٩ آذار.

وبعد رحلة دامت حوالي العشرين يوماً وصل الملك رتشارد إلى جزيرة رودس، ومكث خمسة أيام في البلدة، ثم بعد رحلة خمسة أيام أخرى رسا في جزيرة قبرص في مكان يدعى ليما سول، وذهب كورساك [اسحق دو كاس كومينوس] سيد تلك البلاد، الذي دعا نفسه بـ «الامبراطور» على رأس قوة كبيرة ليحول بها دون نزول ملك انكلترا، وسبب الكثير من الأضرار إلى رجال الملك، فنهب الذين كانت سفنهم قد تحطمت، وألقى بهم في السجن ليموتوا من الجوع، وغضب الملك رتشارد وسخط لهذا، وبادر لينتقم لهذه الأضرار، وحارب الأعداء وربح منهم نصراً سريعاً، واستبقى الرجل المهزوم في الأغلال، وأسرا بنته الوحيدة، وأخضع جميع قبرص مع قلاعها كلها، وعقد كورساك صفقة مع الملك قضت ألا يبقى الملك بالأصفاد الحديدية، وجرى تنفيذ ذلك، فاستبدل الأغلال الحديدية بأغلال من فضة ووضع في سجن في قلعة قرب طرابلس تدعى المرقب، وجرى الاحتفاظ بابنة كورساك في سجن لائق مع الملكتين في السرايق الملكي.

وكان في الوقت نفسه غي أوف لوزغان ملك القدس وجيشه ينتظر خارج عكا وصول المساعدة، كما شرح لنا ديسيتو فيما يلي:

«إلى المولى المبجل والأب في المسيح رتشارد أسقف لندن، وإلى هيوبرت بالنعمة نفسها أسقف سالسبري، التحيات باستمرار والصداقة الخالصة.

تقاوم مدينة عكا بشدة هجماتنا، ولا نستطيع الاستيلاء عليها لأنها

مزودة بشكل جيد بالرجال، ومدافع عنها بآلات الحرب، وصلاح الدين على الجانب الآخر منا قد طوقنا، ويأمل المسيحيون أن يكونوا قادرين على تحمل الأعباء والمصاعب والآلام الناتجة عن الحصار حتى وصول ملوكنا، أي أن يكونوا في حوالي عيد الفصح المقبل، لكن إذا تأخروا أكثر لن نكون قادرين على تحمل الاستمرار، ووقتها سوف يتلاشى أملنا في الدعم. هكذا تسير الأمور بالنسبة لحصار عكا.

ونزل الملك الفرنسي في عكا في عيد الفصح، يوم السبت ٢٠ نيسان ١١٩١، والذي حققه الجيش المسيحي وحصل عليه من الهجوم على المدينة لمدة سبعة أسابيع، هو ما سيتم عرضه الآن وهو ما عرفناه وتذكرناه.

أقلع الملك رتشارد من قبرص ومعه ثلاث عشرة سفينة كبيرة تدعى بوكاس buccas في كل واحدة منها ثلاثة أشعة، ومائة سفينة نقل وخمسين شيني كل منها ذات ثلاثة صفوف من المجدفين، وفيما هو مبحر فوق البحر العميق الواسع لمح أشعة سفينة كبيرة جهزها سيف الدين صاحب مصر وهو أخو صلاح الدين، وأنفق عليها كثيراً، فهي قد جاءت لمساعدة المسلمين المحاصرين في عكا، وكانت مشحونة بالأطعمة والأسلحة الصالحة لكل نوع من أنواع القتال، والنفوط (النار الإغريقية) وحاولات فيها مواد متفجرة، وقد قيل بلغ عدد البحارة في هذه السفينة ألفاً وخمسمائة.

وتمّ بسرعة تناول كل شيء كان ضرورياً لمعركة بحرية، وطوقت الشواني السفينة الكبيرة التي تضاءلت سرعتها، وبدأ هجوم حاد عليها، ثم قام واحد من المجدفين، مقلداً أحد الطيور الصغيرة الذي يسمى النشال (الغواص) وسبح تحت الأمواج حتى صار تحت السفينة، فخرقها بوساطة مثقب، ولعله في عمله هذا كان قد سمع كيف قام اليعازر في أيام المكابيين فزحف تحت الفيل الذي كانت تدور حوله أعمال القتال العنيفة، وقتله بطعنه في معدته، وقد سحق اليعازر وهو ينفذ عملياته في

سبيل اليهود، ولكن مجدفنا، والمسيح في قلبه، عاد سالماً إلى مركبه، وجلس مجدداً على مقعده، وبعد مضي وقت قصير، أخذت المياه المتسربة إلى السفينة ترتفع فوق ألواحها، وقطعت آمال النجاة بالنسبة للبحارة، الذين كانوا من قبل واثقين من دفاعاتهم، وأمر الملك رتشارد باغراق ألف وثلاثمائة منهم، واحتفظ بمائتين فقط من بينهم، وقد حدث هذا يوم ٦ تموز [اقرأ: حزيان].

وتابع الملك سيره، ومالبث أن وصل إلى الميناء الذي كان قاصداً له، وردد الشاطئ أصوات النفير ودعواته، وزعيق الأبواق، وأنين الشبور المرعب، وقد أثار هذا المسيحيين وحثهم على القتال، وصك بالرعب قلوب المسلمين المحاصرين، وأعلن عن وصول حاكم كبير، فقد دخل الملك رتشارد إلى ميناء عكا يوم ٨ حزيان.

ونصب فيليب ملك فرنسا ورتشارد ملك انكلترا آلات حصارهم حول عكا، وسددا رمائتهما نحو الأسوار، وعندما بدأت الرمايات تضعف الدفاعات، بدأ المسلمون يشعرون بالخوف ويفقدون الأمل بالقدرة على الاستمرار بالصمود، وبعدما تشاوروا مع المسلمين الآخرين أخذوا يسعون في سبيل السلام، ووافقوا على أن يقوم صلاح الدين بإعادة صليب الصلبوت في يوم حدد ميعاده، وأن يطلق ألفاً وخمسمائة من المسيحيين الأسرى لديه، وبناء عليه استسلمت المدينة إلى الملكين يوم ١٢ تموز بكل ما كان فيها من سلاح، وعتاد ومؤن تعود إلى المسلمين، الذين استسلموا حفاظاً على حيواتهم فقط.

لكن عندما جاء اليوم الموعود، ولم يحافظ صلاح الدين على قسمه من الصفقة، فقد حوالي الألفين وستمائة من المسلمين رؤوسهم انتقاماً لهذا، واستثنى من القتل عدد صغير من الأعيان، وضعوا تحت رحمة الملك، وأثقلوا بالأغلال.

وما ان استسلمت المدينة حتى اقترح الملك الفرنسي العودة إلى بلاده، وذلك لانتهاء كل شيء الآن، وعندما سمع الملك رتشارد بهذا، عرض على الملك الفرنسي، بحكم كونه مولاه، النصف من كل شيء قد جلبه، سواء من ذهب وفضة، ومؤن، وأسلحة، وخيول وسفن، ووعدته بتسليم ذلك كله إليه مقابل أية ضمانات يريدونها، إنما مقابل أن يبقى، لكن فيليب كان مصراً تمام الاصرار على المغادرة، وعلى الرغم من معارضة رجاله، ومن غضب جميع الجيش المسيحي، صعد ظهر سفينة مع عدد ضئيل من مرافقيه للابحار نحو الوطن.

وبعدما غادر جرى ترميم الثلم الموجودة في سور عكا، وتم تحصين المدينة بالخنادق، ومن أجل أن يعلي شأن القضية المسيحية، وفي سبيل الوفاء بنذره، انطلق الملك رتشارد نحو يافا، وكان معه دوق بيرغندي وبرفقته الفرنسيين الذين كانوا تحت امرته، وكذلك الكونت هنري ورجاله، وعدد كبير آخر من الكونتات والبارونات ومالايخصى عدده من الناس العاديين، وكانت المسافة طويلة من عكا إلى يافا، وبعد جهود كبيرة، وخسائر عظيمة وصل الملك حتى قيسارية غير هياب، وعانى أيضاً صلاح الدين من الخسائر على الطريق نفسه، وتوقف الجيش هناك بعض الوقت حتى يسترد أنفاسه، ثم استأنف بشجاعة زحفه نحو يافا.

وعندما وصلت المقدمة إلى أرسوف، قام صلاح الدين بهجوم مفاجيء على الساقة، لكن برحمة ربانية هزم بوساطة هجوم معاكس قامت به أربع فرق مسيحية، وانهزم هو نفسه لمسافة مرحلة وهو يطارد من قبل الصليبيين الذين أنزلوا بأعيان المسلمين في يوم واحد مذبحه لم يعان صلاح الدين من مثلها في أربعين يوماً.

وفيما يلي رواية شاهد عيان عن معركة أرسوف، كتبها رتشارد كاهن الثالث المقدس في أولدغيت **Aldgate** في لندن.

عند بزوغ أول ضوء يوم ٧ ايلول سلح كل واحد نفسه بعناية بكامل سلاحه، وكان الترك سيتم التصدي لهم الآن.

لقد كان بإمكانك أن ترى أكثر الرفاق قدرة، والأعلام من مختلف الأنواع، وكثيراً من الرنوك، وكذلك أكثر الناس قسوة، وهم متشوقين، مستنفرين ومستعدين تمام الاستعداد للحرب.

وكان الملك رتشارد ودوق بيرغندي، مع كوكبة مختارة من الفرسان، وهم يطوفون هنا وهناك، يراقبون كل شيء من اليمين إلى اليسار، ويلاحظون تعبئة الأتراك وأوضاعهم حتى يستطيعوا تغيير تعبئة جيشهم بما يجدونه مفيداً، ولا شك أن يقظتهم كانت ضرورية جداً.

والآن، في منتصف الصباح انقض علينا حشد هائل من الأتراك، يقارب العشرة آلاف، بشكل مفاجيء وهجوم مباغت، وأطلقوا نحونا النشاب ورمونا بالحرايب، وكانوا يصرخون بأصوات عالية مرعبة قاسية، واندفع إثر هؤلاء نحو الأمام شعب متوحش، ألوانهم سوداء جداً، وقد حملوا اسمهم وأخذوه بشكل صحيح من اللون، وبما أنهم كانوا سوداً، فقد عرفوا باسم السودان، وجاء أيضاً المسلمون الذين يعيشون في الصحراء، ويعرفون بشكل عام باسم البداءة، وكانوا مرعبين سوداً قاتميين مثل السخام، وكانوا رجالاً لا يمكن السيطرة عليهم، سرعتهم عظيمة وهم شعب سلاحهم خفيف يستخدمون النشاب مع الجعب والترسة، وكانوا رجالاً ذوي تصميم وشجاعة لا يعرفون الانحراف ويخيفون جيشنا.

ومضى أمام الأمراء نحو الأمام رجال ينفخون بالأبواق والصور، وكان بعضهم يحملون النفر، وآخرون الزمور والطبول والدفوف والصنوج، وكان آخرون يحركون آلاتاً أخرى متنوعة، وكان كل واحد منصرف إلى عمله في إصدار جعجة عالية مرعبة متنافرة النغمات، وكان صراخهم الحاد وزعقاتهم الشديدة قد بلغت حداً رددته الأرض حتى بات من غير

الممكن تمييز صفقات الرعد عن صوت البرق، وكان الهدف من هذه الأصوات إثارة الحمية والشجاعة، وكان كلما ارتفعت الأصوات، كلما تصلبت الروح من أجل القتال.

وهاجم الأتراك البغضاء جيشنا، وكانت ساحة المعترك قرابة الميلىن، وكنت لا ترى فى إطارها سوى الترك المعتدين، ثم قام رجالنا الشجعان ذوي الاقدام، الذين حرمت عليهم سمعتهم الفرار، والذين استهدفت أرواحهم الجريئة أن تتوج [بالشهادة]، بالصمود أثناء القتال، وواجهوا العدو وقاتلوه باصرار عظيم وثبات، وناضلوا بشجاعة لا تعرف التقهقر.

وعندما رأى الملك رتشارد الجيش قد وقف هذه الوقفة واشتبك بالعدو، غمز حصانه، وبسرعة طار الى هناك، ولم يتوقف عن الركض، ولم يشد عنان فرسه حتى التحق بصفوف الاسبتارية المقاتلة ليقدم لها العون ومعه أتباعه، واندفع من اليمين حتى واجه أكثر الفرق التركية ارعاباً، وكانت عناصرها من الجنود الرجالة، الذين رغبوا بالموت، وقد أدهشتهم حملته، فسقطوا على مقربة منه من على اليمين والشمال، وهناك كان الملك رتشارد وحده هائجاً منقضاً على الأتراك، يقاتلهم ويصرعهم فى كل مكان، ولم يكن هناك رجل واحد كان بإمكانه أن ينجو من ضربات سيفه، لأنه حيثما ذهب الملك عمل عمراً طويلاً وعريضاً، بفضل استخدامهِ لسيفه، وتقدم الملك بدون مقاومة، وسيفه يشق له الطريق وسط الشعب الشرير، وكأنه يزيل الأعشاب بمنجله، وخشية أن يلاقي الأحياء ملاقته حشود الأموات، أفسحوا أمامه المجال، ولمسافة نصف ميل تمددت أجساد القتلى الأتراك على وجوهها فوق التراب.

بهذه الدرجة من القسوة كان الغضب الذي ثار ضد الأتراك فى ذلك اليوم، وازدادت الضربات المميتة وتضاعفت إلى حد أن الأعداء تخلوا عن مقاومتهم وصراعهم، وأخلوا الطريق أمام جيشنا الزاحف، وهكذا تمكن أخيراً جرحانا من الالتفاف حول العلم، وتجمعوا ثانية وانتظموا داخل

صفوف القتال، وزحفوا بين الصفوف إلى أرسوف، وهناك نصبوا خيامهم خارج البلدة.

وكان بإمكانك أن ترى في ذلك اليوم، تبعاً لتقارير الذين رأوا الأتراك الفارين، آثار فرارهم خلال الجبال بوساطة الأسلاب التي ألقوا بها، والجمال والخيول وهي ملقاة مبعثرة هناك وهي ميتة، ذلك أن آلافاً منها ومئات سقطت على طول الطريق، وهي محملة بالأثقال.

وعندما كان رتشارد في صقلية أرسل وولتر أوف كاوتنس **Cou-**
tances رئيس أساقفة روان عائداً إلى انكلترا ليراقب الأحداث هناك، ولإعطاء رسالة إلى المستشار لونغ شامب، ولقد تتبع ديسيتو العداء المتزايد بين جون كونت مورتين ووليم لونغ شامب.

وعاد وولتر رئيس أساقفة روان من صقلية إلى انكلترا، ونزل في شورهام Shoreham يوم ٢٧ حزيران، وهو يحمل الرسالة التالية:

«من رتشارد ملك الانكليز إلى مستشاره وليم، وإلى غيوفري فتزيتير، ووليم مارشال، وهيوج باردولف، ووليم برور، تحيات:

بحكم أننا نحمل حباً عظيماً إلى الأب المبجل وولتر رئيس أساقفة روان، ونثق به ثقة عظيمة، بعثنا به إليكم من أجل سلامة مملكتنا والدفاع عنها، وقد حررناه من حجه بموافقة البابا، لأننا نعرفه حكيماً، ومستقيماً وقادراً، ومخلصاً جداً لأنفسنا، وبناء عليه نأمركم، ونؤكد أمرنا لكم بأن تعملوا وفقاً لآرائه في جميع المسائل المتعلقة بنا، وأن تتبادلوا أنتم وهو الآراء حول جميع المسائل مادام موجوداً في انكلترا ونحن غياب في حجنا، ونأمركم أن تفعلوا ما نخبه أن يخبركم إياه حول رئاسة أساقفة كانتربري. شهدت بنفسي. مسينا، ٢٣ شباط ١١٩١».

وكتب «رتشارد ملك الانكليز إلى وليم مارشال، وغيوفري فتزيتير، وهيوج باردولف ووليم برور:

إذا لم يعمل مستشارنا باخلاص وفقاً لأرائكم أنفسكم وآراء الآخرين الذين عهدنا إليهم بشؤون العناية بمملكتنا، نأمركم بتنفيذ كل مايرضيكم في جميع شؤون مملكتنا، وقلاعنا وممتلكاتنا، بدون نقاش».

وكتب «وليم لونغ شامب، أسقف إيلاي بنعمة الرب، إلى عمدة سسكس:

نأمركم إذا ماوصل أي رئيس أساقفة منتخب ليورك، أو وصل إلى أي ميناء من موانئ مقاطعتكم، أو وصل أي واحد من مبعوثيه، أن تحتفظوا به حتى تتسلموا أمراً منا، ومثل هذا نأمركم بالتحفظ على أي رسالة جاءت من البابا أو من أي شخص مهم».

وافق غيوفري، وهو ابن غير شرعي لهنري الثاني، ورئيس أساقفة يورك المنتخب، على البقاء خارج انكلترا لمدة ثلاث سنوات، أثناء غياب رتشارد الأول في حملته الصليبية، غير أنه خرق هذا الوعد.

بينما كان رئيس أساقفة يورك مسافراً إلى انكلترا، نزل في ميناء يحمل اسم دوفر، يوم ١٤ أيلول. وعند نزوله هناك، قامت أخت وليم لونغ شامب، أسقف إيلاي، التي كانت تحرس القلعة هناك، بناء على أمر أخيها —حسبما قيل واعتقد— بعمل شرير وهو حصار رئيس الأساقفة وكهنته بوساطة حشد من الرجال من المسلحين، لمدة ستة أيام في رئاسة دير القديس مارتين، وقد ضيقوا عليه إلى حد توجب عليه الاستجداء لإعطائه الطعام بينما كان هناك، وعندما تطورت المضايقة والخيانة نحو الأسوأ، جاء فارسان من فرسان أسقف إيلاي، وهما: أوبري أوف مارني Auberey of Marney والاسكندر بيونتل Puintel وهما مسلحان، واقتحما الكنيسة السالفة الذكر بسيوف مشهورة في أيديهما، واندفعا نحو رئيس الأساقفة، وأمره بحزم أن يغادر المملكة دونما تأخير أو

تردد، وأن يذهب إلى فلاندرز مع رجاله، وعندما رفض جروه بقدميه، وبرجليه وبذراعيه من المذبح على طول الطريق الطينية وخلال الأماكن القذرة، وهو لابس قلنسوته وحامل لصلبيه، ولقد قرع رأسه بعنف فوق الرصيف، ومعه كهنته ورجال دين تقاطروا وتجمعوا لرؤيته، وجاءوا من أجزاء كثيرة، وفي يوم ١٨ ايلول اقتيد إلى القلعة، وألقي بالسجن لمدة ثمانية أيام.

وعندما سمع بهذا رتشارد أسقف لندن، عمل وسيطاً بين الفرقاء، وبادر مسرعاً بقدر ما أوتي من قوة إلى المستشار وليم لونغ شامب، وحصل منه بعد كثير من المناقشات على أمر باطلاق سراح رئيس الأساقفة فقط، والاحتفاظ بجميع كهنته رهينة، وغادر رئيس أساقفة يورك السجن في ٢٦ ايلول، فبادر مسرعاً يسير عبر الطريق الطيني وخلال الأماكن القذرة، حيث كان قد جرّ، وهو لابس لثيابه الكهنوتية، وواضع قلنسوته على رأسه ويده الصليب، حتى وصل إلى دير القديس مارتن، وهناك قدم الشكر للرب وإلى القديس مارتن، وقد استقبل بترحاب عظيم من قبل الناس الذين تقاطروا من جميع الاتجاهات، وعندما وصل إلى لندن استقبل رئيس الأساقفة بموكب مهيب عند كاتدرائية القديس بولص، وكان ذلك يوم ٢ تشرين أول، وأظهر رتشارد أسقف لندن نحوه جميع أنواع اللطف الذي كان بإمكانه أن يبديه مع الرعاية والانفاق عليه وعلى أتباعه.

هزت معاملة وليم لونغ شامب لغيوفري رئيس أساقفة يورك، الكنيسة الانكليزية، وبهذا هيأت مسرحاً خصباً لتآمر الكونت جون ضد المستشار، حيث كتب إليه يقول:

«من جون كونت مورتين إلى رتشارد أسقف لندن. تحيات.

بما أنك تحب مجد الرب ومجد الكنيسة، ومجد الملك ومجد المملكة ومجدي، كن موجوداً على الجسر عبر لندن يوم ٥ تشرين أول، بين ردنغ ووندسور، لأنني — بإرادة الرب — سوف ألقاك هناك، لتتباحث حول بعض القضايا الهامة والجادة التي تتعلق بالملك وبالمملكة».

في الحقيقة أعطى تحديد يوم الأحد موعداً للمناقشة إلى عدد كبير من الناس الشعور أن شيئاً تعيساً سيصدر عنه، وذلك لاعتقاد كثير من الناس، أن اليمين الذي يؤدي يوم السبت نادراً ما يكون فعالاً.

وهكذا أعطى المستشار الذي كانت قلعة وندسور تحت حكمه، عذراً بعدم القدوم هو: أن كثافة الغابة، وضيق الممرات، والأعداد الكبيرة من الفرسان والرجالة والخيالة الذين اجتمعوا للكونت جون — أخو الملك — من جميع المناطق، والذين هم جاهزون للقتال، وكذلك الخطط التآمرية لهنري دي فير Vere الذي أسهم هو نفسه بحرمانه من ميراثه، وأيضاً المسافة المعتبرة التي تفصل الجسر المذكور عن القلعة، ولهذا جرى تأجيل الاجتماع حتى يوم الاثنين.

وفي منتصف يوم الأحد، صعد رئيساً أساقفة روان ويورك المنبر مع عدد من الأساقفة كانوا قد التقوا في ردنغ حتى يكونوا حضوراً في المؤتمر، وما إن أشعلت الشموع حتى قاموا بتأثيم جميع الذين أشاروا بالرأي، أو ساعدوا، أو أمروا بأن يجبر رئيس أساقفة يورك من الكنيسة ويتعرض للاذلال ويلقى به في السجن، وقرروا حرمانهم، وذكروا بالاسم: أوبري أوف مارني والاسكندريونتل. وفي يوم الاثنين، اقترح الكونت جون، بغية إزالة جميع الشبهات الخيانية، أن يذهب إلى مكان آمن قرب وندسور، وذلك استجابة لما طلبه المستشار، مقترحاً بالمقابل كل نوع من أنواع الضمانات من خلال أسقف لندن، وفي اليوم نفسه، وبما أنه قرر البقاء في ستين Staines نهض رجال حاشية جون في الصباح، واندفعوا يدورون حول المنطقة، متوقعين هجوماً في كل شيء وحركة.

وعندما سمع المستشار بهذا، فرّ من أمام وجه الكونت، الذي اعتقد أنه يتبع أثره بحق عظيم، وتصرف تصرف انسان مرعوب، فابتعد بنفسه ونأى بها — ولا أريد أن أقول هرب — حتى وصل إلى قلعة لندن، ومعه سلاحه وأثقاله وحاشيته وأهل بيته، ووضع خيوله في الطابق الأرضي من القلعة، وفي قاعة الطعام القديمة، وأعدّ نفسه للحصار، الذي كان وشيكاً، حسبما اعتقد.

وبعدما سمع الكونت بالذي فعله المستشار، جاء أيضاً وأقام في لندن، ومعه رتشارد فتزرينر، وروجردى بلين Planes رئيس هية قضاء جميع أراضي الكونت جون، وكان مصاباً بجراحة بالغة من قبل واحد اسمه رالف بوتشامب Beauchamp كان المستشار قد جعله فارساً، وقد توفي يوم ٧ تشرين الأول، وفي اليوم التالي، وحتى يبدد العداوة بينه شخصياً وبين المستشار، اجتمع الكونت جون مع رؤساء الأساقفة، والأساقفة والإيرلات في دير القديس بولص في لندن، وقرعت النواقيس التي استخدمت بالعادة لجمع الناس معاً، وبعدما عقد الجميع نقاشاً طويلاً معاً، أقسم الكونت جون يمين الولاء للملك رتشارد.

وعقد يوم الخميس ١٠ تشرين أول مؤتمر في الجزء الشرقي من قلعة لندن، وكان الحضور:

رتشارد كونت مورتين، والمستشار ورؤسار الأساقفة، والأساقفة والإيرلات والبارونات، وتقرر بالاجماع وجوب إعادة جميع القلاع التي منحها المستشار برغبة منه إلى أقربائه وأسند حكمها إليهم، وعلى الأخص قلعة لندن، ووعد المستشار بأيمان مقدسة أنه سيفعل ذلك، وستبقى القلاع الثلاثة التي تسلمها من يد الملك رتشارد، وهي: دوفر، وكمبردج، وهيرفورد في ويلز في يد المستشار وتحت حكمه، ما ان يتم تسليم الرهائن التي أعطاهما الشحن، الذين عينهم المستشار هناك، ويتم تقديم هنري وأوسبرت أخوي المستشار ومائيو الحاجب كرهائن حتى يتم تسليم

القلاع، وكان المستشار أقسم أنه لن يغادر المملكة حتى تكون القلاع قد أعيدت، وفي يوم السبت ١٢ تشرين أول ذهب المستشار إلى دوفر، يقوده غلبرت أسقف روشستر، وهنري أوف كورنهل Cornhill عمدة كنت.

وفي يوم الخميس التالي وضع المستشار وليم لونغ شامب عليه ثياب امرأة، لكن بما أنه لم يكن قادراً على تغيير طريقة مشيه، أخفق في عدم اظهار ذاته أنه رجل وليس امرأة، ولهذا عرفه البحارة الذين تأملوا في وجهه، واعتقل وحمل بعيداً، وتخلص بصعوبة من وضعه كامرأة، وبقي في السجن، حتى جرى اتخاذ قرار عام من قبل هيئة قضاء المملكة المقيمة في لندن، وأعطى بموجب ذلك حريته بالذهاب إلى حيث أراد، وتلقى على كل حال انذاراً وأوامر بأن ينفذ ما كان أقسم أن يفعله في الاجتماع الذي عقد قرب قلعة لندن، وأقلع المستشار يوم ٢٩ تشرين أول نحو نورماندي، ونزل في ميناء لي تربورت Le Treport.

واعتاد طفل من أطفال حاشية أسقف لندن التمتع باللعب بالطيور، وكان يدرب صقره، لكنه وجد أن تدريب بطة صغيرة (حذف) أسهل، وكان عندما ينقر على آلة موسيقية يدعوها البازيارية باسم الدف، تندفع البطة نحوه وهي تصدر أصواتاً عالية بجناحيها، وما أن تعلم صقره هذا وفهمة حتى طار وغطس وأمسك بواحدة من سمك الكراكي، كانت تسبح تحت سطح ماء النهر، وحملها حوالي الأربعين قدماً فوق الأرض الجافة، وأرسل الأسقف كل من سمكة الكراكي والصقر إلى الكونت جون في ٢٢ تشرين أول، كتذكار لواقعة غير اعتيادية.

وجرى في اليوم نفسه نقاش حول انتخاب رئيس أساقفة لكانتربري، حسبما أمر الملك رتشارد، ولكن القضية أجلت بعد نقاش طويل.

ورجع ملك فرنسا من القدس، واستقبل في باريس استقبالا مهيباً يوم

٢٧ كانون الأول، ولكن هل ستعدّ بعثته بعثة مجيدة، أو انتهت بسرعة بسبب المرض، أو بعثة شائنة مخزية بالنسبة للذين كانوا في المعسكرات؟ الذين يعرفون هم الذين سيقولون.

سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف

اتخذ هنري كونت شامبين، ابن أخت الملك رتشارد زوجة له، ابنة الملك عموري ملك القدس [كانت وريثة الملك عموري]، وهي التي كان المركيز قد تزوجها بطريقة أو أخرى، وهكذا كسب هنري السيطرة على جميع البلاد، مثله مثلما فعل أي ملك من ملوك القدس، وكذلك بقدر ما سيسترد المسيحيون مما فقدوه.

وكانت هناك قافلة اسلامية قادمة من القاهرة إلى القدس، حاملة جميع أنواع المؤن والعتاد والسلاح، وقد اعترض المسيحيون سبيلها ونهبوها، وكان ما أخذه الفرنسيون منها قد احتفظوا به، أما الذي أخذه الداوية والاستبارية مع الآخرين فقد جرى توزيعه وفقاً لحكم ملك انكلترا وقراره.

وفي ١٤ أيار جاء ملك انكلترا إلى الداروم، التي كان الملك عموري قد حصنها لإيذاء المسلمين وإلحاق الضرر بهم، والتي كان صلاح الدين قد استولى عليها مراراً، وحاصرها الملك رتشارد، واستولى عليها بعد أربعة أيام، وأخذ من الأسرى ما يزيد على خمسة آلاف.

وفي ٣١ تموز استولى المسلمون على يافا، وطار في اليوم التالي رتشارد إلى حمل السلاح، ومضى إلى مساعدة المسيحيين، ومعه ثلاثة مراكب وعشرة فرسان فقط، ورسا أمام يافا، فهزم المسلمين واستولى على البلدة، واسترد

العدو شجاعته عندما سمع أنه قدم مع عدد قليل من الرجال، وحمل عليه محاولاً أسره حياً، وقد قاوم برجولة وقتل عدداً كبيراً منهم.

وفي يوم ٩ آب عقدت هدنة سمح بموجبها للمسيحيين بدخول القدس غير مسلحين، لكن رئيس أساقفة صور قرر حرمان كل واحد سيذهب إلى القدس للوفاء بنذر صليبيته بصلاة موجهة من قبل المسلمين، وتقرر أن تدوم الهدنة اعتباراً من عيد الفصح المقبل: ثلاث سنوات، وثلاثة أشهر، وثلاثة أسابيع وثلاث ساعات، ومامن انسان شكك بالحكمة القائلة: «من الصعب قطع جبل جُدل ثلاث مرات»، ولكي لا يدع المسلمون مجالاً للشك في عزمهم على الحفاظ على كلمتهم، بعثوا بسهم، ليكون شارة على السلام، أي لن يكون هناك خوف من تطاير الشباب أثناء النهار.

وفي يوم ٢٩ أيلول صعدت الملكتان ظهر سفينة، وأعني هنا: بيرنغاريا ملكة انكلترا، وجوانا ملكة صقلية، وغادرتا من عكا، وفعل الملك رتشارد الشيء نفسه يوم ٩ تشرين أول، ونزل في حوالي ١١ تشرين ثاني في مكان اسمه كورفو، وهو واقع ضمن أراضي امبراطور القسطنطينية، ثم غادر السفينة الكبيرة التي كان يستقلها، ومضى ومعه شينيين، ونزل في سلافونيا، وبعدما مضى خلال البندقية، وأكويليا، دخل إلى بلاد دوق النمسا.

وقد ألقى القبض عليه في مدينة فينا يوم ٢٠ كانون الأول، ومع أن الدوق لم يضع فعلاً قدمي الملك في الأغلال، غير أن خشونة معاملة حرسه له جعلت اقامته أسوأ مما لو كان في الأغلال، فرجال هذه البلاد موسومين بالهمجية والقسوة، مرعبين في حديثهم، قذرين في عاداتهم، تغطيهم الأوساخ، وعلى هذا كان هو بالحري مقيماً بين حيوانات وليس بين بشر.

سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف

في يوم ٢٨ شباط توفي صلاح الدين.

وفي يوم ٢٣ آذار سلم دوق النمسا ملك انكلترا إلى الامبراطور [هنري السادس] (٢٥) وذلك بعدما اتفقا على مبلغ من المال، وبعدها أرغم الامبراطور الملك رتشارد على دفع فدية عظيمة، باستخدامه للتهديدات، سجنه في قلعة اسمها تريفل Trifels قائمة على حدود ألمانيا واللورين، وهي قائمة على قمة جبل أعلى من الجبال التي من حوله، وبنيت لتكون سجناً فقط للأعداء المشهورين بالخطورة وبسوء السمعة بين أعداء الامبراطورية الرومانية.

ولم يحدث هذا بالصدفة، بل دبته الحكمة الربانية وقضت به أن يكون انتقاماً، حتى يعود رتشارد إلى جادة الصواب ويتوب، ويقطع عن تجاوزاته التي اقترفها ضد أبيه الأرضي هنري الثاني ملك انكلترا، عندما كان محتصر في لامانس، بحصاره لهذه البلدة بمساعدة من ملك فرنسا، وصحيح أن رتشارد لم يضرب والده نفسه بالفعل، إنه مع هذا أرغمه على التراجع بوساطة حملات متتالية ووحشية زائدة.

وعندما سمع جون كونت مورتين بأن أخاه كان في السجن، تدغدغ بآمال عظيمة في أن يكون ملكاً، فربح إلى جانبه عدداً كبيراً من الناس من جميع أرجاء المملكة، وقدم وعوداً كثيرة، وبسرعة متن قلاعه، وعبر البحر، وعقد اتفاقاً مع ملك فرنسا قضى بحرمان ابن أخيه آرثر دوق بريتاني وإبعاده عن الآمال التي يرعاها البريتانيون حوله.

وعندما كان الملك رتشارد في السجن كان قلقاً كثيراً ومهتماً بشأن شغور كرسي كانتربري، فكتب الشروط التالية:

«من رتشارد، ملك الانكليز، بنعمة الرب إلى عزيزه المخلص رتشارد أسقف لندن، وإلى عميد كنيسة كانتربري وإلى جميع الأساقفة المساعدين، تحيات:

نريد أن نبحث معكم، بقدر ما نستطيع، وحسب امكاناتنا، مسألة التعيين لكنيسة كانتربري التي هي الرأس والأم لكم جميعاً، تعيين رجل مناسب، ومقبول منا ومنكم ومن جميع المملكة، رجل سوف يسعى وراء سلام الكنيسة المقدسة وأمنها وسلام مملكتنا وأمنها».

وبعدما قرىء هذا الكتاب بشكل علني، اجتمع كثير من الأساقفة بناء على دعوة أسقف لندن، وعلل بعضهم غيابهم واعتذروا بوساطة رسالة أو من خلال الرسل، واستجاب للدعوة أيضاً عدد من رؤوس البيوتات الدينية، وجرى الانتخاب يوم ٢٩ حزيران.

وبذلت الملكة إليانور، أم الملك مع وولتر أوف كاوتانس، رئيس أساقفة روان، ورئيس هيئة العدالة في انكلترا وبارونات آخرين، غاية الجهد للحفاظ على سلام المملكة، وسعوا لجمع القلوب المتخاصمة فيما بينها بشكل دائم، وقرر رئيس هيئة العدالة، وجوب عودة غيوفري رئيس كانتربري والرهبان الذين جاءوا معه إلى لندن، حيث حصل توماس الشهيد الرائع على تاجه بدمه، لتمجيد اسمه خلال العالم أجمع، وفي يوم ٢٩ أيار، تقدم الرهبان على الأساقفة وانتخبوا هيوبرت وولتر [أسقف سالسبري] وقبل ذلك عميد يورك، ولقد أوحى إليهم روح ما وأوضحت أنه سوف ينتخب من قبل الأساقفة، وترأس الاجتماع رجال من ذوي المراتب المتوسطة وعملوا بمثابة هيئة قضائية في بيت الكهنة في كانتربري، وأعطوا موافقتهم على الانتخاب.

وحسبما كان مرتباً، جرى في يوم الأحد، الذي هو يوم مقدس، انتخاب هيوبرت أسقف سالسبري رئيساً لأساقفة كانتربري، وتم ذلك

الانتخاب من قبل الأساقفة، وأعلنت النتيجة إلى الناس، من قبل أسقف لندن، وجرى الإعلان في وستمنستر، وهو المقر الملكي المشهور، والمكان الممجد دوماً من أجل انتخاب رؤساء الأساقفة، وأعطى وولتر رئيس أساقفة روان ورئيس هيئة العدالة في انكلترا الموافقة الملكية والتأكيد.

وكان هناك لقاء عام لجميع أعيان ألمانيا عقد في وورمز، يوم ٥ تموز، حيث جرى البحث بشأن فدية ملك انكلترا، وكان هناك الثمن الذي دفعه الامبراطور هنري إلى ليوبولد دوق النمسا، فقد أعلن أنه دفع له خمسين ألف مارك فضي، ولكن الامبراطور الذي كان مرابطاً عظيم الشهرة، استطاع أن يضاعف ماله في يوم واحد، فاستخلص مائة ألف مارك من الملك (٢٦)، وبات المبلغ الحقيقي الذي سيدفع فدية للملك هو مائة ألف جنيه (باوند) من نقود كولون، وتقرر دفعه على أقساط في أوقات محددة، وتم تقديم خمسين رهينة مقابل الدفع.

أما بالنسبة لجمع المال، فسنعرض الآن ونوضح صورة الحب والاخلاص التي أظهرها رجال الملك المخلصين، بداية مع الكنيسة: جاءت الكنائس الكبرى مع خزائن مليئة منذ زمن بعيد، وقدمت الأبرشيات كؤوس قرابينها الفضية، وتقرر وجوب أن يدفع رؤساء الأساقفة والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الكنائس، والإيرلات والبارونات، ربع دخلهم السنوي، وأن يدفع الرهبان السسترشيان والبريمونستراتينشيان Premonstratensian جميع نتائجهم من الصوف

وأن يدفع رجال الدين الذين يعيشون على العشور، العشر من دخلهم. ودهش الألمان لرؤيتهم تدفق الناس بشكل كبير ومستمر من الأساقفة، ورعاة الديرة، والإيرلات والبارونات والناس الأقل شأنًا من مختلف المناطق وأبعدها، على طلب رؤية الملك، وكان كل واحد في بلاده

متشوقاً لعودته، وبما أن عدداً كبيراً من الناس أعادوا معهم أنواعاً من التعليمات [التي نسبت إلى الملك] كتب الملك الرسالة التالية:

«من رتشارد ملك انكلترا إلى وولتر رئيس أساقفة روان:

مهما بلغ عدد المرات التي نرسل بها رسائل إليكم في انكلترا مع أوامر صادرة إليكم، عليك أن تعتمد فقط الرسائل التي تتعلق بسمعتنا وتقدمنا، أما الرسائل التي لا تتعلق بسمعتنا أو منفعتنا، فلا يجوز اعتمادها».

وجرى استدعاء هيوغ أسقف تشستر—حسبما قال— من قبل الملك، وأعدّ نفسه إعداداً جيداً مع هدايا عظيمة، وقد تعرض لكمين حتى قبل أن يتعرض لمخاطر ألمانيا، فبينما كان يرتاح في إحدى الليالي قرب كانتربري، ألقي القبض عليه وسرق، وكان ماثيودي كبير، شحنة قلعة دوفر، قد أعطى حمايته إلى اللصوص، ومع أنه حرم بالاسم من قبل رئيس الأساقفة والأساقفة تحت شموع مضاءة، من غير المعروف فيما إذا كان قدم ترضية صحيحة لما اقترفه.

وتزوج فيليب ملك فرنسا أخت ملك الدانمارك، غير أنها تطلقا بشكل غير متوقع، وجرى الحديث عن هذا أكثر مما جرى حول ما حدث في العرس يوم ١٥ آب في آمين Amiens وفضلت الملكة المطلقة أن تعيش في سواسون على العودة إلى بلادها الدانماركية.

وعاد الرسل الذين أرسلهم رئيس الأساقفة إلى البابا لإحضار الطيلسان البابوي، وعاد معهم واحد يدعى «الأسقفى» يحمل الطيلسان نفسه، وعقد اجتماع عام للأساقفة في كانتربري يوم ٥ تشرين الثاني، حضره أيضاً بعض رعاة الديرة، وذلك من أجل استقبال رئيس الأساقفة وتوجيهه.

وعندما بات كل شيء محتاج إليه لهذا الاستقبال جاهزاً، جرى توجيهه

بشكل مهيب ومنح قبلة السلام، وقد جلس على يمينه أسقف لندن وعلى يساره أسقف ونشستر، ثم ذهبوا في موكب لاستقبال «الأسقفي» وهو يحمل الطيلسان، وتوجه رئيس الأساقفة إلى المذبح المرتفع، وهناك قيد بقسم الثالوث القديم، مع اضافة قليل من الكلمات الجديدة، التي نعتقد أنه من غير الضروري ذكرها هنا.

ثم وجه وولتر رئيس أساقفة روان شؤون المملكة لمدة ستين وثلاثة أرباع السنة، وذلك بمثابة رئيس لهيئة القضاء في انكلترا، وهو لم يباش جماعة النبلاء في تلك الأثناء، ونأى يديه عن أخذ الأعطيات، ناظراً إلى الفرقاء بعين واحدة ومعيار واحد، وذهب هذا الرجل بناء على طلب من الملك رتشارد إلى ألمانيا، وسافرت معه إليانور أم الملك، وقد احتفلا بعيد الغطاس على الطريق.

سنة أربع وتسعين ومائة وألف

وكتب «وولتر رئيس أساقفة روان إلى رالف أوف ديسيتو عمدة لندن: إنني أعلم أننا منذ أن أتينا إلى مولانا العزيز والمشهور جداً، ملك الانكليز، لم نكتب إلى أحد في انكلترا، حتى الثالث من شباط حيث سمعنا بمسائل جديدة بأن نخبركم عنها، ومتوجب علينا أن نكتب لكم عنها، لأنه في ذلك اليوم نظر الرب الرحيم إلى شعبه في مينز، بتدبيره اطلاق سراح المولى الملك، ففي ذلك اليوم نفسه في الساعة التاسعة منه، كنا نحن أنفسنا حاضرين نيابة عن المولى الملك، وذهب أسقف مينز وكولون بين السيد الامبراطور والسيد الملك، ودوق النمسا يلتمسون اطلاق سراح الملك، وبعد بذل جهود كبيرة ومصاعب مع كثير من المتاعب، حصل الأسقفان على اطلاق سراحه.

واتصلت الملكة ونحن أنفسنا وأساقفة باث، وإيلاي، وسينت، وعدد كبير آخر من النبلاء بالملك شخصياً، وأخبرناه باختصار بالأخبار السعيدة، وهكذا أعلن السيد الامبراطور له، أنه صحيح قد أبقاه بالاعتقال لديه لمدة طويلة، سيطلق سراحه الآن ويمنحه الحرية، وبناء عليه يمكنه من الآن فصاعداً أن يستأنف سلطاته، فقد حصل على حريته، وحلت المسألة وفقاً لرغبته».

وتزوج في هذه الآونة هنري ابن أخت رتشارد ملك انكلترا، والابن الأول ولادة لهنري دوق سكسوني، الابنة الوحيدة والوريثة لكونراد كونت أوف بالاتينيت Palatinate.

وجرت نقاشات كثيرة بين الامبراطور والملك، ليس من أجل إعداد مال الفدية الذي سيدفع فقط، بل لتخفيض مرتبة الملك [بجعله تابعاً للامبراطور] وقد امتزج بهذه المفاوضات شيء كان إجرامياً تماماً، وكان بكل تأكيد عملاً مناقضاً للشرائع، وضد القوانين، وضد السوابق الحسنة، ومع ذلك صحيح أن الملك وأتباعه حلفوا الأيمان بأنهم سيرعون ذلك، وقدموا رسائل تأكيد واعتراف كانت معترف بها ومقبولة في كل مكان في العالم، لقد كان الفرقاء محللين من أيمانهم لأنها استخرجت منهم بشكل غير قانوني، وكذلك الرسائل ينبغي ألا تملك أية سلطة في المستقبل، ولا أن تحصل على أية قوة في مجرى الأيام.

وجرى تقديم وولتر رئيس أساقفة روان، ووليم لونغ شامب، مستشار الملك، وعدد آخر من الأعيان، كرهائن، حتى يأتي وقت تحريرهم عندما يتم دفع عشرة آلاف مارك، وهو مبلغ طلب من الملك دفعه على الفور، وقد أقسموا على مراعاة هذه الأحكام، وألا يغادروا ألمانيا بدون معرفة الامبراطور.

وقدم الملك الانكليزي إلى كولون بناء على طلب ملح ومستعجل من

رئيس الأساقفة أدولف، وقد استقبل بحفاوة بالغة في قصره، حيث الأبهة عزيمة والاحتفالات رائعة، وقد بقي هناك لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث باشر رئيس الأساقفة الأمور بنفسه، ونشط من أجل حضور الملك قداساً يعقد في كنيسة القديس بطرس، وطرح رئيس الأساقفة جانباً ثيابه الفخمة، واحتل مكان قائد جوقة المرتلين، ووقف وسط الجوقة مع الآخرين من أفراد الجوقة، وبدأ القداس المقدس، وتلا: «أعرف الآن بصدق أن الرب بعث بملاكه وأنقذني من أيدي هيرود».

وسافر الملك رتشارد، وركب الطريق دونما توقف حتى نزل في انكلترا في سندويش يوم الأحد ٢٠ آذار، وفي يوم ٢٣ آذار جرى عقد اجتماع هائل لرجال الدين وللشعب، وجرى استقباله في موكب مرّ خلال المدينة المزينة حتى دخل إلى كنيسة القديس بولص، ومن هناك ركب الطريق إلى نوتنغهام، ووصل إليها بالحال، وبعد ثلاثة أيام تسلم استسلاماً جميع المدافعين عنها الذين طلبوا رحمته.

واحتفل الملك بعيد الفصح في نوتنغهام، وتسلم بعد ثمانية أيام تاج المملكة من هيوبرت وولتر، رئيس أساقفة كانتربري، وجرى ذلك في ونشستر، وكان بين الحضور أيضاً وليم ملك اسكوتلندا.

وفي يوم ١٢ أيار ركب الملك رتشارد سفينة من بورتماوث، ووصل إلى نورماندي إلى بركس [الصحيح ليزكس] وقابل أخاه جون، الذي سجد على قدميه يطلب الرحمة منه، وقد حصل عليها، وزحف نحو فيرنويل Verneuil فسمع أن الملك الفرنسي كان يحاصر القلعة، وأنه لم يكن هناك توقف منذ ثمانية أيام سواء عن رمي النيران بوساطة المنجنيقات، أو بقذف الحجارة الكبيرة، أو باستخدام آلات الحصار، أو بحفر الأنفاق تحت المدافعين، أو بالحاق الجراحات بأجساد المدافعين، ثم حلّ موعد وصول ذلك اليوم العظيم في التقويم، اليوم الذي كرّس للجلالة العلوية، إنه اليوم الأعظم في جميع أنحاء العالم، ذلك هو يوم عيد

الشعانيين، الذي يحتفل فيه المسيحيون في كل مكان من أمكنة الكرة الأرضية.

ثم سمع الفرنسيون كيف أن ملك الانكليز كان يحضر تحت جناح الظلام للقتال، وقد سمعوا أنه سيهاجم في اليوم التالي، فارتعبوا لدى سماع هذا التقرير، وآثر الرجال المرعوبين الفرار على القتال، وآثروا أيضاً العار الأبدي، على الخسارة، فتراجعوا وانسحبوا من أمام القلعة.

وعاد وولتر رئيس أساقفة روان من ألمانيا بعدما تم دفع العشرة آلاف مارك، واستقبل يوم ١٩ أيار في كنيسة القديس بولص في لندن، حيث تولى تقديم عظة وقداش للناس، وبعدها أكمل طقوس القداس جرى الاحتفاء به بعناية في بيت أسقف لندن، وتوجه في يوم ٣٠ أيار بحراً نحو نورماندي.

وكان الملك الفرنسي يتراجع مسرعاً من فيرنويل، ولكي لا يظهر وكأنه لم يفعل شيئاً أقدم على حصار بلدة صغيرة قرب روان تدعى فونتين Fontaine بسبب كثرة الينابيع المتفجرة فيها، وكان في داخلها أربعة فرسان وعشرين رجلاً مسلحاً بمثابة حرس لها، ولقد عزم الملك الفرنسي على شيء ليس أقل من تحويل حاكم عظيم مع جيشه كله إلى مثل هذا المكان الصغير.

وبعدما وزع نوبات الهجمات الشديدة، هاجم الملك نفسه الباب في اليوم الرابع، فتغلب على الحامية الصغيرة، ودمر كل شيء، غير أنه احترم رجال روان أنفسهم، خشية أن تنبعث في نفوسهم الحمية كما فعل أهل فونتين، وهكذا رجع إلى أراضيه محزناً على الأقل نصراً صغيراً.

وفي تلك الآونة كان الجيش الأنجيفي يحاصر قلعة وليم غووي Gouet التي بنيت على مقربة من لي فيرت برنارد التي تدعى أيضاً مونتميرال Montmirail وقد استولى هذا الجيش عليها وهدمها

بالكامل.

وبعدما تراجع الملك الفرنسي من فيرنويل، جاء الملك الانكليزي إلى تور، حيث دفن مارتن المقدس، واستلم ألفي مارك هدية طوعية من برجاسية المدينة الذين جمعوها بدون أي إكراه، ثم تقدم رتشارد إلى بيوليو Beaulieu التي قامت على حدود تورين، وحاصرها وتمكن خلال أيام من الاستيلاء على قلعة لوشي، وكان الملك الفرنسي قد تسلم لوشي من وكلاء ملك الانكليز، وجعلها تحت سلطانه، وكان وقتها الملك الانكليزي بالأغلال، وقد تسلمها بمثابة ضمانه حتى لا يتم حرق الاتفاقية المعقودة بين الملكين، ووقتها شحنها الملك الفرنسي بخمسة عشر فارساً وثمانين رجلاً مسلحاً مع مايكفي من مؤن وعتاد للدفاع عن المكان.

وفي تلك الآونة جاء ابن ملك نافار بمثابة حليف الملك الانكليز، وكان قد حشد جيشاً كبيراً يضم فيما يضم مائة وخمسين من حملة القسي العقارة، وقد نهب بلاد غيوفري أوف رانكون Rancon لورد أوف تيليبورغ Taillebourg وبلاد كونت أنغوليم Angouleme.

وأغار الملك الفرنسي على حدود تورين، ونصب خيامه قرب فاندوم Vandome لكنه عندما شهد قدوم ملك الانكليز، أزال معسكره في الصباح الباكر، وعباد مسرعاً إلى فرتفال Freteval وتبعه رتشارد وسار خلفه واستولى على قطار أثقاله، والكونتات والبارونات والنبلاء والفرسان الذين كانوا يدافعون عنه ويقاتلون، واستولى على جميع معداتهم، وعلى الذهب والفضة المحفوظة في الصناديق وفي أماكن أخرى، وكذلك على الخيام، وعلى القسي العقارة، وعلى عدد لا يحصى من الأشياء الأخرى، التي كانت أثاثها غير محددة، فلقد استولى رتشارد على هذا كله وحمله بعيداً دون المعاناة من أية جراحة لنفسه.

ومضى من عيد أحد العنصرة، عندما طلب ملك الفرنسيين الفرار، حيث نجا من فيرنويل خلال الليل. سبعة وثلاثون يوماً إلى اليوم الذي كان مقيماً فيه قرب فاندوم ، وقد فوجيء بالصباح ورعب من الجراحات القاسية التي لحقت برجاله، لذلك ألقى بنفسه في شاتودون Cha-teaudun واتخذ داخلها موقف الدفاع.

واستروح الملك الانكليزي رائحة النصر، فعبر إلى بواتو، واستولى بعد عدة أيام على تيلبورغ Taillebourg وجميع أراضي غيوفري أوف رانكون مع جميع أراضي كونت أوف أنغوليم، وعلى هذا لم يبق فيما بين مفرق شارل [ممرونسيفو في جبال البرانس المفترض أنه كان مسرح معركة نشيد رولاند] وقلعة فيرنويل، ولا عاص متمرّد ضده.

وكتب «البابا كليستين إلى أسقف فيرونا:

نحن نرغب، وبموجب الارادة الرسولية نأمر، ونقضي بأن نتولى أخذ يمين من دوق النمسا، بالمواثيق التي تراها ضرورية، في أن يطيع دونها خداع أوامرنا التي أرسلت إليه بوساطتك نفسك، أو بالرسائل أو بالرسول، وبعدها تتسلم هذا اليمين، أصدر إليه أمراً بموجب فضائل أحكام اليمين في أن يطلق سراح جميع رهائن ملك الانكليز، وأن يلغي جميع الشروط التي استخرجها من الملك، وأن يعيد إليه كلّ شيء أخذ منه وكذلك ما أخذ من رجاله، ويتوجب عليه إعادة ماأخذه خطأ بمثابة فدية للملك تماماً دون نقص، وعليه ألا يحاول من الآن فصاعداً مثل هذا العمل. وينبغي عليك ايجاد صيغة مناسبة للتعويض عن جميع الجراحات والأذى الذي اقترفه.

وبعدما يكون قد جرى إتمام هذه الأشياء وتنفيذها، عليك أن تمنحه التحليل، وأن تخفف الحرمان المفروض على أراضيه، وعليك أيضاً أن تأمر الدوق المذكور ورجاله، بعدما تسلمت أيمانهم ومنحتهم التحليل

والغفران، أن يقوموا في أقصر وقت يمكنهم، بالذهاب إلى منطقة القدس والبقاء هناك في خدمة المسيح قدر الوقت الذي أمضاه الملك السالف الذكر في الأسر، وإذا لم يلتزموا بهذه الأشياء ويأخذوا بها، أعد إصدار قرار الحرمان نفسه عليه وعلى رجاله، بدون حق الاستئناف.

صدر في روما، في كنيسة القديس بطرس؛ ٦ حزيران ١١٩٤.

وجمع ملك الانكليز بموجب أمر عام جميع النبلاء الخاضعين له، في لامانس، حيث أثنى بصوت مرتفع على اخلاص الانكليز له في محنته.

وعقدت هدنة بين ملكي فرنسا وانكلترا، لكن مرور التجار خلال خطوط القتال منع. وفرض ملك انكلترا في هذه الآونة بعض الاجراءات لتحسين الأوضاع المالية الملكية، وأعلن أنه يتوجب على جميع الفرسان من كافة أنحاء انكلترا القدوم والاجتماع معاً بغية اختبار قوتهم في المبارزات، معتقداً أنه ربما إذا ما أعلن الحرب على المسلمين أو على جيرانه، أو فرضاً حاول أحد الأجانب غزو المملكة، فوقتها سيجدهم أكثر نشاطاً، وأحسن تدريباً، وجاهزية للقتال.

وجرى أخيراً تحديد يوم، وتعيين مكان، فدعا إلى المبارزات المكرسين على تمارين الفرسان وتدريباتهم، وحضر رجال من الانكليز مدربين بشكل جيد على الحركات العسكرية، وبارعين بالسيف وقادرين على الضرب والطعن، ولكن بما أنهم حملوا رماحاً خفيفة جعلهم هذا غير مستعدين لمعركة حقيقة بقدر ما كان الأمر معركة افتراضية ونوع من أنواع الاحتفالات الكمالية، وظهروا بشكل أفضل بامتلاكهم وحملهم للمشاعل، وكان هناك شباب جدد على حرفة الفروسية، راغبين بالمدح أكثر من الثروة، لهذا لم يضغطوا قط على الذين هزموهم بقوة السلاح: بسجنهم أو بارغامهم على دفع فدية غير معقولة، بوساطة أنواع خاصة من التعذيب، لكن وقد أسروهم بموجب حق الحرب، اكتفوا منهم بوعد قائم على الثقة

الجيدة، وهكذا تركوا أسراهم يذهبون، ليعودوا عندما يطلبون.

ووصل أربعة رسل من عند الملك فيليب إلى رتشارد ملك الانكليز، يحملون كلمات سلام، ويطلبون البحث في شؤون المملكتين، وذلك خشية أن يقوم عدد كبير من رعاياهم بهجر كثير من أماكن سكناهم بسبب انهاكهم وافقارهم وحرمانهم من الذهب والفضة، هذا إذا لم يتم تدميرهم بالسيوف المحاربة وبسفك الدماء، وكرروا مراراً القول إن الخلاف بين المملكتين يمكن أن تحسم نتائجه وينال الاستقرار والحل بوساطة المباراة بين خمسة رجال شجعان، وينبغي إعلان حكم المتبارين إلى الشعب في كلا المملكتين الذي يتوقع النتيجة ويتتظر إعلان أي الملوك سيؤثر الملك السرمدي جانبه.

ولاقت الخطة والشروط على الفور رضا ملك الانكليز، واختار الملك الفرنسي خمسة من رجاله، واختار ملك الانكليز خمسة من رجاله أيضاً، وبعدها جرى إعدادهم بكل دقة وتسليحهم والباسهم السوابغ والدروع باتوا متساوين ومتقاربين للمباراة.

وحبست في هذه الأيام نفسها سمكة تدعى بشكل عام «سمكة سمينة» [أي حوت] على النيز Naze وكان ذلك بسبب هبوب الرياح وتيار البحر، والنيز مزرعة تابعة لكهنة القديس بولص في لندن، وعندما أثير خلاف حول هل السمكة ينبغي أن تؤول إلى الملك أو إلى الكهنة جرى فحص امتيازات كنيسة لندن من قبل رئيس هيئة قضاء المملكة، وجاء القرار يقضي بوجوب صيرورة السمكة ليس إلى الملك، بل إلى عميد مقر الكهنة.

وأعاد رتشارد ملك انكلترا إلى عميد وكهنة تور وإلى بقية رجال الدين من رهبان وآخرين جميع ممتلكاتهم التي استولى عليها، وكرماً أعطى هذه الأشياء إلى السيد نائب الحبر الأعظم، وأخذت هذه الأشياء واستردت في

النكون Alencon يوم ١١ تشرين الثاني.

وكتب «ولتر رئيس أساقفة روان إلى رالف أوف ديسيتو عميد لندن،
تحيات:

حقوق السيد نائب الحبر الأعظم ونحن أنفسنا استرداد جميع الممتلكات
الدينية التي صادرها ملك الانكليز من أرض السيد ملك الفرنسيين،
ونحن نعمل على الجانب الفرنسي ونسعى لدى ملك فرنسا أن نسترد
لأنفسنا ولرجال الكنيسة الآخرين الأشياء التي أخذت من أرض الملك
الانكليزي. صدر في سنس».

أخذ الامبراطور هنري الطريق إلى بلرم، وهناك استقبل بموكب مهيب
في الكاتدرائية، وتوج ملكاً على صقلية في ٢٢ تشرين الثاني.

وكان في ٢٦ كانون الأول ليوبولد دوق النمسا في غراز Graz
يستعرض قواه ومهارته بالفروسية مع جنده، وكان مسلحاً وفق عادات
بلاده، وقد سقط من على حصانه واندقت قدمه، وأوصلته جراحه حتى
الموت، واتخذت، بناء على نصيحة الأطباء، اجراءات مستعجلة، وجرى
بتر قدمه، وهكذا حدث أن الرجل الذي ربط قدمي الملك رتشارد عندما
كان على طريقه عائداً من القدس، يعاني من آلام حمل الصليب على
جسده، وينوي العودة إلى الأراضي المقدسة، والذي حرمه من الإذن
بالذهاب إلى حيث أراد، قد حرم من قدمه عقوبة على جريمته التي
اقترفها، وكان ذلك مثل قرار حكم بطرس أوف رافينا، الذي قال بين
أشياء وهو يكتب عن الولد المبذر: «من أجل الرفاه، والنهم والجشع،
ليكن الجوع نصيبه، وبذلك ستضرب العقوبة المكان الذي اقترف فيه
الذنب».

وكتب «هنري بنعمة الرب الامبراطور، والأغسطس الدائم، وملك
صقلية إلى صديقه العزيز ولتر رئيس أساقفة روان، تحيات وحب.

نحن نعلم أنك تطير فرحاً بسعادتنا ونجاحنا، وبناء عليه ندعك تعرف اننا تملكنا بنعمة الرب جميع مملكة صقلية وأبوليا بسلام، وكان هناك بعض الأعيان من المملكة معارضين لنا كثيراً في البداية، ثم تابوا إلى حظيرة نعمتنا، غير أنهم مالبثوا أن تأمروا بعد ذلك مؤامرة خيانية رهيبة ضد شخصنا، وبما أنه مامن شيء مغطى إلا وسيكشف، فبنعمة الرب كشفت المؤامرة وأخفقت وأحببت وبناء عليه أمرنا بهم جميعاً أن يؤخذوا ويثقلوا بالأغلال، وزادت النعمة الربانية والرحمة من سرورنا حيث ولدت رفيقتنا كونستانس، الامبراطورة اللامعة للرومان والأوغسطا، يوم ٢٦ كانون الأول، لنا ولداً، شاركونا في سرورنا، أعطونا أخباراً عن أنفسكم وعن أحوال بلادكم. صدر في سان ماركوف في ٢٠ كانون الثاني.

سنة خمس وتسعين ومائة وألف

بموافقة من جميع الكرادلة، صار هيونرت رئيس أساقفة كاتربري [ورئيس هيئة العدالة] النائب البابوي، وقد تمتع بسلطات كاملة، لم يسمع بنظير لها منذ قرون.

وكتب «وليم أسقف إيلاي إلى رالف عميد لندن:

نبعث إليكم وفقاً الرسالة التي أرسلها شيخ الجبل إلى الدوق ليوبولد صاحب النمسا، حول وفاة مركز [مونتفرات] وقد حوت الكلمات التالية:

رسالة قيل إنها جاءت من قائد الطائفة الاسلامية التي لاتعرف الرحمة، والتي تدعى الحشيشية، وفيها ادعاء أنهم هم الذين يتحملون مسؤولية قتل كونراد أوف مونتفرات وليس رتشارد الأول، وهدفها في تبرئة الملك الانكليزي من الحادث زيف واضح».

«إلى ليوبولد دوق النمسا، يبعث شيخ الجبل بتحياته.

بما أن عدداً كبيراً من الملوك والأمراء فيما وراء البحار يلومون السيد رتشارد، ملك انكلترا، من أجل وفاة المركيز، إنني أقسم بالله الذي يحكم إلى الأبد، وبالشرعة التي نؤمن بها، أنه لا ذنب له في ذلك الموت، والسبب الذي أدى إلى موت المركيز هو هذا:

كان واحد من اخوتنا عائد إلى مناطقنا من ساتاليا Satalia (أضاليا)، لكن الريح دفعته إلى صور، حيث أمر المركيز بأخذه وقتله، وسلب منه كثيراً من المال، وبعثنا إلى المركيز برسلة نخبره أن يعيد مال أخينا إلينا، وأن يتفق معنا حول التعويض عن موته، لكنه لم يرغب بشيء من هذا أبداً، زيادة على ذلك لقد أبدى ازدراءً نحورسلنا، لابل حتى اتهمنا بوفاة اللورد رينالد (أرناط) صاحب صيدا، علماً بأننا نعرف من رفاق لنا أنه هو نفسه قتل رينالد وسلبه، ثم بعثنا إليه برسول آخر اسمه ادريس، وقد أراد اغراقه، لكن رفاقنا ساعدوا الرسول للنجاة من صور، وعندها بادر ادريس مسرعاً إلينا وأخبرنا بالذي حدث، وأردنا من تلك الساعة أن نقتل المركيز وبناء عليه بعثنا باثنين من اخواننا إلى صور، فقتلوه بشكل مكشوف، وأمام شعب المدينة كله تقريباً، لقد كان هذا السبب في قتل المركيز، ويمكننا أن نخبركم بصدق بأن رتشارد ملك انكلترا ليس مذنباً في موت المركيز، وأي انسان يحاول أن يؤذيه بسبب هذه القضية، يقترب بذلك عملاً ظالماً، وبدون مسوغ، واعلم بشكل مؤكد أننا لم نقتل أي انسان في هذا العالم مقابل أجر أو مال أو أي شيء، مالم يكن قد سبب لنا أولاً ضرراً. وكتبت هذه الرسالة في قلعتنا مصيف، في منتصف شهر أيلول أمام اخوتنا، وقد ختمت بختمنا في سنة ١٥٠٤ لاسكندر».

«لقد بعثنا بنسخة من هذه الرسالة إليك، أنت الذي ندرك تماماً مدى حبه، حتى يمكنك أن تثبتها في تاريخك».

سنة ست وتسعين ومائة وألف

حدث في هذه الآونة فيضان عظيم مفاجيء جرف كل شيء كان قائماً قرب السين سواء من الأخشاب أو الحجارة، وكان فيليب ملك فرنسا وموريس أسقف باريس مقيمان آنذاك في باريس، وكانا خائفين بشكل كبير.

ولعل فيليب تفكربيت [المزامير: ١٦/٦٩] قوله: «لا يغمرني سيل المياه ولا يبتلعني العمق ولا تطبق الهاوية عليّ فاهاً» فقرر الالتجاء إلى رابية، فغادر قصره، وأخذ ابنه لويس وجميع أسرته لإمضاء الليل في دير القديسة جينيفف، وردد الأسقف قوله: «المياه قد دخلت إلى نفسي» [المزامير: ٢/٦٩]، ومع ذلك أخذ نفسه وشعبه للإقامة في دير القديس فكتور.

وغالباً ما رأيت في هذه الأيام الحد الذي بلغه انتشار الشرور والخلاف في مدينة لندن، حول توزيع حمل الأعطيات التي توجب تقديمها للخزانة، تبعاً لقدرة كل واحد على الدفع، الأمر الذي يمكن أن يقال حوله أنه نظم بشكل غير عادل، وكان قائد هذا الخلاف رجل يدعى وليم فتزأوسبرت Fitzosbert الذي غالباً مادعا إلى الاجتماعات، وجعل الناس يقسمون أيماناً مضادة لجلالة الملك ومكانته، فقد عذب أخاه مع اثنين كانت مواقفها سليمة، بقسوة حتى الموت، وكان آخر أفاعيله الشريرة إثارة اضطراب في كنيسة القديس بولص، وعندما وجد أنه أثار السلطات إلى حد الغضب، اعتصم في برج إحدى الكنائس العائدة إلى رئيس أساقفة كانتربري [سينت ماري لي بو Bow] وحول المكان المقدس إلى قلعة، ثم عندما رأى عدداً كبيراً من الرجال المسلحين قادمين، وفي سبيل النجاة من الاقتراب من الموت، ألقى النار

في الكنيسة، وبذلك أحرق قسماً من معبد الرب.

وقد نُحِل من الكنيسة إلى قلعة لندن ليقابل حتفه، ذلك أن عقوبة واحد يمكن أن تلقى الرعب في قلوب كثير من الناس، وقد حكم عليه من قبل النبلاء في أن يجرد من ثيابه، وأن تربط يداه خلف ظهره وكذلك تربط قدماء بحبل طويل، وأن يجربوساطة حصان خلال وسط المدينة إلى المشنقة القائمة قرب تيورن Tyburn وعلق هناك بسلسلة معدنية حتى لا يموت سريعاً، وجرى تعليق تسعة من أصحابه في الجريمة معه، وذلك لكي ينال الذين تلوثوا بالجريمة نفسها عذاب العقوبة نفسها، ومن أجل ضمان سلام المملكة والحفاظ عليه صدر قرار عن رئيس الهيئة القضائية بوجوب إيداع أولاد أو أقرباء عدد كبير من ذوي المراتب الوسطى في مختلف السجون حول البلاد وذلك بعد أخذهم بمثابة رهائن، هذا وقدم الفقراء ترضية موائمة وفقاً لحكم جيرانهم.

وكتب «وولتر رئيس أساقفة روان إلى رالف عميد لندن:

أنت تعرف أية أنواع من المحن والمصاعب توجب على كنيسة روان أن تعاني منها منذ زمن طويل إلى الآن، ونأمل في أن نقنع الملك في أن يكون أكثر لطفاً نحونا ونحو كنيستنا، ذلك أنه أثر نصائح الآخرين السيئة، فاستولى على ميراث الكنيسة، وأعني بهذا لاس أندلاس Les Andelays وتجاهل حظنا فبدأ ببناء قلعة، مسبباً أذى للرأس وضرراً يمكن مع الأيام أن ينقل الأضرار إلى الأطراف، وإنا نحن أنفسنا مع آخرين محقين في انذار الملك مرتين ثم ثلاث مرات ليقلع عما بدأ بفعله، وليقوم بترضية موائمة لنا، ويرضينا بالتعويض عن مختلف أنواع الأذى التي ألحقها هو ورجاله بنا، باحراقهم عزبنا وأشياء كثيرة هائلة، وأن يعيد إلينا بيعتنا في بليث Blyth مع دخلها الذي وضعه في يديه منذ سنة أو أكثر، ولقد قدم معاذير مختلفة، كلها لا قيمة لها وغير منطقية، واستمر فيما بدأ به ولم يصغ لتحذيراتنا، وإذا ما أراد أن تبقى لنا

حيواتنا، يمكنه أن يفعل، خشية أن تكون أندلاس هي المفرج الوحيد والمتنفس لأنفسنا ولحاجات الفقراء.

والذي يجعل هذه الأفاعيل غير مغفورة أو مسوغة أنه لم يحتفظ بجزيرتنا تحت احتلاله فحسب على الرغم من تحذيراتنا، بل أخذ في زيادة تحصين أراضينا بالخنادر والدفاعات، وعندما رأينا هذا الغزو يزداد بسرعة سوءاً، ذهبنا متذللين مرة ثانية إلى مولانا الملك، وخشية أن يظن أننا نعمل بخادعة أخذنا معنا بعضاً من أعيان كنيستنا ورجونا الملك وتوسلنا إليه لكي يظهر رحمة نحونا وأن يعيد جزيرتنا التي اغتصبها، وأن يعرض علينا الأضرار التي سببها لنا ولكنيستنا، وأضفنا أنه إذا لم يرضنا خلال ثلاثة أيام لن نكون قادرين أكثر على اغماض أعيننا عن عناده، ولن نترك المسألة تمر دون عقاب، ثم لإضافة التعاسة فوق الشقاء، ولتعريض كنيستنا لمشاكل الحرب الأهلية، قام وليم أسقف ليزوكس مدفوعاً بالتكبر وبخبائث من الجحيم، فأثار اعتراضاً ضد أمه الكنيسة، ولهذا السبب استحق الحرمان، وكان ذلك بناء على نصيحة عدد من أتباعه الأساقفة، لتجاوزاته الكثيرة، ولطغيانه وعصيانه.

وبما أننا لم نعد قادرين بأي طريق، سواء بالرجاء أو بالانذار، أن نعيد الملك إلى عقله، فلقد انقضى الوقت المحدد دونما ظهور بوادر ترضية، نجد أنفسنا مدفوعين بالضرورة ألا ندع أعمال الأذى الكثيرة والكبيرة هذه تمر بدون عقوبة، مالم يسرع الملك إلى اصلاح خطاياهم. ولسوف نذهب إلى روما يوم ٧ تشرين الثاني، حيث نأمل بعون الرب ونعمته أن نجعل أسقف ليزوكس بالعار والفوضى أمام البابا، ذلك أن سلوكه الآثم لم يترك لنا خياراً سوى إيجاد عقوبة موائمة له، إننا نطلب منكم برحمة الرب رحمة أخوية نحونا، وأن تدعو الرب من أجلنا».

سنة سبع وتسعين ومائة وألف

مُحل رئيس أساقفة كانتبري مريضاً جداً، ولم يكن قادراً على الاحتفال بقداس يوم عيد الميلاد، لكن لحسن الحظ تعافى وأمضى مدة الميلاد في كانتبري، ودخل دير الرهبان للتباحث مع الرئيس ومع الرهبان، وقد قيل بأنه ترك جميع حاشيته، حتى حامل صليبه بالخارج، ومشى أمامه واحد من الرهبان واسمه جون أوف دوفر، حاملاً صليبه، والذي حدث في الداخل خلال الأيام الثلاثة التالية غير معروف لكثير من الناس، والذي أفشي هو فقط مايلي:

دخل رئيس الأساقفة بسلام، وظهر رئيس هيئة عدالة الملك بسلام، ولم يعثر خلال الاجتماع على شيء يستحق الإدانة دينياً أو مدنياً.

وأحرق الملك رتشارد مع جيش كبير كان بصحبته قلعة القديس فاليري، ونهب المنطقة المحيطة بها، وجرى شق قباطنة خمسة سفن كانوا يجلبون المؤن إلى الأعداء، والذي عثر عليه في السفن وزعه الملك على رجاله يوم ١٥ نيسان.

وهطل مطر غزير في انكلترا لمدة ثلاثة أيام، وقد أخاف ذلك عدداً كبيراً من الناس.

[وصدر الإعلان التالي]:

«دع كل من يقرأ هذه الرسالة يعرف، أن هذه هي اتفاقية ومعاهدة بين رتشارد ملك انكلترا، وبين بلدوين كونت أوف فلاندرز وهينو قريبه: لن يعقد ملك انكلترا هدنة أو سلاماً مع ملك فرنسا دون رغبة الكونت وموافقته، وكذلك لن يعقد الكونت هدنة أو سلاماً مع ملك فرنسا دون رغبة ملك انكلترا وموافقته، وإذا حدث وعقد كل من الملك والكونت

سلاماً مع ملك فرنسا، وشن بعد ذلك ملك فرنسا الحرب على واحد منهما، عندها سوف يكون ملك انكلترا والكونت مربوطين بتبادل العون والمساعدة، بقدر ما يستطيعانه وكما كانا يفعلان وقت عقد هذه المعاهدة، ولايجري تطبيق هذه المعاهدة أوقات الحرب فقط لكن بشكل دائم بين الطرفين، وورثتها الذين سوف يملكون البلاد من بعدهم في السلم والحرب وإذا لم يحافظ ملك انكلترا على الاتفاقية، سوف يقدم الذين أقسموا — نيابة عنه ولصالحه أنه سوف يفعل — أنفسهم إلى الكونت المذكور، ويضعوها تحت تصرفه خلال شهر واحد من معرفتهم بالخرق، وذلك دون انتظار منهم لدعوة الكونت لهم، ومثل هذا، إذا ما خرق الكونت الاتفاقية، على الذين أقسموا نيابة عنه ولصالحه تسليم أنفسهم إلى ملك انكلترا خلال الشهر دون انتظار الدعوة. وأقسم عن الملك ولصالحه جون أوف مورتين أخو الملك، وأقسم كونت فلاندرز عن نفسه ولصالحها بحفظ المعاهدة. وكان هناك شهود كثر على كلا الجانبين، ستكون هناك حاجة لوقت طويل لتعدادهم. أبرمت في لاس أندلاس.

وأمر هيوبرت رئيس أساقفة كانتبري من قبل الملك بعبور البحر، وقد غادر لامبث، ثم عاد إلى هناك في ٨ تشرين الأول، أي بعد عشرين أسبوعاً وستة أيام.

وحينما كان في نورماندي أنجز عدداً كبيراً من الأعمال النافعة، فقد سمع بأن أسقف بوفياس Beauvias الذي شغل وظيفة مزدوجة، هي وظيفة الأسقف والكونت، قد وجد وهو يحمل سلاح فارس، تبعاً لما اعتاد أن يتفاخر به أجداده، وقد ألقى القبض عليه، وحفظ بالأغلال من قبل رتشارد الأول، وتمكن رئيس الأساقفة من اقناع الملك في إبقاء الأسقف في حجز أكثر سهولة، وصالح كنيسة روان، التي كانت الخدمات الدينية فيها معلقة، وأضاف بعض الفقرات إلى معاهدة السلام بين ملك انكلترا وبلدوين كونت فلاندرز وخلفائهما، وبذل جهوداً

كبيرة، ونجح في العمل على إعادة السلام بين رتشارد ورئيس أساقفة روان، بإيجاد بديل دائم، تعويضاً لكنيسة روان عن لاس أندلاس.

كانت ماتزال حاجة رتشارد للمال ملحة، لهذا دعا هيوبرت البارونات الانكليز إلى اجتماع ليطلب منهم المزيد من الاسهام المعتبر، وكان هيوج أسقف لنكولن بين الذين قاوموا الملك، وذلك حسبما يروي لنا صاحب سيرة حياته:

سنة ثمان وتسعين ومائة وألف

قبل قرابة سنة وأربعة أشهر من وفاته، أصبح رتشارد ملك انكلترا حنقاً عظيم الغضب من هيوج أسقف لنكولن، وكان الملك فيما وراء البحر، منشغلاً في صراع مريم مع فيليب ملك الفرنسيين، وتمت الدعوة إلى اجتماع عام لجميع بارونات انكلترا في اكسفورد، وذلك بناء على طلب من هيوبرت رئيس أساقفة كانتبري، ومدح رئيس الأساقفة منافع الملك، وشرح أوضاعه الصعبة، وبين أنه اعتماداً على موارد قليلة وقوي صغيرة كان يصارع ضد ملك قوي (٢٧) جداً، ملك كان يثير كل جوارحه ليحرمه من ملكه وليدمره، وسألهم أخيراً أن يقرروا ككتلة واحدة الوسائل التي يمكنهم بها على أحسن وجه مساعدة مولاهم في وضعه الصعب جداً والخرج، وطرح وقتها اقتراح من قبل الذين هم مثله، ويعتقدون بوجوب اطاعة كل رغبة للملك بدون تردد، أنه يتوجب على بارونات انكلترا بما فيهم الأساقفة امداد الملك بثلاثمائة فارس حتى يقاتلوا معه طوال السنة فيما وراء البحر ضد أعدائه، وذلك على حسابهم.

وعندما طلب من أسقف لنكولن بشكل علني اعطاء الموافقة على هذا الاقتراح، بقي صامتاً يفكر حتى بادراً أولاً رئيس أساقفة كانتبري ثم

رتشارد أسقف لندن، الذي شغل منصب العميد بين الأساقفة، فأعلننا عن استعدادهما لتكريس نفسيهما ورجالهما وممتلكاتهما لحاجة الملك، وهنا قدم اجابته حول السؤال الذي طرح عليه فقال:

«إنني أعرف تمام المعرفة أن كنيسة لنكولن مكرّسة لخدمة الملك في الحرب، لكن في هذه البلاد فقط، وإنها حقيقة ملزمة أن مامن خدمة متوجبة وراء حدود انكلترا، ولهذا إنني أؤثر العودة إلى موطني الأصلي واستئناف طريقة حياتي العادية، على أن أبقى هنا أسقفًا، مسبباً إلقاء حمل على الكنيسة التي تحت سلطتي، بلاسابقة، ومن ثم التخلي عن حقوقها القديمة».

وتلقى رئيس الأساقفة هذه الاجابة بامتعاض، وسأل بشفيتين ترتجفان من الغضب، وبصوت خافت، هربت أسقف سالسبري عن رأيه حول تأمين العون إلى الملك، فرد على هذا السؤال باختصار وقال مايلي: «يبدو بالنسبة لي، أنه بدون الحاق ضرر عظيم بكنيستي، أنا لايمكنني أن أقول أو أفعل شيئاً آخر غير الذي اقترحه أسقف لنكولن الآن أن يفعل»، وفقد الآن رئيس الأساقفة السيطرة على نفسه تماماً، وانفجر في وجه أسقف لنكولن، ثم فض الاجتماع، وقام باخبار الملك بأن أسقف لنكولن هو المسؤول عن رفض اقتراحه، وعندما استقبل الملك اثنين أو ثلاثة رسل من عند رئيس الأساقفة، أمر وهو في حالة هياج من شدة الغضب بمصادرة جميع ممتلكات الأسقف، وأرسلت التعليمات نفسها إلى أسقف سالسبري الذي أيّد أسقف لنكولن ثم ماالذي أعقب هذا؟ عانى أسقف سالسبري من المصادرة مباشرة، وتمكن من شراء رضى الملك واسترداد ممتلكاته بدفع مبلغ كبير من المال، وتحقق هذا من خلال ذهابه إلى الملك وتحمله لكثير من الالهانات، وللمزيد من الاساءات، وبدفع ثمن باهظ وبعد مصاعب جمة، ولم يتجرأ، على أية حال، أحد على الاستيلاء على أراضي وممتلكات أسقف لنكولن، خشية اثاره غضبه،

وخوفاً من حرمانه الذي ساوى الحكم بالموت، ولهذا لم يتخذ اجراء ضده من عيد القديس نيقولا إلى بداية ايلول، لأن عامل المصادرة الملكي لم يتجراً على مصادرة ممتلكات الأسقف على الرغم من أوامر الملك المتوالية والقاسية.

وأخيراً، وتحت إلحاح طلبات الموظفين الماليين، الذين تعرضوا لضغط شديد من الأوامر الملكية القاضية بمصادرة ممتلكاته، ذهب أسقف لنكولن عبر البحر إلى الملك، واتصل بالملك نفسه، بدون الاستعانة بخدمات أي وسيط، ووجده في البيعة في قلعته الجديدة في لاس أندلاس، يستمع إلى قداس رفيع بمناسبة عيد الطبيب الكبير القديس أوغسطين، يوم ٢٨ آب، وحياء مباشرة، وكان الملك جالساً على عرش ملكي عند المدخل، والأسقفان: فيليب أوف درم ويوستاس أوف إيلاي يقفان عند قدميه، وعندما حياه أسقف لنكولن، لم يرد الملك عليه، بل قطب في وجهه، وبعد وقت قليل أشاح بوجهه عنه، وقال الأسقف له: «مولاي الملك، قبلني»، لكن رتشارد أدار رأسه أكثر ونظر نحو الاتجاه الآخر، وهنا أمسك الأسقف بشدة بإزار الملك الذي لفه حول صدره، وهزه بعنف قائلاً ثانية: «أنت مدان لي بقبلة، لأنني جئت من مسافة بعيدة لرؤيتك» فأجابه الملك: «إنك لا تستحق ولاقبلة مني» فهزه بعنف أكبر من قبل، وهذه المرة بوساطة رداؤه الذي أمسكه بقوة، وقال بجرأة: «إنني أمتلك كل الحق بواحدة» ثم أضاف «قبلني»، واستسلم الآخر أمام شجاعته واصراره، وبعد قليل قبله مع ابتسامة.

وتبادل أسقف لنكولن مع الملك عبارات الاحتجاج بعدة كلمات قاسية، لغضبه الأخير الذي هو غير مسوغ، وقدم تعليقات كثيرة أظهر فيها أنه لم يخفق قط في أداء واجبه نحو الملك، ولم يستطع الملك معارضته، ولهذا وضع جميع اللوم على رئيس أساقفة كانتربري، الذي غالباً ما أساء الشرح له في رسائله، واستفاد الأسقف من هذا التوضيح واستغله

بسهولة لإقناع الملك أن كل ما قيل غير صحيح تماماً، وقال: «إنه باستثناء مجد الرب، ونجاة نفسي ونفسك، لم أعارض قط حتى الآن أي شيء هو لصالحك».

وهكذا انطفأ غضب الملك وسخطه، وقدم أعطيات ملكية إلى الأسقف، وأرسله للإقامة بمثابة ضيفه في شاتو- غيلارد Chateau-Gaillard التي بناها حديثاً على إحدى الجزر [لاس أندلاس] التي لم تكن بعيدة كثيراً، وطلب الملك من الأسقف أن يعود في اليوم التالي ليراه، حتى يتمكن بعد مقابلة أخرى من العودة إلى وطنه وهو واثق من صداقته، وسمع هيوغ أسقف لنكولن هذا شاكرًا، ووعد بالعودة في اليوم المقبل.

وشعر هيوغ، وهو الأب الروحي للملك، بمسؤوليته عن سعادة نفس رتشارد، وبناء عليه، أخذ بيده، وجعله يقوم من على كرسيه، وسحبته جانباً إلى مكان قرب المذبح، وسأل هيوغ رتشارد الجلوس، ثم جلس هو نفسه، وشرع بعد ذلك يتكلم معه على انفراد، وقال له: «إنك فرد من أبرشيتنا يامولاي الملك، وبسبب وضعنا الكهنوتي سوف نجيب في يوم الحساب الرهيب، عن نفسك، التي أنقذها رب العالمين بدمه الخاص، ولهذا أسألك أن تخبرني عن أحوال ضميرك، فبذلك يمكنني أن أقدم لك مساعدة فعّالة ونصيحة حسبما ستوجهني روح القدس، فقد مرّ ما لا يقل عن سنة منذ أن تكلمت معك حول ذلك في مناسبة أخرى.

وفي الحقيقة، إنه فيما يتعلق بك، وهنا أتكلم بأسف، هناك روايات أنك غير مخلص لفراش الزوجية، وأنتك لاتبقي امتيازات الكنيسة دون انتهاك، لاسيما فيما يتعلق بتعيين الأساقفة أو انتخابهم، لابل لقد قيل إنك اعتدت على رفع أناس إلى حكم النفوس صدوراً عن عواطف الصداقة، أو أنهم دفعوا لذلك، وهذا ذنب شائن جداً، وإذا صح هذا فالرب لن يمنحك السلام».

وأصغى الملك باهتمام إلى عظته ونصيحته، وأنكر في بعض الحالات أنه كان مجرمًا، وسأل مساعدته بصلواته في مسائل أخرى.

وبعدما تلقى الملك مباركته تركه يذهب، وانطلق هيوغ شاكرًا نحو مكان الإقامة الذي اختاره له الملك وأعدّه.

وتباحث الملك في الوقت نفسه مع أعوانه حول الأسقف، وعلق على قداسته بشيء كبير من الإعجاب وقال: «في الحقيقة، لو كان بقية الأساقفة مثله، مامن ملك أو حاكم سيتجرأ على رفع رأسه ضدهم».

ونتابع مع رواية ديسيتو عن حكم رتشارد في سنة ١١٩٨، التي شهدت حدثًا حاسمًا في أهميته بالنسبة للسياسة الأوروبية، وتمثل ذلك بانتخاب البابا انوسنت الثالث.

وبعدما تخلص البابا كلستين من أعباء هذه الحياة، جرى انتخاب الكاردينال الشماس لوثاريو Lothario بابا يوم ٩ كانون الثاني، وقد اتخذ لنفسه اسم انوسنت الثالث، وفي يوم ٢١ شباط رسم أسقفًا وتوج على عرش القديس بطرس.

وهطل في يوم ٨ أيار مطر دموي على الرجال الذين كانوا يتولون بناء قلعة في لاس أندلاس في منطقة روان.

واستسلمت آخن التي كان يحاصرها أوتوا بن أخت رتشارد ملك الانكليز إليه، وتزوج في اليوم التالي من الابنة الوحيدة والوريثة لدوق برابانت، وكان عمرها سبع سنوات، وفي ١٢ تموز جرى تتويجه من قبل أدولف رئيس أساقفة كولون، واعتلى عرش القياصرة.

تجمعت على تخوم ويلز، قرب ما يعرف باسم قلعة ماتيلدا، قوات الدفاع الرئيسية بنوايا عدوانية وكانت هذه القوات مسلحة من أجل القتال، وكانت المجموعة الأولى من الويلزيين مؤلفة من الجنود الرجالة،

والذين كانوا في المجموعة الثانية عبارة عن فرسان ورجالة، أما المجموعة الثالثة فتكونت من الفرسان فقط، أما جيش الملك فقد تألفت المجموعة الأولى فيه من الجنود الرجالة، ووقف الفرسان في المجموعة الثانية، بينما تجمعت قوة الجيش كله في المجموعة الثالثة، ومع أول اشتباك أدار الويلزيون ظهورهم، وأخذت الأسلاب منهم، ووقع عدد كبير منهم بالأسر، وقتل عدد أكبر، فقد وصل عدد المقتولين إلى ثلاثة آلاف مقاتل، وهكذا تحققت النبوءة القائلة: «سوف تسبب الجراء العاوية مذبحه عظيمة بين صفوف كل من يعترضها».

وفي يوم ١٠ أيلول توفي رتشارد أسقف لندن صاحب الذكرى الحبيبة، وذلك بعدما شغل كرسيه لمدة ثماني سنوات، وثمانية أشهر، وعشرة أيام. ووصل بلدوين كونت فلاندرز إلى أمام بلدة سينت أومر ومعه جيشه يوم ٦ أيلول، وألقى عليها الحصار لمدة ثلاثة أسابيع.

وفيما الكونت ملقياً للحصار، وصل رسول من عند ملك فرنسا، يحمل رسالة تقول: إنه إذا ما تمكن شحنة البلدة ومعه سكانها من الصمود والدفاع عن بلدتهم ضد الكونت حتى ٣٠ أيلول، إنه سوف يأتي إلى مساعدتهم مع جيش كبير في ذلك اليوم، وإذا لم يقدم، بإمكان الشحنة وأهل البلدة أن يفعلوا أحسن ما يستطيعون، وبذلك استسلمت البلدة إلى الكونت.

ودخل رتشارد ملك الانكليز مناطق الملك الفرنسي مع جيش كبير يوم ٢٧ أيلول، واستولى على قلاع: كورسل Courcelles وبوريز Bur-riz وسيرفونتين Sirefontaine وجاء في اليوم التالي ملك فرنسا من مانتس Mantes مع أربعمئة فارس وسيرجندية مع عتادهم ومؤنهم لمساعدة قلعة كورسل، التي لم يعتقد أنها سقطت، ولهذا ما ان رآه ملك الانكليز قادماً حتى أقنعه بإدارة ظهره والفرار، وزجّه في أوضاع

مخرجة عند بوابة غيسور، حيث تحطم الجسر تحته، مع غرق عشرين من الفرسان، وأسقط ملك انكلترا بالوقت نفسه برمح ماثيو أوف مونت مورنسي Montmorency وألان أوف روشي Rusci وفولك غلرفيل Gi- lervalle وأخذهم أسرى مع مائة فارس وعدد كبير جداً من السيرجندية، وتم الاستيلاء على مائتي حصان حربي، بينهم مائة وأربعين كانوا مدرعين.

سنة تسع وتسعين ومائة وألف

عدّ البابا إنوسنت الثالث البابا الرابع والثمانين بعد المائة في ثبت البابوات شروعاً من بطرس الرسول، الذي قال له يسوع المسيح: «أنت بطرس — الصفا — وعلى هذه الصخرة سوف أبني كنيسة».

تسلم وليم المولود في نورماندي، والكاهن في كنيسة لندن، هبة السيامة في وستمنستر في بيعة القديسة كاترين، وجاء ذلك بناء على طلب من رالف ديسيتو عمدة لندن، وكان الذي قدم إليه الهبة هو هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، بحضور ثلاثة عشر أسقفاً، في يوم ٢٣ أيار.

في ٢٦ نيسان جرح ملك انكلترا بسهم أطلقه بترباسليوس Ba-sillius قرب قلعة شالو Chalus في الليموزين في دوقية أكويتين، وتوفي بعد ذلك في القلعة يوم الثلاثاء، وجاءت وفاته جديرة وموامة لرجل أوقف نفسه على أعمال الحرب، وقد حكم تسع سنين وستة أشهر، وتسعة عشر يوماً.

وقد دفن في فونترفرولت Fontevrault عند قدمي أبيه، هنري

الثاني.

قدم آدم آينشام وصفاً دقيقاً لرحلة هيوغ لنكولن السريعة والمرعبة
لحضور جنازة رتشارد الأول في فونتفرولت.

جاءت راعية دير فونتفرولت المبجلة إلى أسقف لنكولن وأخبرته على
انفراد بأن الملك قد أصيب بنشابة أطلقت عليه من قوس عقار، وأمضى
عدة أيام في آلام مبرحة، وأن حالته خطيرة، ومن غير المعروف هل سيظل
حيّاً أم سيموت، وبقدر ما أذكر، أصيب الملك بجرحه القاتل في اليوم
نفسه الذي تعرض فيه الأسقف للمضايقات بوساطة الأذى الذي صدر
عن مستشاريه الأشرار، ولدهشتنا أنه خلال الوقت الذي مضى فيما بين
وصول الرسول وجراحة الملك مامن واحد تحادث معه حول كيفية
معالجة هذه القضية، فقد جلس بهدوء ينتظر «الخلاص من الرب».

وفي الوقت نفسه سأل عميد أنغرمع الكهنة الأسقف أن يرأس
القداس يوم أحد السعف، بسبب أن أسقفهم لم يعد من المجمع
الكهنوتي في روما، حيث جرت سياحته حديثاً، وقد وافق، وعندما كان
يوم السبت في طريقه إلى المدينة، رآه أحد الكهنة واسمه غلبرت دي
لاسي Gilbert de Lacy وأخبره أن الملك قد مات ولاشك
حول ذلك، وأخبره أنه سيدفن في اليوم التالي عند قدمي أبيه في
فونتفرولت.

وعند سماع الأسقف هذه الأخبار تنهد وأجهش بالبكاء بصوت حزين
مرتفع، وأخبر على الفور مرافقيه أنه سيذهب إلى المكان المتقدم الذكر
لحضور الجنازة، وحاول الجميع أن يمنعه من فعل ذلك، زد على هذا أنه
عندما قدم إلى المدينة، سمعت اشاعات من جميع الجهات أن المسافرين
قد هوجموا في كل مكان وسلبوا، وسمع أيضاً أن بعضاً من رجاله، الذين
كانوا جالين له مالا من انكلترا قد وقعوا في أيدي قطاع الطريق، وأن

هؤلاء أخذوا منهم أربعين ماركاً فضياً.

وحثه رفاقه وخدمه ألا يعرض نفسه وصحبه إلى هذه المخاطر، وأن يبقى في المدينة حتى ينجح الخليفة الشرعي لرتشارد في اخماد عنف هؤلاء الرجال الأشرار، وأصر بعضهم على القول بأن شرورهم كانت كبيرة إلى حد أنه لم يبق لديهم احترام لأسقف أكثر من انسان عادي، وقالوا:

«ما الذي ستفعلونه، وإلى أي طريق ستتحولون، إذا — لاسمح الرب — كنتم في بقعة منعزلة وتعرضتم للسلب من خيولكم ومن ثيابكم»؟.

وكان وهو الرجل المستقيم، شجاعاً وثابتاً مثل الأسد، وأصبح الآن في الحقيقة أقل خوفاً في وجه الخطر، فرد على هذا كما يلي:

«من الواضح كثيراً أن هناك أشياء لا تحصى تخيف المسافرين وتثير أعصابه في هذه الرحلة، وعلى كل حال إن الذي يبدو لي ما ينبغي أن يخشى منه هو أن أقوم أنا بالتصرف كرجل جبان، فأتمنع عن شهود مولاي السالف وملكى في هذه المناسبة، وأن أخفق في تقديم الاحترام للميت مع الولاء، مثلما قدمتُ له دوماً وأنا حي، وافترض أنه آذاني، لأنه لم يكن متنبهاً تماماً ومتيقظاً لمستشاريه الأشرار، ولإطراءاتهم؟ ولكي نكون متأكدين، لقد فعل ذلك، لكن عندما كنت معه عاملني دوماً باحترام فائق، ولبى لي طلباتي كلما اتصلت به شخصياً حول أية مسألة تتعلق بي شخصياً، وإذا كان قد عاملني بشكل سيء بأية طريقة من الطرق عندما كنت غائباً، فهذا ينبغي عزوه إلى شرور خصومي وليس لنوايا شريرة صادرة عنه، ولهذا سأبذل جهد مستطاعي لأرد له أعماله الحسنة وفضائله نحوي، هذا ولن يكون الخطأ خطأي إذا لم أقدم خدماتي أثناء الجنائز، وإذا ما واجهت لصوصاً على طريقي، وإذا ما أخذوا خيولي وثيابي، ستوصلني قدماي إلى هناك بشكل أسرع، وذلك إذا ما تحررت

من أثقال ثيابي، وإذا ماربطوا قدمي، وسلبوني من أية قدرة على الحركة، وقتها فقط يكون غيابي الجسدي مسوغاً، لأن مرد ذلك لبس لخطأي بل للمعوقات التي فرضها عليّ أناس آخرون».

وبعدما قال هذا ترك معظم رفاقه، وجلّ أثقاله في المدينة، وانطلق، آخذاً معه واحداً من أقل كهنته أهمية، وراهباً وعدداً ضئيلاً من خدمه، ولقد سمع بأن الملكة بيرنغاريا كانت مقيمة في قلعة بوفورت Beau-fort وقد تخلّى عن الطريق العام وسافر خلال منطقة غابية كثيفة إلى تلك البلدة، وذلك بهدف مواساتها لموت زوجها، ونفذت كلماته إلى نفس الأرملة الحزينة، ذات القلب المحطم، وسكّن حزنها بطريقة رائعة، وتحدث إليها بشكل جميل جداً عن الحاجة إلى الجلد في مواجهة النوازل وإلى الحكمة في أوقات السعادة، وبعدما أقام قداساً، وأعطى الملكة والذين معها تبريكاته المهيبة بشكل عاطفي فيه حب وولاء، غادر على الفور، ووصل في ذلك اليوم إلى بلدة تدعى سومور Saumur حيث جاء سكان البلدة بشكل انفعالي لمقابلته، وتجاوب مع الرجاءات الحارة التي قدمها له غلبت دي لاسي الذي ذكرته من قبل، والذي كان يشرف على المدرسة هناك، وأقام معه، حيث عومل بكرم فائض، ووصل في فجر اليوم التالي، الذي كان أحد السعف إلى دير فونتفرولت، والتقى عند باب الكنيسة مع حملة تابوت الملك، وبعدما دفن بشكل فخّم جداً، مع الأبهة الملكية، ذهب الأسقف أخيراً إلى المقر الذي عين له، ولمدة ثلاثة أيام كاملة اعتاد أن يذهب إلى الدير، حيث كان يردد القداسات والمزامير ويصلي للعفو عنه، وللمباركة بنور سرمدي يصاحب نفسيّ الملكين اللذين دفنا هناك، ونفوس جميع المؤمنين الذين ماتوا في المسيح.

القسم الخامس

جون

١٢١٦-١١٩٩

شكل حكم الملك جون نقطة علامة، وحداً فاصلاً في التاريخ الانكليزي، فقد تمّ فقدان جميع الممتلكات البلانتغنية الواسعة في فرنسا باستثناء غسكوني، لقد فقدوا لصالح فيليب الثاني ملك فرنسا، الذي قطع أواصر بيت أنجو مع موطنه الأصلي، يضاف إلى هذا نجم عن النفقات المدمرة والمتصاعدة للحرب الفرنسية، وسوء تصرف جون مراراً مع رعيته، تصاعداً في مقاومة البارونات، التي أرغمت جون في سنة ١٢١٥ على إعطاء تنازلات —مؤقتة— كثيرة صدرت في مرسوم أو ميثاق اصلاحات [ماغنا كارتا]، وتوفي جون بشكل مفاجيء سنة ١٢١٦، تاركاً ولده الرضيع هنري الثالث وريثاً له. وبدأ رالف أوف ديسيتو حكاية حكم جون في كتابه «صورة التاريخ» الذي توقف مع أحداث سنة ١٢٠١، وتناول الرواية من بعده لمدة أربع سنوات رالف راعي دير كوغشال **Coggeshall** وهو كاتب رهباني مولع بالأحداث الاعجازية، وبعده تولى جيرفاس **Gervase** وهو راهب من كانتربري، وصف الأحداث من ١٢٠٥ إلى ١٢١٠ في كتابه «أعمال الملوك»، ولقد كان جيرفاس ولداً مخلصاً لدير كاتدرائيته، وتظهر كتابته فن التأريخ الدير في أحسن أحواله، وأخيراً هناك بالنسبة للسنوات

الست المتبقية من حكم جون المؤرخ المجهول من بارنول *Barnwell* الذي قدم لنا رواية متوازنة إلى حد ما ومصقولة، ومع ذلك هي رواية حية حول هذه السنوات الحاسمة من تاريخ انكلترا.

جرى تتويج جون صاحب إيرلندا، والوريث الشرعي لأخيه رتشارد الأول، دوقاً لنورماندي في روان، وتولى التتويج وولتر رئيس أساقفة روان يوم ٢٥ نيسان ١١٩٩، وعندما وصل إلى انكلترا عُمد بشكل مهيب ملكاً في وستمنستر من قبل هيوبرت رئيس أساقفة كانتبري، في يوم عيد الصعود، ٢٧ أيار.

وزار جون ملك انكلترا، بعد تتويجه مباشرة، ضريح القديس توماس (في كانتبري)، وزار بعد ذلك ضريح القديس ادموند في بري *Berry* وأمضى أحد الشعانين في نورثأمبتون، وقام بعد ذلك في ١٩ حزيران بعبور القنال مع حشد من الفرسان، والجنود الرجالة والسفن، وتم العبور من شورهام.

وجرى طلاق الملك من ابنة إيرل غلوستر في نورماندي، وتولى ذلك أساقفة ليزوكس وبيوكس *Bayeux* وأفرانش *Avranches* مع أساقفة آخرين كانوا حضوراً، وكان الملك جون قد تزوج منها بإذن البابا، وتسلم مقاطعات غلوستر، وسمرست، وديفون، وكورنول، وتشريفات ومنح أخرى في أرجاء انكلترا.

ومهما يكن الحال، لقد استولى عليه الأمل بزواج يرقى به أكثر، فأصغى إلى النصائح السيئة ورفض زوجته، فكسب بذلك الغضب العظيم للبابا، أعني بذلك البابا انوسنت الثالث، وذلك مع غضب جميع أعضاء مجلس الكرادلة في روما، فلقد غضبوا لأنه تصرف بسرعة ضد الشرائع والقوانين، وتحلل مما ربطوه به بوساطة سلطاتهم.

وقدم آرثر ابن غيوفري صاحب بريتاني، وابن أخي الملك جون، إلى عمه الملك، وأطاعه في جميع رغباته، ثم تركه جون يذهب دون اتخاذ أي إجراء احتياطي، ولهذا ذهب آرثر عندها إلى ملك فرنسا، الذي تطلع شرهاً إلى ثروته، فضمه إليه ليتربى مع ابنه في باريس.

كان جون وآرثر صاحب بريتاني في سنة ١١٩٩ متنافسين بشأن إدعاء ملكية أراضي أسرة بلانتغنست، وامتلك آرثر مساندة قوية في أنجو، لكن لوردات بواتو وقفوا إلى جانب إليانور بقبول جون، وبذلك قلبوا الموازين ضد آرثر، وعندما حصل آرثر على حماية فيليب الثاني، ملك فرنسا، بقي هكذا ممثلاً لتهديد رئيسي لسيطرة جون على أراضيه.

سنة مائتين وألف

وحدث خسوف للقمر يوم ٣ كانون الثاني، في منتصف الليل، ودام ثلاث ساعات، وقد حول على الفور لون الدم، وقذف بأشعة تشبه النار.

وأبرم في هذه السنة سلام بين فيليب الثاني، ملك فرنسا، وبين جون، ملك انكلترا. وتزوج لويس ابن ملك فرنسا من ابنة ملك اسبانيا، التي هي ابنة أخت ملك انكلترا، وبسبب هذا الزواج أعطاه جون كل أراضي بري Berry وأوفرين Auvergne وقلاعاً وكثيراً من التشريفات في نورماندي وغسكوني وأماكن أخرى كثيرة.

انتهى الآن تاريخ رالف ديستو، ونكمل الرواية بالحكاية الملونة لرالف راعي دير كوغشال Coggeshal ومثله مثل ديستو حدثنا عن السلام الذي عقد فيما بين جون وبين فيليب الثاني ملك فرنسا في سنة ١٢٠٠، وقدم لنا المزيد من التفاصيل، فقد تنازل كما قال: جون عن

أراضي وقلاع، ومنح فيليب ثلاثين ألف مارك (٢٠,٠٠٠ جنيه) وقدم له أيضاً الولاء عن الأراضي الفرنسية، ومن أجل أن يجمع هذا المبلغ فرض ضرائب ثقيلة على انكلترا، بما يعادل ثلاثة شلنات على كل مساحة من الأرض يفلحها محراث واحد. (فدان) .

وقدم الملك جون إلى مقاطعة يورك، وطلب المال من بعض رعاة الدير السسترشين، الذين قابلهم هناك، ومن رعاة ديرة آخريين تابعين لرهبايات أخرى، فقد استهدف إلحاق الظلم بهذه الرهبانيات بفرض الضرائب، لأن الدير كانت حتى حينه معفية من ضرائب من هذا القبيل، ورد رعاة الدير ببساطة بالرفض، وفعلوا ذلك قبل الاتصال بالدير التابعة لهم وبرعاتها، ذلك أنهم كانوا يخشون أنهم إذا ما وافقوا على المكوس الملكية، قد يفرض بعد ذلك خدمات أخرى على التنظيم الرهباني، وتعللوا حين رفضوا بأنهم لم يدفعوا أي مبلغ من المال دون موافقة عامة من جميع الرهبان.

وانزعج الملك كثيراً من ردهم، وأمر وهو مغضب وحائق العمال (الموجودين منهم بكلمات الفم والغائبين بالرسائل) بوجوب إلحاق الأذى برجال هذه الرهينة بأية وسيلة يستطيعون استخدامها، وأن عليهم تعذيبهم، وعدم اظهار العدالة نحوهم في المضار التي تلحقهم، وفي المحاكم، وعدم مساعدتهم في خلافاتهم، بل عليهم إحالة كل شيء إلى الملك.

وانزعج رجال الفضيلة هؤلاء تجاه هذا القرار القاسي انزعاجاً كبيراً وخافوا، ولذلك أحالوا قضية مافرضه الملك إلى هيوبرت رئيس أساقفة كانتبري، ورجوه أن يقابل الملك ويبحث معه قضية هذا الأمر العنيف، وليحاول التخفيف من عدوانيته بأية طريقة ممكنة سواء بالصلوات أو بالهدايا، وانتقد هيوبرت الملك بشكل علني بسبب عنفه الكبير، وأعلن أنه مضطهد للكنيسة المقدسة، لأنه عزم على فرض مثل هذه الظلمات

والمضار العظيمة على أبناء الكنيسة الذين هم أكثر الناس قدراً بين أبناء الكنيسة والذين تمتدحهم الكنيسة كلها وتحترمهم بسبب مسلكهم القويم في الحياة، ولمراعاتهم المخلصة والدقيقة للأمور الدينية.

فإلى تلك الساعة وضع الملوك والأمراء هؤلاء الناس دوماً في مكان محترم لائق، وأعطوهم أراضي مع كثير من المقتنيات، وحموهم جميعاً بدرع الوقاية والدفاع.

وأظهر الملك جون القبول بما طرحه رئيس الأساقفة، لكن لبعض الوقت فقط، ولزيادة الازعاج استدعى رعاة الدير بوساطة رسائل جديدة، ولم يخلص عقله من العدوانية التي حملها نحوهم. وعندما كان الملك على وشك عبور البحر، وعده رئيس الأساقفة، حتى يرضيه، بمبلغ ألف مارك لصالح المنظمة الرهبانية، على شرط أن يؤكد الأعطيات والحريات التي منحت للرهبان من قبل الملك رتشارد، ورفض الملك هذا العرض رفضاً مطلقاً، لأنه كان صغيراً، ثم عبر البحر، وهو يتلفظ بالتهديدات وبالشتائم ضد تلاميذ المسيح، واشتكى إلى رعاة أديرة ماوراء البحر حول ردّ رعاة الأديرة الذين يعيشون في انكلترا.

ودفع الملك جون إلى ملك فرنسا الثلاثين ألف مارك كجزء من ثمن السلام معه، وبعدها هدأ جميع الأعداء وأخضعهم عاد إلى انكلترا في أيام عيد القديس مايكل في ٢٩ أيلول، وقدم مع زوجته ايزابلا (٢٨) ابنة دوق أنغوليم، التي تزوجها عندما كان فيا وراء البحر بموافقة الملك فيليب، ووضع جانباً زوجته الأولى للسنوات الخالية، وتخلّى عنها على أساس القرابة المحرمة للزواج، وفي اليوم التالي جرى تتويج جون في وستمنستر ومعه زوجته، التي كانت في حوالي الثانية عشرة من عمرها، ومع ذلك توجهها ملكة.

وفي الصباح الباكر، وقبل الذهاب إلى الكنيسة، أمر الملك هيوج دي

نيفل، المسؤول الرئيسي عن الغابات، مع بقية رجال السلطة الأقوياء، أن يأخذوا بعين الاعتبار أمر الرهبان السسترشيانين بوجوب نقل خيولهم، وخنازيرهم وقطعانهم من الغابات الملكية خلال أسبوع واحد، وبنهاية هذا الموعد كل ما يوجد في داخل الغابات سوف يؤخذ ويبيع لصالح الملك.

وبناء عليه، عندما أعلن أمر الملك القاسي إلى الرهبان في كل مكان، جهز كل دير أفضل مالهديه لإيواء قطعانه، وتحمل الرهبان بصبر الأذى العظيم الذي لحق بهم من الملك، وصلّوا في ضيقهم إلى ربهم المدافع عنهم، ليغير روح الملك نحو اللطف بهم، وليحرر رعيته من محنهم وحزنهم، أما الذي سمعهم ولم يتخل عن الذين وضعوا أملهم به، فحررهم بسرعة من آلامهم، فلدى اكتشاف رئيس الأساقفة لأمر الملك، أمر بناء على تشاوره مع رعاة الديرة، بعقد اجتماع في لنكولن، استعداداً لوصول الملك في ١٩ تشرين الثاني، حتى يتمكن ذلك الجمع من اللقاء به، وبسهولة يستطيع تهدئة فورة غضب الملك، وتحويله نحو الرحمة والتصالح، ووافق رعاة الديرة عن طوعية على هذا المسعى، والتقوا في المكان المذكور في اليوم المحدد، واثقين أكثر بعون الرب، ومعتمدين عليه أكثر من اعتمادهم على قدراتهم، واجتمعوا في اليوم التالي، وهو يوم عيد القديس ادموند، واستقبلوا باحترام وتحيات رئيس الأساقفة عندما قدم إلى المدينة، فترجلوا وركعوا على ركبهم أمامه، وبتواضع التمسوا من رئيس الأساقفة أن يعالج بلطف وعاطفة نحوهم، مسألة هذا الخلاف، وأن يتدبر بعنايته تلطيف سخط الملك عليهم، وأثير رئيس الأساقفة — على كل حال — بتذلل مثل هذا العدد الكبير من الرجال المشهورين، وترجل من على حصانه، ومثلهم تذلل في نفسه، وبكى، ثم وعد في أن يكون عونهم وناصحهم في جميع القضايا، وبعدها أصغى إلى مطلبهم وعدهم بتحقيق السلام ومنفعة الرهبنة بقدر ما يمكنه، وأن يحاول تهدئة

الملك بكافة السبل.

ثم غادر رعاة الديرة المدينة دون رؤية الملك، وبحشوا قضية الخلاف فيما بينهم، ورأى بعضهم أنه يتوجب عليهم أن يدفعوا له كامل ما طلبه، ورأى آخرون وجوب رفض مطلبه، وكان هذا الرأي هو الذي انتصر بالنهاية.

التقى الملك جون في يوم الأربعاء الأول الذي جاء بعد عيد القديس ادموند، بوليم ملك اسكوتلندا الذي جاء مع رولاند أمير غالووي Galloway وعدد آخر من اللوردات، فهو قد جاء إلى لنكولن لتقديم الولاء إلى الملك، الذي توقف عنه حتى الآن، ولهذا تأجلت مسألة رعاة الديرة، وفي اليوم التالي أراد رئيس الأساقفة أن يتدخل مع الملك ويبحث معه قضية رعاة الديرة، لكنه سمعه وهو يتحدث وكأن الغضب مسيطر عليه، ويتحرك بموجه حيث قال مخاطباً رئيس الأساقفة: «أرجوك يارئيس الأساقفة لاتجعلني أغضب في هذا اليوم لأنني اقترحت أن أستدعي هذا اليوم»، ولهذا كان رئيس الأساقفة حريصاً على نصيح رعاة الديرة أن يتجنبوا التحرك أمام ناظري الملك، وفي الأحد التالي انتهى الملك من سماع قداس مع رئيس الأساقفة، وعندما كان على وشك مغادرة الكنيسة، سأل رئيس الأساقفة الملك أن يتعامل برحمة مع مشكلة رعاة الديرة، الذين كانوا واقفين بحضرته.

وبعد قليل من التريث، مضى الملك نحوهم، وخاطبهم بصوت مرتفع قائلاً: «وأين مولانا وأبونا رئيس الأساقفة؟» وبادر رئيس الأساقفة نحوه مسرعاً، وبدأ على الفور نقاش سري معه ومع الأساقفة، بينما ظل رعاة الديرة واقفين في القاعة، وبعد طول انتظار جرى استدعاء رعاة الديرة للمثول أمام الملك، الذي أمر رئيس الأساقفة باخبارهم بخطته

وبرغبته، وبدأ رئيس الأساقفة حديثه على الوجه التالي: «نخبركم أولاً، أيها الآباء، أن الملك قد أزال من ذهنه جميع الحقد وكل الغضب الذي بدا واضحاً نحوكم»، ولدى سماع رعاة الديرة هذه الكلمات سجدوا على الأرض، وقدموا الشكر للملك، ثم تابع رئيس الأساقفة يقول: «ومثل هذا يسألكم الملك بتواضع أن تغفروا له كل أذى تحملتموه نتيجة لعدم الاتفاق هذا».

ثم شرع رئيس الأساقفة يتحدث مجدداً قائلاً:

«يسأل الملك الرهبنة السسترشيانية وأنتم أن تتدخلوا لصالحه، حتى يتم قبوله في اخوانيتكم، وفي جماعة الرهبانية، وأن يصلي رهبان كل دير في تلاوتهم لصالحه، زد على هذا قرر الملك، بناء على نصيحتكم بناء دير في انكلترا، حتى يُتذكر بشكل خاص مادام حياً، وليدفن فيه ويشرف بعد موته، إذا وفقه الرب إلى ذلك، ويعدّ من الآن فصاعداً أن يكون ولي رهبانيتكم والمدافع عنها، وأن يحمي كل مايلوذ بكم من أشياء، وعندما سمع رعاة الديرة هذه الكلمات امتلأوا بسرور عظيم، وقدموا الشكر للرب القادر الذي حول هكذا روح الملك لتكون لطيفة مع الرهبانية ومحترمة لها.

وعندما تم الاتفاق على هذه الأشياء بالطريق المعتاد، وأعطى كل واحد قبلة السلام من قبل الملك، اقترح رعاة الديرة وجوب ارسال الملك رسائل إلى كل واحد من عماله، خشية أنهم بتنفيذهم الأمر يوقعون المزيد من الضرر، ووافق الملك عن طواعية على هذا الاقتراح، وكلف رئيس الأساقفة بمهمة ارسال الرسائل باسم الملك إلى العمال في كل مقاطعة، وكانت نسخة الرسالة حسبها يلي:

«من جون ملك انكلترا بنعمة الرب، ولورد ايرلندا، ودوق نورماندي وأكوتين، وكونت أنجو إلى عاملي اسكس وهارتفورد، تحيات.

اعلموا اننا استقبلنا رعاة ديرة رهبانية سسترشيان برعاية كاملة وجميع مقتنياتهم وبضائعهم بأيدينا، محفوظة ومحمية، وبناء عليه أمرنا بكل دقة أن تتولوا حماية هؤلاء الرجال والحفاظ عليهم والدفاع عنهم وعن جميع مقتنياتهم، وكأنها تماماً مقتنياتنا الملكية الخاصة، وألا تسبوا لهم أي أذى أو ضرر، وألا تسمحوا أبداً بمعاناتهم من أي أذى داخل منطقتي ادارتكما، وإذا حدث وكان قد لحق أيأ منهم أذى أو اقترف بحقه جريمة من قبل أي انسان بسبب أوامرنا التي قضت بالتصرف بسوء نحوهم، عليكم التعويض والاصلاح بدون تأخير. شهدت بنفسي. لنكولن ٢٦ تشرين الثاني».

وقبل هذا التاريخ سمع في الأول من تشرين الثاني صوت رعد مرعب، منذراً بوقوع شيء عظيم، فقد عاد من روما هيج أسقف لنكولن، الذي كان في يوم الأيام رئيس دير في وتهام Witham وهو دير رهبانية كارثوشيان Carthusian في انكلترا، وبعد عودته أصيب بمرض عضال في لندن، ونتيجة لهذا المرض، وبعدما شغل هذا المنصب لمدة خمس عشرة سنة وخمسة عشر يوماً، انتقل من هذا النور، إلى —كما نعتقد— النور الذي لا ينتهي، وكان ذلك في الأول من شهر كانون الأول، ونقل جسده الذي لا حياة من لندن إلى لنكولن، وكان مصير منصبه آنذاك بمشيئة الرب موضوع مشاورات في لنكولن فيما بين ملك انكلترا، وبين وليم ملك اسكوتلندا، وكان قد حضر معها ثلاثة رؤساء أساقفة وتقريباً كافة نبلاء المملكتين.

وعندما أعلن أن جسد الأسقف بات على مقربة من المدينة، اندفع الناس على شكل حشود للمشاركة في موكب جنازة راعيهم الكنسي، وحضر الملكان نفسيهما، ورؤساء الأساقفة وجميع رجال الدين والنبلاء بكل تبجيل، وتخلى جون عن الأبهة الملكية، وسار مع رؤساء الأساقفة برؤوس مطأطأة، وبتواضع وضعوا التابوت على أكتافهم، وحملوا الحمل

المقدس لبعض الوقت متجاهلين الطين في الطرقات من أجل جنازة مثل هذا الرجل.

وأخيراً حمل جسد هيوغ إلى كنيسة الأسقفية، من قبل رؤساء الأساقفة، والأساقفة ورجال الدين في البلدة، وهم ينشدون التراتيل والمزامير، وتليت فصول من الكتاب المقدس في القديس الليلي من قبل الأساقفة ورؤساء الأساقفة، واعتقد الذين أتتحت لهم الفرصة بلمس تابوته أو بتقبيل قدميه، أو بلمس بعض ثيابه، انهم محظوظين، وقدمت تقدمات كثيرة وأعطيات له، وهو مسجى لابسا شاراته وملابسه الكهنوتية، ووجهه غير مغطى، تبعاً للعادة، ورأسه مزين بقلنسوته الدينية.

وكان الأسقف هيوغ قد شرع ببناء كنيسة جديدة في تلك البلدة تكرس على اسم الرب الأب، وأراد أن تبنى هذه الكنيسة بمخطط رشيق، فتتفوق بجمال بنائها على جميع كنائس انكلترا الأخرى، وأمر بوجوب اكمال عمارتها سواء أكان حياً أم ميتاً، وفي الحقيقة كان قد أسس في أسقفيته نقابة دفعت ألف مارك كل سنة من أجل هذا العمل.

وانتشرت أقاويل أنه من خلال فضائل هيوغ، وبنعمة من الرب، نال بعض المرضى من الناس الشفاء، ولاعجب أن يظهر الرب الكرامات للناس على الأرض ليمجد محبوبه هيوغ، الذي آمن بقداسته عدد كبير من الناس، الذين عرفوا أنه مارس حياة كانت كلها فضائل وبلا خطيئة، ولكونه كان الأكثر شهرة وسمواً بين الأساقفة بالنسبة للقيام بواجباته الدينية، نال هيوغ أعظم احترام بين رجال الدين، بسبب أنه حتى بعدما صار أسقفاً، حاول دوماً أن يعيش حياة متواضعة لابل حياة رهبانية، وذلك بقدر ماسمحت له وظيفته ومسؤولياتها، وقد كره وباء السيمونية كثيراً، إلى حد أنه لم يمنح قط منصباً لاهوتياً لأي انسان بسبب توصية من الملك أو من أي انسان صاحب سلطان، مالم تكن هناك براهين بأنه كان جديراً. وهناك أشياء كثيرة يمكن أن تكون نافعة

لتكتب عن طريقة حياته المحموده، غير أننا ندع ذلك إلى الذين هم أكثر فصاحة منا، ويمتلكون المزيد من المعرفة عن أفعاله.

وانقطع كاتبنا هنا عن متابعة روايته ليقدم إلينا عدة حكايات عن الكرامات العجائبية جاء القصد منها التوجيه والتسلية للقارىء، وكانت هذه الوقائع قد حدثت قبل بعض السنين المتقدمة.

حدث في أيام هنري الثاني، عندما كان الفارس بارثلميو أوف غلانفيل Glanville يتولى حفظ القلعة في أكسفورد، أن بعض الصيادين كانوا يصطادون في البحر هناك، فأمسكوا بشباكهم مخلوقاً متوحشاً، وقد حمل إلى شحنة القلعة ليراه ويتفحصه، وكان عارياً تماماً، وشابهت جميع أطرافه أطراف الانسان، وكانت له لحية طويلة مدببة، وكان صدره مليئاً بالشعر وخشناً.

واحتفظ الفارس المذكور أعلاه بهذا المخلوق في السجن لمدة طويلة، ليلاً ونهاراً خشية أن يعود إلى البحر، ولقد أكل بشهية كل شيء جلب إليه، سواء السمك المطبوخ أو غير المطبوخ، لكنه كان يعصر بشدة السمك النيء حتى يطرد مائه كلياً، وذلك قبل أكله، وهو لم يرغب بالكلام، أو بالحري لم يستطع، حتى عندما كان يعلق من قدميه ويعذب عذاباً شديداً، وعندما كان يؤخذ إلى الكنيسة، لم يظهر أي علامة على الاحترام أو الإيمان، لا بركوعه ولا بطأأة رأسه، وقد شهد — على كل حال — القداس مراراً، وكان يسرع إلى فراشه عند غياب الشمس، ويبقى مستلقياً حتى شروق الشمس.

وحدث أيضاً أنهم أخذوا هذا الرجل إلى البحر، ووضعوه في البحر، بعدما جعلوا أمامه شباكاً قوية جداً مؤلفة من ثلاثة صفوف، وقصد هذا المخلوق أعماق البحر وعبر خلال هذه الشباك جميعها، وظهر مرة تلو أخرى ونظر مطولاً إلى الذين كانوا يراقبونه على الشاطئ، وغالباً

ماغطس ثم ظهر بعد وقت قصير، وكأنه يسخر من الذين كانوا يراقبونه ويخبرهم أنه تجنب شباكههم، وبعدما لعب هكذا لوقت طويل في البحر، وانفقد الأمل كلياً بعودته، سبح خلال أمواج البحر، وعاد ثانية إليهم عن طوعية وإرادة منه ومكث معهم لمدة شهرين آخرين.

واحتفظ به بعد ذلك بإهمال وعومل بازدراء، لذلك هرب سراً إلى البحر، ولم يعثر عليه ثانية، وليس من السهل القول فيما إذا كان مخلوقاً بشرياً كتب عليه الفناء، أو نوعاً من أنواع الأسماك ظهر على شكل مخلوق بشري، أو نوع من أنواع الأرواح الشريرة مختبئة في جسد إنسان غريق، وذلك حسبما قرأنا عن واحد من هذا القبيل في أيام القديس أون Ouen وليس بالممكن التأكيد أو النفي خاصة بسبب أننا سمعنا عن كثير من هذه الأشياء العجائبية، وعن وقوع حوادث مثل هذه.

ووقعت أعجوبة أخرى في سفولك Suffolk عند وولبت Wool-pit فقد عثر على طفل وأخته من قبل السكان قرب فم حفرة كانت هناك، وقد بديا في مظهرهما مثل بقية المخلوقات البشرية في شكل أطرافهما، لكن اختلفا عن البشر العاديين في لون شعرهما، لأن الطبقة الخارجية من شعرهما كانت ممزوجة بالأخضر.

وما من أحد كان بإمكانه أن يفهم كلامهما، وعندما أخذنا إلى بيت أحد الفرسان في وكس Wix واسمة السير رتشارد دي كلين Clane للنظر إليهما والتعجب، بكيا بدون توقف، ووضع أمامهما الخبز وأنواع أخرى من الطعام، لكنهما لم يرغباً بأكل شيء، وقدم لهما الطعام مع أنهما عذبا بالتجويع الكبير، لكنهما لم يأكلا شيئاً، وكان هذا بسبب اعتقادهما أن هذا النوع من الطعام لا يؤكل، فهذا ما اعترفت به الفتاة، عندما أحضر إليهما بعد وقت طويل، بعض السنابل الطازجة وهي على سوقها، وأدخلت عليهما في البيت، وقد أوميا برغبة شديدة أنه ينبغي إعطائهما هذه السنابل، وعندما وضعت الحبوب أمامهما، فتحا السوق وليس

سنابل القمح، ظانين أنه يمكن لهما العثور على الحبوب في السوق، وعندما لم يجدا الحبوب في السوق، شرعا بالبكاء ثانية، فأروهما الحبوب المقطوفة، فأكلاها بسعادة كبيرة، ولم يلما طعاماً آخر لوقت طويل.

وكان الطفل دوماً حزيناً وكأنه يعاني من وهن عظيم، وتوفي خلال وقت قصير، لكن الفتاة تمتعت تماماً بمزيد من ازدياد الصحة، ونمت لتعتاد على أنواع الطعام الأخرى، وفقدت ذلك اللون الأخضر، وكسبت ببطء لون بشرة حمراء في جميع أنحاء جسدها، فبعدها ولدت مجدداً من خلال التعميد بقيت لسنوات عديدة في خدمة ذلك الفارس (حسبنا اعتدنا أن نسمع منه ومن أهل بيته) وكانت حيوية ومفعمة بالنشاط.

وغالباً ما سئلت عن شعب بلادها، فكانت تؤكد أن جميع السكان لهم بشرة خضراء، وأنهم لم يروا الشمس قط، بل تمتعوا بنوع من الضوء، مثل الضوء الذي يبقى بعد غياب الشمس، وعندما سئلت كيف حدث أن وصلت إلى هذه البلاد مع أخيها، أجابت أن ذلك كان عندما كانا يتبعان شاة، ففتشا داخل أحد الكهوف، وبعدما دخلا إلى الكهف سمعا الأصوات المبهجة للنواقيس، وسيطر عليهما الصوت الجميل فمشيا وظلا يسيران بلا هداية داخل الكهف لمدة طويلة، حتى وصلا إلى المخرج، وعندما خرجا صعبا وصارا بلا عقل بسبب ضوء الشمس والمناخ الذي كانا غير معتادين عليه والهواء، وبقيتا مستلقيين لوقت طويل عند فم الكهف، وخافا من أسئلة الذين وصلوا ورغبا بالفرا، غير أنهما لم يجدا المدخل إلى الممر، وألقي القبض عليهما.

وفي أيام الملك رتشارد، على شاطئ اسكس، وفي قرية اسمها ايدولف نس Edolfes Nesse عثر على سنين يعودان إلى مخلوق عملاق، وكانا من عظم الحجم بمكان أن مائتين من أسنان الانسان يمكن أن تقطع منهما، ولقد رأينا هذين السنين في كوغشال، واتفقنا أنها فعلاً من العجائب، ووجد هناك أيضاً ضلع مخلوق عملاق، وعثري في

مقاطعة يورك على رأس مخلوق عملاق، يمكن للجمجمة أن تستوعب بوشل من القمح (٥, ٣٢ لتر)، وأيضاً عثر عليه على شاطئ البحر.

وكان في ويلز رجلاً هائل الطول، بلغ نحواً من تسعين انشاً في الطول، وكانت أصابعه طويلة جداً وغلظت، غير أنه كان قد حرم من القوة بشكل مابوساطة المراهقة، وظهرت في السنة نفسها في تلك المقاطعة آثار أقدام بطول غير اعتيادي، على السهل المعشوشب، وحيثما كانت الآثار، ظهر العشب وكأنه أحرق بالنار.

استأنف كوغشال روايته التاريخية وأعادنا بشكل مفاجيء إلى حوادث سنة ١٢٠١.

سنة إحدى ومائتين وألف

ثار واحد من نبلاء أكوتين اسمه هيوج، ويعرف بلقب البني، ضد الملك جون، وأراد أن يغزو أجزاء كثيرة من المقاطعة مع حلفائه، وكان سبب هذا أن الملك قد تزوج من ابنة كونت أنغوليم، التي كانت مخطوبة له من قبل وفي حفظه، ولهذا السبب عبر الملك البحر، وأخضع الثوار.

وثارت في يوم ميلاد القديس يوحنا عاصفة قاسية، فيها رعد وبرق، وبرد ومطر غزير وعنيف، وقد سببت دماراً كبيراً للرجال، وللحيوانات وللحقول، وأحرقت البيوت، واقتلعت الأشجار في أماكن كثيرة، وبعد مضي خمسة عشر يوماً ثارت عاصفة أخرى، لكنها لم تشبه الأولى، لذلك لم يمكن تقطيع المروج، لأن ماقطع حملته بعيداً مياه الفيضان المتدفقة، وماتت حشود هائلة من الأسماك، من تلوث المياه التي سببها العشب المتعفن، وفي الحقيقة كان هناك فيضانات كثيرة وعارمة، استمرت لعدة

أيام وغطت مناطق كثيرة، فدمرت الجسور وأتلفت المحاصيل، وغرق كل شيء، ولهذا خاف بعض الناس أن الرب نوى من وراء هذا الهطول فيضانا آخر عظيماً.

وجاء راعي دير فلي Flay إلى انكلترا لينشر كلمة الرب في مناطق متعددة، وحث الناس على مراعاة يوم الأحد، والاحتفال بوقار بأعياد القديسين بين أشياء أخرى كثيرة، ومنعهم من الذهاب إلى أي سوق مهما كان نوعه في يوم الأحد، ولهذا حدث منذ ذلك الحين أن الناس في جميع مقاطعة كانتربري وأماكن أخرى عديدة في انكلترا لا يذهبون إلى الأسواق في يوم الأحد، وذهبوا لحضور القداسات الدينية، وانتشرت الأحاديث عن عدد كبير من الكرامات العظيمة، وكانت هناك أقاويل في كثير من مناطق انكلترا عن عقوبات ربانية أنزلت على الذين رفضوا بعد التبشير، ترك أعمال خدماتهم في الأيام المقدسة والسبوت بعد نداء الساعة التاسعة بعد الشروق.

وحدث في أيام بطرس الراعي الرابع لدير كوغشال، أن الأخ روبرت وهو أخ علماني تابع لذلك الدير، وكان مسؤولاً عن حفظ بيت الضيافة، دخل في أحد الأيام إلى قاعة الضيافة قبل تقديم وجبة الغداء حسبما جرت عادته، فوجد بعض الأشخاص، يدل مظهرهم الخارجي ولباسهم على أنهم كانوا محترمين، وكانوا جالسين في القاعة، وقد ارتدوا أردية تشبه ما يرتديه فرسان الداوية، ووضع كل واحد منهم قبعة على رأسه، وكان هناك منهم قرابة تسعة رجال، أو أكثر، لأن الأخ لم يدقق تماماً ليعرف تعداد من اجتمع هناك، ونظراً لأنه اعتقد أنهم من الداوية، حياهم بلطف، وقال له أحدهم وقد بدا أنه مسؤول عن الآخرين: «أين يمكننا تناول الطعام؟» فأجابه: «سوف تأكلون بالحجرة مع راعي الدير» فأجابه هذا على الفور: «ليس من عادتنا الأكل في حجرة خاصة بل في القاعة مع الضيوف» وخرج بعد هذا الأخ إلى خارج القاعة، وذهب إلى راعي

الدير، وأعلمه بوصول الضيوف، فأمره الراعي بتحضير كل شيء ضروري وإعداد المائدة، ووعد بأنه سيأكل معهم في الحجرة، وبناء عليه عندما جاء الراعي إلى المائدة أمر الأخ بجلب الضيوف.

وذهب الأخ إلى القاعة، لكن الضيوف الذين تركهم فيها قبل وقت قصير، لم يجدهم، فذهب يفتش عنهم في الغرف الداخلية وفي مختلف الأماكن، فلم يعثر على أحد منهم مطلقاً، وركض إلى هنا وهناك في فناء الدير آملاً في لقاء الرجال، وقال له رجل هناك بأنه شاهدهم يذهبون نحو الكنيسة ومقبرة الاخوان، فبادر مسرعاً بإرسال رسول إلى هناك، لكن الرسول لم يعثر على أحد منهم، وسئل حفظة الأبواب عن الضيوف فقالوا إنهم لم يشاهدوا مثل هؤلاء الرجال يدخلون من الأبواب أو يخرجون منها في ذلك اليوم، وفي الحقيقة: من كان أولئك الرجال، وكيف جاءوا، وإلى أين ذهبوا؟ يبقى هذا سرّاً غامضاً حتى اليوم.

ونحن لانشك في حكاية الأخ الذي رآهم وتحدث معهم، لأننا نعرف حياته وضميره، فلقد أخبرنا مراراً بهذه الحكاية، حتى في أثناء مرضه الكبير الذي أخذه من هذا النور، وقد تحدث عنهم ببساطة، لأنه كان راوياً للحكايات بسيطاً، يستخدم كلمات قليلة، ولا يظهر أي تفاخر في كلماته أو أفعاله.

سنة اثنتين ومائتين وألف

أبرم في سنة اثنتين ومائتين وألف سلام بين فيليب ملك فرنسا وبين جون ملك انكلترا، لكن الملك قام على الفور بحملة قتالية حادة على كونت لى مارشي، الذي اسمه هيوج ويعرف بلقب البني، وعلى أخيه كونت ابي. Eu اللذان ثارا ضده، بسبب زواجه من ايزابلا أوف

أنغوليم.

وأمر الملك فيليب جون مراراً أن يتمنع عن اشارة رجاله، وأن يقيم معهم تسويات سلمية، ولكن لعدم مراعاة جون لأوامر فيليب، ومطالبه، جرى استدعاء ملك انكلترا هذا من قبل نبلاء مملكة فرنسا بحكم كونه كونتاً لأكوتين وأنجو، وطلبوا منه الحضور إلى بلاط محكمة مولاه، ملك فرنسا، في باريس، وكان عليه الخضوع لحكمهم والاجابة على أخطائه، والاستجابة للتعامل مع القانون، حسبما يقرر رفاقه في المراتب الاقطاعية.

وعلى كل حال، رد ملك انكلترا أنه دوق نورماندي، وليس مرغماً بأي حال من الأحوال على الحضور إلى البلاط للمحاكمة في باريس، وهو يرغب فقط بالتشاور مع الملك حول موضوعات الحدود بين المملكة والدوقية، فهذا متفق عليه بين الدوق والملك منذ زمن قديم، ومؤكد بوثائق أصلية، وناقش الملك على كل حال هذا الموضوع وبين أنه ليس من العدل مطلقاً أنه بسبب أن الرجل هو كونت أكوتين ودوق نورماندي ينبغي ألا يفقد حقه في أكوتين.

واستمرت هذه المناقشة طويلاً، وظهرت مشاكل جديدة من يوم إلى آخر، ومع الأيام تراكمت المشاعر العدوانية على الطرفين، وأضيف إليها تهديدات عنيفة.

وبعد وقت طويل اجتمع البلاط وحكم بوجوب انتزاع جميع الأراضي التي تملكها ملك انكلترا مع أجداده من الملك الفرنسي، لأنهم لم يقدموا لها منذ زمن طويل أية خدمات تقريباً، ورفضوا اطاعة مولاهم، وبناء عليه قبل الملك فيليب مسروراً بالحكم الذي صدر عن بلاطه ووافق عليه، وجمع جيشاً وهاجم على الفور قلعة بوتفانت Boutavant التي بنيت من قبل الملك رتشارد في نورماندي واجتثها من على وجه الأرض، ثم استولى على جميع أراضي هيوج دي غورني Gournay وعلى جميع

القلاع المجاورة، ثم استولى على كونتيه وقلعة أوميل Aumale وكونتيه إيو Eu وجميع الأراضي حتى اركوي Arques ولم يواجه أية مقاومة.

وعندما بلغ آرثر، ابن أخي الملك جون، السادسة عشرة من عمره، رسم فارساً من قبل الملك فيليب وخطبه ابنته الصغرى، وبناء على نصيحة مؤذية واقتراح من قبل بعضهم، أعلن العصيان على عمه، واتبع النصائح الشريرة المتعجلة، فانطلق مع هيوغ البني وغيوفري أوف لوزغنان ومائتين وخمسين جندياً لحصار قلعة ميربوا Mirebeau حيث كانت جدته، الملكة إليانور مقيمة مع رجالها، وخشية من الملكة أن تقع بالأسر، أمرت ابنها جون أن يجلب إليها العون بأقصى سرعة ممكنة.

وانطلق الملك على الفور إلى هناك مع جزء من جيشه، وكان الثوار قد دخلوا إلى البلدة وأغلقوا بالتراب جميع أبوابها باستثناء باب واحد، وانتظروا وصول الملك وهم قد أحكموا الدفاع عن أنفسهم، وكانوا أيضاً مطمئنين وواثقين بحشدتهم من الفرسان المدربين والسيرجندية، وبعد قتال شديد دخل الملك إلى المدينة، واستطاع على الفور، بإرادة من الرب أن يأسر جميع أعدائه الذين تجمعوا هناك، فقد أسرا ابن أخيه آرثر، والكونت هيوغ وغيوفري أوف لوزغنان، ومائتين وخمسين من خيرة الفرسان، وبذلك حرر أمه ورجالها من المجصرين.

وكان الملك فيليب يحاصر قلعة أركوي منذ زمن طويل، وعندما كان على وشك الاستيلاء على القلعة، وصلت أخبار أسر آرثر والآخرين، فأبعدته عن الحصار، وعاد إلى فرنسا، مغضباً كثيراً لسوء الحظ الذي حلّ برجاله.

واستولى بعد هذا الملك جون على بلدة تور بالقوة، وعلى قلعة فيليب

هناك عنوة، وألقى فيها النار فأحرق كل تلك المدينة الجميلة تقريباً، وكسب بسبب عمله هذا كراهية سكان تور ونبلاء تلك المنطقة، ولكي يأسر خصومه أحرق أيضاً مدينة لامانس.

وسجن الذين أسره في ميربو، وبعث بهم إلى أماكن مختلفة، وبعد هزيمته فيما بعد، وبناء على طلبات الرجاء من بعض النبلاء والتماساتهم، أطلق سراح الكونت هيوغ البني وغيوفري لوزغنان مع آخرين أسره في ميربو، لكن ذلك كان بعدما سلموه قلاعهم ورهائن، وأقسموا اليمين ألا يثوروا ضده، وعلى كل حال هم لم يحفظوا يمينهم لوقت طويل، وبدأوا يقاتلون الملك بحدة أعظم من ذي قبل، والتحقت بهم جماعات كثيرة من أعدائه.

وتقدم وليم دي روشي، وكان عضواً قوياً بين مجموعة النبلاء الأنجيفيين، ومعه نبلاء آخرين من بريتاني، تقدموا بالرجاء إلى الملك ليسلمهم آرثر الذي كان محتفظاً به بالسجن تحت حراسة مشددة، وعندما رفض جون، تأمروا جميعاً، وأعلنوا معاً الثورة ضده، وجمعوا جيشاً كبيراً من المناطق المفترض أنها تحت سلطة الملك، وعاثوا فساداً في البلاد، وسلبوا وأحرقوا، وهاجموا عدداً كبيراً من القلاع.

وعندما حدث هذا تخلى عن الملك عدد كبير من الرجال الأقوياء والتحقوا برفاقهم النبلاء، وكان من بينهم: روبرت كونت أوف ألنكون Alencon وفيزكونت أوف بيمونت، ووليم أوف فوجري Fougères وبريتانيين آخرين، واستولوا على قلعة أنغر مع البلدة كلها، وبوقت قصير استولوا على عدد آخر كبير من الأماكن الحصينة.

ولاحظ المستشارون لدى الملك أن البريتانيين كانوا يسببون كثيراً من التخريب، ويثيرون الفتن في كل مكان لصالح مولاهم آرثر، ورأوا أنه من غير الممكن تحقيق سلام ثابت مادام آرثر حياً، فاقترحوا على الملك أن

يأمر بسمل آرثر وخصيه، وبذلك يتحول إلى عاجز عن الحكم، وبموجب ذلك سوف تتوقف المعارضة، وتقلع عن برنامجها بالتدمير وتخضع للملك.

وازداد غضب الملك جون نتيجة الهجمات غير المتوقعة لأعدائه، وشعر بالأذى من تهديداتهم وأفاعيلهم المضرة، وفيما كان في حالة من الغضب الشديد والحنق العظيم، أمر ثلاثة من خدمه أن يذهبوا إلى فالي، وينفذوا الفعل الكريه، ومقت اثنان من خدمه تنفيذ مثل هذا العمل الشرير ضد شاب نبيل مثل آرثر، فهربا، أما الثالث الذي لبس ثلاثة خواتم حول قدمه، فقد توجه إلى القلعة التي وضع فيها الشاب الملكي تحت حراسة شديدة تولاهما الحاجب الملكي هيوبرت دي بيرغ، وعندما أعطى أمر الملك إلى هيوبرت ثار حزن عظيم وأسف كبيرين الذين كانوا يتولون حراسته، وانفعلوا بشدة ورحمة نحو الشاب النبيل.

ولاحظ آرثر الحكم الذي أصدره عمه ضده، وخشية منه على سلامته، انفجر باكياً، وشرع يتشكى ويندب نفسه بشكل محزن جداً، وظهر الرجل الذي أرسله الملك لتنفيذ هذا العمل وجعل نفسه معروفاً من قبل الشاب الذي كان يبكي نفسه ويندبها، وتوقف آرثر فجأة عن الأنين، ونهض ومدّ بعنف يديه وأمسك بهما الرجل لينتقم منه، وشرع يدعو الفرسان الذين كانوا هناك بصوت متحجب وقال:

«أيها السادة الأعزاء، دعوني من أجل محبة الرب قليلاً لأنتقم من هذا الشرير، لأنه آخر من سأراه في هذا العالم».

وفي سبيل تهدئة هذه الضجة نهض الفرسان مسرعين وأمسكوا بيديه، وقاموا بناء على أمر من هيوبرت، باخراج الشاب الذي جاء من الحجرة، وبهذا الطرد وبكلمات تهدئة قيلت لآرثر من الذين وقفوا من حوله، ارتاح آرثر قليلاً، لكن بقلب حزين.

ونظر هيوبرت حاجب الملك إلى أمانة الملك وسمعته، وكان يتوقع منه

العفو، لذلك احتفظ بالفتى دونما أذى، واعتقد أن الملك سيندم على الفور لإصداره هذا الأمر، وسيكره بعد هذا إلى الأبد كل من بادر إلى اطاعة مثل هذا التصرف الشرير، فقد اعتقد هيوبرت أن الأمر جاء نتيجة غضب مفاجيء ولم ينجم عن تقديرات هادئة.

ورغبة من هيوبرت في تسكين غضب الملك جون، وفي الوقت نفسه إيقاف وحشية البريتانيين أعلن في أرجاء القلعة وفي المنطقة كلها بأن الحكم قد نفذ، وأن آرثر توفي لشدة حزنه ومن الآلام الحادة التي نجمت عن جراحه، وانتشرت الأخبار ودارت كل مناطق المملكتين خلال أسبوعين، ثم بدأت النواقيس تضرب، وكان ذلك من أجل روحه، ووزعت ملابسه على بيوت المجذومين، كما وأعلن أن جسد آرثر قد حمل إلى الدير السسترشيانى المسمى سينت أندري -ان- غوفرن Andre en- Gouffern في نورماندي، ودفن هناك.

ولدى سماع هذه الأخبار لم يخضع البريتانيون، بل ازدادوا غضباً أكثر فأكثر، وكانوا أكثر تدميراً من ذي قبل حيثما أمكنهم، وأقسموا أنهم من الآن فصاعداً لن يتوقفوا عن حرب الملك الانكليزي الذي اقترف مثل هذه الفعلية الشنيعة بحق سيدهم، الذي هو بالوقت نفسه ابن أخيه، واستدعى هذا ضرورة الإعلان أن آرثر الذي قيل في كل مكان أنه مات، هو ما يزال حياً، وهكذا هدأ غضب البريتانيين قليلاً.

وعندما أخبر جون بما حدث، لم يغضب لبعض الوقت، لأن أوامره لم تنفذ، حتى أن بعض الفرسان قالوا له بأنه لن يكون بإمكانه من الآن فصاعداً تأمين قوات تتولى حراسة قلاعه، فيما لو أنه نفذ حكمه في آرثر، لأنه إذا صدف ووقع أي فارس في أيدي ملك فرنسا، فإنه سيتلقى على الفور المعاملة نفسها بلا رحمة.

كان هناك في هذه السنة زلزال كبير في منطقة القدس، لم يعرف مثله

منذ آلام ربنا، وتعرضت مدينة صور الجميلة للهزات الأرضية، وقتل جلّ سكانها، وتهدمت هي كلها تقريباً، كما تهدم ثلث عكا مع قلاعها وأبراجها، ولحق الدمار بعدد من القلاع الأخرى لدى المسيحيين والمسلمين سواء، وأثرت الزلازل على عدد من الأماكن في انكلترا، وكانت هناك صواعق مرعبه، وبروق، وبرد متقطع ورياح قوية خلال شهر آب.

سنة ثلاث ومائتين وألف

كان في نيسان من سنة ثلاث ومائتين وألف فيضان غير متوقع سبب كثيراً من الأضرار في انكلترا كلها، وحدث هذا بشكل اعجازي، لأن ما تقدم على هذا الغمر هطول قليل من المطر.

وأخذ آرثر من فالي إلى روان، وسجن داخل القلعة، تحت حفظ روبرت دي فوكسبونت Vieuxpont وعلى الفور أمر فيليب ملك فرنسا مع البريتانيين الملك جون، ملك انكلترا، أن يطلق سراح آرثر ويسلمه إليهم، وأعدوا له عدداً كبيراً من الرهائن، وأضافوا تهديدات قاسية إلى هذه الأوامر.

وعندما رفض جون، هاجم فيليب مجدداً قلاع نورماندي، وبين أشياء كثيرة استولى على جزيرة لاس أندلاس مع قلعتها، وعلى فودريل Vaudreuil حيث كان قد تركز عدد كبير من النبلاء لحفظها، أذكر منهم خاصة:

روبرت فترز وولتر مع فرسانه، وسيردي كونسي Saer de Quincy مع رجاله، واستولى أيضاً على كمية كبيرة من العتاد الحربي، ولم يقم

هؤلاء الرجال أدنى اعتبار إلى شجاعتهم المعتادة ولا إلى مسلكهم العسكري، ولأنهم لم يتوقعوا تلقي أية مساعدة، لم يقوموا بأية محاولة للدفاع، وكأنهم بلا قوة، فقاموا بتسليم أنفسهم مع قلعتهم إلى ملك فرنسا، وقد جرى فداؤهم مقابل مبلغ كبير من المال، هو خمسة آلاف مارك استرليني، ولقد تعرضوا لسخرية وإهانة الشعب في المملكتين، بسبب هذا، ولطخوا بذلك شرفهم.

استولى بعد هذا الملك فيليب على شاتو غيلارد - Chateau Gail-lard التي بدت لاترام، وكانت قد بُنيت من قبل الملك رتشارد الأول، ملك انكلترا مقابل نفقات عالية قرب لاس اندلاس على نهر السين، على الرغم من معارضة رئيس أساقفة روان، لأن تلك الأرض كانت عائدة له، وكان القائد العسكري لتشيترفي القلعة مع عدد كبير من مشاهير الفرسان والسيرجندية، وقد حافظ على القلعة بكل فاعلية لوقت طويل، وصمد في وجه قوة كل جيش الملك الفرنسي، لكن عندما باتت الحامية بحاجة ملحة لمؤن الأطعمة لم يعد بإمكان عناصرها الاستمرار في مقاومة الأعداء، وفي الحقيقة لم يكن الملك جون راغباً في إرسال قوات إلى المحاصرين لأنه كان يخشى دوماً من خيانة رجاله، وعبر في الشتاء في شهر كانون الأول إلى انكلترا حيث ترك النورمان في قلق عظيم وخوف.

ثم تولى بالواقع إيقاع الظلم والتشديد على انكلترا، بمطالبه الكثيرة للمال، حيث أمل في حشد جيش كبير يتمكن بواسطته من سحق قوات الملك فيليب.

سنة أربع ومائتين وألف

توفيت الملكة إليانور في هذه السنة، وكان ابنة كونت بواتو، وكان أول

أزواجها الملك لويس السابع ملك فرنسا، ثم تزوجت هنري الثاني ملك انكلترا.

أفقد موت إليانور جون مؤيداً صاحب نفوذ رهيب، وناصباً كبيراً.

عقد الملك جون في منتصف الصيف مجلساً للتداول، وقرر أن يرسل سفراء إلى ملك فرنسا هم: رئيس أساقفة كانتربري، وأسقف نوروك، وأسقف إيلاي، والإيرل وليم مارشال وإيرل لستر، وكان عليهم معرفة نوايا الملك الفرنسي، وليبحثوا معه في عقد معاهدة سلام معه، وأعلن الملك الفرنسي عن استعدادة لعقد معاهدة سلام إذا توفر شرط واحد هو: إذا أطلق سراح آرثر وسلم إليه حياً، فقد أمل فيليب أنه إذا ما اكتشف أن آرثر كان ميتاً، وقتها يمكنه أن يزوج أخته وبذلك يحصل على ممتلكاتها في القسارة، وعليه لم يكن الملك فيليب راغباً في اقام السلام، لأنه كان واثقاً أنه سيتمكن حالاً من تملك جميع أراضي الملك الانكليزي.

وفي هذه المرحلة لم يكن لجون أولاد، وكان إذا ماتوفي فسوف تترك أخت آرثر أراضيها.

ولهذا اقترح الملك فيليب دوماً شيئاً محرجاً، أو غير ممكن، وكان هذا دأبه خلال المناقشات، فقد أراد إلحاق العار والذل بالملك جون، وأبلغه عزته الملكية وينسفها، وأظهر دوماً غضبه بشأن وفاة آرثر، الذي سمع بأنه أغرق في نهر السين، ولهذا أقسم أنه لن يتوقف عن إثارة الحرب ضد جون حتى يجرمه من مملكته كلها.

وحشد فيليب في أيام عيد الفصح جيشاً، وحاصر قلعة فالي، التي مالبت أن استولى عليها بدون مقاومة، ثم وصل إلى كين :aen وبسلام تسلمها من قبل السكان هناك، واستولى بعد هذا على كام

المنطقة حتى بارفلور Barfleur وتشيربورغ Cherbourg ودومفرونـت Domfront واشترى سكان روان وفيرنول Verneuil والذين يتولون حراسة قلعة آركوي Arques هـدنة أربعين يوماً من ملك فرنسا، حتى يكون بإمكانهم إرسال رسل إلى الملك الانكليزي لمعرفة قراره، لأنه إذا كان مولاهم غير قادر على مساعدتهم، أو غير راغب بذلك، وقتها يمكنهم الاستسلام إلى سلطان الملك فيليب بدون صراع عنيف.

وبعثوا على الفور برسلهم إلى انكلترا، ببعثة فيها مافيها من التعاسة، وطلبوا من الرسل أن يبينوا الحالة التعيسة في نورماندي، وأن يطلبوا منه القيام بانقاذهم، ومهما يكن الحال، لم يعطهم الملك جون العون لأنه خاف من خيانة بعض رجاله، وعاد الوفد حزيناً وقلقاً، وهكذا استسلمت مدينة روان التي لم تقهر بعد، واستسلم سكان فيرنول وآركوي معاً إلى الملك فيليب.

وهكذا خضعت في وقت قصير لسلطان الملك فيليب: نورماندي العنيدة، وأنجوى وبريتاني، ومين، ومقاطعة تور، وحدث هذا كله وفاقاً مع نبوءة ميرلين Merlin التي قالت في هذه السنة: «سوف يفترق السيف عن الصولجان»، أي ستفصل نورماندي عن مملكة انكلترا، فقد مكث ملوك انكلترا دوقات لنورماندي لمدة مائة سنة وتسع وثلاثين سنة، من أيام الدوق وليم الذي استولى على انكلترا، حتى الملك جون الذي فقد هذه الدوقية مع الكثير من أراضي ماوراء البحار.

وكان طوال هذا الوقت هناك صراع عظيم فيما بين البواتوين وبين الأكوتينيين، فقد كان الأول مخلصين للملك جون تحت قيادة روبرت ثورنهام Tjornham في حين كان مع الآخرين وليم دي روشي والكونت هيوغ الذي غزا أراضي الملك جون، وكان الملك فيليب بمساعدتهم قادراً على الاستيلاء على كل بواتو تقريباً، باستثناء روشل

Rochelle التي صمدت بشجاعة ضد كلّ انسان لمدة سنة، ومثلها كانت قلعة شينون Chinon مع هيوبرت دي بيرغ فيها، فهي لم تستسلم إلى أعدائها طوال ذلك الوقت، وقاوم جيرارد دي آثي Ath- ee شحنة قلعة لوشي، بشجاعة ووقف ضد الثوار.

وساند الغسكونيون الملك الانكليزي، وأعطى الملك جون إلى موريف Moreve وكان واحداً من الغسكونيين، مبلغاً قدره تسعة وعشرين ألف مارك ليحشد جيشاً قوامه ثلاثين ألفاً، يتوجب قدومه لدى طلبه من قبل الملك جون، عندما سوف يعبر البحر، وكان رئيس أساقفة بوردو، وهو راهب مورافي، موجوداً في انكلترا للبحث في هذا العمل، وليعمل بمثابة رهينة مقابل المال.

وبنى الملك جون ديراً في نيوفورست حمل اسم بيولو Beaulieu وجلب إليه ثلاثين راهباً من رهبانية سيتو Citeaux.

جرى خلع ألكسيوس الامبراطور الضعيف للقسطنطينية من قبل قريبه مرزوفلوس، الذي أعلن عن نفسه امبراطوراً، وقام بقتال الجيش الغربي في عدد من المناسبات، وفي ردة فعل ضده وانتقاماً منه نهب الصليبيون القسطنطينية.

قامت القسطنطينية على مثلث من الأرض، طول الضلع فيه ستة أميال، وقالوا بلغ محيط المدينة ثمانية عشر ميلاً، وهذا معناه أن المسافة من زاوية إلى زاوية كانت ستة أميال، وكان ارتفاع الأسوار خمسين قدماً، وكانت هناك أبراج على طول الأسوار بين البرج والبرج الآخر عشرين قدماً، وكان أشهر القصور الامبراطورية في المدينة اسمه بلاشرين، ثم قصر قسطنطين وقصر بوهيموند، واحتوت المدينة على كنيسة لانظير لها اسمها آيا صوفيا، بناها جستنيان، وقيل دوماً بأن معيار بنائها مع

تزييناتها رائعة إلى درجة لا يمكن تصديقها، ومنح الأباطرة الكنيسة إيرادات كثيرة، ووضعوا فيها تسعمائة وخمسين كاهناً، ومن المؤكد القول على عهد الذين عرفوا المدينة، أنه كان فيها من السكان أكثر مما عاش بين مدينة يورك ونهر التيمز.

وعندما تم الاستيلاء على المدينة، وهرب الامبراطور ميرزوفلوس، جرى اتفاق عام على اختيار بلدوين كونت فلاندرز امبراطوراً، فقام على الفور بكرم منه فوزع ثلث ما كان من مال في الخزانة الامبراطورية، الذي بلغ مليوناً وثمانمائة مارك فضي، وزعه بين الأمراء اللاتين والجيش، وبدأ هذا المبلغ الضخم من المال مثله مثل أي شيء تعلق بثروات الاغريق، ومثل أبنية المدينة وأيا صوفيا، أمراً لا يصدق، لأن الذين عادوا من تلك المدينة قالوا بأن الدخل اليومي للامبراطور هو ثلاثين ألف بيربري Perpres والبيربري هو بنس ذهبي يساوي ثلاث شلنات من الفضة، كما منح أيضاً بكرم الأمراء وآخرين كانوا معه مناصب رفيعة وتشريفات، وكثيراً من الأعطيات الثمينة، وبعث إلى الملك فيليب الذي كان من قبل مولاه قطعة من العقيق، وكانت من أثمن المجوهرات، يمكنها اضاءة القصر كله بأشعة براقه حمراء، وثوبين ملكيين نسجا بالذهب بشكل رائع، وأحجار كريمة.

هناك في القسطنطينية عمود، بني في العصور القديمة من قبل واحد من رجال الكنيسة، حيث استخدم فنوناً ميكانيكية، فقد قيل بأن قاعدته بحركة دائمة، وفي أعلاه تماثيل ثلاثة أباطرة، ينظر أحدهم نحو آسيا، وآخر نحو أوروبا، وثالث نحو أفريقيا، وهناك اطار فوق التماثيل كتب عليه بالاغريقية بأنه بعد أن يحكم ثلاثة من الأباطرة اسم كل منهم ألكسيوس بلاد الاغريق، ستصل مملكة الاغريق إلى نهايتها، وستنتقل الامبراطورية إلى أيدي شعب غريب، ووقف على رأس الاطار تمثال رابع جاء فوق الجميع، وهو أكثر عظمة، وأعظم سمواً من التماثيل الأخرى،

وقد نظر نحو العالم الغربي ومدّ يديه نحو الغرب.

سنة خمس ومائتين وألف

كان الشتاء في سنة خمس ومائتين وألف شتاء قاسياً، وتجمد النهر، لذلك بات بإمكانك عبور نهر التيمز على الأقدام، وكانت الأرض قاسية لم يمكن فلاحتها من عيد الختان في الأول من كانون الثاني حتى عيد البشارة في ٢٥ آذار، وفي الحقيقة لحق التلف بالموسم الشتوي كله تقريباً بسبب شدة البرد، وبإادر الناس بسرعة إلى اقتلاع الخضار النامية، وحدثت مجاعة كبيرة في جميع أرجاء انكلترا، ولهذا بلغ ثمن بوشل bushel القمح الواحد [٨-غالون] ماركاً واحداً، وهو ما كان يكلف في أيام الملك هنري الثاني ١٢ بنساً، وبات ثمن المقياس الواحد من حبوب الفاصولياء والبالزلاء نصف مارك، وبلغت تكلفة البوشل الواحد من الشوفان ٤٠ بنساً، وهو ما كنا اعتدنا على شرائه بأربعة بنسات، وصارت النقود رديئة إلى درجة كبيرة وفاسدة بسبب قصصيتها وتقطيعها [إلى أنصاف وأرباع] حتى بات من الضروري تجديدها هذه السنة.

ووقع الآن بالأسر روبرت ثورنهام الذي صمد بشدة أمام الشوار البواتوين، والذي تولى أسره هو جيش الملك الفرنسي، وحدث الشيء نفسه لجيرارد دي آثي، فقد سقط مع قلعة لوشي التي دافع عنها بشجاعة كبيرة لمدة طويلة.

وقرر الملك جون، الذي كان قلقاً جداً، مع أنه أخفى حزنه وأسفه، أن يعبر البحر مع جيش كبير بغية استرداد الأراضي المفقودة، وكان قد ربح إلى جانبه نبلاء بواتو وغسكوني من خلال وعود سرية، وتلقى التحريضات بشكل مستمر من بعض نبلاء نورماندي، الذي شكوا

بحرقه من طغيان الملك الفرنسي.

وبناء عليه عقد الملك جون بعد عيد الفصح مجلساً استشارياً في نورثامبتون، ثم عبر البحر من بروشستر مع جيش كبير وجيد، والتحق به هناك حشد من السفن جاءت من عدد كبير من المراسي، وبعدما جرى توزيع السفن التي وصلت. على كل واحد من النبلاء، خصصت سفن للأطعمة، والعتاد، وحملت أخرى بمختلف أنواع الأسلحة، وعندما حلّ اليوم الذي باتت فيه السفن جاهزة للاقلاع، إذا برئيس أساقفة كانتربري والإيرل وليم مارشال قد عادا من بلاد ماوراء البحار، وذهبا إلى الملك لاقتناعه بأي ثمن ممكن ليتخلي عن الحملة.

ووضعوا أمامه مخاطر كثيرة يمكن أن تنجم عن عبوره: سيكون من الخطر جداً انزال القوات بين الأعداء من دون تأمين قاعدة، وسيكون بإمكان الملك الفرنسي قيادة جيش أكبر ضده، وبذلك يمكنه غزو البلاد كلها، وسيكون من الخطر الاعتماد على البواتيين المرائين والمتقلبين، الذين اعتادوا دوماً على التخطيط لعمل تآمري ضد أمرائهم، وسيكون بإمكان كونت بولون Boulogne مع شركائه غزو انكلترا إذا ماسمع أنها فارغة من قادتها ومن جيشها الشهير، وسيكون هناك خوف عظيم من أنه سيخسر الذي بين يديه من الأراضي وهو يحاول استرداد ما فقدته، خاصة وأنه لم يترك خلفه وريث واضح للمملكة، يمكنه أن يتسلم حكومة المملكة إذا ما حدث شيء سيء له في بلاد ماوراء البحار. ومع أن الملك سمع هذه الحجج وغيرها لم يكن من الممكن اقناعه بالتخلي عن خططه بالذهاب إلى ماوراء البحار، وأمسكه رئيس الأساقفة والإيرل وليم من ركبتيه وتعلقا به خشية أن يتخلص منهما، وأصرا على أنه إذا لم يصغ لما طرحاه يأخذ به سيمنعانه بالقوة، خشية أن تقع المملكة في لجة من الفوضى بسبب مغادرته.

وجاءت الضغوط إلى الملك من جميع الجهات، فمن جانب كان هناك

العارفيا لو تخلى عن خطته، وكانت هناك من جانب آخر الطلبات الملحة له بالبقاء، وسأل رئيس الأساقفة وهويبيكي وينوح عن رأي يكون عملياً أكثر لصالح المملكة وللحفاظ على سمعته الملكية، وكيف يمكنه تأمين المساعدة للذين كانوا ينتظرونه فيما وراء البحار، وعقد رئيس الأساقفة مجلساً استشارياً قرر وجوب إرسال بعض النبلاء الانكليز مع قوة معتبرة من الفرسان الأشداء، لتكون طليعة لقدم الملك.

وبعد وقت طويل اقتنع الملك مكرهاً بالبقاء وأخبر لورداته وفرسانه بالعودة إلى ديارهم، وطلب أن يحاسبوا على المبالغ التي دفعت في سبيل العبور، وعاد هؤلاء الرجال، الذين تحملوا الكثير من المصاعب، وأنفقوا نفقات عالية في هذه المناسبة، إلى ديارهم وهم ساخطون كثيراً، ومعهم أحمال الأطعمة التي جمعوها، ولعنوا رئيس الأساقفة والمستشارين الآخرين الذين أعطوا الملك مثل هذه النصيحة السيئة، حسبما بدت لكثيرين، وكان هذا صحيحاً بشكل خاص بالنسبة للبحارة الذين قيل بلغ تعدادهم أربعة عشر ألفاً، فقد جلبوا سفنهم من أماكن نائية، وانتظروا عبثاً لبعض الوقت، مع متاعب كبيرة، ونفقات عظيمة، وذلك في سبيل العبور، فلقد قيل إنه لم يجتمع قط مثل هذا العدد الكبير من السفن للابحار من ميناء انكليزي للجواز، ولم يحشد أبداً جيش أكبر في انكلترا فيه فرسان أشداء متشوقين للجواز مع الملك، فقد وصلت أخبار قدومهم إلى بلاد ماوراء البحار، فأوقعت الرعب في قلوب الفرسان الفرنسيين في نورماندي، حتى أن بعضهم تخلى عن القلاع والبلدات القريبة من البحر، وطلبوا السلامة في الفرار.

وعلى كل حال توجه الملك من ساحل البحر إلى ونكستر وهو حزين جداً، فقد استولى عليه الأسى وشعر بثقل في قلبه حمله في اليوم الذي تلا عودته من الشاطئ، على الابحار إلى جزيرة وايت Wight وظل هائماً على وجه البحر يمضي إلى هنا وإلى هناك لمدة يومين، وفي تلك الأثناء

كان رفاقه يحاولون ثنيه عن عبور البحر من دون الجيش الذي فرقه.

أما الذين مكثوا على البر فقد اعتقدوا مرجحين بأن الملك قد عبر، وأن أخباره انتشرت في جميع أرجاء المملكة، وعبر وقتها إيرل سالسبري، وهو أخو الملك، ومعه كثير من الفرسان، ووصل إلى روشيل Rochelle وكان قد عبر قبله بقليل غيوفري، الذي كان ابناً للملك جون من خلال خلية، ووصل مع عدد كبير من الفرسان.

أما ما كان جرى جمعه من مبالغ مالية ضخمة، وحجم المؤن التي احتيج إليها في إعداد السفن، والأغذية التي جمعت والمخازن ليس من السهل تعدادها.

وكان خلال ليلة عيد القديس يوحنا المعمدان في ٢٤ حزيران، رعد خفيف وبرق قدم من السماء عبر انكلترا، وضرب مخلوق عملاق مربع (تنين) بالبرق في كنت، قرب ميدستون Maidstone مع صوت تدمير كبير، وقد تبين أن له رأس أتان، وأمعاء انسان، أما أطرافه العملاقة الأخرى فلم تكن تشبه أطراف أي مخلوق آخر من أنواع الحيوانات، ونادراً ما تجرأ أحد على الاقتراب من جسده الأسود، الذي احترق بالبرق، وذلك بسبب الرائحة التي لا تحتمل التي صدرت عنه.

وفي ٢٩ تموز كان هناك رعد وصواعق مرعبة ممائلة، وأصوات صدرت عن تلاقي البروق من خلال اصطدام الغيوم فوق جميع أرجاء انكلترا، وكانت مرعبة إلى حد أن كثيرين اعتقدوا أن يوم القيامة قد جاء، وغدا أناس كثر وحيوانات بلا عقل تقريباً بسبب الخوف، وملاً الرعب والندر المملكة بأسرها، وهلك رجال ونساء في كثير من المناطق بسبب اصابتهم بالصواعق، وأصيب حيوانات أيضاً، وضربت بيوت وأحرقت، وأتلفت محاصيل بالبرد النازل الذي كانت في بعض الأماكن حياته كبيرة بقدر بيض الأوز، واجتشت أشجار من جذورها وحملت بعيداً، وبرم بعضها

مثلاً يرم الحبل، وانشطربعضها إلى قسمين.

وفي اليوم التالي شوهدت آثار أقدام عملاق مرعب في عدد من الأماكن، وكان من النوع الذي لم يرم من قبل أبداً، وقال الناس إنها آثار أقدام شياطين أرغمت على الفرار إلى هنا وهناك بقوة الصواعق الصادرة عن الملائكة الجيدين، كما قال أرميا في الوصايا، فقد صبّ الملائكة الطيبون غضبهم على القدماء بالشهب والقذائف، وبذلك حموا السماء بوساطة الصواعق والبرق المتصادم، وبرزاز من النشاب دمروا العدو، وأرغموه على الالتجاء إلى ظلمات باطن الأرض، لأن الملائكة امتلكوا قوى نارية على رؤوس أصابعهم، بإمكانهم بوساطتها احراق الحجر وتفتيته إلى قطع صغيرة، واقتلاع الأشجار وجرها، ومهما بلغت قوة تفجر غضب الانسان، إن آلافاً من الناس يمكن أن تموت بضربة واحدة من ملاك واحد، وهذا مايمكن للفلاسفة أن يناقشوا حوله أكثر من سواهم.

وغادر هيوبرت المبجل، رئيس أساقفة كانتبري، كانتبري مع جماعته، وقصد بوكسلي لإرساء السلام فيما بين رهبان روشستر وأسقفهم، وعانى أثناء سفره من مرض مزدوج تمثل بالحمى والقرحة، لذلك قصد عزبته في تاينهام، وهناك، بعد مضي أربعة أيام، أنهى حياته يوم ١٣ تموز، فقد قصم المرض ظهره عند الفقرة الثالثة من عموده الفقري، وهو ماكان ينجل في أن يريه للذين كانوا معه في حجرته لأن أعضائه الداخلية كانت ستظهر.

والدرس المستفاد من قرحته الخطيرة، والذي يمكن تعلمه هو أن المريض إذا ما شعر بآلام في الصدر أو بدأ بالتعرق، فهذا معناه أنه في خطر الموت، ومن الممكن معالجة هذا الداء بوساطة مزج قدر متساوي من صفار البيض والملح، ووضعه على موضع الداء، وتجديده باستمرار، وينبغي أن يأكل المريض الخبز والماء حتى يبرأ جسده، وانتبه عندما تخرج الدم، خشية أن ينتشر المرض بين العروق، ولو أن رئيس الأساقفة لاحظ

الداء مبكراً وبسرعة، لكان بإمكانه استخدامه هذا العلاج، الذي لا يخفق حسبما أخبرني الأطباء.

وصف كوغشال بعد هذا موت رئيس الأساقفة بالتفاصيل، لكن تاريخه انحرف عندها ليروي سلسلة من المواد الحولية، وتناول الرواية جيرفاس، الذي كان راهباً في كانتبري، والذي حياته الدرامية وروايته الحيوية مشوبة بتكريسه نفسه لكاتدرائته الرهبانية.

في ١٢ تموز مات رئيس الأساقفة هيوبرت، وبعد ثلاثة أيام بادر الملك جون مسرعاً إلى كانتبري، وتحدث بلطف زائد مع الرهبان حول استخلاف رئيسهم وأعطاهم بعض الأمل، أن باستطاعتهم اختيار واحد من كنيستهم، وعندما سمع أن رئيس الأساقفة الشهير والنبيل قد ترك لهم بيعة محمولة في وصيته تساوي ثلاثمائة مارك [٢٠٠-جنيه] سألهم بهدوء رؤيتها، وعندما رآها حملها إلى ونشستر، وأعطى إلى أسقف ونشستر ما كان أخذه من كنيسة المسيح، وبعد هذا سأل رئيس رهبان ورهبان كانتبري ألا يقوموا بالانتخاب قبل عيد القديس أندرو، في ٣٠ تشرين الثاني، وقد وافقوا على طلبه.

وبعث الملك بالوقت نفسه سراً برسل إلى روما، وعندما سمع الرهبان بهذا بعثوا بعدد من أفرادهم مع نائب راعيهم إلى روما أيضاً، خشية أن يطلب الرسل الملكيون أي شيء يضر بمكانة وحقوق كانتبري، وعلى الفور كتب الرسل الملكيون إلى الملك يقولون بأن رهبان كانتبري قد انتخبوا نائب راعيهم وبعثوه إلى روما، وانزعج الملك لدى سماعه هذا وذهب إلى كانتبري بعد عيد القديس أندرو، وسأل الرهبان عما إذا كانوا قد انتخبوا نائب راعيهم أو أي واحد آخر، فأصروا على أنهم لم يقوموا بأي انتخاب، وليبرهنوا عما قالوه وفعلوه، قاموا ببناء على نصيحة

وموافقة جميع الكهنة والرهبان فانتخبوا أسقف نوروك، ووسط الغناء، اقتادوه إلى داخل الكنيسة، ووضعوه على كرسي رئيس الأساقفة، وأخذوا قبلة السلام.

وبما أن الملك وافق على انتخابهم، بعث الرهبان برسلك إلى روما للحصول على الطيلسان، لكن الرهبان الذين كانوا قد ذهبوا إلى روما، عارضوا الانتخاب، وذلك على الرغم من تحريم الدير لهم الاقدام على ذلك تحت طائلة عقوبة الحرمان، ولقد ادعوا بأن أسقف نوروك لم ينتخب من قبل الرهبان، بل فرض من قبل الملك باستخدام القوة، وأن الانتخاب بلا قيمة.

سنة ست ومائتين وألف

وبعد وقت طويل، قام الرهبان الذين نالوا التفويض من دير كانتربري، بأن يقوموا بانتخاب اعتماداً على السلطة البابوية، قاموا بعد تقديرات وافية، وبموافقة من البابا، فانتخبوا السيد المبجل ستيفن لانغتون Langton كاردينالاً، واحتراماً من البابا للملك بعث إليه برسائل طلب فيها موافقة الملك، وكان الذي فعله الملك، الاصغاء لنصائح شريفة، فرفض اعطاء الموافقة، وعلى كل حال سأل فيما إذا كان جميع الرهبان قد وافقوا على انتخاب ستيفن لانغتون، ورد الدير أنهم سوف لن يتخلوا عنه، وبناء عليه أقسم الملك الغاضب أن مامن واحد منهم سوف يبقى في كنيسة كانتربري، ولاحتى في انكلترا.

سنة سبع ومائتين وألف

[رسم ستيفن لانغتون رئيساً لأساقفة كانتبري في روما يوم ١٧ - حزيران]، وبناء عليه تم طرد جميع الرهبان من كانتبري يوم ١٥ تموز، وجرى استقبالهم بتشريف في بلاد ماوراء البحار من قبل دير القديس بيرتن، وتباهى الملك بنصره الرائع، وعبثاً كتب رسائل إلى الراعي هناك أن يحاول طرد الرهبان.

ولد في هذه السنة هنري، أول مولود للملك جون من خلال الملكة ايزابيلا ابنة كونت أنغوليم، وكان هذا حدثاً حيوياً في أهميته، فالآن امتلك جون وريثاً ذكراً.

غادر انكلترا أسقف لندن، وأسقف إيلاي وأسقف هيرفورد، وأسقف تشستر ورئيس أساقفة يورك، الذي كان أخاً للملك، ومعهم عدد كبير آخر، وأغنياء وكذلك فقراء، لأنه لم يعد في مقدورهم تحمل طغيان الملك، ولم يبق ولا واحد في البلاد يستطيع أن يخالف إرادته، وكان أساقفة درم، ولنكولن وتشستر قد ماتوا، وفقط بقي أسقف ونكستري تمتع بحظوة الملك، وكان أسقف نوروك في أيرلندا، وتحمل أسقفاً روكستر وسالسبري كثيراً من الأذى، ثم غادرا إلى اسكوتلندا.

سنة ثمان ومائتين وألف

كان الملك نفسه هو السلطة الوحيدة في البلاد، وهو لم يخش لا الرب ولا الانسان، وكان البابا مزعوجاً نتيجة للمضايقات التي تعرضت لها

الكنيسة في كانتبري، وبعث برسائل أمر فيها الملك باستقبال رئيس أساقفة كنيسة كانتبري ورهبانها، وأن يعيد إليهم مقتنياتهم المصادرة، وراسل الملك روما، ووعدّها بأنّه سوف يقوم بالتعويض عن كلّ شيء، في سبيل الرب، والكنيسة المقدسة، والبابا، وعندما سمع البابا بأن الملك قد تاب فرح فرحاً عارماً، وبعث إليه برسائل غفران، وعندما عاد الرسل إلى انكلترا، بعث رئيس الأساقفة بأسقفين وراهبين، ليتسلموا مقتنيات كنيسة كانتبري، وعندما سمع الملك ما جلبه الرسل من روما، غضب كثيراً، وأقسم أنه لم يرسلهم لهذا الغرض، وجرى استدعاء المستشار الملكي الذي كتب الوعود الأصيلّة وعليها خاتم الملك، ومع ذلك أنكر الملك أنه وافق عليها.

وبناء عليه انسحب الملك من المباحثات، وكذلك فعل الأساقفة وكلّ واحد آخر، وفي ٢٤ آذار، جرى بناء على قرارات بابوية، تعليق الخدمات الدينية في جميع أنحاء انكلترا، وعمّ الأسف الكبير والقلق خلال البلاد، ولم يحتفل لابلجعة الحزينة ولا بأحد الفصح، لكن عمّ صمت لم يسمع بمثله، فرض على جميع رجال الدين والرهبان من قبل رجل علماني، ولم يعد من الممكن دفن الموتى من العاديين أو من رجال الدين في المقابر المكرسة، بل فقط في الأماكن الدنسة والملوثة.

وأمر الملك أيضاً بطرد العدد القليل من الرهبان الذين بقوا في كانتبري، وكان هؤلاء من العميان والمعوقين، وأن يُعدّ الرهبان بمثابة أعداء عامين، وهرب بعضهم من انكلترا، وسجن بعضهم، وجرى الحفاظ على بعضهم بالمال، وعانى آخرون من مصاعب جمّة، فقد قطعت أشجارهم، وجرى تغريم رجالهم وفرضت عليهم ضرائب ثقيلة، وعانت انكلترا كلها من هذه الأثقال، وأرغم الشعب على أن يدفع أولاً ربع أمواله، ثم الثلث، وبعد ذلك النصف، حتى أجور الكرادلة وكلّ ما كان لهم في انكلترا قد انتزع، وانتزع بنس بطرس الذي كانت الكنيسة

الرومانية تحصل عليه من أيام كنوت Cnut فقد آل هذا كله إلى الملك، وفرض بشكل خاص مكوس كبيرة في هذه المناسبة على الموانئ الخمسة التي كانت تدافع عن السواحل ضد الغزوات العدوانية، ولهذا الغرض شق بعض سكانها، وقتل بعضهم الآخر صبراً، وسجن الكثير، وغلهم بالحديد، وبعد وقت طويل أطلق سراحهم مقابل عهد الولاء والمال، ولهذا غادر الفقراء والأغنياء انكلترا، وشكلوا أعداداً لا تحصى من الرجال والنساء، وكان سفرهم حجاً غير مشكور لتجنب الهمجية الهائلة للملك وليس عملاً دينياً أو للتقوى، وسجن جون حتى زوجته الملكة، ووضعها تحت الحراسة المشددة في قلعة كورف Corfe.

سنة تسع ومائتين وألف

لدى سماع البابا بهذه النوازل وماشابهها ومعه جماعة آباء الكنيسة الانكليزية، بعث إلى ملك انكلترا برسائل إعدار وإنذار، حذره فيها بضرورة الابتعاد عن أعماله الشريرة والاقلاع عنها، وأن يعيد كنيسة كانتبري إلى وضعها الأصيل، وإلا من المؤكد أنه سوف يعاني من الحرمان الكنسي، الذي سيتلفظ به البابا شخصياً بشكل علني، ولن يقتصر الحرمان العلني للملك على انكلترا، ولكن سيشمل المناطق الأخرى أيضاً، واهتم جون — على كل حال — بالإنذار البابوي قليلاً، وتجاهل التحذير.

وأرسل الملك رسائل إلى الملك وليم ملك اسكوتلندا، وكان رجلاً متميزاً بتقواه، وأمره إما أن يسلم إليه ثلاث قلاع على الحدود، أو ابنه بمثابة رهينة، وعندما لم يرغب الملك الاسكوتلندي في تلبية أوامره، أراد ملك انكلترا أن يستولي بالقوة العظيمة على مالم يستطع الحصول عليه

بالرجاء، وأن يعيد القلاع الثلاثة إلى مملكته.

وعندما أخذ ملك انكلترا الطريق نحو اسكوتلندا مع قوة كبيرة، بدأ جنده يتململون قائلين: «إلى أين نحن ذاهبون؟، ماذا نحن صانعون؟ إننا مثل الكفار، خوارج على شريعة الرب وعلى المسيحية، لماذا يتوجب علينا محاربة ملك اسكوتلندا المقدس؟ لأنه مؤكد أن الرب سوف يقاتل لصالحه وضدنا، وسيصنع المعجزات من أجله».

ولدى وصول هذا وغيره من حكايات جند الملك إليه، وخشية منه أن يحدث ويتخلى الجيش كله عنه ويتركه أثناء القتال لوحده، أمر غيوفري فتزبيتز، ورئيس الهيئة القضائية وإيرلات آخرين أن يبحثوا مسألة التصالح مع الكنيسة في كانتربري وفي انكلترا، وأن يستدعوا بسلام رئيس أساقفة كانتربري وأساقفة آخرين ورهبان إلى انكلترا، لأن البابا كان قد أمر هؤلاء الأساقفة بتلفظ قرار الحرمان على الملك.

وبناء عليه أرسل غيوفري فتزبيتز رسائل مستعجلة إلى أسقف لندن، وسأله القدوم مع أساقفته إلى انكلترا بالسرعة الممكنة، بقدر ما يجب شرف الرب والكنيسة وسلام الملك والمملكة، لأن الملك قد أعطى السلطة الكاملة إلى الأساقفة لإقامة سلام مع كنيسة الرب.

وبينما كان الأساقفة يستعدون للعودة إلى انكلترا، والملك في طريقه إلى اسكوتلندا مع الجيش، أخذ ملك اسكوتلندا يشعر بالخشية على سلامة مملكته، وفضل كثيراً أن يمتلك السلام على اللجوء إلى السيف، وأن يزود شعبه بالحكمة بدلاً من الحديد، ولهذا بعث بابتيه مع رسل أمناء إلى ملك انكلترا، وذلك من أجل أن تتزوج احدهن ابن الملك والأخرى واحداً من النبلاء الانكليز، كما أرسل ابنه، لكن ليس رهينة، بل ليقدم الولاء اللائق والتبعية إلى الملك بشأن القلاع المذكورة مع الأراضي التي بحوزته، وهكذا تم استرداد سلام مملكة اسكوتلندا، وعاد الجميع إلى

ديارهم.

ووصل الآن الأساقفة إلى دوفر يملكون كامل الصلاحية لإبرام سلام، ووافقوا بعد كثير من المباحثات على شكل من أشكال السلام الذي تمت كتابته والتوقيع عليه، وهكذا جرى تعليق قرار الحرمان المفروض على الملك وتأجيله لمدة خمسة أسابيع.

فاحتشد بناء على أمر من الملك جميع الرجال الأغنياء والفقراء والوسط في انكلترا ممن تجاوز سن الخامسة عشرة، احتشدوا في مالبرو، ليقسموا هناك يمين التبعية للملك ولابنه هنري البالغ من العمر ثلاث سنوات، على أنه وريثه. وعندما رأى الملك وسمع صيغة معاهدة السلام التي أبرمت بموافقة كثير من الناس، بعث برسلك مع رسائل طالباً من رئيس أساقفة كانتربري الاجتماع به في دوفر للتباحث.

وبناء عليه، عبر رئيس الأساقفة البحر، وانتظر الملك حتى يصل إلى دوفر، وعندما سمع الملك بهذا جاء إلى قلعة تشلهام Chilham التي لم تكن بعيدة عن دوفر، وقد جاء مسرعاً جداً ومسلحاً تماماً.

وانتظر رئيس الأساقفة هناك، بينما انتظره رئيس الأساقفة في دوفر، وتأثر الملك ببعض الألسنة ذات التغرير الشريرة، فغير موقفه حول الاقتراح، وغادر فجأة، وقام رئيس الأساقفة بناء على نصيحة النبلاء، فعبر البحر، وعاد إلى فرنسا، وجرى حرمان ملك انكلترا من قبل عدد كبير من رجال الكنيسة، وذلك بناء على أوامر من البابا، وجرى حرمانه في فرنسا أيضاً.

وولد في هذه السنة رتشارد، وهو الابن الثاني للملك جون.

سنة عشرومائتين وألف

استخرج الملك في خطة جديدة، مبالغ لم يسمع بها، من اليهود الانكليز، ذلك أنه أمر بشنق بعضهم، وبسمل عيون بعضهم الآخر. تمتع اليهود لوقت طويل بحماية ملكية صعبة مقابل جعل قسم من أرباحهم متوفراً لخزينة الدولة، ودفعت محاولات جون الهمجية لاستخراج مبالغ كبيرة منهم، إلى مغادرتهم انكلترا كلياً.

ولم يوفر جون رجال الدين في بحثه عن المال، وعندما اجتمع رعاة ديرة الرهبانية السسترشيانة مع بعضهم سألهم أن يساعده ليس بصلواتهم بل بأموالهم، وعندما رفض طلبه بتواضع كامل، غادر الاجتماع مغضباً، وقاد الجيش والأسطول اللذين اعتقد الناس أنه أعدهما للذهاب إلى بواتو، لقد قادهما إلى ايرلندا، وبسرعة أخضعها بالقوة والخديعة، ومع أن الكثيرين عارضوه، لم يكن بإمكانهم مقاومته، وفرض هناك القوانين الانكليزية والعادات، وأمرهم بمراعاتهم والأخذ بهم، ثم عاد إلى انكلترا.

وأمل كثيرون أنه بسبب هذا النصر، سيعمل الملك على تدارك أفعاله السيئة التي اقترفها بحق كنيسة الرب، وأنه سيحاول اصلاح أخطائه، لكن غضباً جديداً صدر عنه خاصة نحو السسترشيان، الذين لم يستطع أن يستخرج منهم أي مال لبالقوة ولا بالرجاء، ولهذا شردهم بين مختلف كنائس انكلترا، وبذلك أرغموا على التسول من أجل الحصول على الطعام، ولم يسمح حتى لرعاتهم بعبور البحر للاتحاق بمجامعهم، ولم يعط الإذن بالعبور حتى إلى راعي دير بوليو Beaulieu الذي كان قد أعطاه موقعاً جميلاً في «النيوفورست» لبنى عليه ديراً.

وأرسل جون رسائل مع رسل إلى رئيس أساقفة كانتربري، طالباً منه القدوم إلى انكلترا، حتى يمكنهما التباحث معاً حول السلام في دوفر، وعندما بات كل شيء جاهزاً للعبور، تلقى رئيس الأساقفة رسائل من بعض النبلاء الانكليز الذين كانوا مخلصين له، أخبروه فيها ألا ينخدع في قدومه إلى انكلترا، وأن يتجنب كائن أعدت له، وهكذا عاد إلى فرنسا، ذلك أن ملك انكلترا كان مليئاً بالاجرام إلى حد أنه نادراً ما كان صادقاً أو وفياً مع أي شيء كتبه أو قاله، فهو لم يحفظ لوعوده ولاعهوده.

أرسل الملك جيشاً كبيراً إلى ويلز تحت قيادة أخيه وليم وإيرل تشستر، وقد عاث الجيش فساداً في محيط تلك البلاد، وقتل عدداً كبيراً من مختلف الناس، وقال كثير بأن نبوءة ميرلين قد تحققت في قوله: «سوف يهدم السادس أسوار ايرلندا» و«سوف تخضع بدايته لطبيعته المتقلبة»، وكان الملوك هم: وليم الأول، ووليم الثاني، وهنري الأول، وهنري الثاني، وبعد ذلك رتشارد، وكان السادس هو جون الذي استولى على ايرلندا، لكن كل بقية الأشياء كانت عبثية وبلا منفعة.

انتهى تاريخ جيرفاس بحوادث سنة ١٢١٠، وهي السنة التي توفي فيها، ويزودنا المؤرخ الواسع المعرفة، لكن المجهول، والمعروف باسم صاحب حوليات بارنول **Barnwell** بروايات ثمينة حول السنين الدرامية الأخيرة لحكم جون.

سنة إحدى عشرة ومائتين وألف

قاد ملك انكلترا جيشاً إلى ويلز ضد ان «ليويلين» Lewellyna لكنه عاد مسرعاً، لأنه الويلزيين، خافوا من زحفه، فانسحبوا مع أمتعتهم إلى الجبال، ولهذا عانى الجيش الانكليزي من المجاعة، لكنه

بعدها جمع كميات كبيرة من المؤن، كان الملك على الفور قادراً على القيام بحملة أخرى ضد ويلز، وفي هذه المرة مع قوة كبيرة، ووفرة من المؤن، وبذلك فرض على الويلزيين تقديم رهائن له، وبعدها نجح في تدبير أموره كما رغب، عاد مكللاً بالمجد.

ولم يكن الآن ولا واحد في إيرلندا واسكوتلندا، أو ويلز إلا وانحنى أمام إشارته، وهي حالة — كما هو معلوم — ما من واحد من أجداده قد حققها، وبدأ الآن ناجحاً تماماً، ويمتلك مستقبلاً واعدداً جداً لخلفائه، فيما عدا إنه أخفق بشكل مروع في أراضيهِ الأجنبية، وكان خاضعاً لحكم الحرمان الكنسي.

وبعثت روما باثنين من الرسل البابويين لمصالحة الكنيسة الانكليزية، لكنها غادرا قبل أن يحققا أي سلام، ولم يجلبا أية منفعة إلى التعساء.

وحدث أن عدداً كبيراً من الغزلان تجمعت مع بعضها في الغابة الانكليزية المعروفة باسم كانوك cannock، وبعد كثير من الاضطرابات المعوية المزعجة، وكثير من الأثين رموا بأنفسهم إلى البحر عند مصب سيفرن severn، ووجدوا بين الغزلان خشفاً له رأسين وثمانية أقدام.

وكان هناك خسوف تام للقمر يوم ١٨ — تشرين أول. وتوفي سمسون أسقف بري سينت آدموند، وروجر شحنة تشستر.

سنة اثنتي عشرة ومائتين وألف

انتهت قوة المغاربة التي تنامت بقوة وفخار كبير في الأندلس، لأن جيشهم قد سحق على أيدي الأمراء المسيحيين، بعدما تراجع في فوضى

وخوف، وعدل عن حملته الجريئة.

اجتمع الأطفال في جميع مدن فرنسا مع بعضهم ، وكان هذا أمراً مدهشاً لكل من رآهم ، وكانوا حيثما ذهبوا ، يجتمع الأطفال ، وكأنهم لا يستطيعون البقاء منفردين ، بل يتوجب عليهم التجمع على شكل كتل، وصحيح أن واحداً منهم لوحظ أنه كان في الخامسة عشرة من عمره، وهو من أهل باريس، لم يكن سواه ممن احتشد قد تجاوز الثانية عشرة، وعندما سئل الأطفال عما هم عازمون على فعله، أجابوا أنهم ذاهبون لحمل صليب المسيح.

انتهت حركة الأطفال الغريبة والعفوية بشكل مأساوي، فقد أسر الجيش من قبل تجار الرقيق وبيعوا إلى المصريين .

شاهد رزاز من الدم في كين caen في نورماندي يوم السبت ١٠- تموز، وشاهد في اليوم نفسه في فالي ثلاثة صليبان معاً في السماء وكأنهم يتبارزون.

وسمح في انكلترا كلها للمؤمنين الذين اقتربوا من نهايتهم بتناول قربان الموت المقدس لجسد مولانا، وكان هذا قد طوّل به من قبل الكهنة في الدير، الذين سمح لهم بالاحتفال بالقداس المقدس مرة واحدة في الاسبوع.

ووقعت في مدينة لندن نار غير اعتيادية ومرعبة على الضفة اليمنى لنهر التيمز، قرب كنيسة كهنة سيدتنا في ساوثورك Southwark وعندما عبر حشد كبير النهر، إما لإطفاء النار، أو للمشاهدة، فجأة وقعت النار في الجزء الشمالي، بسبب أن الريح الجنوبية كانت هابة، وهكذا حدثت الاعاقة باللهب المتصاعد للذين كانوا يعبرون الجسر عائدين، ثم إنه عندما تأثر الطرف الآخر من الجسر بالنار، باتوا محجوزين، وكأنهم بين

نارين، وتعرضوا للضغط من كل طرف على حدة، حتى باتوا لا يتوقعون سوى الموت.

ثم جاءت بعض السفن إلى عونهم، لكن أعداداً كبيرة اندفعت إليها بحماسة مما سبب غرقها وهلاك كل انسان، وعدّ هذا فاجعة كبيرة من قبل الشعب، ولقد قيل بأن ثلاثة آلاف قد ماتوا إما في النار أو في غرق السفن، وبدأ أن سوء الحظ الذي كان من المتوقع نزوله بانكلترا، قد جلب دماراً أعظم على العاصمة.

وفي الوقت نفسه حدث شيء آخر جعل الناس العقلاء مندهشين، ففجأة وبدون سبب محدد، انطلق بعض الناس وكأنهم هجروا عقولهم، وجالوا من بلدة إلى بلدة في جميع أنحاء انكلترا، ينفخون بالأبواق التي يدعونها الانكليز النفر Hue وعندما قيل إن هذا يمكن فقط أن يحدث لدى اللحاق بالمجرمين، وبما أنهم كانوا لا يلحقون بأي انسان، توقعوا أنه سيكون هناك اضطراب أعظم في المستقبل القريب.

وكانت السماء في الخريف، حتى ٨ أيلول، يوم عيد ميلاد مولاتنا، صافية، والطقس مشرقاً، ثم حدث فجأة هطول مطر مفاجئ ومتزايد بدون توقف، وقد أحدث أضراراً كبيرة لحقت بالانكليز، لأن ربح الشتاء كانت قوية إلى درجة أن حجارة الأبراج سقطت إلى الأرض.

وعندما وصل وليم ملك الاسكوتلنديين إلى سن لم يعد قادراً فيها على تهدئة الأجزاء النائية من مملكته، التي اضطربت بقلقل وحرب أهلية، هرب هو والملكة وابنتها الوحيد إلى الملك الانكليزي ليطلبوا مساعدته، وقدم الولاء إلى جون، الذي رسمه فارساً، ثم ذهب مع جيش توغل إلى أقصى أطراف المملكة، وأسر كوثرد Cuthred الذي عرف باسم ماكوليم، وكان قائد العصاة، وشنقه، وكان ماكوليم من أفراد أسرة ملوك الاسكوتلنديين القدماء، وكان مثله مثل أباه الذي قاتل لأمد طويل ضد

الملوك الحاليين، أحياناً بشكل سري، وأحياناً بشكل علني، لكن دوماً بشكل عدواني، بالاعتماد على مساعدة السكوتلنديين والاييرلنديين، ولأن معظم الملوك السكوتلنديين الحاليين كانوا متأثرين كثيراً بالفرنسيين، وهكذا حدث أن الفرنسيين فقط عوملوا بصداقة واحترام، بعدما جرى إخضاع اللغة والثقافة السكوتلندية.

وتشجع الأمراء الويلزيين من قبل البابا، الذي حللهم من كل من الاتفاقية التي عقدها في السنة الفائتة مع الملك الانكليزي، ومن الولاء والأيمان التي قطعوها على أنفسهم، وشرعوا يقاتلون الملك الانكليزي مقابل التساهل في تطبيق الحرمان الكنسي عليهم في بلادهم كلها، وانفجر الملك جون بغضب عنيف، فشنق الرهائن، وحشد جيشاً للزحف ضدهم من جميع أجزاء المملكة، ثم إنه عندما حشد جيشاً عظيماً لم ير مثله قط من قبل في أيامنا، قضى الرب بهزيمة قواته.

ثم اضطرب قلب الملك جون، لأنه كما قيل بات بلا سلطة، فقد سمعت أقاويل وإشاعات تفيد أن البارونات الذين اجتمعوا معاً كانوا يتآمرون ضده، وانتشرت في كثير من المناطق حكايات تحدثت عن رسائل حللت البارونات من طاعة جون والولاء له، وقيل بوجوب انتخاب ملك آخر بدلاً عنه، وأن جون ينبغي طرده من المملكة، وإذا ما قبض الملك عليهم فليسوف يعانون من الموت أو من السجن مدى الحياة.

وبعدما أعلن الملك عن عودته، بدأ يتصرف بشكل سيء، وكان لا يذهب إلى مكان إلا وهو مسلح أو وهو مرافق بقوة كبيرة من الرجال المسلحين، وإثر إلقاء القبض على بعض من بدا أنه قريب جداً من الثوار، استولى بسرعة على قلاع الإيرلات والبارونات، لذلك كان هناك عدم استقرار لبعض الوقت.

ثم إن بعض نبلاء البلاد باتوا يخشون إما من غضب الملك أو من

وسواس الضمير، لذلك غادروا انكلترا بشكل سري، فقد جرى استقبال يوستاس دي فسكي Vesci في اسكوتلندا، وذهب روبرت فترز وولتر إلى فرنسا، وإثر ذلك تمت مصادرة مقتنياتهم وأمولاكهم، كما أن قلعة روبرت في لندن، المسماة قلعة ريموند أزيلت من الوجود مع قلاع وحصون أخرى، ثم بدأ الملك يقيم تقديراً أعظم لشعبه، وظلت البلاد صامتة.

حتى في وسط الأجواء العدوانية، حرك جون عملاً عظيماً وله ذكرى طيبة، فعندما شرع المشرفون على الغابات في إيذاء الناس في أجزاء كثيرة من انكلترا، بزيادة الضرائب المفروضة، ورأى الملك التعاسة التي لحقت بالناس، وبخهم تماماً، وأرغم الموظفين المسؤولين عن الغابات أن يقسموا أنهم لن يستخرجوا من الضرائب إلا المبالغ التي اعتادوا على جمعها في أيام أبيه.

وكبح الذين فرضوا ضرائب جديدة، والذين ضايقوا الناس بفرض أتاوات جديدة بحجة حراسة الموانئ، وتعرضوا للرحالة والتجار، وألغى الأتاوات الجديدة، حتى يقال بأنه رحيم ومهتم بالحفاظ على شروط السلام، واستعداداً منه لإقامة سلام مع البابا، انتزع من جميع رجال الكنيسة التأكيد بكل ماأخذه منهم، في كل مناسبة من المناسبات، منذ بداية حكمه، فهذه الوسيلة كانوا سيلطفون مطالبهم كثيراً بشأن ماأخذ منهم، ولقد أكدوا المنح التي أعطوه إياها بصكوك مختومة، ومن ثم جرى ارسال الرسل إلى الحبر الأعظم، بكل طريقة كان من الممكن اتباعها.

ولقد روي من قبل بعض الناس، أنه رأى رؤيا، أنذر فيها بضرورة اصلاح مسالكه، وإلا فإنه كملك سيشعر بالانتقام الرباني قبل نهاية السنة.

وكان هناك رجل يدعى بيتراوف ووكفيلد Wakefield بسيطاً

ومتقشفاً يعيش على الخبز والماء، وكان قد ادعى للناس أن بإمكانه الاخبار عن المستقبل، وقد بشر بأن حكم جون لن يستمر أبعد من عيد الصعود المقبل، لأنه كشف له بأن الملك جون سوف يحكم لمدة أربع عشرة سنة، وأن هذه الأشياء التي بدأت خلال تلك الأربع عشرة سنة ستصل إلى نهاية سعيدة، وعندما سئل بترفيا إذا كان الملك سيموت أم سيطرده أو سيتنازل عن العرش، قيل بأنه رد عليهم بأنه لا يعرف، والذي يعرفه فقط هو شيء واحد، هو أنه لن يحكم أية مدة أطول، لاهو ولا أي انسان من أتباعه لصالحه، مالم يقضي الرب بذلك، وهو لم يخف هذا عن الملك.

ونظر إليه في البداية على أنه أحق، وسخر منه سجانوه على أنه مجنون، لأنه عندما كان يتجول في الساحات ينشر أفكاره، ألقي القبض عليه من قبل مؤيدي الملك، واحتفظ به في الاعتقال، وبدا أنه واثق من نفسه ومقدرها تقديراً عالياً، وبات يعتقد أن اسمه، الذي كان حتى وقت قصير غير معروف ومزدري، أصبح الآن مشهوراً بإلقاء القبض عليه، وتكلم عن كل شيء، وأضيف كل يوم كلمات مزيفة من الناس العاديين إلى نبوءاته المزيفة، وعزي إليه كل يوم أقوالاً جديدة وأكاذيب قيل بأن بتر هذا قد قالها في قلبه.

وكان هناك خسوف للقمر يوم عيد القديس مارتين، في ١١ تشرين الثاني، أثناء الهزيع الأول من الليل، وتوفي جون كومن Cumin أول رئيس أساقفة لدبلن، ونتيجة لهذا أصبحت المدينة من ممتلكات المملكة الانكليزية، ومات أيضاً موغر Mauger أسقف ووركستر، وغيوفري أخو الملك، الذي كان رئيس أساقفة يورك في المنفى.

سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف

اشتكى الأساقفة الانكليز الذين كانوا في المنفى في فرنسا، إلى البابا، باسم الكنيسة الانكليزية، وتجاوباً من البابا مع شكواهم قرر الموافقة على وضع حد للشروع، فكتب إلى فيليب ملك فرنسا، وإلى أمراء تلك المناطق، أنه مالم يستسلم ملك انكلترا، عليهم القيام بتحرير انكلترا من حكمه بوساطة جيش قوي، ولم يعد هناك أدنى حاجة لرجاءات مطولة وإعذار وإنذار، لأن الملك فيليب والأمراء كانوا مبالغين لهذا النهج من العمل منذ زمن طويل، وذلك بسبب كراهيتهم لجون، وبسبب حبهم للمال وللذهب، لأن المتداول وقتذاك هو أن البلاد تلك زاخرة بالثروات.

وشجعوا بعضهم بعضاً، وأعدوا أنفسهم بكل شيء ضروري، ببناء بعض السفن وجمع أخرى من الشواطئ التي من حولهم، وقرروا أن الأسطول ينبغي أن يقلع معاً من ميناء واحد، وانتظر الملك الفرنسي شخصياً تجمع السفن في مكان ليس بعيداً عن البحر، وعندما جرى تقدير لحجم جيشه تبين أنه ضمّ مالا يقل عن خمسة عشر ألف رجل، وتواردت السفن كل يوم على الموانئ والفرسان على القلاع.

وسمع ملك انكلترا بهذا، فحشد أسطولاً كبيراً من جميع موانئ انكلترا، وعين لسفنه رجالاً أشداء بارعين باستخدام السلاح، يمكنهم مع قوة كبيرة مقاومة هجوم العدو، وبذل جهوداً كبيرة لمقاومته، وإلحاق الضرر به وتعطيل خططه، وأقدم حتى على عرض تحرير الأتقان من أجل أن يتولوا الدفاع عن المملكة وحماية شخص الملك، وقد جاءوا لهذه الغاية مسلحين، واجتمع هناك حشد لم يرمثله في أيامنا، وقد وزعهم بين الموانئ، حيث الخوف من المخاطر وحيث السفن، واحتفظ بالجيش كله معه قرب دوفر، أما بقية الأسطول فانتشر قرب الشاطئ ليس بعيداً،

وأعدت الشواني مثل ذلك للحرب.

لكن قلب الشعب كان متذبذباً من السهل تحويله إلى هذا الجانب ثم نحو ذلك الجانب، وفي الوقت نفسه تبخرت شجاعة الرجال وتلاشت من الخوف ومن توقع وصول الأعداء الذين اعتقدوا أنهم سيصلون مع تيار المدّ المقبل، وأرعبت كلمات بيتر الكثيرين، لكن في يوم عيد الصعود، الذي قال بأنه سيكون يوماً حاسماً بالنسبة للملك بدأ العديد يراودهم الشك.

وفيما هم هكذا معلقين بسبب التوقعات، فجأة وصل جماعة من رسل الملك كان قد أرسلهم إلى روما في سنة خلت، جاءوا إليه مسرعين كثيراً، وأعلنوا أن قاصداً رسولياً بابوياً قد بعث معهم، وكان اسمه باندولف Pandulph وقد تطوع شخصياً للقيام بتنفيذ الأشياء التي أمر بها، وعهد إليه بها.

وكان الجانب الأعظم أهمية في أوامره: ينبغي أن يقسم قبل ١- حزيان أربعة من أكثر الرجال أهمية في المملكة، لصالح الملك ونيابة عنه بحضوره وبأمره، أنه إذا مابعث البابا رسالة اتفاق موقعة إلى الملك، يعد الملك بالشئ نفسه في رسائله المعتمدة، ويختم الاتفاقية مع رئيس الأساقفة والأساقفة. وإلا فإن وقت أقصى العقوبات وأشدّها لم يأت بعد.

ما الحاجة إلى كثير من الكلمات؟ لقد ألهم الملك من قبل الذي بيده قلوب الملوك، وسعى لكسب السلام والحصول عليه، وكان الذين أقسموا على الاتفاقية المشار إليها والمكتوبة من قبل البابا هم:

رينو كونت أوف بولون، ووليم إيرل وارن Warene ووليم إيرل فيرير Ferrers ووليم إيرل سالسبري، وهو أخو الملك، وعندما كمل هذا وعد الملك الشئ نفسه في رسائله وفقاً للشكل الذي أقسم عليه هؤلاء الأربعة لصالحه.

وبمبادرة من الملك أضاف مايلى: ينبغي خضوع مملكته كلها، أي انكلترا وايرلندا للرب، وللحواريين المقدسين بطرس وبولص، وبرغبة منه وعن طوعية ومن أجل أن يتم الاتفاقية، يجب أن يدفع هو وورثته ألف مارك سنوياً إلى البابوات كرمز على خضوعهم، أي سبعمائة مارك عن انكلترا وثلاثمائة عن ايرلندا، وذلك دون أن يؤخذ بالحسبان دفع بنس بطرس، وأقسم بالوقت نفسه يمين ولاء وتبعية للبابا انوسنت الثالث ولخلفائه من بعده، وتم الإعلان عن هذا كله أمام الناس على شكل رسائل معتمدة، نشرت على صورة موثيق.

ثم أكدت الحوليات أن خضوع جون للبابا كان خطوة حكيمة، فذلك جعل من الصعب محاربته خوفاً من ردات الفعل الانتقامية للبابا.

وأخذت الأمور تتحسن الآن بالنسبة لجون، فتحالف مع كونت فلاندرز ضد فيليب الثاني ملك فرنسا، وهزمت سفنه الأسطول الفرنسي في معركة بحرية، غير أنه بقي معوقاً في بولون خشية منه أن تصبح نبوة ووكفيلد عن موته حقيقية.

ثم جاء يوم عيد الصعود، في ٢٣-أيار، الذي علقت عليه آمال كثيرة، وبأمر من الملك نصبت خيمته في المعسكر في بولون، وتركت مفتوحة تماماً، وجرى قداس عام لإمضاء نهار العيد على شكل وقور مع الملك، وكان نهاراً جميلاً، بالنسبة لبهجة الملك وسروره نفسه، مع الأساقفة والبارونات الذين اجتمعوا هناك، ومضى النهار بصحة تامة وسعادة، واعتقد الآن الذين وضعوا ثقتهم في بيوتر أنه أحق، وأنهم خدعوا بعقل ساذج، فقد توقع نهاية الملك يوم ٢٣-أيار، في حين أنه حسبما كشف له برؤياه، ينبغي أن تنتهي الأربع عشرة سنة لحكم الملك يوم ٢٧-أيار، وباتوا الآن أقل ميلاً لتصديقه.

وعندما حلّ يوم ٢٧-أيار، وهو اليوم الذي توج فيه الملك قبل أربع عشرة سنة، مرّ النهار بسلام، وبات الوقت متأخراً بالنسبة للذين صدقوا النبوءة حتى يتراجعوا عن اعتقادهم وتصديقهم الساذج، ولم يكن هؤلاء الناس من بين أوساط الناس العاديين، لكن كانوا من بين النبلاء وحكماء العالم وعقلائه.

واقترح على الملك في الوقت عينه، أن يترقد سبب انتشار الفوضى في البلاد، وعمم الرعب والقلق بين الناس، وأن هذا قد شجع أعداء الملك، لأن كلماته قد حملت إلى أقصى أجزاء فرنسا، وعدّت بمثابة تحريض على غزو انكلترا، وأغضب هذا كله الملك، لذلك أمر بوجوب شنق بيتر، وزاد على هذا بأن ابنه الذي كان مسجوناً معه ينبغي أيضاً أن يشنق، خشية إما أنه كان شريكاً في نبوءات أبيه، أو أنه هو الذي صنعها.

ثم عندما رأى الملك أن مملكته تعيش بسلام، وأن مامن شيء يخشى من جانب الفرنسيين، سعى إلى نقل كل تجهيزاته الحربية إلى بواتو، لكن كثيراً من النبلاء أصغوا بدون رغبة لاقتراحه، وكانوا غاضبين تجاه القيام بحملة طويلة الأمد، ليس من السهل عليهم تحملها لأن خزائن أموالهم كانت منهكة.

وهكذا أعيقت نوايا الملك، وبما أنه عدّ البارونات هم المحرضين على ذلك والمسيبين، كان لابد وأن ينتقم فيما بعد، لولا أنه منع بتدخل الأساقفة ورؤيس الأساقفة.

وعاد من القارة في شهر حزيران: ستيفن رئيس أساقفة كانتبري، والأساقفة: وليم أوف لندن، ويوستاس أوف إيلاي، وجايل أوف هيرفورد، وجون أوف باث، وكانت عودتهم من منقاهم مع جميع رجال الدين والعلمانيين الذين كانوا بالمنفى معهم، وأعيدت جميع مقتنياتهم إلى كل واحد منهم كاملة، مع صداقة الملك، وبعد وقت قصير جرى تحليل

الملك من الحرمان بشكل علني وطقوسي مهيب من قبل رئيس أساقفة كانتبري تبعاً لعادات الكنيسة، وبعدما تلقى قبلة السلام من رئيس الأساقفة نفسه ومن بقية الأساقفة، اقتيد إلى داخل الكنيسة ليشارك بالقداس، ونفذ هذا وسط بهجة عظيمة من كل الناس.

وفي هذه الآونة ألهم الرب البابا انوسنت الثالث ليوجه حملة صليبية لمساعدة بلاد القدس ولتقدم الكنيسة الرومانية، ولأن بعضاً من متقدميه قدم في وقت مضى العون إلى الأراضي المقدسة، بدا غير لائق، أنه وهو الذي لم يكن أدنى قوة ولا حماساً في عمله، أن يظهر أقل فاعلية فيما تولاه، ولاحظ على كل حال أن الهرطقة في تلك الأيام كانت رافعة رأسها، وأن عدداً كبيراً من الأمراء كانوا محرومين كنسياً، وكثيراً من البلدان كانت أيضاً تحت عقوبة الحرمان الكنسي أيضاً، لذلك كان من الصعب عليه حشد حملة صليبية، وبما أن كثيراً من الأشياء الغريبة قد نمت في كرم الرب، توجب ضرورة بترها، لانقاذ الانجيل، ولهذا دعا البابا إلى مجمع عام ليتولى صياغة هذه المهمة، وبعث بكثير من الرجال ذوي الفعالية من عنده، ليبشروا بالكلمة المتعلقة بتحرير الأراضي المقدسة، وجميع أجزاء العالم الروماني، ولاكتشاف ماهي الأخطاء المتوجب تصحيحها.

غدت فرقة كارثر **Carthar** الهرطقية قوية جداً في لانغسوك **Languedoc** ودعا البابا انوسنت الثالث لحملة صليبية، استهدف أن تتوجه بشكل خاص ضد ريموند كونت طولوز، الذي اعتقد أنه مؤيد للهرطقة، وكان أعظم الشخصيات مكانة في القوات الصليبية هما: كل من سيمون دي مونتفورت والأمير لويس، ابن فيليب الثاني ملك فرنسا، واستمر الصراع العنيف والهمجي بشكل متقطع حتى سنة ١٢٢٩، وسبب دماراً مريعاً في لانغسوك، وجعل المنطقة تحت اشراف التاج الفرنسي.

ثم حدث أن جاء إلى انكلترا المبعوث البابوي نيكولاس أسقف توسكولوم Tusculum وكانت هناك عدة أسباب لبعثته هي: على الملك أن ينفذ بحضوره الوعد الذي قطعه للكنيسة الرومانية المقدسة، وتمّ تنفيذ ذلك. ثم في حوالي ٢٩-أيلول، أبرم الملك اتفاقاً تبعية مع نيكولاس بحكم كونه الممثل للبابا، وأعطاه أيضاً صكاً مختوماً بالذهب، وألف مارك، وهو المبلغ المقرر دفعه سنوياً، وجاء دفعه بمثابة دليل على طاعته، ثم استقبله الملك وأصغى إليه بشكل مفتوح.

وعندما صنع هذا كان جون قد بدأ بإزالة العادات الشريرة من مملكته، وذلك بناء على نصيحة من الأساقفة وتحريض، فقد منع تحصيل المال بالعنف، وألغى المكوس المؤذية التي فرضها عماله وموظفوه، وكان هذا بسبب أن العمال والموظفين الأدنى، كانوا عندما يجمعون الضريبة السنوية، التي يحق لهم وحدهم جمعها، كانوا يستخرجون المزيد من المال من فقراء المقاطعات، وقد عزل الذين مارسوا الشره، وعيّن آخرين، ممن كانوا على استعداد للأخذ بنصائح الرجال العقلاء، ومن كانوا سيعملون لصالح أبناء بلدهم من الريفيين بسلام وهدوء وليس بالغش بالمال، وزاد على هذا أنه أقام مساءلة دقيقة حول هذه المسألة، حتى يعرف كم من المال المستخرج من قبل وزرائه قد تسلمه هو بالفعل، لكن هذا لم يكمل قط لأن الرعب والاضطراب تدخلا، عندما جرى استدعاء جميع الرجال إلى حمل السلاح بسبب التعرض للغزو الفرنسي.

وخلع النائب البابوي راعي دير وستمنستر، وراعي دير ايفشام.

وكانت هناك اجتماعات متعددة بين الملك والأساقفة بشأن عقد مجمع للكنيسة، لكن عندما لم يكن هذا من الممكن عقده، استمر الحرمان إلى السنة التالية. وجرى استدعاء ملك أراغون من قبل بعض رجاله لتقديم العون لهم ضد سيمون دي مونتفورت، قاهر الهراطقة، فقد قتل بالمعركة من قبل الصليبيين مع كثير من رجاله، وعدد كبير من

الهراطقة غير المشهورين. ومات غيوفري فتزيتو، رئيس هيئة العدالة في انكلترا.

سنة أربع عشرة ومائتين وألف

عبر ملك الانكليز إلى بواتو مع جيشه في بداية شباط، ومكث هناك حتى أيلول، واسترد جزءاً واسعاً من الأراضي التي اغتصبها فيليب، ملك فرنسا، في وقت مبكر، وتصالح مع عدد كبير من أعيان الرجال، وقاد هؤلاء معه في الجيش.

وطلب فيراند، كونت فلاندرز، بعدما طُرد من مقاطعته بوساطة الملك فيليب، ملك فرنسا، العون من أوتو الرابع، امبراطور الألمان، ومن الملك جون، وأبرم معاهدة معهم، ونظراً لوثوقه بعونها عاد إلى فلاندرز، وهو ينوي استرداد كل شيء من أيدي الملك الفرنسي، بوساطة قوات هذين الرجلين اللامعين، وكذلك خاصة مساعدة وليم، إيرل أوف سالسبري، الذي هو أخو الملك، ورينو كونت بولون، فقد جاء هذان الرجلان معاً لمساعدة فيراند مع جيش كبير.

وعندما بعث الملك الفرنسي ابنه لويس ضد فلاندرز، التي احتشدت فيها أعداد كبيرة من البشر مع بعضها، ثم إنه بعدما طوقت حدود فلاندرز، ونظمت العساكر وعبثت، وقعت المعركة عند جسر بوفين Bouvines بين مورتين وتورناي، يوم الأحد في ٢٧-حزيران، وبعد مقتل أعداد كبيرة في الصراع، أمسك الملك الفرنسي براية النصر، ووقع بالأسر المحاربين المتميزين التاليين: بلوتو Pluto وفيراند كونت فلاندرز، ووليم أوف سالسبري، ورينو أوف بولون، وكيل أوتو، ومائة وخمسين من الفرسان الآخرين ذوي المكانة الرفيعة.

وبعد هذا حشد الملك فيليب جيشاً ضد ملك انكلترا، لكن بعدما تدخل القاصد الرسولي، عقدت هدنة بينهما لمدة خمس سنوات، وذلك لصالح الذين اقترحوا القيام بالرحلة إلى القدس، وعندها عاد الملك فيليب إلى فرنسا، ورجع الملك جون إلى انكلترا.

وعامل في الوقت نفسه أسقف توسكولوم Tusculum الذي عمل كقاصد رسولي بين الشعب الانكليزي، الملك بمنتهى اللطف، وعالج شؤون الكنيسة بأخلاق رضية، ومن أجل تأخير إقامة سلام بين الملك والأساقفة، توصل إلى اتفاقية مع وزراء الملك فيما يتعلق بالكراسي الكنسية الشاغرة والديرة، وتلقى سفراء البابوية الذين انتخبوا لهذه الكراسي رسائل تتعلق بالدين المدان به الملك للكنائس كتعويض على نفيتهم، أي أن عليه أن يدفع تعويضات قليلة كل وقت في أثناء السنة المقبلة، وإذا ماتعهد الملك القيام بهذا العمل، عندها ينبغي رفع الحرمان عن انكلترا، وكان هذا ماجرى تنفيذه، ورفع الحرمان بوساطة مجمع عقد في لندن، وذلك بعدما قدم الملك ترصيات حول هذه المسألة في ٢-تموز، وكان ذلك بعد ست سنوات، وثلاثة أشهر، وستة عشر يوماً من تاريخ فرض الحرمان.

وإثر عودة الملك من بواتومباشرة، جرى استدعاء نيكولاس أسقف توسكولوم من مهمته كقاصد رسولي، من قبل البابا، حيث قيل بأن المهمة ينبغي أن تطبق في انكلترا بنشاط أقل، ثم عندما لاحظ الملك أن الذي اعتمد عليه قد سحب، لذلك كان أكثر سلمية وتصالحاً في تعامله مع الأساقفة، وبعدها أرضاهم مباشرة فيما يتعلق بجميع الأذى والأضرار، أعطاهم بمثابة تعويضات كثيراً من التكريات والتشريفات والمزارع، وأزعن في هذه الآونة لتسليم أسقفية روكستر إلى رئيس أساقفة كانتربري، ورعوية دير ثورني إلى أسقف إيلاي، أي أن تقول أرضهم، مادام الملك يملك الحق في فعل ذلك.

وأمسكت أسماك ذات مظهر غير طبيعي في انكلترا، وبدأت وكأن على رؤوسها خوذ وتحمل ترسة، وبدأت إلى حد بعيد وكأنها جيش من الفرسان، مع أنهم كانوا أكثر عدداً بكثير.

ومات غلبرت أسقف روكستر، وكذلك جون أسقف نوروك، وهو عائد من روما حيث كان يتباحث من أجل الملك، ومات أيضاً وليم ملك السكوتلنديين.

وفي حوالي ٨-أيلول، يوم عيد ميلاد العذراء مريم المباركة، ثار البحر وتدفقت مياهه بفيضان غزا الشاطئء وسبب كثيراً من الأضرار في انكلترا.

وقام نزاع بين الملك جون وبين بعض نبلائه فيما يتعلق بتعويض البدلية العسكرية التي طلبها منهم، والتي رفضوا دفعها، كما ورفضوا اتباعه إلى بواتو، ورفض بعض البارونات الشماليين — وهم النبلاء الذين أعاقوا في سنة منصرمة عبور الملك إلى بواتو — قائلين إنه لايتوجب عليهم اتباع الملك إلى خارج البلاد في مقابل الأراضي التي في حوزتهم منه في داخل انكلترا، كما لاينبغي عليهم مساعدته في البدلية العسكرية، ومن جانب آخر طلب الملك المساعدة التي أعطيت إلى التاج في أيام أبيه وأخيه، والتي كان من الممكن استمرار دفعها لولا تدخل القاصد الرسولي، وأحضر البارونات ميثاقاً بمنحهم بعض الحريات من قبل هنري الأول، وطالبوا بتأكيدا لهم من قبل الملك.

سنة خمس عشرة ومائتين وألف

اجتمع في لندن البارونات الذين طالبوا بميثاق الحريات مع شركائهم، وقيل كان من ضمنهم بعض الأساقفة، وقابلوا الملك.

وعندما طلب الملك إزالة العدوانية في النزاع الجديد لم يصنع إليه بأدب ولطف، لسبب بين أسباب أخرى: مرّ زمن طويل حيث امتلك نوايا مختلفة في قلبه، وبعدما تدخل بعض الأفراد، حدد موعد للملك ليعطي جواباً نهائياً، وكان ذلك ٢٦ نيسان، وأكد الملك للنبلاء كتابة انه إذا لم يعط جوابه في ذلك اليوم، عندها يمكنهم مغادرته واحداً واحداً والعودة إلى أراضيهم، وعندما نشر هذا الميثاق، وافق كلّ انسان على ما اقترح فيه، وكان الجميع على قلب واحد وإرادة واحدة: أي أنهم مكرسون للدفاع عن بيت السيد، ويقفون مع حرية الكنيسة والمملكة.

وقرر الملك من جانبه، انه طالما هذا قد صنع، على كلّ الناس في انكلترا كلها أن يقسموا له انهم سيقفون معه ضد جميع الناس وضد هذا الميثاق، وذلك بالاضافة لليمين المعتاد، وعندما لم يصنع إليه عن طواعية، وبدأت التعليقات والاعتذارات تعمل، وتوقف عما بدأ به، ولكي لا يدع وقتاً لتحريك ثورة بين الشعب، أرسل حينها رسلاً إلى البابا يشكون إليه أن الشعب استعد للقيام ضده، وذلك على الرغم من أيماهم بالتبعية له، وعرف من خلال بعض رفاق الرسل أن هذا كان قد تقرر قبل أيام كثيرة، ومن جانبهم تشكى البارونات ضد مكوسه غير العادلة، وضد طغيانه.

ومات في تلك الآونة يوستاس أسقف إيلاي، وكان رجلاً صاحب سلطان عظيم، وعلى نصيحته اعتمد — كما قيل — شطر أساسي من هذه المباحثات.

وحمل الملك الصليب في لندن من وليم أسقف لندن، ومع الملك وبعده فعل الشيء نفسه العديد من أتباعه، وبعضهم فعل ذلك بناء على تحريضه، ولقد أعطاهم صليباً أبيض، حسبما جرت العادة في أيام أبيه وأخيه، لأن هناك عادة قديمة بأن الانكليز كانوا يتميزون بالصليبان الأبيض، وتميز الفرنسيون بالحمراء، وفسر بعض البارونات عمله بشكل مفاجيء، وقالوا إنه لم يفعل هذا بدافع التقوى ولا لحيه للمسيح، ولكن

من أجل أن يجرمهم من اتخاذ قرار، وسمعوا بأنه استدعى أجناب لمساعدته، فاجتمعوا مع بعضهم ولم ينتظروا حتى يوم ٢٦ نيسان، الذي جرى تحديده.

وعندما ردّ الملك بقسوة على البارونات، بوساطة رسّله، عزموا على عدم التعامل معه بالسبل السلمية مرة ثانية، وعاد كلّ منهم مسرعاً إلى أراضيّه من أجل تحصين قلاعهم ولطلب العون، وبدأوا يعدّون الخيول والسلاح.

وبناء عليه اجتمعوا مع قوة عظيمة في أسبوع الفصح، وذلك توافقاً مع الاتفاقية التي عقدها، وجاء معظمهم من المناطق الشمالية، ولهذا عرفوا باسم الشماليين، ثم زحفوا إلى نورثامبتون، دون القيام بأي عمل عدواني، وذلك باستثناء الظهور بالاستعداد للحرب، وانضم إليهم هناك غايل Giles أسقف هيرفورد، وغيوفري دي ماندفيل، وروبرت فترز وولتر، مع آخرين كثر من الذين كان لديهم بشكل رئيسي شيء ماضد الملك.

وحاول بالوقت نفسه الملك أن يستردهم إلى صفه من خلال كثير من الرسائل، وكان هناك نقاش كثير فيما بينهم، وشغل رئيس الأساقفة والأساقفة وبارونات آخرين دور الوساطة، وكان الملك نفسه مقيماً قرب اكسفورد.

وفي نهاية هذا المؤتمر، الذي انعقد ليس بعيداً عن بريكلي Brackley أرسل البارونات رسائل تحدي للملك، ثم غادروا ومعهم رجالهم عائدين إلى نورثامبتون، وفيما أعلامهم ماضية أمامهم أعدوا أنفسهم للقتال، وبعدما أغلقوا الأبواب ومركزوا الحراس عند الأسوار بدأوا بالهجوم على الحصن الذي كان في المدينة، لكنهم أعيقوا لأنه لم يكن لديهم آلات ومعدات حصار، ولهذا أرسلوا إلى مؤيديهم في كل من

القرب والبعد بوجوب حضورهم وجلب قواتهم معهم.

وجلبوا إلى صفوفهم عدداً كبيراً، خاصة من الشباب، أي من أبناء وأحفاد البارونات الذين رغبوا في صنع اسم لهم في الحرب، وانقسمت البيوتات على بعضها عدوانياً، فقد وقف الآباء والشيوخ إلى جانب الملك، في حين وقف الأبناء والشبان مع خصومه، ونعرف حتى بعضهم ممن عبر إلى الجانب الآخر حباً لأبنائهم، وكانت هناك الجماعة التي لم تنضم إلى الثوار في البداية، لكنها فعلت ذلك فيما بعد، إما لأنها كانت صديقة للسعد، أو لأنها كانت ممن يحب الأشياء الجديدة، ولقد قيل بأن كل من الاسكندر ملك الاسكوتلنديين وللويلن Llewellyn أمير شمالي ويلز، كانا على عهد معهم.

ودعا في هذه الأيام رئيس أساقفة كانتبري إلى مجمع ديني اقليمي يعقد في اكسفورد، وبعدما وصل بعض الأساقفة تأثرت المداولات الجادة باضطرابات المملكة، لذلك غادروا.

وعندما اجتمع الذين تقاطروا في قوة شديدة، اتهموا الملك بأشياء كثيرة، وبعدما اتهموه أدانوه، وقالوا بأنهم لايجوز أن يبقوه ملكاً، وجمعت أصواتهم قوة، وقامت مؤامرة قوية ضده، وجرى تعيين قادة للجيش، أطلق عليهم اسم قادة (مارشالات) جيش الرب، وبعد مضي وقت قصير زحف حوالي الخمسمائة فارس نحو لندن، وكان النهار الأحد، والناس في الكنائس، وفي تلك الأثناء، تقدم بعضهم أمام البقية مع بعض الشركاء من المدينة، وزحفوا خلسة نحو الأسوار، وتسلقوها، ثم فتحوا الباب الأول فالباب الثاني، وسمحوا لرجالهم بالدخول، وقد قيل بأن رجال الملك كانوا وقتذاك مع الجزء الأكبر من سكان المدينة جاهلين بما كان يحدث.

وهل هناك المزيد لقوله؟

وأسروا الذين قاوموهم، وانضم إليهم البقية، فغدت المدينة في أيديهم، وأقاموا دوريات الحراسة فوق الأسوار.

واحتشد في هذا الوقت عدد من الناس، تقودهم الروح نفسها، واجتمعوا مع بعضهم في دوفن، وقاموا أولاً باحتلال المنطقة الخارجية للمدينة ثم اختبأوا إثر هذا في الغابة، لكن عندما علموا أن بعض الناس قد استولوا على عاصمة المملكة، خرجوا من الغابة واندفعوا بقوة لا تقاوم، فاستولوا على بيوت الملك، وبعدما نهبوا وأفسدوها مع حداثقه، انفجرت أسارير الكثير من القلوب، فقتلوا في كل مكان واقترفوا أعمال نهب وسلب، وانفجر الاضطراب في نورثامبتون، وتم قتل عدد كبير من رجال الملك الذين كانوا متمركزين هناك على أيدي سكان البلدة، وبعد عدة أيام أكلت النيران الشطر الأكبر من البلدة.

ثم جمع الملك المساعدات حتى يكون قادراً على الحفاظ على ذاته بسلام، وحصن حصونه وقلاع، وشحنها بالرجال والمؤن، ثم أرسل بعض الرسل سراً إلى الأجزاء الأجنبية لطلب العون من الأمم الأخرى، وأرسل رسلاً آخرين إلى البابا، يشكو بحرق هؤلاء الذين قاتلوا ضده، ولم يثق البارونات برجال الملك الذين كانوا في لندن، والذين كانوا ما يزالون يفكرون بالأمر، ولم يتخذوا قرارهم، لهذا بدأ البارونات بإنشاء آلات الحصار والشروع بحصار الحصن الذي يعرف بقلعة (برج) لندن، وسمع بهذا الذين كانوا ما يزالون في الأجزاء الشمالية من البلاد، فشرعوا بالقوة والإطراء يعملون في سبيل الاستيلاء على المواقع هناك، وبعدما حشدوا جيشاً قوياً، احتلوا لنكولن في أسبوع أحد الشعانين، واستعدوا حتى لحصار القلعة، التي ظلت صامدة.

وبعدما رأى الملك أنهم قد حشدوا قواهم، بدأ من خلال بعض الناس، وخاصة من خلال رئيس الأساقفة، الذي احترامه كثيراً، يسألهم إقامة سلام، ووعدهم بصدق، أنه ليس هناك من شيء سوف لن يفعله

لصالحهم، مقابل الحصول على السلام، واتفقوا على مكان يمكن للفرقاء الاجتماع به بشكل موثم، وبعد كثير من المداولات اتفقوا على عقد سلام مع الملك، وقد أعطاهم كل ما أرادوه وأكد هذا في ميثاقه.

كان هذا ميثاق مرسوم اصلاحات، وقد قصد منه، على الرغم من الايحاءات العابرة إلى الطبقات الدنيا، حماية البارونات ضد الطغيان الجشع للملك جون.

واستقبل الذين جاءوا هناك بقبلة سلام، وجددوا يمين التبعية، وأكلوا وشربوا معاً، وحُدد يوم لآتمام السلام، عندما يتوصلون نهائياً ويحققون ماعقدوا عزمهم عليه، وأعاد الملك بشكل مرضٍ العدل إلى كل مكان، ورفع الحصارات التي كان قد بدأها، وسلم وتخلّى عن البيوت والقلاع التي استحوذ عليها بيديه، أو التي كان أخوه رتشارد قد أخذها وهي قلاع:

ماونتسورل Mountsorrel وروكنغهام Rockingham وكولشستر Colchester وعدد كبير آخر، وجرى على الفور الإعلان عن سلام عام، وتوقف الذين كانوا في لندن، والذين كانوا في لنكولن عن الأعمال العدوانية.

وسويت المسائل واستقرت الأمور، لكن يالأسف انبعثت مشكلة جديدة أسوأ من الأولى، وسببها العدو الذي يكره السلام ويصنع الاضطرابات، ففي أثناء المحادثات ذهب بعض البارونات من وراء الهمبر Humber وتخلّوا عن التسوية، وجددوا الأعمال العدوانية، بحجة أنهم لم يكونوا حضوراً، وخلقوا فوضى، وبدأ أنهم يستهدفون الآن إيجاد الفرصة لإزالة الصداقة التي دشت، لأن الملك نفسه لم يثق بهم وهم رفضوا الاقتراب منه .

وجرى استقبال بعض الثوار الآخرين من قبل اللندنيين، وبدأوا بترميم

الدفاعات الفتوية، وحصن آخرون القلاع التي كان الملك للتو قد تخلّى عنها، أو التي كانت بحوزتهم وكأنها ملك وراثي لهم منذ زمن طويل، وكان هناك آخرون قاموا حتى ببناء حصون جديدة.

وجرى بالوقت نفسه تداول نسخ من الميثاق في البلدات والقرى، وكلّ من رآه وافق عليه، وكان الملك هو الذي أمر بذلك.

ثم أرسل الملك رسله إلى المقاطعات لينبه العمال بالعمل على حفظ السلام، لأن عملهم هو حفظ السلام في المقاطعات، ومراعاة الشؤون الملكية، لكن عندما وصل الرسل إلى الأجزاء التي كان فيها النبلاء المذكورين أقوياء، بعضهم ألقى القبض عليه، وطرد بعضهم الآخر من دون أذى.

وعندما سمع الملك بهذا توجس أن اليمين الذي توجبت مراعاته لها قصد به جانبه، لأن الميثاق قال ينبغي ارغام الملك على مراعاة شروطه، وبسرعة بعث برسل آخرين إلى البلدان الأجنبية، وأرسل مستشاره رتشارد مارش إلى البابا، الذي عقد اجتماعاً دائماً للكرادلة للعناية بمصالحه.

وعرض جون قضيته لأن مجمع اللاتيران كان وشيك الانعقاد، ولأنه عرف أن بعض النبلاء كانوا يتآمرون من أجل خلعه، وحاول بوعود كبيرة أن يربح إلى جانبه الملك الفرنسي، لكنه أحبط، لأن الآخرين الذين أعطاهم الملك الفرنسي وعوداً سرية ومساعدات كانوا قد سبقوه، ولأنه كانت هناك عداوة بينه وبين الملك الانكليزي منذ وقت طويل مضى، باستثناء الأوقات التي كانت تتمتع بالهدوء بسبب الهدن.

ومن جديد كان هناك الكثير من النهب وأعمال السلب، ومكث الملك في أماكن حصينة، بينما تجول البارونات بكل حرية ذهاباً وإياباً عبر المنطقة، لكن حتى الآن لم يقتربوا من الشعب، ولم يتعرضوا له لأنهم رأوا أن وقت الحصاد قد اقترب، وركزوا على نهب جميع المزارع الملكية

بقدر الإمكان، وكذلك البيوت التي كانت بالشمال، وأفرغوا الغابات ببيع الأحرار وقتل أعداد هائلة من الحيوانات البرية.

وعندما رأى رئيس الأساقفة وجميع الأساقفة أن البلاد آيلة للدمار، ذكروا الآن الملك، وفي آن آخر البارونات، لإقامة السلام، ولدى رؤيتهم أن كل من الثوار والملك قد أعدوا أنفسهم للسلام، وباتوا جاهزين لذلك، تقرر أن يجتمع الملك ومعه رجاله في اكسفورد، والبارونات ورجالهم في بريكلي، وتحدد موعد ذلك يوم ١٥ - آب، وهو عيد رفع مريم العذراء المباركة إلى السماء، وهناك يسير الوسطاء فيما بينهم، وعندما يكملون عملهم سيكون بإمكانهم إماتة خلافاتهم، ودفن عداواتهم.

واجتمع في اليوم المحدد جميع الأساقفة والبارونات قرب اكسفورد، واصطفوا على شكل صفوف معركة، وأرسل الملك معاذير بوساطة رجاله قال فيها إنه عندما جاء إليهم، جاء لالرفض أي شيء، لكن بعد السلام الأول لحق به إيذاء عظيم، وأضرار بالغة، ينبغي تصحيحها، وهامهم جاءوا في هذا اليوم، عندما كان من المؤمل القدرة على بناء سلام، مسلحين، ومعهم حشد هائل، لذلك بات غير أمين أو ينصح بالسماح بالوصول إلى الملك.

ثم جرى إعلان قرار الوصاية البابوية، وقد أمرت رئيس الأساقفة وأساقفته أنه يتوجب عليهم حرمان المتمردين على ملك انكلترا وعلى أعدائهم، وكذلك عليهم القدوم لحضور مجمع اللاتيران، تحت طائلة الحرمان المؤقت، وجرى تفويض أسقف ونشستر، وراعي دير ردينغ، وباندولف نائب رئيس الشمامسة في الكنيسة الرومانية، الذي كان صديق البابا، بتولي أمر تنفيذ قرار الوصاية هذا، وكان هذا هوراندولف نفسه، الذي تولى قبل عامين مصالحة الملك مع الكنيسة الرومانية، وكان أيضاً قد بذل جهوداً عظيمة على صعيد الجانبين حتى يجدد دفع بنس بطرس، ولكي يعيد الملك إلى الكنيسة الرومانية، وبهذا وجد مكاناً بين

الانكليز وجرى انتخابه أسقفاً لنوروك.

ونظراً لانتشار أقاويل بوجوب تخلي الملك عن المملكة، لأنه بدا أنه لا تتوفر ثقة بحكمه، فإن المناقشات بين الأساقفة والبارونات استمرت لمدة ثلاثة أيام، وذلك بهدف تعليق قرار الخلع على الأقل، وجاء الأساقفة بالوقت نفسه إلى الملك وطلبوا منه حضور مفاوضات استسلام في لندن أوفي بلدة تدعى ستين Staines واتفقوا أنهم سوف يجتمعون هناك.

وعندها عاد البارونات إلى لندن حيث عاش بعض شركائهم، وعلى كل حال لحق الأساقفة بالملك بالسرعة القصوى إلى بورتموث، وبصعوبة بالغة كانوا قادرين على إرجاعه من السفينة التي ركبها، ولم يتمكنوا من تحقيق أي شيء تجاوز أن عليه إرسال بعض رجاله لمرافقة الأساقفة، لأن الرجال احتجوا أثناء الاستماع لشهادات الأساقفة وأتباعهم، وقالوا إنهم لن يبقوا مع الملك حتى يجري إبرام اتفاق للسلام.

ولهذا اجتمع الأساقفة والبارونات معاً كأنهم رجل واحد في ستين، يوم ٢٨-آب، وبعد كثير من المداولات، وبما أن الخطر هدد الأساقفة صدر قرار الحكم ضد مثيري القلاقل للملك وللمملكة، وذلك تماشياً مع قرار الوصاية البابوية، ومع ذلك قال كثيرون: كان من المتوجب إصدار قرار الحكم ضد الملك نفسه، لأنه هو الذي سبب القلاقل للمملكة، ولذلك ينبغي طرده.

ثم عاد البارونات إلى لندن، ليس بلا فخار، واقتسموا فيما بينهم أنفسهم ذلك الجزء من المملكة الذي بدا الآن أنه تحت سلطانهم، فقد أعطيت اسكس إلى غيوفري دي ماندفيل، ونورثامبتون إلى روبرت فتر وولتر، ونورفولك وسفولك إلى روجر دي كريسسي Crescy وكونتيتي: كمبردج وهنتنغدون إلى ساهر Saher إيرل أوف وينشستر، وكونتية لنكولن إلى وليم دي أليني، وكونتيتي: يورك ونوتنغهام إلى جون مفوض

الجيش في تشستر، ونورثأمبرلاند Northumberland إلى روبرت دي روس Ros وتوجب أن يظهر كل واحد منهم نفسه قادراً على توفير العدل والسلام للمنطقة التي عهد بأمر العناية بها إليه.

وأعلن بعد عدة أيام بأن الملك مع الأجانب الكثيرين الذين قدموا لمساعدته، قد جمعوا جيشاً قرب دوفر، حيث بدا له من الموائم أن ينتظر هناك الآخرين الذين أمل بقدمهم.

وبما أن البارونات خلعوه ورفضوه، بدأوا الآن يبحثون مسألة انتخاب ملك جديد، ولما كان الصحيح المتوجب إتمام هذا بموافقة المملكة كلها، دعوا إلى اجتماع حاسم، وادعوا وجود خطر حقيقي، ورددوا تلاوة الأيمان التي أقسمت، ورسموا بوجوب اجتماع جميع النبلاء في موعد محدد ومكان عيّن من قبل، وحدث إثر هذا، أن البارونات الذين لم يعطوا موافقتهم عند البداية، قاموا الآن بعد كثير من التأخير والمباحثات، بالرد بأنهم لم يوافقوا على خلع الملك وطرده، بل تعهدوا أنفسهم أنهم سوف يكونوا جاهزين لخدمته في السلم، ثم انقسم البارونات إلى معسكرين، وتضاعفت الشرور في البلاد.

ومع أن الشوار كانوا كثرة كثيرة، غير أنهم افتقروا إلى الثقة، ولذلك التفتوا نحو الملك فيليب ملك فرنسا، وانتخبوا أكبر أولاده لويس ملكاً عليهم، ورجوه القدوم إلى انكلترا مع قوة كبيرة، بغية تحريرهم من يد الطاغية الذي يتولى حكمهم الآن، وبعدما أكملوا هذه الاتفاقية من خلال وسطاء، ترددوا فيما بينهم، قاموا بحصار قلعة نورثأمبتون بمساعدة ضباط فرنسيين بارعين في انشاء آلات الحصار، وعندما اكتمل هذا العمل، حاصروا الحصن في اكسفورد.

وبدأ الملك جون، الذي أقام قرب دوفر لبضعة أيام، الآن برفع رأسه، وإلى هناك وصلت إليه جميع القوات القادرة التي كان قد وعد بها عندما

طلب العون، فقد جاء إليه الناس بأعداد كبيرة من بواتو، وغسكوني، وبرابانكون وفلاندرز، مع أن عدداً كبيراً منهم عانى من ريح عاصفة أثناء العبور، وغرقت إحدى السفن التي كانت تحمل رسل الملك.

وعندما تضاعف تعداد قواته، بعث الملك ببعضها لتتولى رفع الحصار عن كل من اكسفورد ونورثامبتون، بينما هو نفسه تولى احتلال مدينة روكستر، التي أثارها البارونات ضده، وشرع بحصار قلعتها، وكانت هذه قلعة رئيس الأساقفة وكان فيها عدد كبير من الرجال: أي خمسة وتسعين من خيرة الفرسان وأشدهم، ووعد آخرون الملك بتقديم عون سريع له إذا ماتولى حصارهم، ولم يتراجع الملك أو يتقاعس، بل قام بتدمير الجسور التي أمل الفرسان بالحصول على العون عبرها، وأنشأ آلات للحصار، ومن ثم بدأ يقاتل القلعة من جميع الجوانب، وسبب الرجال الشجعان والأشداء الذين كانوا يتولون المقاومة وقوع كثير من القتلى بين صفوف أعدائهم.

وبعدما استدعى البارونات جميع حلفائهم للاجتماع بهم، غادروا لندن يوم الاثنين ٢٦- تشرين الأول، مع سبعمائة فارس، ولكي يمدوا المحاصرين بالعون جاءوا إلى بلدة دارتفورد Dartford ومع ذلك عندما سمعوا بأن الملك عازم على مهاجمتهم، تراجعوا مسرعين إلى لندن، واتفقوا أنهم سيجتمعون في ٣٠- تشرين ثاني مع قوة أشد وأفضل، وكانوا يعتقدون أن المحاصرين سيكونون قادرين على المقاومة حتى ذلك الوقت.

ثم بعثوا ساهر، إيرل ونشستر مع عدد كبير آخر، بغية تعجيل وصول لويس، ولكي لا يكون في نفسه أية شكوك أقسموا بشكل سري أيماً أنهم لم يملكوا أراضيه من الملك جون بشكل سرمدى. وعاد عدد كبير منهم إلى أراضيه، بينما مكث آخرون في لندن.

وعندما اشتد الضغط كثيراً على المحاصرين داخل روكستر، حثوا الملك على التفاوض معهم، لكنه رفض الاستجابة لهذا المطلب، وقذف بالحجارة ضدهم بدون توقف، في كل من الليل والنهار، وكانت الآلات التي تتولى القذف خمس آلات، وكان الآن قد جرى تدمير جميع الدفاعات، والذي بقي فقط هو القلة، لأنها كانت مبنية منذ زمن قديم، وبشكل متين محكم، ولهذا قاومت الهجمات، ثم جرى إرسال اللغامين، لكن عندما تهاوى نصف القلة، تابع المحاصرون الدفاع في النصف الآخر، وكانت عمارة قائمة على تقسيمها إلى شطرين يفصل بينهما سور حجري قوي، ولم يوجد في أيامنا حصار آخر استمر بالعزم نفسه، أو لاقى مقاومة فعالة مثيلة، ثم إنه بعد مضي أيام عديدة، لم يبق لهم سوى بعض الحجر الضيقة في القلة، بدأوا يعانون من المجاعة، ومن الافتقار لبقية الأشياء، فأكلوا لحوم الخيول وشربوا الماء، وكان هذا قاسياً جداً على الذين نشأوا نشأة ناعمة.

ثم كان أن حلت النهاية، ففي البداية جرى اخراج الذين بدوا أقل قدرة على القتال من القلعة، فأمر الملك بقطع أيديهم وأرجلهم، ولم يمض وقت طويل حتى وقعوا جميعاً بالأسر، فألقوا في الأغلال، باستثناء الذين برهنوا على أنهم كانوا من رجال الدين، واحتفظ الملك بالفرسان والنبلاء لنفسه، وسلم الأسرى الأدنى مكانة ليحفظوا في أيدي الآخرين، وأمر بشنق واحد فقط، وكان رامياً قد تولى تربيته منذ الطفولة، مع أن الاعتقاد قد راج بأنهم جميعاً سوف يقتلون بسبب الغضب العظيم للملك وحنقه، ولدى سماع بقية البارونات بتائج الحصار، أصابهم الرعب، ومع تصاعد خوفهم اجتمعوا في لندن أو مكثوا في البيوتات الدينية، وكان بينهم قلة فقط الذين شعروا فعلاً بالأمان خلف التحصينات.

وطلب بارونات انكلترا مشاركتهم في المجمع، وبعثوا ببعض من يتولى

عرض وجهات نظرهم، لكن بحكم أن هؤلاء كانوا موسومين بحكم الحرمان الكنسي، لم يسمح لهم بالحديث، ولم يكونوا وحدهم المحرومين بل أيضاً كل المعادين للملك مع مساعديهم ومؤيديهم، ولأن البابا كشف له بأن الملك الفرنسي وابنه قد أبرما معاهدة مع البارونات المتقدمي الذكر، بعث إليهما برسائل متوالية، يحذرهما فيها من الإقدام على أي عمل ضد قراره بالحرمان، لكن آماله خابت، إما بسبب بغضهما الشديد لجون، أو لأنها كانا متعجرفين فلم يرضيا بالانسحاب، أو لأنها تسليما رهائن من البارونات الانكليز، وهكذا بعث فيليب الثاني بإرسال فرنسا إلى لندن مع قوة قوية من الرجال المسلحين، الذين توجب عليهم الإعداد مع اللندنيين من أجل قدوم ابنه لويس، الذي ساد اعتقاد أنه سيصل في وقت قريب جداً.

واستولى الملك — كما قيل — على روكستري بداية كانون الأول، ثم انصرف بوجهه نحو ونكستر، ثم ذهب من خلال وسط انكلترا إلى الشمال، وامتن وجوده قلوب الناس الذين كانوا مترددين، وأكد موقف مؤيديه الذين مركزهم في القلاع وفي أماكن حصينة أخرى، ثم قصد نوتنغهام، وهناك احتفل بعيد الميلاد، وجميع القلاع التي كانت هناك إما لحقها الدمار أو سلمت إليه.

سنة ست عشرة ومائتين وألف

ثم تابع الملك جون ترحاله نحو أماكن أبعد، فوصل حتى قلعة بيروك Berwick وبعدما استولى على البلدة وأفرغ المنطقة المحيطة بها من السكان عاد إلى أراضيه، وقام في أثناء ذهابه ثم أثناء إيابه بالعيث فساداً في البلاد، واستولى على الأماكن الحصينة، ولم يوجد أحد تولى مقاومته،

لأن ملك اسكوتلندا الذي كان مايزال صغيراً، هرب إلى أقصى المناطق مع جميع أتباعه.

وغزيت في تلك الآونة جزيرة إيلاي من قبل بعض حلفاء الملك تحت قيادة إيرل سالسبري، وتجمع هناك إما بسبب كون الموقع مكاناً دينياً، أو لأنه كان جيد التحصين، عدد كبير من النساء والأطفال وبعض النبلاء، وقد أغلقوا المداخل، واستعدوا للمقاومة بوضع حرس في أماكن مناسبة، غير أن الإيرل انتهز الفرصة بحدوث صقيع شديد، فعبّر المستنقع، وبذلك أسروا بوساطة حشد من القوات، ونجا بعض الفرسان عن طريق الفرار فوق الجليد، وعدد كبير من النساء لنيلهن حماية الإيرل، وعندما سمع بهذا الكثير ممن اتخذ ملاذاً في الأماكن المقدسة، ارتعبوا، وهرب كل الذين استطاعوا إلى لندن.

ثم انطلق الملك نحو أسكس، لأنه قيل بأن كثيراً من الأماكن الحصينة كانت تستعد للدفاع، ومع ذلك عندما وصل إلى هناك مامن أحد قاومه فيما عدا قلعة كولشستر Colchester وهذه حاصرها بقوة كبيرة، واستولى عليها في الأسبوع الأول من آذار، ولم يبق هناك سوى لندن، حيث كان الفرنسيون يحتشدون مع أعداء الملك، ومع أنه قيل بأن الملك وجه جيشه إلى هناك، ذهب عوضاً عن ذلك إلى دوفر، شاعراً أنه بهذه الطريقة سيكون قادراً على اعتراض سبيل حملة لويس، أما بالنسبة للبابا، فلم يكتف بارسال رسائل متوالية، لكنه بعث أيضاً كاردينالاً يدعى غوالو Gualo الذي كان سيتولى شخصياً إدارة الأعمال، ويشغل منصب القاصد الرسولي في انكلترا، لكن لا استعدادات الملك، ولا رسائل البابا، ولا محاولات الاقتناع التي تولاها القاصد الرسولي، نجحت في ثني عزم لويس، لابل حتى الريح التي كانت تهب منذ وقت طويل ضده، لم توقفه.

وفي ١٤- أيار نزل لويس ورجاله على جزيرة ثانت Thanet وقد

رأهم الملك عندما وصلوا، وكان معه كثير من الأجانب والمرتزقة، الذين انضموا إلى جانب القائد الفرنسي، ولم يحاول هو حتى منع نزولهم، كما أنه لم يهاجمهم عندما استولوا على الشاطئ، وكان الآن مضطرباً في عقله بادية على وجهه آثار الحزن، لذلك تراجع إلى ونشستر برفقة القاصد الرسولي غوالو، الذي كان قد نزل في انكلترا.

وبعدما استولى لويس على الشاطئ، ذهب إلى كانتبري، وهناك انتظر رجاله الذين استدعاهم من لندن، حتى إذا جمع قواته هناك، يمكنه أن يتابع زحفه بضمآن أكبر، واحتشد فرنسيون وانكليز لتأييده، وبعدما ذاع خبر وصوله، بدأوا في إثارة العاصمة، وخرج الذين انتظروا قدومه منذ وقت طويل من مخابئهم.

ثم بدأ يتخلى عن الملك ويهجره كثير من بين الانكليز الذين وقفوا إلى جانبه، وفي أثناء الزحف جرى الاستيلاء على عدد من القلاع، وقدم لويس إلى لندن يوم الخميس قبل عيد الشعانين، وقد استقبل بكل ابتهاج وسعادة، وقدموا له الولاء، وأقسموا يمين التبعية له هناك، وهكذا خيل إليهم أن جميع الجزيرة سيتم الاستيلاء عليها فوراً، وجرى الإعلان عن هذا في كل مكان، وبات من المعتقد أن الملك كان يائساً، لأنه أمر قبل وقت قصير بهدم عدد من القلاع في أرجاء انكلترا.

وجمع القاصد الرسولي إليه شخصياً الأساقفة وزعماء الكنيسة، ودعاهم إلى تقديم العون للملك وللمملكة، وبحضور من الملك أنزل القاصد الرسولي عقوبة الحرمان الكنسي بالأمير لويس الفرنسي اسمياً، وبضباطه ومؤيديه، وبناء عليه، وضعت أراضيهم تحت الحرمان في يوم أحد الشعانين في ٢٩-أيار، وشمل الحرمان مدينة لندن أيضاً.

ولم يثن هذا عزم لويس، فقام بمطاردة الملك، فاستولى على ونشستر وعلى الدفاعات المحيطة بها، وأعطى ذلك كله إلى كونت أوف نهر

Nevers الذي جاء معه، ثم قام ومعه عدد كبير من الناس بحصار قلعة دوفر، التي تولى الدفاع عنها كل من الطبيعة والدفاعات التي صنعها الانسان، وبعث ببعض البارونات الانكليز مع كونت أوف نفر لحصار قلعة وندسور، وعلى كل حال كان البارونات الشماليين قد لحقت بهم الهزيمة في أثناء محاولاتهم الاستيلاء على لنكولن، وحررت سيده اسمها نيكولا Nicola وكانت زوجة شحنة القلعة، نفسها من هذا الحصار بوساطة دفع المال، ثم ذهب البارونات الشماليون مع الملك الاسكوتلندي إلى لويس، وأعطوه الولاء وأدوا مراسم التبعية له.

وفي هذه الآونة تخلى عن الملك العديد من أصدقائه المقربين، نذكر منهم: إيرل أوف وارني Warenne وهو من أقرباء الملك، وإيرل سالسبري، وهو أخو الملك، وإيرل أوف أرونديل arundel والإيرل روبرت دي فير Vere وكذلك عدد كبير آخر، ولقد اتضح فيما بعد أنهم وقفوا إلى جانب لويس بسبب الخوف وليس بسبب القناعة، وبعدما تفحص جون لوقت طويل ماصنعه لويس، بات على قناعة أن تقدمه الآن بات أقل من الأول، ذلك أنه تعطل لدى حصار دوفر لوقت طويل، وبناء عليه نقل معسكره إلى نورفولك، واحتل المكان الذي كان ملك الاسكوتلنديين قد تركه.

ولدى سماع الذين كانوا معسكرين في وندسور بهذا، لاحقوه، وبناء عليه رفع الحصار عنها، ثم ذهب جون إلى قلعة أكسمولم Axholme وبعدما عاث فساداً بها بالنار والسيوف حرك قواته خلال لندي Lindsey وعبر هولاندا ووصل إلى لنكولن، حيث كان ملك اسكوتلندا قد عسكر قبل أيام قليلة، واستولى خلال رحلاته على أراضي العدو، ونهبهم وأحرقهم، ولهذا لم يأت وقت مثل هذا كانت البلاد فيه مضرمة بالنيران بمثل هذا القدر، ثم عندما فر الذين كانوا مجتمعين في لنكولن من أمام وجهه، تراجع مسرعاً، وقد بات منهكاً من إصابته بمرض الزحار.

وفي أثناء هذه الرحلة حدث أن فقد جون قطار أثقاله في سباح شاطئ البحر أثناء غمرها بتيار المدّ، وحدثنا رالف أوف كوغشال بأنه «فقد أثناء هذه الرحلات عند ولستريم Wellstream بيعته النقاله مع آثاره المقدسة، وبعضاً من دواب الحمولة لديه، والكثير من مؤن بيته وحاشيته، وعدد كبير من رجال حاشيته حيث غرقوا في مياه البحر، وتلاشوا وسط الرمال المتحركة، لأنهم انطلقوا بحماقة وأسرعوا قبل أن يتراجع تيار المدّ».

وعندما وصل جون إلى قلعة سليفورد، التي كان قد أخذها من أسقف لنكولن في أثناء الحرب، ازداد مرضه سوءاً، وحمل على نقالة إلى نيوارك Newark وهي قلعة أخرى من قلاع أسقف لنكولن، كان الملك قد استولى عليها منذ زمن بعيد.

وتمدد هنا بسبب مرضه، وأنهى أيامه في ١٩-تشرين الأول، بعدما حكم لسبع عشرة سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام.

وكان جون في الحقيقة أميراً عظيماً، لكن نادراً ما كان سعيداً، وكان مثله مثل ماريوس Marius قد عانى من الصعود والهبوط مع الحظ، وكان لطيفاً وكريماً مع الغرباء، وسلاباً نهاباً لشعبه، يثق بالأجانب ويفضلهم على رعيته، ولهذا تخلّى عنه بالنهاية رجاله وهجره، وبقي القليل منهم من حوله، وبما أن جلّ قواته كانت إما مرتزقة مكتره أو أجانب، فقد تجمعت بسرعة في ذلك المكان، وبدت وكأنها مسلحة استعداداً للحرب، وحملت هذه القوات جسده بعيداً حتى ووركستر Worcester وكان هذا لأنه طلب أن يدفن هناك، لكن بسبب أن ذلك المكان بدا في ذلك الوقت مكاناً آمناً، حيث يمكن لمؤيديه أن يجتمعوا للتباحث حول ما ينبغي القيام به بعد وفاته، وبما أنه كان أقرب إلى البدانة فقد دفنت أحشائه في دير كروكستون Croxton.

خاتمة

وهكذا مات الملك جون، وكان، حسبما كتب متى الباريسي بعد خمسين سنة: «قد تحرر من آلام التفكير، ومن حياة كثيرة الاضطرابات ومن الجهد الضائع»، ولا شك لابل من شبه المؤكد أن موته غير المتوقع قد أبقى انكلترا لأسرة بلانتغنت، لأن وريثه الصغير، هنري الثالث، الذي كان مجرد طفل في التاسعة من عمره، لم يكن له أعداء شخصيين، وبسرعة نال الحماية والمساعدة من قبل أكثر البارونات فروسية، وكان البابا انوسنت الثالث وصياً يقظاً مرعياً، وعظيم الإصرار نحو الملك الجديد، وبدأ التأييد للويس الفرنسي يتلاشى تدريجياً، لأن الثوار الانكليز توصلوا إلى قناعة أنه أنفع لهم أن يكون على العرش طفل ضعيف بدلاً من الملك الفرنسي المنتظر، الذي كان قوياً ويتمتع بالكفاءة.

ونشأ هنري الثالث الذي حكم لمدة ست وخمسين سنة، في وسط ديني، فكان رجلاً لطيفاً، وحامياً للفنون الدينية، وذكياً لكن ليس بارعاً، عاش مع مسؤولية الاهتمام بالمظاهر الملكية، لكن حتى عندما كان راشداً بالغاً، لم يستطع ترجمة هذا الاهتمام إلى واقع مؤثر في العمل السياسي، الذي كان ضرورياً للملكية الناجحة في العصور الوسطى، وكان مثله مثل أبيه قد وجد أنه من الصعب كسب ثقة باروناته والاحتفاظ بها، وكذلك تورط مثل أبيه في صراع حاد معهم، وتعاضمت مشاكله بالاختفاق الانكليزي في إعادة الاستيلاء على الممتلكات البلانتغنتونية المفقودة، وذلك على الرغم من الانفاق المالي الهائل، واستمرت بعض هذه الحقائق، أو كلها: أي الضعف الملكي، وانعدام الثقة بين التاج والبارونات، وتناقص الواردات الحكومية، والاختفاق في الحرب مع

فرنسا، وتكررت بالوقوع في القرون التالية من وقت إلى آخر، ولهذا إن الملوك الذين كانوا مثل هنري الثاني إداريين أكفاء، وقادة أشداء، وأمراء عسكريين فاعلين، قد عدّهم رعاياهم في غالب الأحيان نموذجين، وقد كسبوا إعجاب الأجيال اللاحقة.

وجاء في تاريخ وليم المارشال [حوالي ١٢٢٦] الذي كان الوصي والحامي للشاب هنري الثالث قوله شعراً:

بسيف الرب، إذا ماتخلى الجميع عن الملك،

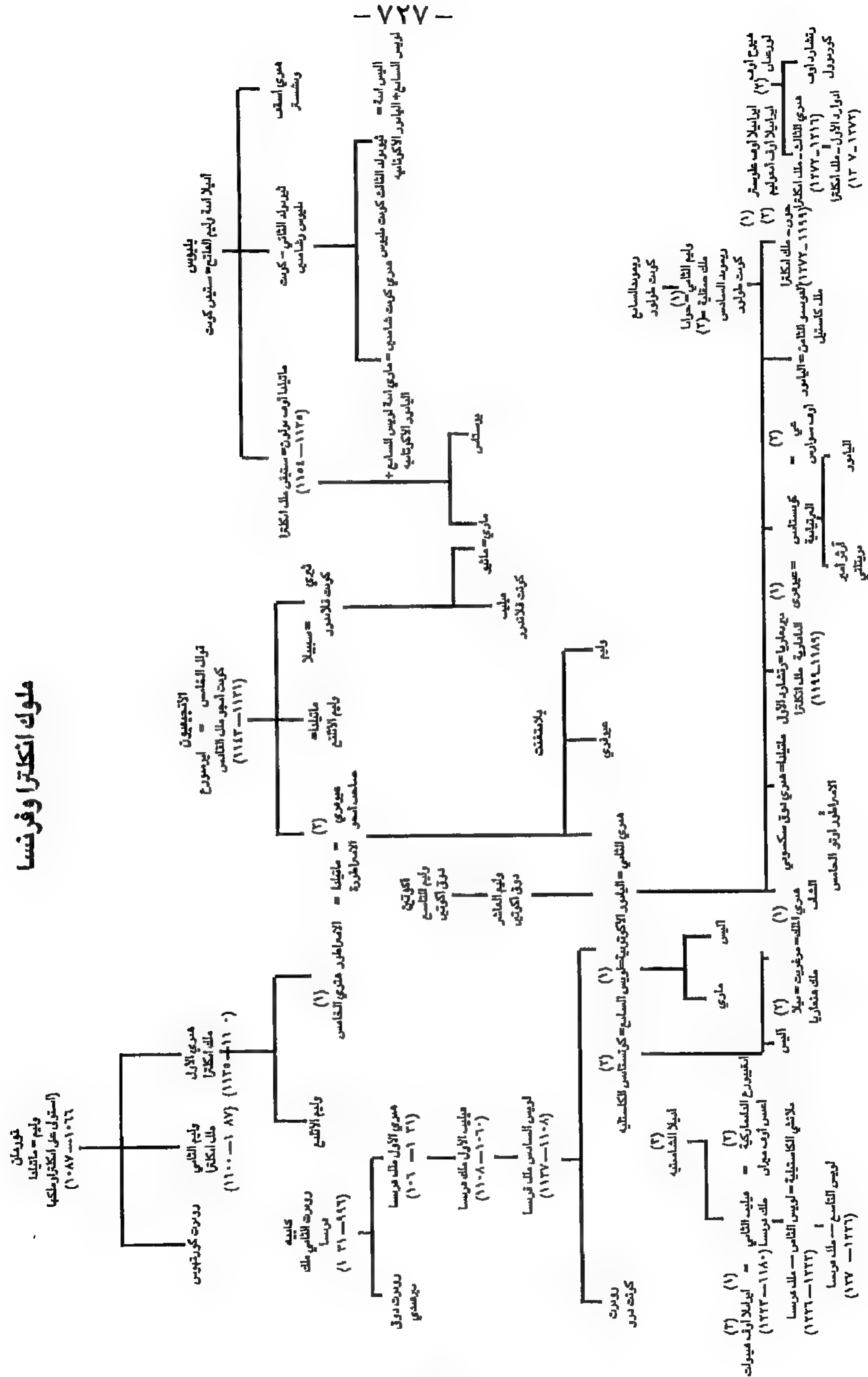
هل تعلم ماالذي كنت أنا فاعله؟

كنت سأحمله على كتفي خطوة خطوة،

من جزيرة إلى جزيرة ومن منطقة إلى منطقة،

ولن أخذه حتى لو عنى ذلك التسول من أجل خبزي

ملوك انكلترا وفرنسا



ā xp̄o beatorum ap̄lōz chorū. talem retributionē re
cipiant p̄ corruptibilibus.





السبتل الرومان بوتبوس الذي كتب بحثا عن الموسيقى بال الاعجاب الكبير من قبل مؤرحي العصور الوسطى

الحواشي والتعليقات

١ — بيت الشيطان:

« من الشيطان جاءوا والى الشيطان سيعودون » هذا ما قيل عن كونتات أنجو، ورواه جيرالد أوف ويلز، في إشارة إلى اسطورة تحدثت عن أن كونتات أنجو وملوكها قد انحدروا من ابنة الشيطان، وجاء في حكاية جيرالد أن واحداً من كونتات أنجو القدماء عاد من إحدى رحلاته مع امرأة اسمها ميلوسين، وكانت مشهورة بلجمالها، وقد تزوج منها، وكان حولها كثيراً من الأمور الغريبة، أعظمها إثارة كان غيابها الدائم عن حضور القداس لدى مباركة الحشود وتعميدها، وكشفت حقيقة أمرها عندما أرغمها زوجها على البقاء ورؤية جسد المسيح، وهو مشهد ما من شيطان يمكنه مواجهته، وهربت ميلوسين من النافذة وهي تولول، ولم تراثانية، وخلفت وراءها ولدين، منها انحدر كونتات أنجو.

وروج لهذا النوع من الحكايات مؤرخو الأسرة للدعاية، ولمسايرة روح العصر، ولتغطية الحقبة المبكرة المجهولة من تاريخ الأسرة، وكان الناس في القرن الثاني عشر يستمتعون بهذه الحكايات ويصدقونها حتى ليقال بأن رتشارد قلب الأسد عقب وهو يضحك لدى سماعه قصة أصل أسرته بقوله: « عجباً لو أننا فقدنا طبيعتنا البشرية، فنحن جئنا من الشيطان، ووقتها لا بد من أن نعود الى الشيطان ».

٢ — الطاغية التقى :

كان فولك نيرا وحشاً مرعباً وحاجاً تقياً ، ولقد كان من أكثر الشخصيات إثارة في القرن الحادي عشر ، وكان التناج الأكثر تطرفاً لقرن سيطرت فيه العواطف والانفعالات على سلوك الناس ، وكان الدين سلعة لتبادل المنافع مع الرب ، وهكذا تماشى سلوكه وعنفه مع روح العصر .

ففي سنة ٩٢٢ نال نصراً عظيماً ضد كونت بريتاني ، وتحقق له هذا عندما طار الجيش المتراجع فأحدث دماراً هائلاً بكل ما مر به ، فقتل وسلب ونهب وأحرق ، وإثر هذا النصر الرهيب أحرق زوجته الأولى حين وضعها على سفود وشواها لاثامها بالكفر .

ومع هذا كله قام فولك بالحج إلى القدس ثلاث مرات ، وذلك في وقت تعذر فيه على كثيرين القيام برحلة واحدة ، كما أنه زار روما ، وبنى ديرين أحدهما قرب تور والثاني قرب أنغر ، ومع تطرفه هذا كان بارعاً في السياسة ، وفعالاً في حملاته العسكرية واستراتيجياً ناجحاً في بناء القلاع ، ولا شك في أنه كان قائداً صاحب قدرات وحشية خارقة .

٣- الشرق ضد الغرب :

كرست الكنيسة في العصور الوسطى جهودها على تحقيق الوحدة المسيحية المنشودة ، لكنها لم تستطع قط الوصول إلى ذلك وتحقيقه ، ولم يظهر الاخفاق بشكل مؤسف في خلال العصور الوسطى أكثر منه في سنة ١٠٥٤ ، عندما بعث البابا ليون التاسع ببعثة دبلوماسية إلى القسطنطينية لتتهم البطركية هناك وتوبخها على أنها «عاصية وفاجرة وابنة فاسدة ، تتمتع في دارها بالسلام والراحة والرخاء وترفض الاسهام بدور في القتال المسيحي الذي أثارته الكنيسة الأم المقدسة في روما » ولم يكن مدهشاً

أن « الابنة » تخلت عن اخلاصها وتبعيتها كلياً لروما، وعلى هذا كانت سنة ١٠٥٤ سنة الانفصال الدائم بين الكنيستين : اللاتينية الكاثوليكية في الغرب ، والاغريقية الأرثوذكسية في الشرق .

وكان الخلاف قائماً يعتمل بينهما منذ زمن قديم ، يرقى حتى إلى أيام الامبراطور المسيحي الأول ، قسطنطين الكبير ، وذلك عندما قرر هذا الامبراطور تدشين المدينة الاغريقية في بيزنطة ، لتكون القسطنطينية عاصمة المسيحية ، ولتكون روما جديدة ، وصحيح أن روما والقسطنطينية كانتا سنة ٣٣٠ بالأصل متحالفتين ، لكن بابوية روما أخذت بالتدريج تبتعد وتتجه نحو الانفراد، فزادت من سماتها الغربية ومن انشغالاتها في الغرب، ولم يعد في روما بعد سنة ٧٥٢ ولا بابا اغريقيا، أو يتحدث الاغريقية، وفي تلك الأثناء، الذي كانت الامبراطورية البيزنطية ماتزال فيه قوية ومتقدمة، ربط البطارقة كنيستهم تماماً مع مصالحهم بأباطرتهم، ودعموهم بكل امكاناتهم وطاقاتهم، وكان من الممكن حتى في القرن الحادي عشر ايجاد حلول للخلافات العقائدية بين الكنيستين، وألحت البابوية الغربية على الانضباط والطاعة والنظام الحاد، ولم تسمح قط لايجاد بدائل دينية ألطف بناءً، وعليه بات حتماً انفصال الغرب اللاتيني عن الشرق الاغريقي، وابتعادهما عن بعضهما.

وظلت القسطنطينية حتى سنة فتحها في ١٤٥٣ من قبل العثمانيين مركزاً لكنيسة اغريقية عالية المعرفة والثقافة، وكان أعظم انجازات هذه الكنيسة تحويل الشعب الروسي إلى المسيحية الأرثوذكسية، وفي روما وضع البابوات أنفسهم على رأس حركة اصلاح الكنيسة الكبرى في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وشرعت في ظل غريغوري السابع (١٠٧٣—١٠٨٥) العدواني ومن بعده خلفائه على عرش البابوية في فرض إرادتها على جميع أرجاء المسيحية الغربية بشكل لم يكن له نظير من قبل.

وكان البابا بالنسبة لفولك نيرا المتوفي سنة ١٠٤٠، عندما عاد من زيارته الأخيرة للقدس مجرد شبح وشخصية لا أهمية لها، غير أنه بعد قرن عندما حكم حفيده فولك الخامس صاحب أنجو، المملكة اللاتينية في القدس، كان بابوات روما بلا منازع قادة المسيحية، والمسؤولين الروحيين، لا بل القادة الدينيين، للحركة الصليبية.

٤ - قلاع أنجو:

ما يزال من الممكن رؤية بعض قلاع أنجو، التي بنيت في أوائل القرن الحادي عشر، وهذه القلاع بين أقدم الحصون التي بنيت بالحجارة، وبقيت من العصور الوسطى، وهي تبدو قوية حتى اليوم، وتحكمت بعض القلاع بالمناطق التي أحاطت بها، أو بطرق المواصلات، أو كانت بمثابة نقاط دفاعية، أو مواقع استراتيجية للوصول إلى هدف مرسوم مثل القلاع التي بناها غيوفري مارتل حول تور للاستيلاء عليها، وكان ذلك في سنة ١٠٤٤، وعلى كل حال كان فولك نيرا من أكثر الكونتات بناء للقلاع، حتى يمكن القول إنه أول القادة الذين أدركوا قيمة موقع القلعة للأعمال الدفاعية وأيضاً لتكون قاعدة للأعمال الهجومية، مما أعطاه السمعة أنه كان استراتيجياً مبدعاً.

٥ - أبيلارد وهليوس:

كان أبيلارد استاذاً مشهوراً في باريس، وخطيباً أصيلاً، ووضعته قدراته في قلب الحياة الثقافية في غربي أوروبا في القرن الثاني عشر.

وكان قد ولد في بريتاني في سنة ١٠٧٩، وعاش لسنوات باحثاً متجولاً، وذلك كنموذج لعصر لم تكن فيه بعد جامعات مؤسسة أو مراكز

علمية رئيسية فيها علماء متميزين يتبارون فيقدمون فرصاً أمام الطلبة الراغبين بالمعرفة.

وتظهر روايته عن حياته «تاريخ مصائبه» كيف دمر أفكار وسمعة عدد من أساتذته برعونة أكسبته العداوات، وعندما صار في الثلاثينات من عمره، كان المعلم في باريس، حيث جذبت عبقريته إليه حشداً من الطلبة ورسخت القاعدة لإقامة جامعة المدينة العظيمة.

وفي باريس، عندما كان في ذروة شهرته، قابل هليوس، ووقع بحبها، وكانت أصغر منه بنحو عشرين سنة، كما وكانت الحفيدة الجميلة والمتعلمة لفولبرت، كاهن كاتدرائية نوتردام، وكانت العزوية متوقعة في الكنيسة وإن لم تكن مطلوبة بشكل حتمي، وكان التواصل مؤذياً جداً لحياته وعمله، لكن ليس مأساوياً، غير أن هليوس أنجبت ولداً، ومن ثم أقيم زواج سري لإطفاء غضب فولبرت، ومع ذلك تابع الكاهن معاملتها بسوء، ولهذا أخذها أبيلارد أخيراً إلى دير في أرغنتيل -AR-GENTEUIL، واعتقد فولبرت أن أبيلارد عازم على هجر حفيدته وإبقائها راهبة متبتلة الحياة، ولذلك خطط للقيام بانتقام رهيب، فأرسل خدمه لاقتحام غرفة أبيلارد في الليل وخصيه، وشعر أبيلارد اثر هذا بالرعب والإذلال الشديد فصار راهباً في الدير الملكي الكبير الحامل لاسم سينت دنس وبناء على تعليماته، أدخلت هليوس - التي كانت في التاسعة عشرة من عمرها - وهي في حالة قنوط، الى الدير الذي أخذها أبيلارد إليه .

ورأى فيه معاصروه أنه صاحب تأثير خطر، وقد غادر في ثلاثينات القرن الثاني عشر سينت دنس، ليستأنف التدريس، وجذب اليه المعارضة من المحافظين في الكنيسة الذين قادهم برنارد أوف كليرفو، وهوراعي ديرسسترشيانى مرعب، وكانت غلطة أبيلارد أنه تفوه بشكل علني ومقنع أن العقيدة المسيحية ينبغي إخضاعها للبحث العقلاني،

وكان هدفه كرجل دين مؤمن هو تعميق الفهم ، وليس لغم الايمان ، وتبنى أيضاً موقفاً متطرفاً، حيث قال النية هي التي تقرر فيما إذا كان العمل المقترف ذنباً ، وكان هذا كثيراً جداً بالنسبة للكنيسة المتجذرة ، وهكذا أدين بالهرطقة في سنة ١١٤٠ ، أي قبل عامين من وفاته .

ويتذكر أبيلارد هذه الأيام على أنه محب متفاني ويظهر «التاريخ» والرسائل التي تبادلها مع هليوس ، عندما عاش كلاهما داخل الدير ، أنه امتلك عاطفة وحباً يائساً لم يكن لا هو ولا هي قادرين على التخلص منه.

وانتشيا بالتواصل الذي كان فيما مضى ، وتألماً بسبب متعتها الجنسية ، ولم يبديا اهتماماً كبيراً نحو ردات فعل المجتمع تجاه علاقتهما أكثر من المقارنة فيما بينهما وبين آدم وحواء ، والنتائج المدمرة للعلاقات الآثمة ، وذلك حسب قدرة أبيلارد على تفسير الكتابات المقدسة .

وحاول أبيلارد أن يقدم النصائح الروحية لهليوس ، وأشار عليها أن تحول حبها الى حب للرب ، وأخذت أخيراً بهذه النصيحة ، فغدت منذ ١١٢٩ رئيسة لراهبات دير أرغنتيل ، ثم صارت راعية دير باراكليت paraclete وهو دير ساعد أبيلارد على إنشائه ، وحقق لها ثقافتها وعزة نفسها وآلامها وصبرها وقدراتها الادارية الاعجاب والاحترام ، وفي القرن التاسع عشر نقل قبر المحبين الى مقبرة بيري - لاشي Pere - L achaise في باريس حيث ما تزال الورود توضع عليهما إحياء لذكراهما .

٦ - فولك الخامس ملك القدس:

جاء في سنة ١١٢٨ وفد أرسله بلدوين الثاني ملك القدس، إلى فرنسا، لأنه لم يمتلك ولداً ذكراً يخلفه في حماية الضريح المقدس، بل

أربع بنات فقط، وطلب الوفد من لويس السابع اختيار واحد من نبلاء فرنسا مناسب للزواج من ميليساندا أسن بنات بلدوين، وليكون خليفة لبلدوين بعد وفاته، واختار الملك فولك كونت أنجو ومين، وتورين، وبناء عليه سافر إلى الشرق للزواج سنة ١١٢٩، وكان وقتها في الحادية والأربعين من عمره، وقد سلف له أن حج إلى القدس، وكان أرملاً يمتلك كل المؤهلات ليكون ملكاً للقدس، ثم إنه كان مطمئناً لممتلكاته في فرنسا حيث تركها في يدي ابنه الشاب، لكن المبشر بالكفاءة، أي غيوفري، الذي سيتزوج من ابنة هنري الأول ملك انكلترا، وبذلك مهد الطريق لتملك اسرة بلانتغنت لإنكلترا.

٧- غيوفري بلانتغنت:

تزوج في سنة ١١٢٨ غيوفري بلانتغنت ابن فولك ماتيلدا، الامبراطورة الأرملة، وابنة هنري الأول ملك انكلترا، وقد وعدها هنري الأول بخلافته في انكلترا ونورماندي، لكن عند وفاة هنري الأول سنة ١١٣٥، استولى ستيفن أوف بليوس، وهو ابن أخت هنري وأثير لديه، على المملكة والدوقية.

وكان كونتات بليوس منذ زمن بعيد منافسين للأنجيفيين الذين كانت أراضيهم محاذية لممتلكاتهم، كما ان ممتلكاتهم كانت تقريباً مطوقة لممتلكات التاج الفرنسي، وتشكلت بليوس من شطرين هما بليوس وشامبين، وقدقسما مراراً بين الورثة، وعندما أصبح هيوغ كونت شامبين عضواً في الداوية سنة ١١٢٥، آلت كونتيته إلى ابن أخيه ثيوبولد الثاني صاحب بليوس، وهو حفيد وليم الفاتح، ملك انكلترا ودوق نورماندي.

وكان أخوا ثيوبولد: ستيفن كونت أوف مورتين، وهنري أسقف أوف ونشستر قد كسبائقة خالهما هنري الأول ملك انكلترا وولايته لهما وحمايته،

وفي سنة ١١٣٥، أحكموا الأمور ودبروها بحيث يتولى ستيفن أراضي هنري وليس ثيوبولد.

وقاد في سنوات ١١٣٦ و ١١٣٧ و ١١٣٨ غيوفري وماتيلدا الحملات ضد نورماندي، وغزت ماتيلدا في سنة ١١٣٩، انكلترا بمساعدة روبرت إيرل غلوستر، وكان من أعيان النبلاء الأنغلو - نورمان، وتركت غيوفري ليتولى السيطرة على الدوقية، وخلال سنوات استطاع الاستيلاء عليها، وفي تلك الأثناء، ظهر ابنه هنري ممثلاً لأمه ماتيلدا، وأخيراً وريثاً لها.

وكانت دوقية أكويتين في القرن العاشر دوقية واسعة موزعة بين عدة كونتيات واقطاعيات أصغر، وكانت تمتد جنوباً حتى جبال البرانس، وكان الدوق وليم الكبير المتوفى سنة ١٠٣٠، قد مارس سلطانه في بواتو، وبيرغورد، ولي مارشي، ومناطق أخرى، وفي سنة ١٠٦٣، استولى وليم الثامن على غسكوني، وتزوج ابنه وليم التاسع (١٠٨٦ - ١١٢٦) من فيلبي أوف طولوز، وكان متميزاً بكونه من التريادور وصاحب توجهات جنوبية كبيرة، وعلى هذا نشأت إيلانور الأكويتونية ابنة وليم العاشر (١١٢٦ - ١١٣٧) ووريثته في أجواء ثقافية عالية وطرائق مصقولة في لانغدوك.

٨ - غيوفري وماتيلدا:

كان غيوفري الأشقر، كونت أنجو، الأول في سلالة الذي حمل لقب بلانتغنت، وهو لقب ناله لوضعه قشة مكنسة على قبعته، وقد صار كونتاً لأنجو في سنة ١١٢٩، بعد ذهاب أبيه فولك الخامس إلى القدس.

وكان غيوفري رجلاً بارعاً، ووصف بالأناقة والجمال من قبل معاصريه، فقد كان طويلاً، بهي الطلعة وقوياً وبشعر أشقر أقرب إلى الاحمرار، وبعينين نافذتين، كما كان عالي الثقافة، يتفاخر بتذكر أفاعيل

أجداده ، وقد مثل الفروسية المثالية ، ومع ذلك كان هادئاً جداً وعنيفاً الى حد التوحش ، وتركزت جهود حياته على متابعة العمل في سبيل حصول زوجته على ميراثها في نورماندي وانكلترا ، واهتم بشكل رئيسي بالاستيلاء على نورماندي ، التي كانت العدو الرئيسي لأنجو ، ونجح في ذلك وعلى هذا كانت اسهاماته بالنسبة لانكلترا ضعيفة .

وتزوج غيوفري من ماتيلدا سنة ١١٢٨ ، وكان هو وقتها في الخامسة عشرة من عمره في حين كانت هي في السادسة والعشرين ، وكان هذا الزواج مثله مثل كثير من زيجات العصر ، صفقة معدة ، خطط لها هنري الأول والد ماتيلدا ، حتى يحول بين أنجويين التحالف مع الشماليين الفرنسيين المعادين له ، ويساعد ماتيلدا في خلافته في نورماندي وانكلترا .

وكانت قد تزوجت للمرة الأولى من هنري الخامس امبراطور ألمانيا ، الذي توفي سنة ١١٢٥ ، وأرسلت للمرة الأولى إلى ألمانيا عندما كان عمرها في الثانية عشرة ، وأعيدت إلى أبيها بعد اثنتي عشرة سنة ، أي سنة ١١٢٦ ، لتكون وريثته الشرعية الحية الوحيدة .

ومن البداية نظرت بإزدراء ، نحو زوجها الثاني الذي لم يبلغ سن الرجولة بعد والذي كان أدنى منها اجتماعياً ، ويبدو أنها لم تشعر قط نحوه بدفء عاطفي .

ومثل هذا لم يحب غيوفري ماتيلدا ، ومع ذلك حافظاً على تعاونها ، وعلى استغلال زواجهما المقتصر الى الحب ، من أجل مباح سياسية مشتركة ، وأنجبا من الأولاد ما هو ضروري لاستمرار سلالتهم ، ثم ذهب كل منهما في طريقه ، إنما دون أن يفتقرا أويتباعدا عن المطامح السياسية الشخصية .

وجلبت ماتيلدا لنفسها كراهية الذين توجب عليها جذبهم ، ففي

أيام حكمها القصيرة لانكلترا ١١٤١ - ١١٤٢ ، بعد الانتصار على ستيفن رفضت الوقوف لتحية اثنين من مؤيديها الرئيسيين ، وهما خالها ، الملك داود ملك اسكوتلندا مع أخيها غير الشقيق إيرل روبرت صاحب غلوستر ، فأغضبتهم بذلك غضباً عظيماً يضاف الى هذا أنها أصرت على فرض ضرائب ثقيلة على سكان لندن ، وبذلك حولت إخلاصهم لها وتعاونهم معها الى كراهية ومقاومة ، فأرغمت على الفرار من المدينة ، وصحيح أنها امتلكت إرادة حديدية لنيل ما عدته ميراثها ، كانت شخصيتها العائق الرئيسي في وجه نجاح قضيتها .

فقد كانت متكبرة ، لا تعرف الليونة وقد انتقدها معاصروها كثيراً لافتقارها للسمات الانثوية وكانت صورتها المستمرة صورة الابنة التي كانت تقاتل أبيها هنري الأول عندما مات وأنها لم تحاول التصالح معه في ساعاته الأخيرة ، ومع ذلك كانت بهية المنظر ، شجاعة ، وامرأة قوية في عصر تحكم به الرجال وكانت تستطيع أن تنال اخلاص الآخرين ، لكن ليس اخلاص زوجها .

٩ — الوزير غير الرسمي :

كان لقراءة ربع قرن الأب سوكر المستشار الرئيسي لكل من لويس السادس (١١٠٨ - ١١٣٧) ولويس السابع (١١٣٧ - ١١٨٠) ، أي من سنة ١١٢٧ حتى سنة وفاته في ١١٥١ .

وكان رجلاً من أصل وضيع ، وقد صعد في خدمة الكنيسة والعرش بفضل قدراته الشخصية ، وصحيح أن سوكر لم يكن لديه منصب رسمي في الحكومة الملكية ، لكن النصائح التي أسداها لكل من لويس السادس ولويس السابع ازدادت قيمتها بإلحاحه على الجانب المقدس والطقوسي للملكية ، فقد أعطى ذلك أهمية فاقت الحقيقة .

وقد أعاد بناء دير كنيسة القديس دنس ، وهو مكان دفن الملوك الأوائل ، وكان البناء وفق الطراز القوطي ، مزيناً بشكل كبير وجميلاً ، قصد منه أن يكون مكاناً مكرساً لعبادة الرب ، وفي الوقت نفسه لتمجيد الملوك الفرنسيين ، وشارك سوكر في الاحتفالات الملكية الرسمية التي أظهرت روابطهم بالماضي العظيم ، ففي سنة ١١٢٤ حمل لويس السادس ما يفترض أنه راية شارلمان ، وكانت موضوعاً على مذبح كنيسة القديس دنس ، وخاطب الناس بشكل حماسي. ملتهب وحشد جيشاً هائلاً ليحارب به ضد الامبراطور هنري الخامس .

وعلى الرغم من هذا المظهر كان الملكان ضعيفان اقترفا الكثير من الأخطاء ، ومع ذلك ساعد سوكر على تطوير شخصية ومكانة الملكية الفرنسية ، وتولى سوكر تعليم الملكين ، ووجهما عملياً وساعدهما على إدارة أراضيهما .

وكان لويس السادس ملكاً عسكرياً أخضع البارونات اللصوص الذين نهبوا وسلبوا الأراضي الملكية ، ووصفه سوكر بأنه كان رجلاً كانت روحه كبيرة مثلها كان جسده هائلاً ، فقد كان بديناً يحب الملاذ والطعام والبهجة ، حتى صار يعرف باسم الملك البدين وغدا في سنيه الأخيرة لا يستطيع امتطاء الخيول ، ومثله برهن ابنه لويس السابع عن تدني الكفاءة والضعف الإداري ، وكان الزوج الأول لاليانور الأكوثانية ، وقد تصرف على طريقة الزهاد فكان ينام في الغابة بدون حراسه لوحده ، ولهذا أحبه شعبه ، ومع ذلك كان لويس السابع يصلح لأن يكون ملكاً في عصور مضت حيث يمكنه أن يخفي ضعفه وعجزه خلف واجهة من اللطف والحكمة .

١٠ — أول أعمال توسع أسرة بلانتغنت

اكتمل الاستيلاء على نورماندي من قبل غيوفري بلانتغنت، كونت أنجو، سنة ١١٤٤، واحتاج هذا الاستيلاء الى قرابة تسع سنوات من الصراع، استفاد خلالها هو وزوجته الامبراطورة ماتيلدا من ادعائها الحق بحكم انكلترا ونورماندي، وكان في سنة ١١٣٥، بعد وفاة هنري، استولى ستيفن كونت بليوس عليها معاً، لكن الآن ضمن الأنجيفيون لأنفسهم قاعدة يستولون منها على انكلترا.

وارتبطت نورماندي بانكلترا لأن عدداً من النبلاء امتلكوا أراضي على جانبي القنال، وفي الحقيقة بذل ستيفن قليلاً من الجهد لكسب اخلاص النورمانديين، فقد زار الدوقية مرة واحدة، ومع ذلك كره النورمانديون جيرانهم الأنجيفيين وأعدائهم التقليديين، وقاوموا بعنف حملات غيوفري، لكن وقوع الملك ستيفن بأسر ماتيلدا في عام ١١٤١ كان له أثره البالغ على معنوياتهم، ففي تلك السنة استسلمت لغيوفري قلعة تلو الأخرى في نورماندي، ثم تابع نشاطه حتى عام ١١٤٤ حيث استولى على روان، ومن ثم نصب دوقاً على نورماندي، وفي عام ١١٤٥ سقطت آخر قلاع نورماندي إليه.

ونتيجة لهذا الاستيلاء، صار الأنجيفيون يحكمون نصف المملكة النورماندية — الانكليزية، يضاف إلى هذا بات من غير الممكن اخراجهم من غربي انكلترا، وأصبحت قضيتهم أقوى وواعدة بالنسبة للمستقبل، فبعد سنة ١١٤٤، ما من واحد من كبار البارونات ذوي الأملاك الواسعة في نورماندي التحق بشكل دائم بستي芬 ووقف إلى جانبه.

١١ — ملك شجاع ومجنون :

كان الملك ستيفن (١٠٩٧؟ — ١١٥٤) الولد الثالث لستي芬 كونت أوف بليوس وتشارتر الذي كسب سوء سمعة انتشرت في أوروبا كلها،

لأنه هرب من أنطاكية أثناء الحملة الصليبية الأولى، وكانت أم هذا الملك آديلا ابنة وليم الفاتح، وكانت ذات رأي متصلب، لذلك أعادت زوجها إلى ما وراء البحار.

وأرسل ستيفن الشاب إلى بلاط خاله هنري الأول، ولعل ذلك كان سنة ١١١٣، ومنح أراضي واسعة في كل من نورماندي وانكلترا، مما جعله واحداً من أغنى ملاك الأراضي الأنجلو-نورمان.

وفي سنة ١١٢٦، أقسم ستيفن مع عدد كبير آخر، بقبول خلافة ماتيلدا ابنة هنري لأبيه، والذي حدث على كل حال أنه لدى سماعه بخبر وفاة هنري في ١ - كانون أول عام ١١٣٥، تحرك كما يبدو وفق خطة كانت مرسومة باحكام، وعبر إلى انكلترا، وتم قبوله ملكاً في لندن، واستحوذ على خزائن الأموال في ونشستر، وجرى تنويجه في ٢٢ - كانون أول، وتوجه إثر هذا رسول مسرع إلى نورماندي، وهناك قبله البارونات النورمان بعد تردد، دوقاً لنورماندي، وبذلك أعاد ستيفن إحياء مملكة هنري الأول فيما وراء القنال، وبدأ في أوائل سنة ١١٣٦، وضعه مضموناً، ولدى عقده لبلاطه في عيد الفصح، حضره عدد كبير من كبار ملاك الأراضي، بما فيهم أخو ماتيلدا لأبيه، إيرك روبرت أوف غلوستر، الذي قدم له الولاء. وتمكنت ماتيلدا مع مؤيديها من احتلال أجزاء من جنوبي نورماندي، وكانت هناك أعمال عصيان فردية ضد ستيفن في غربي انكلترا قادها بلدوين أوف ردفير Radvers، وأخرى في الشمال قادها ملك الاسكوتلنديين.

وتبعاً لمؤرخي أيامه، كان ستيفن فارساً جيداً، لكن في المجالات الأخرى كان أحقاً، اعتاد أن يصدر مراسيم وأوامر كانت زائدة في قسوتها ووحشيتها، وما من أحد شك بشجاعة ستيفن الشخصية، ففي معركة لنكولن في ٢ - شباط سنة ١١٤١، صمد على قدميه وقاتل لمدة طويلة، أولاً ببلطته قبل ان تنكسر ثم بسيفه قبل أن يقع بالأسر.

لقد كان متقلبا، ساعة كريما شجاعا، وأخرى خسيسا خائنا، ينهب رعاياه، ويصدر أحكاما خاطئة، وهو لم يتمتع قط بشخصية ومؤهلات رجل الدولة، وهو ما تطلبت الأوضاع السياسية في القرن الثاني عشر، لذلك أخفق.

١٢ — الاسكوتلنديون المتوحشون:

حكم داود الأول ملكا لاسكوتلندا من ١١٢٤ إلى ١١٥٣، وكان بالوقت نفسه اداريا جديا، وحاميا للكنيسة، ونهابا قاطعا للطريق، وقد غزا في سنة ١١٣٨ المنطقة الشمالية من انكلترا حتى يوسع أملاك أسرته وليضم المنطقة التي قامت فيما بين نهري التاين وفورث، ولم تكن قد صارت انكليزية تماما، بل كانت آنذاك انكليزية — اسكوتلندية.

وأثار بأعماله القاسية مقاومة شعبية لم تعرفها المنطقة منذ مائتين وخمسين سنة مضت، منذ أيام الفايكنغ، وقد تحالف النبلاء مع العامة للتصدي له، وقاتله الانكليز تحت رايات حماهم من القديسين، وكانت حربهم ضد الاسكوتلنديين المتوحشين حربا مقدسة، وكان بعض الرجال الاسكوتلنديين نصف العراة مازالوا وثنيين، وحصل الملك الاسكوتلندي على أسلاب كثيرة، ومد سلطانه نحو الجنوب، لكن لبعض الوقت فقط.

١٣ — الحملة الصليبية المأساوية:

استولى زنكي سنة ١١٤٤ على الرها وأزال الحكم الصليبي منها، وبذلك أسقط أولى الدويلات الصليبية تأسيسا في المشرق، وكان هذا من الأسباب الأساسية لقيام الحملة الصليبية الثانية، التي قادها لويس

السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث امبراطور ألمانيا، ووصلت جيوش الحملة إلى أنطاكية بعدما كادت أن تصبح أشلاء، وبعد الوصول إلى القدس تقرر مهاجمة دمشق، وفعلاً حوصرت المدينة وأخفق الحصار.

وكان مع لويس السابع زوجته اليانور الأكوونية، ولم يكن من السهل عليه قيادتها وضبطها، ففي أنطاكية حاولت مع عمها ريموند أمير أنطاكية أن تقنع لويس بالبقاء هناك للعمل ضد حلب، لكنه رفض لأنه أراد الوفاء بنذر الحج والوصول إلى القدس، وراجت في أنطاكية أخبار أن العلاقة فيما بين اليانور وعمها تجاوزت الأمر الطبيعي، وصدق لويس ما قيل، لذلك جر زوجته وأبعدها بالقوة، وأدى هذا فيما بعد إلى التخلي عنه سنة ١١٥١، ومن ثم الزواج بهنري الثاني، وبذلك خسر لويس السابع زوجته وخسر معها دوقية أكويتين.

١٤ — بداية ونهاية:

لم يكن الزواج فيما بين اليانور الأكوونية ولويس السابع ناجحاً لعدة أسباب، منها : كان الملك يرغب بالحصول على وريث ذكر، وهي قد أنجبت له ابنتين فقط، ولدت أولاهما سنة ١١٤٥ وثانيهما سنة ١١٤٩، كما وكانت الفوارق بينهما عظيمة جداً، فهي عندما تزوجت من لويس، شعرت وكأنها تزوجت من راهب وليس من ملك، وكان لويس من جانبه مسيطر عليه جنسياً من قبل زوجته، ونتيجة لهذا عد ناقص الرجولة في نظر معاصريه.

ونشب خلاف حاد بين الزوجين سنة ١١٤٩، أثناء الحملة الصليبية الثانية عندما اتهمت اليانور بعلاقة زنا مع عمها ريموند أمير أنطاكية، وبعد عودتهما، حقق البابا مصالحة رائعة بينهما، ففي رحلة العودة فرش لهما البابا يوجين الثالث فراشاً أعده بنفسه وزينه بزينة ثمينة جداً، لكن

تبرهن أن هذا بلا محصلات طويلة الأمد.

وحصلت اليانور على الطلاق من لويس، وقرر في ٢١ — آذار سنة ١١٥٢ أربعة من رؤساء الأساقفة الفرنسيين فصلهما على أساس وجود قرابة قريبة بين جديهما تحرم الزواج بينهما حسب شريعة الكنيسة، وهي حجة كانت رائجة استخدمت دوماً في حالات الزواج المخفق للوصول إلى الطلاق، ومن المؤكد أن اليانور كانت تعرف ما تريده، فما أن حصلت على الطلاق حتى بعثت برسالتها إلى هنري كونت أنجو، وقد تزوج منها في ١٨ — أيار ١١٥٢.

وكانت العلاقات نشأت بينهما في آب من السنة المنصرمة عندما تقابلا في باريس، وكان هنري مثله مثل أبيه غيوفري بلانتغنت، حيث أنه تزوج من امرأة أكبر منه بعدة سنوات، ومثله أيضاً حصل من هذا الزواج على دوقية أكويتين التي كانت ميراث اليانور، وكان هنري قد صار دوقاً لنورماندي سنة ١١٥٠، ثم كونت أنجوبعد وفاة أبيه سنة ١١٥١، والآن بضربة واحدة غدا أعظم قوة من مولاه الاقطاعي، الملك لويس.

وأثارت أخبار الزواج لويس ودفعته لشن الحرب ضد هنري، وقد انضم إليه غيوفري الأخ الأصغر لهنري، الذي أدرك أن زواج هنري من إيانور كان من معانيه أن هنري لن يتخلى له عن أنجو، كما هو مفترض منه تنفيذاً لوصية أبيهما، وفي انكلترا انضم إلى لويس الملك ستيفن مع ابنه يوستاس.

ولكن هنري نجح بالحرب بسهولة، وياشرسلطانه بقوة على جميع أراضيه الفرنسية، فهو الآن بات يمتلك كتلة واسعة امتدت في الشمال من نورماندي ومرت خلال أنجو إلى أكويتين في الجنوب، وفي الحقيقة حقق الزواج من اليانور نقطة تحول تاريخية عظيمة، فهنا بدأ تاريخ أسرة بلانتغنت.

١٥ — الخليفة الملكية، مسألة اجتماعية منبوذة:

عندما كان هنري الثاني في الأربعين من عمره اعترف للمرة الأولى بأن روزاموند Rosamund هي خليلته، وكانت في الثلاثينات من عمرها، وهي ابنة رجل نبيل اسمه وولتر كلففورد Clifford ولعلها كانت المرأة الوحيدة التي أحبها هنري في حياته، وقد عاشت في القصر الملكي في وودستوك في أكسفورد شاير، الذي أعاد الملك تأسيسه خصيصاً لها، وذلك قبل وفاتها في سنة ١١٧٦، بستين أو ثلاثاً، وقد عد المؤرخون وفاتها على أنه جزاء استحقته لاقترافها الزنا.

ودفنها الملك الحزين في قبر فخم جداً أقيم أمام المذبح العالي في دير راهبات غودستو Godstow ، وقدم فيما بعد هو ووالدها هبات كبيرة للدير من أجل ذكراها، لكن في سنة ١١٩١، بعد وفاة هنري، ارتعب القديس هيوج أسقف لنكولن حين وجد قبرزانية داخل الكنيسة، وقد زين بشكل رائع جداً، ولكي يضع حداً لهذا الاثم العظيم أمر بإزالة المزار الذي حوى القبر، وبذلك باتت روزا موند خارج الكنيسة.

وبعد قرن من وفاتها شرع المؤرخون يحكون بعض الحكايات حولها، فهي قد أخفيت في مخدع سري لا يمكن الوصول إليه داخل وودستوك لحمايتها من اليانور صاحبة أكويتين ومن غيرتها، غير أن الملكة عثرت عليها وجعلتها تنزف داخل حمام حامية حتى ماتت، وقيل في قرون تالية بأن اليانور استخدمت سكيناً وكأساً مسموماً، وأنها عرفت طريقها ضمن المتاهة باستخدام خيط حريري حتى وصلت إلى مخدعها السري.

ولندع الحكايات الأسطورية جانباً، تبين قصة روزاموند وهنري الثاني بوضوح المصاعب التي توجب على النساء مواجهتها عندما كن يضعن أنفسهن خارج المجتمع، مجتمع كانت توجهاته بيد الرجال فهم الذين تحكموا به، ومع أن أبناء الزنا من الأسرة المالكة مثل غيوفري بلانتغنت،

ووليم صاحب السيف الطويل، وهما من أولاد هنري الثاني من خلال اتصالات قديمة، قد نالوا الاعتراف والتشريف، نظر إلى أمهاتهم نظرة سوء وعملن بازدراء واستهجان لأنهن خرغن شريعة الكنيسة وقوانين المجتمع، وأكثر من هذا نجد حتى النساء المحظوظات وذوات المكانة المحترمة مثل ميليساندا المقدسية، والامبراطورة ماتيلدا، واليانور الأكوثانية، استخدمن من قبل آبائهن كأدوات سياسية، وفقط ذوي العزم الشديد منهن هن اللائي استطعن احداث تأثير شخصي على السياسات الرفيعة للقرن الثاني عشر.

١٦- رئيس أساقفة ضد ملك:

مع أن الكثير كتب حول رئيس الأساقفة توماس بكت صاحب كانتر بري، وتجاوز هذا ما كتب حول سواه من شخصيات عصر أسرة بلانتغنت في انكلترا، مع هذا كله تبقى الخلافات حادة حول شخصيته، فقد كانت كذلك بين معاصريه، وماتزال على هذه الحالة منذ ذلك الحين، فهو قد ولد في لندن سنة ١١١٨ من أسرة تجار نورماندين، وتعلم في دير ميرتون ثم التحق بحاشية ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري، حيث هيأت له مواهبه الادارية السبيل لترقيات سريعة، وعين في سنة ١١٥٤ رئيس شمامسة في كانتربري، وفي أواخر تلك السنة عينه هنري الثاني بناء على توصية رئيس الأساقفة ثيوبولد مستشاراً له لجميع انكلترا، واستغرق بكت نفسه ووقته في السنوات الثمانية التالية كلية في مسائل الدولة، وحظي بثقة الملك الكاملة، ولم يكن ذلك أبداً بسبب تأييده لهنري في صراعاته مع الكنيسة، وإخلاص بكت هذا جعله المرشح المثالي لهنري الثاني لرئاسة أساقفة كانتربري بعد وفاة ثيوبولد في سنة ١١٦١، ولهذا فوجيء الملك وغضب، وعندما أقدم بكت، وهو خادمه الموثوق، على الاستقالة من المستشارية فور انتخابه لرئاسة الأساقفة، ومن ثم غدا أكثر خصومه إرعاباً

وأفضل شرح للتغير الهائل الذي ألم ببيكت، ثم للخلاف الذي نشب إثر ذلك، هو أن رئيس الأساقفة حول ولاءه من هنري الثاني الى مولى أعظم، هو الرب، فهذا ما عبر عنه بكت في مناقشة حامية جرت بينه وبين الملك في سنة ١١٦٣، حيث قال له: «في يوم الحساب المخيف سنحاكم معاً كعبيد لرب واحد، وصحيح أن المولى المؤقت تنبغي طاعته، لكن ليس ضد الرب»، وكان الجواب الوحيد الذي وجده هنري الثاني أمام هذه المناقشة الحادة هو التهديد باستخدام القوة الجسدية، وهو سلاح كان من غير المعقول استخدامه ضد أعظم الشخصيات الدينية مكانة في بلاده.

وتفجر الصراع بين الملك وبين رئيس الأساقفة، وكان القتال بينهما حول المسؤولية القضائية، لاسيما وأن هنري الثاني كان قد عقد العزم على الحد من سلطة المحاكم الكنسية، فقد اعتقد أن نشاطات هذه المحاكم قد بدأت تلغم السلطات القانونية التي ورثها من الملوك الانكليز المتقدمين، ففي وستمنستر اقترح هنري الثاني في تشرين الأول لعام ١١٦٣ أن الكتاب (أي الناس في الطرق الكهنوتية، ولهذا هم بطبيعة الحال مرتبطين بالكنيسة) إذا ما وجدوا مجرمين في جرائم عدوانية ينبغي تسليمهم الى السلطات المدنية لانزال العقوبة بهم، وبعد ضغوط جاءت من الملك، وبعد تبدلات عديدة بالرأي، رفض بكت أخيراً الموافقة على هذا الطلب، وعلى مطالب أخرى قدمها هنري مكتوبة في اجتماع عقد في كلارندون Clarendon في كانون الثاني سنة ١١٦٤.

وازداد منذ الآن اهتمام الملك بمسألة خضوع رئيس الأساقفة، وبعد اجتماع آخر لمجلس البارونات والأساقفة عقد في نورثامبتون في الخريف جرت خلاله مواجهات عاصفة نجا بكت بنفسه الى فرنسا، حيث التمس حماية البابا الاسكندر الثالث، الذي كان هو نفسه يعيش وقتها في المنفى في البلدة الكاتدرائية لسنس، ومكث رئيس الأساقفة السنوات التالية

في الدير السسترشيباني في بوتني، ومن هناك أثار حرب كلمات ضد ملكه وضد مستشاريه. وكان موقف غالبية المثقفين من رجال الكنيسة في أوروبا الغربية أن بكت كان محقاً في صراعاته مع الملك، وعلى كل حال كانت نشاطات الكنيسة والدولة من غير الممكن فصلهما لتداخلهما في ظل حكم أسرة بلانتغنت لانكلترا، وكان الأساقفة الانكليز مجموعة قوية، لكنهم دانو بتعيينهم للحظوة الملكية، وكانوا متورطين بشكل كبير في الأعمال الادارية والقضائية لصالح التاج، ولهذا كانت لهم مصالح كبيرة في الاحتفاظ كوسطاء رئيسيين فيما بين الكنيسة والملك، وكانوا مكرهين على رؤية المواقف العدوانية لبكت ضد الملك.

وعلى هذا توفر القليل من التعاطف نحو رئيس الأساقفة الذي أوصل معارضته للملك الى الحد الأقصى، وبالتدريج أرغم بكت على ادراك أن منفاه التطوعي كان له تأثير لا يذكر على سير الأمور في انكلترا، وتبعاً لما قاله الأسقف غلبرت فوليت Foliot أوف لندن، الذي عرف بكت بشكل جيد: «لقد كان دوماً أحقاً، وسيبقى أبداً كذلك» وهذا الحكم على رئيس الأساقفة المنفي لم يكن عادلاً أبداً، ومهما يكن الحال كان قوله ملاحظة صحيحة حول كيف عرض بكت بشجاعة مسألة الصراع بين القوتين الدينية والدنيوية، دون أن يستطيع إيجاد حل لذلك، إلا بموته.

١٧- حلف ابنة:

بدأت المباحثات من أجل زواج ماتيلدا كبرى بنات هنري الثاني من هنري الأسد، دوق بافاريا وسكسوني، في سنة ١١٦٥، عندما قاد رينالد رئيس أساقفة كولون-الذي كان المستشار القريب للامبراطور فردريك بربروسا-بعثة جاءت الى هنري الثاني وهو في روان، وكان الاقتراح أن تتزوج واحدة من بنات الملك من الابن الأصغر لفردريك، بينما تتزوج ماتيلدا من الدوق، الذي كان أعظم رعايا الملك قوة في تلك المرحلة، وحليف قريب له، وكان فردريك الذي امتد سلطانه بشكل

نظري خلال ألمانيا وشمال إيطاليا، بحاجة للتأييد في صراعاته مع البابوية، ومع المدن في شمالي إيطاليا، وكان للتوقد أقام بابا مضاد ومعاد للبابا الاسكندر الثالث، وكان هنري الثاني متضايقاً من خلافه مع توماس بكت، الذي ذهب الى المنفى في نهاية عام ١١٦٤، والتمس من البابا المساعدة، ولهذا رأى هنري بصدافته مع الامبراطورية وسيلة ضغط على البابا الاسكندر من أجل التأثير عليه ضد بكت.

لكن بما أن هنري الثاني كان قد أغضب ببروسا، عندما رفض أخيراً نقل ولائه الى البابا المضاد فكتور الرابع، فالذي تم فقط هو الزواج فيما بين ماتيلدا والدوق هنري، وجرت الاحتفالات في شباط سنة ١١٦٨، في برونسوك Breenswick، وكان هنري في الثلاثينات من عمره، وقد تزوج من قبل، ولم ينجب الزواج وريثاً ذكراً، ومن ثم تم حله على أساس قاعدة القرابة المعروفة، وكانت ماتيلدا التي ولدت في سنة ١١٥٦، إما في الحادية عشرة من عمرها أو في الثانية عشرة، عندما تزوجت، وأنجبت لزوجها ولدين ذكرين، وإلى تاريخ وفاتها في سنة ١١٨٩، أدارت ممتلكات زوجها الواسعة أثناء غيابه في حجه الى الأراضي المقدسة في ١١٧٢-١١٧٣.

وكانت النتائج السياسية للزواج غير متوقعة كلياً، حيث ورطت هنري الثاني وأولاده بعمق في السياسات الألمانية، فقد تخاصم الدوق هنري مع الامبراطور فردريك في أواخر السبعينات من القرن الثاني عشر، وفي خريف سنة ١١٨٢ وصل هنري وأسرته الى بلاط هنري، منفين، وحاول الملك الختن أن يضمن عودة صهره الى سكسوني من خلال الضغوط السياسية على فردريك، وأصبح الولدان، لاسيا أوتو وهو الثاني بينهما، تحت حماية أسرة بلانتغنت، وقد بقيا في بلاطها عندما عاد هنري وماتيلدا الى ألمانيا سنة ١١٨٥.

١٨- الملكة السجينة السياسية:

كانت اليانور في السنين الأولى من زواجها من هنري الثاني نشطة منشغلة في الحياة السياسية لممتلكاتها، وقد سافرت كثيراً جداً، ومارست كثيراً المسؤوليات الادارية، وظلت حتى سنة ١١٦١ تقريباً النائبة للملك في انكلترا أثناء غيابات هنري، ويمكن القول أنها منذ هذه الأونة تصاعد رفضها لهنري، ومع أن هنري أعطاها حرية كاملة للإشراف على دوقية أكويتين ١١٦٨، لعله فعل ذلك لتركه يتابع مغامراته السياسية الخاصة والنسائية بدون عوائق مع أمور أخرى، ولم يتوقف نشاط اليانور التأمري ضده، وبعد سنة عندما تمت تسمية رتشارد ولياً لعهداها على الدوقية، غدا رتشارد رفيقها الدائم وتابعها في التآمر ضد أبيه، وأعطى تويج هنري الشاب ملكاً لانكلترا في سنة ١١٧٠، اليانور فرصة نافعة لتحقيق خططها ضد زوجها، ووصل عملها التأمري في سنة ١١٧٣ الى درجة الإثمار، وذلك عندما ثار أولادها: الملك الشاب، ورتشارد وغيوفري ضد أبيهم وهربوا الى عند لويس السابع، وألقي القبض على اليانور عندما حاولت اللحاق بهم وهي متخفية على شكل رجل، وقد سجن من قبل زوجها الغاضب وعرف هنري أنه سيقترف خطيئة سياسية كبيرة إذا ما طلق اليانور، كما أنه لم يكن قادراً على إرغامها على أن تصبح راهبة في دير فونتغرولت، وادراكاً منه لما مثلته من خطر على الاستقرار في بلاده، أبقاها في سجن مضيق عليها، وأوكل الإشراف على ذلك السجن الى أكثر رجاله ثقة، وقد تحملت هذه المعاملة بصبر وشجاعة، وسمح لها مع مستشاريها الروحيين بالترحال الى مسافات قصيرة، فيما بين ونكستر وسالسبري ولدغرشال Ludgershall لمساكن ملكية أخرى في جنوبي انكلترا.

وبعد وفاة الملك الشاب في سنة ١١٨٣، أطلق سراحها لوقت قصير كي تذهب الى أكويتين لتتصدى لادعاء فرنسي بالدوقية، وسمح لها في السنة التالية بالقدوم الى البلاط لرؤية ابنتها ماتيلدا المنفية من سكسوني

مع زوجها هنري الأسد، ثم ذهبت سنة ١١٨٥ في ظل الحراسة الى نورماندي لتتسلم أكويتين من رتشارد، الذي اقتنع بالتخلي عن دوقيته المحبوبة، تحت تهديد والده أن اليانور سوف تعيثُ فساداً في المنطقة مع جيش بصحبته .

ومن جديد بدأت اليانور في السنوات الثلاث الأخيرة من حياة هنري بالتآمر ضده، ومنحها موته في ١١٨٩ الحرية وسمح لها بممارسة السلطة بشكل أعظم مما تمتعت به من قبل.

١٩- قضية قتل:

كان الفصل النهائي في الصراع الذي استمرست سنوات فيما بين هنري الثاني وتوماس بكت حاسماً لأن صراع الإرادة نفسه استمر طويلاً دون نتيجة، وأمكن في سنة ١١٧٠ الوصول الى تسوية بين الملك ورئيس الأساقفة، بموجبها بات بإمكان بكت العودة الى انكلترا، كما أن ممتلكات رئاسة الأسقفية المصادرة سوف تعاد، ولسوف يعيد بكت تتويج الملك الشاب، ومامن شيء قيل حول الاجتماع الذي جرى في كليروندون، وفي ١- كانون الأول سنة ١١٧٠، عاد بناء عليه رئيس الأساقفة الى انكلترا بعد سني نفيه، ثم مال بث أن قام بحركة عدوانية وغير تصالحية فحرم رئيس أساقفة يورك مع اثنين من الأساقفة كانا قد ساعدها لدى تنويجه للملك هنري، وعندما وصلت هذه الأخبار الى هنري في نورماندي اشتعل غضباً، فما كان من أربعة من فرسانه إلا أن سافروا الى كانتري بري ليتولوا تنفيذ انتقام رهيب من الصعب جداً أن نصدق أن الملك كان بلا دور فيه.

وفي عشية ٢٩- كانون الأول كان رئيس الأساقفة قد اغتيل في كاتدرائيته، وبذلك ثار السخط وعم جميع أرجاء أوروبا.

وبات بكت الميت أقوى بلا حدود من بكت الحي، وفي خلال عدة

أشهر تلت وفاته حكي عن عدة أعمال إعجازية حدثت عند ضريحه، وخلال أقل من ثلاث سنوات مضت على مقتله جرى تطويبه قديساً من قبل البابا الاسكندر الثالث، وكان ذلك في شباط سنة ١١٧٣.

وفي السنة التالية أعلن الملك أمام الناس عن توبته أمام مزار عدوه القديم، وغدا هذا المزار بسرعة ثم بقي واحداً من المزارات الرئيسية لمسيحية العصور الوسطى، ومقصداً للحجاج، ولم يكن توماس بكت بطبيعته قديساً، لكنه عدّ شهيداً، وعلى هذا الأساس أصبح أعظم الشهداء تأثيراً في تاريخ الكنيسة الانكليزية.

٢٠- فراخ النسر:

تبعاً لما رواه جيرالد أوف ويلز، ترك هنري الثاني مساحة صورة بيضاء في مخدعه المصنوع بشكل رائع في قلعة ونكستر، وفي سنوات الملك الأخيرة جرى الرسم فوق المساحة وفق ما صممه الملك شخصياً، وحوّت الصورة شكل نسر له أربعة فراخ، وكان هناك أنثى نسر واحدة جلست على ظهر النسر، وكان هناك نسرين على جناحيه يمزقان جسده، ووقف النسر الرابع فوق رأسه ينتظر ليقوم باقتلاع عينيه، وقال هنري إن الصورة مثلته مع أولاده الذين لم يتوقفوا عن تعذيبه حتى مات، وقال بأن الصغير بينهم، وهو الأثير لديه سوف يؤذيه بوحشية أكثر من البقية.

ولد أكبر أولاد هنري من إيلانور الذين عاشوا، سنة ١١٥٥، وهو هنري الملك الشاب، وكان الثاني هورتشارد، وقد ولد سنة ١١٥٧، أما الثالث فهو غيوفري وقد ولد سنة ١١٥٨، وكان الأخير هو جون وقد ولد سنة ١١٦٧، وقد حذا هنري حذو سواه من أمراء فرنسا الكبار، الذين غالباً ما قسموا أراضيهم بين أبنائهم وهكذا تسلم الولد الأكبر الممتلكات التي عادت إلى الأب، وتسلم الأولاد الأصغر بعض الممتلكات وبناء عليه توقع الأولاد الأربعة تسلم بعض الحصص من ممتلكات أبيهم الواسعة لكن غير المريحة، وفي سنة ١١٦٩ قام هنري ببعض الترتيبات في هذا المنحى

فنال الملك الشاب نورماندي وانكلترا وأنجو، وتقرر أن يأخذ رتشارد دوقية أكويتين مع أراضي أمه، وأن يأخذ غيوفري بريتاني، لكن بمثابة تابع للملك الشاب، الذي توج ملكاً لانكلترا سنة ١١٧٠، وحرّم جون من تملك أية أراضٍ، ولهذا نال لقب «بلا أرض».

وكان هنري الملك الشاب عابثاً وكسولاً، وشاباً يحب الحرب، لذلك ثار ضد أبيه لأنه لم يسمح له بممارسة سلطانه والتصرف بأراضيه، وكان ميراث جون أبعد صلة وصل مع العائلة فقد أراد هنري الثاني أن ينال ابنه الأصغر الحصون الأنجيفية في شينون ولاندون، وميربو، لكن الملك الشاب عارض هذه الخطة، وبمساعدة من اليانور جرى تدبير مؤامرة ضد هنري الثاني أسهم فيها لويس السابع ملك فرنسا الذي إليه فرالأخوة الثلاثة الكبار، واستهلك هنري الثاني جميع براعته السياسية، والدبلوماسية والعسكرية حتى استطاع هزيمة هذا التحالف الخطر في سنة ١١٧٤.

٢١- مذبحة اليهود:

في السنوات التي أعقبت استيلاء النورمان على انكلترا، شجع الملوك الانكليز اليهود على عبور القنال من نورماندي الى لندن، ومع منتصف القرن الثاني عشر كان هناك مجموعات صغيرة انتشرت في مدن البلاد، عملت على اقراض الأموال الى جيرانهم المسيحيين، وأثارت اعدادات رتشارد للحملة الصليبية الثالثة ضد المسلمين العداوة الشعبية الواسعة نحو اليهود، الذين مثلوا أهم مجموعة دينية وعرقية متميزة كأقلية في انكلترا، وبدأت أعمال العنف والصخب ضد اليهود مع أعمال تنويع رتشارد في وستمنستر يوم ٣- ايلول سنة ١١٨٩، وامتدت أعمال العنف هذه الى جميع أرجاء البلاد، وتجلت على شكل هجمات، أو سلسلة حملات ضد مناطق اليهود في المناطق الريفية ودامت خلال الشتاء والربيع، ووصلت الذروة في المذبحة المشهورة، وأعمال الانتحار الجماعية لحوالي ١٥٠ / يهودي

داخل القلعة الملكية في يورك يوم سبت الآغادول GODOL ليلة ١٦ آذار سنة ١١٩٠، واتخذ رتشارد نفسه خطوات مباشرة لتجنب تكرار مثل هذا الصخب وأعمال عنف الرعاع.

وفي العقد الأخير من القرن الثاني تحول اليهود الانكليز الذين كانوا يقرصون الأموال ويتمتعون بالحماية الملكية، الى أقنان للخزينة الملكية، وبذلك انتظموا أكثر من ذي قبل، وجاء هذا الإجراء لضمان خضوعهم للضرائب الملكية الثقيلة، ويبدو أن الملك جون كان يزدريهم، لكنه أصر، أنهم ماداموا مصدراً نافعاً للمال، ينبغي حمايتهم، وقال: «إذا ما أعطيت السلم حتى إلى كلب ينبغي حماية هذا السلم وعدم خرقه»، وفرض جون عرصات قاسية جداً على اليهود، مما سبب هرب كثير منهم من انكلترا للنجاة من جشعه، وفي سنة ١٢٩١ جرى سحب الحماية الملكية المتقلبة بشكل كامل من قبل ادوارد الأول، وطرده اليهود من انكلترا حيث مكثوا خارجها طوال بقية العصور الوسطى، لابل أكثر من ذلك.

٢٢- فيليب أغسطس:

عندما التقى رتشارد وفيليب الثاني ملك فرنسا في فيزلي، كان الملك الفرنسي الأدنى كثيراً والأقل في اعطاء انطباع العظمة بين الرجلين، فقد كان قصيراً، وبديناً، ونادراً ما كان بصحة جيدة، وقد فقد شعره أثناء الحملة الصليبية الثالثة، زد على هذا كان يميل لأن يكون مرثياً، وفي القتال كان النظير الأسوأ للملك الانكليزي، غالباً ما أرغم على الفرار، وقد خسر آلات قذفه في فيرنول، وقطار عرباته في فرتفال، وسقط في الماء في غيسور، حتى في نصره العظيم ضد جون وحلفائه في بوفين سنة ١٢١٤، كان قد جرد من حصانه.

ومع هذا كله، لئن لم يكن فيليب قد بني ليكون بطلاً محارباً، كان حاكماً قادراً، وعندما كان شاباً، وجد يحلم تحت شجرة ويتساءل هل

سيكون عظيماً مثل شارلمان، ووصفه المؤرخ الفرنسي فوتيير: «إنه كان أعظم ملوك أسرة كاييه» وفي الوقت نفسه قال المؤرخون: «لقد وسع إلى درجة كبيرة حقوق وسلطة مملكة فرنسا، وأغنى الخزانة الملكية»، فلقد ضاعف ممتلكات الملكية أربع مرات، وهزم أوتو الرابع إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، الذي كان حليفاً لجون، في بوفين Bou-vines، وسبب انهيار الدويلات البلانتغنتية في القارة، وحكمت فرنسا بشكل فعال من قبل موظفين محليين، وغدت باريس عاصمة عظيمة،

وكان فيليب قد تزوج ثلاث مرات، وقد وجد زوجته الثانية وهي دانماركية اسمها إينبورغ Ingeborg غير مرضية بعد ليلة واحدة من الزواج، وأدى انفصاله عنها ثم، ما أعقب ذلك من ارتباطه مع أغنس أوف ميران إلى عداوة كبيرة وخصام مع البابوية ثم إلى حرمانه كنسياً، وفي سنة ١٢١٣ بعد ولادة حفيده، أعاد إينبورغ زوجة له للمرة الثانية.

٢٣- الذراع الطويلة للملكية:

كان نجاح الحملة الصليبية الثالثة من ١١٨٩ إلى ١١٩٢ محدوداً، وتبرهن أنه من غير الممكن استرداد القدس،

لكن صلاح الدين أجبر على عدم التوسع، وتمكنت المملكة الصليبية التي بدت في عام ١١٨٧ على حافة الزوال، من إعادة التأسيس على الشريط الساحلي، وتمكنت من العيش بعد ذلك لقرن من الزمان، زد على هذا استولى ريتشارد على جزيرة قبرص الاستراتيجية في سنة ١١٩١، أثناء قدومه إلى الأراضي المقدسة، فصارت قاعدة ساحلية للامداد.

وعادت معظم نجاحات الحملة إلى ريتشارد، الذي كانت قد عادت قدراته التنظيمية والسياسية براعته العسكرية المعروفة، وكانت الترتيبات التي أعدها للحكم في الممتلكات البلانتغنتية أثناء غيابه عملية ناجعة، وكانت رعيته معتادة على غياب الحكام، لأن والده هنري أمضى مدة وجيزة في

كل واحدة من مقاطعاته، وفي مناسبة رتشارد يرجح أن الصلات بينه وبين موظفيه بقيت عن طريق المراسلات، ومع هذا كان بإمكان الملك التجاوب مع أي قضية أو حادثة بعد مالا يقل عن شهرين على وقوعها.

وكان قد عين في انكلترا، ونورماندي، وأنجو، وبواتو، وغسكوني رجالاً مخلصين له وأصحاب خبرة، وقد مثله بشكل جيد، ومن أجل حماية دوقية أكوئين المضطربة تزوج من بيرنغاريا، وبذلك ضمن مساندة أبيها سانشو السادس صاحب نافار ليقف ضد الكونت ريموند صاحب طولوز، وكانت اليانور مع المسؤولين الآخرين متحفزين لحماية السلطات الملكية.

وكانت الترتيبات التي أعدها ناجحة بشكل عام، على الرغم من بعض المصاعب التي كان من غير الممكن تجنبها في عصر كان غياب الملك أو مرضه يمكن أن يفرض مشاكل حادة جداً، وجاء التهديد الأساسي من أعداء رتشارد وهم: فيليب الثاني ملك فرنسا، وريموند صاحب طولوز، وطبعاً من أخيه جون أثناء السنة التي تقدمت على عودته، ولو أنه عاد إلى انكلترا، عندما كان متوقفاً، ولم يمض سنة في السجن الألماني، لتبرهن أن ترتيباته لحكم بلاده أثناء غيابه مع الحملة الصليبية، كانت ناجحة إلى أبعد الحدود.

٢٤- الملكة البديلة:

في ١٢-أيار عام ١١٩١ تزوج رتشارد قلب الأسد من بيرنغاريا ابنة سانشو السادس صاحب نافار، وقد جرى تتويجها ملكة على انكلترا، والمعلومات المعروفة حولها قليلة، لكن هناك اتفاق على أنها كانت حكيمة أكثر من كونها جميلة، وأن الزواج أعدّ لأسباب سياسية، وكان لدى رتشارد ثلاثة دوافع لاختياره بيرنغاريا: لقد كانت بديلة لخطيبته أليس الفرنسية التي رفضها في سنة ١١٩٠، ولتتحالف مع نافار، وليحصل على ولد ذكر، ولم

يفلح فقط في النقطة الأخيرة .

وحملت اليانور أم رتشارد بيرنغاريا اليه عندما كان في طريقه الى الأراضي المقدسة ،وتركتها معه في صقلية في شباط ١١٩١ ، وكان ذلك قبل أن يحلل فيليب الثاني رتشارد ويحرره من تعهده الذي كان عمره آنذاك عشرين سنة، بالزواج من أليس، وكان الموسم آنذاك هو أيام الصيام، حيث من غير الممكن تنفيذ الزواج، وقرر رتشارد الابحار نحو الأراضي المقدسة، لكن السفينة التي كانت تحمل بيرنغاريا انفصلت عن بقية سفن الاسطول أثناء عاصفة من العواصف، وقد تمكنت من اللجوء الى مكان قرب ليماسول في قبرص ودفعت المحنة التي تعرضت بيرنغاريا إليها لتعرضها لتهديد اسحق كومنوس، حاكم الجزيرة، رتشارد الى محاربة كومنوس واحتلال قبرص، وتم عرس رتشارد وبيرنغاريا في ليماسول.

. وكان الزواج نجاحاً سياسياً، فقد ساعد سانشوالجريء، أخو بيرنغاريا في الدفاع عن أكوتين ضد الفرنسيين أثناء وجود رتشارد بالسجن، ومع ذلك لم يكن الزواج سعيداً، فقد أمضى رتشارد وقتاً قليلاً مع زوجته، ولم يرزقاً بالأولاد، ولم تسهم بيرنغاريا بدور سياسي كبير، وعاشت بعد وفاة رتشارد في لامانس حيث حظيت بالشهرة والاحترام لكرمها في تقديم المساعدات .

٢٥- متاهة السياسات الألمانية :

كان الامبراطور هنري السادس، حاكم ألمانيا، عندما سجن رتشارد هناك ١١٩٣-١١٩٤، وكان فردريك بربروساً والد هنري، واحداً من أعظم أباطرة العصور الوسطى ، وقد مدّ اهتماماته الى ايطاليا، وزوج ابنه من كونستانس وريثة صقلية النورماندية، وكان هذا واحداً من أسباب الصراع فيما بين هنري السادس وبين رتشارد، فجوانا أخت رتشارد كانت

قد تزوجت من وليم الثاني، ملك صقلية، الذي توفي سنة ١١٨٩، ووقتها كان رتشارد في طريقه نحو الأراضي المقدسة، فساند تانكرد أوف ليسي Lecce على خلافة وليم ضد هنري السادس.

وتوفر سبب آخر للعداوة في ألمانيا، تمثل بزواج هنري الأسد، دوق سكسوني وبافاريا، الذي كان خصماً لأسرة هنري، من أخت أخرى لرتشارد، هي ماتيلدا، وتمكن بربروسا مع أمراء آخرين من هزيمة الدوق، لكن وضع هنري السادس كان بعيداً عن الضمان والأمن، ففي الشمال الشرقي كانت هناك أسرة الولفيين Welf القوية، وكانت معادية وعلى خلاف حول الرابطة الأسقفية، وقد دخلت في صراع مع الأمراء في الشمال الشرقي كذلك كان هنري السادس بحاجة ماسة إلى الفرصة التي تهيأت له بأسر رتشارد قلب الأسد،

ومع أنه لم يكن من السهل اختيار طريق العودة للوطن، يبدو أن قرار رتشارد النهائي بالعودة عبر النمسا، التي يحكمها ليوبولد، عدوه القديم أثناء الحملة الصليبية الثالثة، اتخذ بلا مبالاة، ووقع رتشارد بالأسر سنة ١١٩٢، وهو متظاهر بأنه خادم مطبخ يتولى تحريك سفود في حانة خارج فينا، وقد سلمه ليوبولد إلى هنري السادس، حيث سجن في ألمانيا في دورنستين ثم نقل إلى تريفل، وأطلق سراحه في ١١٩٤ عندما دفع فدية كبيرة قدرها مائة ألف مارك (مع خمسين ألف أخرى ستتبعها، إلا إذا أقنع هنري الأسد في إقامه سلام مع الامبراطور)، كما أنه وافق على الاعتراف بهنري ملكاً على اقطاعاً على انكلترا.

وكان نصر هنري قصير العمر، ذلك أنه توفي بعد ثلاث سنوات في ١١٩٧، وانتقل حكم الامبراطورية إلى حليف رتشارد: أوتو أوف برنسوك Brunswick، ابن هنري الأسد.

٢٦- فدية ملك:

أطلق سراح رتشارد من السجن الألماني مقابل فدية كبيرة جداً قدرها ٦٦,٠٠٠ جنيه جمعت من أراضيه، ويعود الفضل في هذا إلى المستشار وليم لونغشامب، وإلى أمه إليانور، وإلى النظام الذي طوره رتشارد وأسلافه، والذي كان من الممكن أن يكون فعالاً بما فيه الكفاية حتى أثناء غياب الملك.

وعندما ذهب رتشارد في الحملة الصليبية سنة ١١٩٠، كان ملكاً عظيماً وثرياً، ومع أنه أمضى عدة أشهر فقط في انكلترا، لقد أحسن استخدامهم، فقد ذكر أحد المؤرخين المعاصرين له أنه «عرض كل شيء لديه للبيع: الوظائف، اللوردية، والإيرلية، والعمالة والقلاع، والبلدات والأراضي، وكل ماتوفر» وصرح رتشارد نفسه قائلاً: «سوف أبيع لندن نفسها إذا وجدت مشتري» حتى لونغشامب توجب عليه دفع ٣,٠٠٠ جنيه مقابل وظيفة المستشار، ونتيجة لهذا تمكن رتشارد من الضغط أكثر على المسلمين مما استطاع فيليب أن يفعل، فقد كان لديه سفناً أكثر، وأدوات حصار، ورجال، وأعطى أعطيات أنمر.

وحكمت أراضيه أثناء غيابه بشكل جيد من قبل وزراء مخلصين، وذلك على الرغم من المتاعب التي أثارها أخوه الطموح جون، ففي انكلترا أثقل وليم لونغشامب «كاهل الشعب وظلمه باستخراج مكوس ثقيلة» ليمول حملات مولاه، وبذلك جعل نفسه لا يتمتع بالشعبية، وحاول جون استغلال هذا

وعلى الرغم من دفع رتشارد للفدية، بدون مساعدة لونغشامب البارة، تمكن من جمع ما يكفي من مال بين ١١٩٤ و ١١٩٩ لاسترداد ما استولى عليه فيليب في نورماندي، ولبناء قلعة شاتو غيلارد الرائعة، وليحفظ ممالكه سليمة.

٢٧- حصاد أسرة بلانتغنت:

كان رتشارد برأى معاصريه أثري وأقوى وأشجع من الملك الفرنسي، وصحيح أن الملك الفرنسي كان أعلى مرتبة من رتشارد، لكن ممتلكات رتشارد كانت أوسع وأكثر خصباً، كان فيها عدد من البلدات المزدهرة والمراكز التجارية الناشطة بحكم وجود بحر الشمال، والقنال، وطرق الأطلسي مع مجاري ثلاثة أنهار عظيمة هي: السين واللوار، وغارون.

وصحيح أن موارد جون كانت نظرياً أعظم من موارد عدوه الفرنسي، لكنه كان أدنى كفاءة، فضلاً عن أنه ورث بلاداً أفقرتها المكوس التي فرضها رتشارد وحصلها وأنفقها، ومع الأيام صار فيليب أعظم ثروة، لكن جون عجز عن الضغط على الفرنسيين وجعلهم ينفقون ما توفر لديهم من مال، وهو قد طلب دوماً جمع المال، لكنه لم ينفقه في مقاصد نافعة كما فعل رتشارد.

٢٨- الزواج من ايزابيلا:

تزوج جون لمدة عشر سنوات من ابنة عمه ايزابيلا أوف غلوستر، عندما وصل الى العرش في سنة ١١٩٩، وكان مخطوباً لها منذ أن كان في العاشرة، ولم ينجبا أولاداً مع أن جميع أولاد جون من خليلاته ولدوا أثناء زواجهما، ولم يتوجها جون ملكة معه، ووافقوه وهو ملك أن يكون حراً لعقد زواج آخر لأسباب سياسية، وكان زواجه من ايزابيلا قد واجه معارضة كبيرة من الكنيسة بسبب القرابة بينهما، لهذا لم يجد الآن صعوبة في الحصول على الطلاق منها.

وفي سنة ١٢٠٠، أثناء زيارة له لأكوتين، تزوج بشكل غير متوقع من روجة جديدة، اسمها ايزابيلا أيضاً، وراجت أقاويل أنه أسكرها وضاجعها، ولاشك أن هذا يوضح سبب السرعة، وقد كانت في حوالي الثانية عشر من عمرها، وهي ابنة أودمار Audemar، كونت أوف أنغوليم، الذي كان من أعلى نبلاء الدوقية مكانة، وكان من قبل قد

سبب بعض المشاكل بتقديمه الولاء لفيليب الثاني ملك فرنسا، كطريقة لتأكيد استقلاله عن الملك رتشارد، وقد قيل الكثير حول هذا الزواج، فهو قد ضمن ولاء الكونت مع المكانة الاستراتيجية لممتلكاته، وكانت ايزابيلا مخطوبة من قبل هيوغ البني صاحب لوزغنان المجاورة، وكان صليبيّاً شجاعاً، من أسرة متعبة وناجحة، وكان صديقاً لرتشارد، وعلى خلاف مع أبي ايزابيلا حول كونتيه لامارشي، ولم يكتف جون بأخذ خطيبة هيوغ، بل اغتصب في سنة ١٢٠١ كونتيه وأعطاهما الى أودمار ختنه الجديد، ولكي يزيد الأمور سوءاً استولى على الأراضي النورماندية التي كانت بحوزة الف أخي هيوغ الأصغر.

والتمس الأخوان اللوزغانيان المساعدة القضائية من فيليب الثاني ملك فرنسا واستدعى فيليب جون للحضور أمام محكمة البلاط الملكي الفرنسي، ولم يحضر جون، وكان هذا مسوغاً لأن يعلن فيليب عن مصادرة جميع اقطاعيات جون الفرنسية في نيسان سنة ١٢٠٢ (تقبل فيليب فيما بعد ولاء وتبعية آرثر تجاه جميع هذه الاقطاعيات، ورتب الأمور لكونت بريتاني الشاب ليتزوج من ابنته ماري) وأعطى هذا القرار القضائي الصبغة الشرعية لأعمال الاستيلاء التالية التي قام بها فيليب، لقد حمل آرثر مع الآخرين من أسرة لوزغنان السلاح ضد جون، وفي المتن المزيد من التفاصيل حول ما حدث .

جريدة المصادر والمراجع

Bibliography

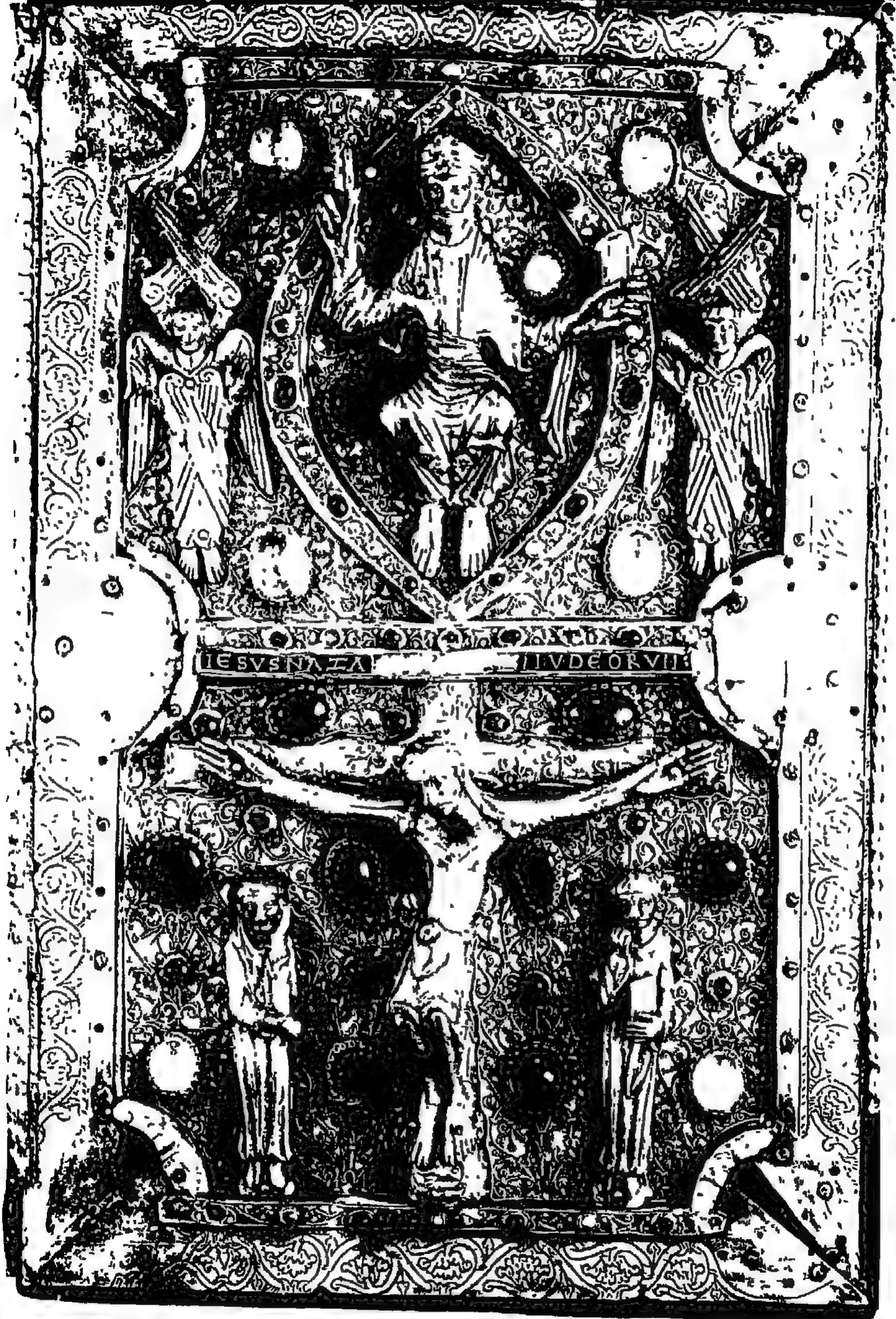
This is not intended as a comprehensive bibliography of all relevant works, but is a selection of books relating to the topics discussed in the notes and the chronicles. Articles have not been included because they are more difficult for the general reader to obtain, most of the works cited here contain bibliographies which are a good starting point for more detailed reading on individual subjects

Politics, Law and Finance

- Appleby, J. T., *England without Richard*, London, 1965
- Appleby, J. T., *Henry II, the Vanquished King*, London, 1962
- Baker, J. H., *An Introduction to English Legal History*, 2nd edn., London, 1979
- Barber, R., *Henry Plantagenet, a Biography*, London, 1964
- Barlow, F., *The Feudal Kingdom of England, 1042-1216*, 3rd edn., London, 1972
- Barracclough, G., ed. and trans., *Medieval Germany, 911-1250*, 2 vols., Oxford, 1938
- Barrow, G. W. S., *Feudal Britain: The Completion of the Medieval Kingdoms, 1066-1314*, London, 1956
- Barrow, G. W. S., *The Kingdom of the Scots: government, church and society from the eleventh to the fourteenth century*, London, 1973
- Barrow, G. W. S., *Kingship and Unity: Scotland 1000-1306*, London, 1981
- Bates, D., *Normandy before 1066*, London, 1982
- Bautier, R. H., ed., *La France de Philippe Auguste: le temps des mutations*, Paris, 1982
- Brékilien, Y., *Histoire de la Bretagne*, Paris, 1979
- Brooke, C. N. L., *Europe in the Central Middle Ages, 962-1154*, London, 1964
- Brooke, C. N. L., *From Alfred to Henry III, 871-1272*, London, 1961
- Brooke, Z. N., *A History of Europe, 911-1198*, London, 1938
- Brooks, F. W., *The English Naval Forces, 1199-1272*, London, 1933
- Brown, R. A., *The Normans and the Norman Conquest*, London, 1969
- Brunclage, J., *Richard Lion Heart*, New York, 1973
- Boussard, J., *Le gouvernement d'Henri II Plantagenêt*, Paris, 1956
- Boussard, J., *Le comté d'Anjou sous Henri Plantagenêt et ses fils, 1151-1204*, Paris, 1938
- Bur, M., *La formation du comté de Champagne, v. 950-v. 1150*, Nancy, 1977
- Cartellieri, A., *Philipp August König von Frankreich*, 4 vols., Leipzig, 1899-1922
- Chartrou, J., *L'Anjou de 1109 à 1151*, Paris, 1928
- Chrimes, S. B., *An Introduction to the Administrative History of Medieval England*, 2nd edn., Oxford, 1959
- Clanchy, M. T., *England and its Rulers, 1066-1272*, London, 1983
- Clanchy, M. T., *From Memory to Written Record, England, 1066-1307*, London, 1979
- Cox, J. C., *The Royal Forests of Medieval England*, London, 1905
- Cronne, H. A., *The Reign of Stephen, Anarchy in England, 1135-54*, London, 1970

- Davis, R. H. C., *A History of Medieval Europe from Constantine to Saint Louis*, London, 1957
- Davis, R. H. C., *King Stephen*, London, 1977
- Davis, R. H. C., *The Normans and their Myth*, London, 1976
- Duby, G., *Le dimanche de Bouvines*, Paris, 1973
- Duggan, A., *Devil's Brood The Angevin Family*, London, 1957
- Dunbabin, J., *France in the Making, 843-1100*, Oxford, 1985
- Duncan, A. A. M., *Scotland. the Making of the Nation*, Edinburgh, 1975
- Eyton, R. W., *The Court, Household and Itinerary of Henry II*, London, 1878
- Fawtier, R., *The Capetian Kings of France, Monarchy and Nation, 987-1328*, trans Butler, L., and Adam, R. J., London, 1966
- Galbraith, V. H., *Studies in the Public Records*, London, 1948
- Gillingham, J., *The Angevin Empire*, London, 1984
- Gillingham, J., *Richard the Lionheart*, London, 1978
- Gillingham, J., and Holt, J. C., eds., *War and Government in the Middle Ages*, Woodbridge, 1984.
- Gonzalez, J., *El Reino de Castilla en la epoca de Alfonso VIII*, Madrid, 1960
- Guillot, O., *Le comte d'Anjou et son entourage au XI^e siècle*, 2 vols, Paris, 1972
- Hall, H., *Court Life under the Plantagenets*, London, 1890
- Hallam, E. M., *Capetian France, 987-1328*, London, 1980
- Hallam, E. M., *Domesday Book through Nine Centuries*, London, 1986
- Halphen, L., *Le comté d'Anjou au XI^e siècle*, Paris, 1906
- Harding, A., *The Law Courts of Medieval England*, London, 1973
- Hardy, T. D., *The Itinerary of John, King of England*, London, 1829
- Harvey, J. H., *The Plantagenets*, London, 1948
- Haskins, C. H., *Norman Institutions*, Cambridge, Mass., 1918
- Heer, F., *The Holy Roman Empire*, trans Sondheimer, J., London, 1968
- Hodgson, C. E., *Jung Heinrich, König von England, Sohn König Heinrichs II, 1155-83*, Jena, 1906
- Holdsworth, W., *A History of English Law*, 7th edn., London, 1956
- Holt, J. C., *King John*, London, 1963
- Holt, J. C., *Magna Carta*, Cambridge, 1965
- Holt, J. C., *The Northerners*, Oxford, 1961
- Hoyt, R. S., *The Royal Demesne in English Constitutional History, 1066-1272*, New York, 1950
- Johiffe, J. E. A., *Angevin Kingship*, 2nd ed., London, 1963
- Kibler, W. W., ed., *Eleanor of Aquitaine, Patron and Politician*, Austin, 1977
- Knowles, M. D., *The Historian and Character and Other Essays*, Cambridge, 1963
- Landon, L., *The Itinerary of Richard I*, Pipe Roll Society, 1935
- Lemarignier, J. F., *La France médiévale, institutions et sociétés*, Paris, 1970
- Lemarignier, J. F., *Le gouvernement royal aux premiers temps capétiens*, Paris, 1965
- Lloyd, J. E., *A History of Wales, from the earliest times to the Edwardian Conquest*, 3rd edn., London, 1939
- Luchaire, A., *Louis VI le Gros, annales de sa vie et de son règne, 1081-1137*, Paris, 1890
- Madox, T., *The History and Antiquities of the Exchequer of England*, London, 1769
- Malden, H. E., ed., *Magna Carta Commemoration Essays*, London, 1917
- Marsh, F. B., *English Rule in Gascony, 1199-1259*, Ann Arbor, 1912
- Mitchell, S. K., *Studies in Taxation under John and Henry III*, New Haven, 1914
- Mitchell, S. K., *Taxation in Medieval England*, ed. Painter, S., New Haven, 1951

- Moore, O. H., *The Young King Henry Plantagenet, 1155–83*, Columbus, Ohio, 1925
- Morris, W. A., *The Medieval English Sheriff to 1300*, Manchester, 1927
- Munz, P., *Frederick Barbarossa*, London, 1969
- McKitterick, R., *The Frankish Kingdoms under the Carolingians, 751–987*, London, 1983
- Norgate, K., *England under the Angevin Kings*, 2 vols, London, 1887
- Norgate, K., *John Lackland*, London, 1902
- Norgate, K., *Richard the Lionheart*, London, 1924
- Oman, C. W. C., *The Coinage of England*, Oxford, 1931
- Otway-Ruthven, A. J., *A History of Medieval Ireland*, 2nd edn, London, 1980
- Pacaut, M., *Louis VII et son royaume*, Paris, 1967
- Painter, S., *The Reign of King John*, Baltimore, 1949
- Painter, S., *William Marshall*, Baltimore, 1933
- Patourel, J. le, *The Norman Empire*, Oxford, 1976
- Pernoud, R., *Eleanor of Aquitaine*, London, 1967
- Petit-Dutaillis, C., *Le déshéritement de Jean-sans-terre et le meurtre d'Arthur de Bretagne*, Paris, 1925
- Petit-Dutaillis, C., *The Feudal Monarchy in France and England from the Tenth to the Thirteenth Century*, trans. Hunt, E. D., London, 1935
- Pollock, F., and Maitland, F. W., *The History of English Law before the Time of Edward I*, 2 vols, 2nd edn, Cambridge, 1898
- Poole, A. L., *From Domesday Book to Magna Carta*, 2nd edn, Oxford, 1955
- Poole, R. L., *The Exchequer in the Twelfth Century*, Oxford, 1912
- Powicke, F. M., *The Loss of Normandy*, 2nd edn, Manchester, 1961
- Ramsay, J. H., *The Angevin Empire, 1154–1216*, London, 1903
- Ramsay, J. H., *The Revenues of the Kings of England*, 2 vols, Oxford, 1925
- Richard, A., *Histoire des comtes de Poitou, 778–1204*, 2 vols, Paris, 1903
- Richardson, H. G., and Sayles, G. O., *The Governance of Medieval England from the Conquest to Magna Carta*, Edinburgh, 1963
- Rössler, O., *Kaiserin Mathilde*, Berlin, 1897
- Round, J. H., *Geoffrey de Mandeville*, London, 1892
- Sanders, I. J., *English Barons: A Study of their Origin and Descent, 1086–1327*, Oxford, 1960
- Saul, N., *The Batsford Companion to Medieval England*, London, 1983
- Sayles, G. O., *The Governance of Medieval England*, Edinburgh, 1963
- Schramm, P. E., *A History of the English Coronation*, trans. Wickham Legg, G., Oxford, 1937
- Smith, L. M., ed., *The Making of Britain, the Middle Ages*, London, 1985
- Southern, R. W., *The Making of the Middle Ages*, London, 1953
- Stenton, D. M., *Between the Norman Conquest and the*, London, 1965
- Stenton, F. M., *The First Century of English Feudalism*, 2nd edn, Oxford, 1961
- Trautz, F., *Die Könige von England und das Reich*, Heidelberg, 1961
- Ullmann, W., *Principles of Government and Politics in the Middle Ages*, London, 1961
- Valin, R., *Le duc de Normandie et sa cour, 912–1204*, Paris, 1909
- Waquet, H., *Histoire de Bretagne*, 3rd edn, Paris, 1958
- Warren, W. L., *Henry II*, London, 1973
- Warren, W. L., *King John*, London, 1961
- Warren Hollister, C., *The Military Organisation of Norman England*, Oxford, 1965
- West, F. J., *The Justiciarship in England, 1066–1232*, Cambridge, 1936
- Wightman, W. E., *The Lacy Family in England and Normandy, 1066–1194*, Oxford, 1966
- Young, C. R., *The Royal Forests of Medieval England*,



عطا، كتاب ديبى يعكس التقاليد المتطورة للعمل الجميل بالمعادن المرصعة بالجواهر

Ecclesiastical

- Aubert, M, *Suger, Saint Wandrille*, 1950
- Barlow, F, *The English Church, 1066–1154*, London, 1979
- Blair, P. H., ed and trans, *The Rule of St Benedict*, 5th edn, Fort Augustus, 1948
- Bolton, B, *The Medieval Reformation*, London, 1983
- Brooke, C. N. L., and Swann, W, *The Monastic World, 1000–1300*, London, 1979
- Brooke, Z. N., *The English Church and the Papacy from the Conquest to the Reign of John*, Cambridge, 1931
- Cheney, C. R., *From Becket to Langton English Church Government, 1170–1213*, Manchester, 1956
- Cheney, C. R., *Hubert Walter*, London, 1967
- Colvin, H. M., *The White Canons in England*, London, 1951
- Cowdrey, H. E. J., *The Cluniacs and The Gregorian Reform*, Oxford, 1970
- Dickinson, J. C., *The Origins of the Austin Canons and their introduction into England*, London, 1950
- Douie, D. L., *Archbishop Geoffrey Plantagenet*, York, 1960
- Finucane, R. C., *Miracles and Pilgrims: Popular Beliefs in Medieval England*, London, 1977
- Foreville, R., *L'église et la royauté en Angleterre sous Henri II Plantagenêt*, Paris, 1943
- Formigé, J., *L'Abbaye Royale de Saint-Denis*, Paris, 1960
- Gibson, M., *Lanfranc of Bec*, Oxford, 1978
- Graham, R., *St Gilbert of Sempringham and the Gilbertines*, London, 1901
- Hell, V. and H., *The Road to Compostella*, London, 1966
- Hill, B. D., *English Cistercian Monasteries and their Patrons in the Twelfth Century*, Chicago, 1968
- Kemp, E. W., *Canonisation and Authority in the Western Church*, Oxford, 1948
- Knowles, M. D., *Christian Monasticism*, London, 1969
- Knowles, M. D., *The Episcopal Colleagues of Archbishop Thomas Becket*, Cambridge, 1951
- Knowles, M. D., *The Monastic Order in England, 940–1216*, 2nd edn, Cambridge, 1966
- Knowles, D., *Thomas Becket*, London, 1970
- Krehbiel, E. B., *The Interdict, its History and Operation*, Washington, 1909
- Lambert, M., *Medieval Heresy*, London, 1977
- Lawrence, C. H., *Medieval Monasticism*, London, 1984
- Lelai, D. J., *Les Moines Blancs*, Paris, 1957
- Moore, R. I., *The Origins of European Dissent*, London, 1977
- Morey, A., and Brooke, C. N. L., *The Letters and Charters of Gilbert Foliot*, Cambridge, 1967
- Power, E., *Medieval English Nunneries*, Cambridge, 1922
- Robertson, J. C., *Becket, Archbishop of Canterbury. A Biography*, London, 1859
- Saltman, A., *Theobald Archbishop of Canterbury*, London, 1956
- Scott James, B., ed and trans., *St Bernard of Clairvaux seen through his Selected Letters*, Chicago, 1953
- Southern, R. W., *St Anselm and his Biographer*, Cambridge, 1963
- Southern, R. W., *Western Society and the Church in the Middle Ages*, Harmondsworth, 1970
- Tierney, B., *The Crisis of Church and State, 1050–1300*, New York, 1964
- Vielliard, J., *Gude du pèlerin de Saint-Jacques-de-Compostelle, c. 1163*

Voss, L., *Heinrich von Blois, Bischof von Winchester*, Berlin, 1932
 Webb, C. C. J., *John of Salisbury*, London, 1932

Williams, W., *St Bernard of Clairvaux*, Manchester, 1935
 Zarnecki, G., *The Monastic Achievement*, London, 1972

Social and Economic

- Baker, D., ed., *Medieval Women*, Oxford, 1978
 Bautier, R. H., *The Economic Development of Medieval Europe*, London, 1971
 Bennet, H. S., *Life on the English Manor*, 2nd edn., Cambridge, 1965
 Beresford, M. W., and St Joseph, J. K. S., *Medieval England: an Aerial Survey*, Cambridge, 1958
 Bloch, M., *Feudal Society*, trans. Manyon, L. A., 2nd edn., London, 1962
 Boussard, J., *Nouvelle Histoire de Paris, I, Paris de la fin du siècle de 885-886 à la mort de Philippe Auguste*, Paris, 1970
 Brooke, C. N. L., and Keir, G., *London, 800-1216 the Shaping of a City*, London, 1975
 Cazet, F. A., ed., *Feudalism and Liberty: the Articles and Addresses of Sydney Painter*, Baltimore, 1961
 Chapin, E., *Les villes de foires de Champagne*, Geneva, 1937, reprinted, 1976
 Dhondt, J., *Etudes sur la naissance des principautés territoriales en France, IX^e-X^e siècle*, Bruges, 1948
 Dion, R., *Histoire de la vigne et du vin en France des origines au XIX^e siècle*, Paris, 1959
 Duby, G., *The Chivalrous Society*, ed. and trans. Postan, C., London 1977
 Duby, G., *Medieval Marriage: two models from twelfth-century France*, trans. Forster, E., Baltimore, London, 1978
 Duby, G., *Rural Economy and Country Life in the Medieval West*, trans. Postan, C., London, 1968
 Evans, J., *Life in Medieval France*, London, 1957
 Fourquin, G., *Lordship and Feudalism in the Middle Ages*, trans. Lytton-Sells, I and A., London, 1976
 Ganshof, F., *Feudalism*, trans. Grierson, P., 3rd edn., London, 1964
 Hinde, T., ed., *The Domesday Book*, London and Markham, Ont., 1985
 Lemarignier, J. F., *Recherches sur l'hommage en marche et les frontières féodales*, Lille, 1945
 Lot, F., *Fidèles ou vassaux? Essai sur la nature juridique du lien qui unissait les grands vassaux à la royauté depuis le milieu du IX^e jusqu'à la fin du XII^e siècle*, Paris, 1904
 Mollat, M., *Histoire de l'Ile-de-France et de Paris*, Toulouse, 1971
 Pirenne, H., *Les villes du moyen age*, Paris, 1971
 Platt, C., *The English Medieval Town*, London, 1976
 Poole, A. L., *The Obligations of Society in the Twelfth and Thirteenth Centuries*, Oxford, 1946
 Postan, M. M., *The Medieval Economy and Society*, London, 1972
 Power, E., *Medieval Women*, Cambridge, 1975
 Pullar, P., *Consuming Passions*, 2nd edn., London, 1972
 Reuter, T., ed. and trans., *The Medieval Nobility*, Amsterdam, New York, London, 1979
 Richardson, H. G., *The English Jewry under the Angevin Kings*, London, 1960
 Stenton, D. M., *English Society in the Early Middle Ages*, London, 1951
 Tait, J., *The Medieval English Borough*, Manchester, 1936
 White, L. T., *Medieval Technology and Social Change*, Oxford, 1962
 Wilson, A., *Food and Drink in Britain*, 3rd edn., London, 1984

Art, Music and Literature

- Anderson, M. D., *The Medieval Carver*, Cambridge, 1935
- Arts Council of Great Britain, *English Romanesque Art 1066–1200*, London, 1984
- Barber, R. W., *The Knight and Chivalry*, London, 1970
- Boase, T. S. R., *Death in the Middle Ages*, London, 1972
- Boase, T. S. R., *English Art, 1100–1216*, Oxford, 1953
- Bony, J., *French Gothic Architecture*, Berkeley, 1983
- Borenus, T., *St Thomas of Canterbury in Art*, London, 1932
- Bottineau, Y., *Les chemins de Saint-Jacques*, Paris, 1964
- Bradford, C. A., *Heart Burials*, London, 1933
- Brooke, C. N. L., *The Twelfth Century Renaissance*, London, 1969
- Broughton, B. B., *The Legends of Richard I*, The Hague, 1966
- Catto, J. I., ed., *The History of the University of Oxford, I, The Early Oxford Schools*, Oxford, 1984
- Chailley, J., *Histoire musicale du Moyen Age*, Paris, 1969
- Chaytor, H., *From Script to Print. an introduction to medieval literature*, London, 1966
- Clapham, A. W., *English Romanesque Architecture after the Conquest*, Oxford, 1934
- Crosland, J., *Medieval French Literature*, Oxford, 1956
- Davis, R. H. C., and Wallace Hadrill, J. M., ed., *The Writing of History in the Middle Ages ... Essays to R. W. Southern*, Oxford, 1981
- Delaborde, H. F., ed. and trans., *Oeuvres de Rigord et de Guillaume le Breton*, 2 vols, Paris, 1882–5
- Dodwell, C. R., *Painting in Europe, 800–1200*, Harmondsworth, 1971
- Erlande-Brandenburg, A., *Le roi est mort*, Geneva, 1975
- Evans, G., *The Mind of St Bernard of Clairvaux*, Oxford, 1983
- Evans, J., *Art in Medieval France*, Oxford, 1948
- Evans, J., ed., *The Flowering of the Middle Ages*, London, 1966
- Fino, F. F., *Fortresses de la France Médiévale*, Paris, 1967
- Grabar, A., and Nordenfalk, C., *Romanesque Painting from the Eleventh to the Thirteenth Century*, Lausanne, 1958
- Gransden, A., *Historical Writing in England c 550 to c 1307*, London, 1974
- Harvey, J. H., *Cathedrals of England and Wales*, London, 1974
- Harvey, J. H., *The Medieval Architect*, Gloucester, 1972
- Haskins, C. H., *The Renaissance of the 12th Century*, New York, 1927
- Heltzel, V. B., *Fair Rosamund: a Study of the Development of a Literary Theme*, Evanstown, 1947
- Holt, J. C., *Robin Hood*, London, 1982
- James, M. R., ed. and trans., *De Nugis Curialium by Walter Map*, Oxford, 1914
- Kelly, A., *Eleanor of Aquitaine and her Courts of Love*, London, 1952
- Kidson, P., Murray, P. and Honour, H., *A History of English Architecture*, London, 1962
- Kidson, P., *The Medieval World*, London, 1967
- Lasko, P., *Ars Sacra, 800–1200*, Harmondsworth, 1972
- Leff, G., *Medieval Thought: St Augustine to Ockham*, Harmondsworth, 1958
- Legge, M. D., *Anglo-Norman Literature and its Background*, Oxford, 1963

- Mâle, E., *Religious Art in France: The Twelfth Century*, Princeton, 1978
- Méras, *Abbayes et Pèlerinages de France*, Paris, 1964
- Meyer, P., ed. and trans., *Histoire de Guillaume le Maréchal*, 3 vols, Paris, 1891–1901
- Morris, C., *The Discovery of the Individual, 1050–1200*, London, 1972
- Musset, L., *Angleterre romane, I, le sud de l'Angleterre*, Paris, 1983
- O'Meara, J. J. ed., *The History and Topography of Ireland by Gerald of Wales*, Harmondsworth, 1982
- Panofsky, E., *Abbot Suger and the Abbey Church of Saint-Denis*, Princeton, 1946
- Press, A. R., *An Anthology of Troubadour Lyric Poetry*, Edinburgh, 1971
- Radice, B., ed., *The Letters of Abelard and Heloise*, Harmondsworth, 1974
- Rashdall, H., *The Universities of Europe in the Middle Ages*, ed. Powicke, F. M., and Emden, A. B., 3 vols, Oxford, 1936
- Richter, M., *Giraldus Cambrensis*, Aberystwyth, 1972
- Sauerlander, W., *Gothic Sculpture in France*, London, 1972
- Savage, A., ed. and trans., *The Anglo-Saxon Chronicles*, London, 1983
- Sayers, D. L., ed. and trans., *The Song of Roland*, Harmondsworth, 1957
- Simpson, O. von, *The Gothic Cathedral*, London, 1956
- Southern, R. W., *Medieval Humanism and Other Studies*, Oxford, 1970
- Thorpe, L., ed., *The History of the Kings of Britain by Geoffrey of Monmouth*, Harmondsworth, 1966
- Topsfield, L. T., *Troubadours and Love*, Cambridge, London, New York, 1975
- Van der Werf, H., *The Chansons of the Troubadours and Trouvères: a study of their melodies and their relation to the poems*, Utrecht, 1972
- Webb, G., *Architecture in England the Middle Ages*, Harmondsworth, 1954
- Whitelock, D. and others, eds., *The Anglo-Saxon Chron.*, rev. edn., London, 1961
- Zarnecki, G., *English Romanesque Sculpture, 1066–1140*, London, 1951
- Zarnecki, G., *Later English Romanesque Sculpture, 1140–1210*, London, 1953
- Zarnecki, G., *Romanesque Art*, London, 1971

Crusades and Warfare

- Benevenisti, M., *The Crusaders in the Holy Land*, Jerusalem, 1970
- Brown, R. A., *English Castles*, 4th edn., London, 1976
- Ehrenkreutz, A. S., *Saladin*, New York, 1972
- Godfrey, J., *1204: the Unholy Crusade*, London, 1980
- Hill, G., *A History of Cyprus*, 2 vols, Cambridge, 1940
- Koch, H. W., *Medieval Warfare*, London, 1978
- Lewis, B., *The Assassins*, London, 1967
- Mayer, H. E., *The Crusades* trans. Gillingham, J., Oxford, 1972
- Norwich, J. J., *The Kingdom in the Sun*, London, 1970
- Oman, C., *A History of the Art of War in the Middle Ages, 378–1485*, 2 vols, 2nd edn., London, 1924
- Prager, J., *The Latin Kingdom of Jerusalem*, London, 1972
- Riley-Smith, J., *The Knights of St John in Jerusalem and Cyprus, c. 1050–1310*, London, 1967
- Runciman, S., *A History of the Crusades*, 3 vols, Cambridge, 1951–4
- Setton, K. M. and others, *A History of the Crusades*, vols I–II, Madison, 1962

Smail, R. C., *Crusading Warfare, 1097–1193*, Cambridge, 1956

Sumption, J., *The Albigensian Crusade*, London, 1978

Verbruggen, J. F., *The Art of Warfare in Western Europe during the Middle Ages*, Oxford, 1977

Bibliographies, Atlases and Reference Works

Centre National de la Recherche Scientifique, *Bibliographie Annuelle de l'histoire de France*, Paris, 1953–

Douglas, D. C., and Greenaway, G. W., eds., *English Historical Documents II, 1042–1189*, London, 1953

Falkus, M., and Gillingham, J., *Historical Atlas of Britain*, London, 1981

Gross, C., and Graves, E. B., *A Bibliography of English History to 1485*, Oxford, 1975

Longnon, A., *Atlas Historique de la France*, 2 vols, Paris, 1885–9.

Rothwell, H., ed., *English Historical Documents III, 1189–1327*, London, 1965

Royal Historical Society, *Annual Bibliography of British and Irish History*, London, 1976–

Chronicles

Part I

John of Marmoutier, *The Chronicles of the counts of Anjou*, ed L. Halphen & R. Poupardin in *Chroniques des comtes d'Anjou et des seigneurs d'Amboise*, Collection des Textes, Paris 1913, pp 29–31, 37–44, 143–51, 161–2 Extracts

Part II

John of Marmoutier, *The History of Duke Geoffrey*, in *The Chronicles of the counts of Anjou*, *ibid*, pp 176–231 Extracts

Henry of Huntingdon, *The History of the English*, ed T. Arnold in *Rolls Series* 1879, pp 259–92 Extracts

The Deeds of Stephen, (anon.), trans. and ed Thomas Forester in *Henry of Huntingdon*, Henry G. Bohn, London 1853 Extracts

Part III

Ralph of Diceto, *Images of History*, ed W. Stubbs in *The Historical Works of Master Ralph of Diceto*, *Rolls Series* 1876, I, 291–439, II, 3–66 Extracts.

William of Newburgh, *The History of English Affairs*, ed D. C. Douglas and G. W. Greenaway in *English Historical Documents 1042–1189*, London 1953; pp 322–3, 325, 329–30 Extracts

The Deeds of King Henry II, in *English Historical Documents*, *op cit*, pp 377–9 Extracts

William FitzStephen, *The Life of St Thomas Becket*, ed and trans. G. W. Greenaway in *The life and Death of Thomas Becket, Chancellor of England and Archbishop of Canterbury*, The Folio Society, London 1961, pp 35–44, 55–8, 156–7. Extracts.

William FitzStephen, *Description of the city of London (1170–1183)*, given as a preamble to his *Life of St Thomas Becket*, *ibid* Extracts.

Adam of Eynsham, *The Life of St Hugh of Lincoln*, ed the

late Decima L. Douie & David Hugh Farmer in *Magna Vita Sancta Hugonis*, Oxford University Press, 2nd edn 1985, I, 60–3, 85–6, 115–9, II, 93–4, 104–9, 125–30, 169–70 Extracts

Jordan Fantosme, *Chronicle of the War between the English and the Scots*, in *English Historical Documents*, *op cit*

Part IV

Ralph of Diceto, *op cit*, II, 66–166 Extracts

Rigord, *The Deeds of Philip Augustus*, ed H.-F. Delaborde in *Oeuvres de Rigord et de Guillaume le Breton*, Société de l'Histoire de France 1882–5, pp 106–9 Extracts

Richard, canon of Holy Trinity, Aldgate, *The Itinerary of the Pilgrims*, ed W. Stubbs in *Rolls Series* 1861, pp 259–78 Extracts. Also *The Deeds of King Richard*, ed W. Stubbs in *Rolls Series* 1867; II, 80–4, 151–5, 158–61. Extracts

Adam of Eynsham, *The Life of St Hugh of Lincoln*, *op cit*, II, 98–105, 134–7 Extracts

Gerald of Wales, *The Description of Wales*, trans. Lewis Thorpe in *Journey through Wales/Description of Wales*, Penguin, London 1978 (copyright the Estate of Lewis Thorpe 1978) Extracts.

Part V

Ralph of Diceto, *op cit*, II, 166–75 Extracts

Ralph of Coggeshall, *The English Chronicle*, ed J. Stevenson in *Chronicon Anglicanum*, *Rolls Series* 1875, pp 101–62 Extracts

The 'Barnwell' Annals (anon.), ed W. Stubbs in *The Historical collections of Walter of Coventry*, *Rolls Series* 1873, II, 201–32 Extracts

Gervase of Canterbury, *The Deeds of Kings*, ed W. Stubbs in *The Historical Works of Gervase of Canterbury*, *Rolls Series* 1880; II, 96–106. Extracts

المحتوى

رقم الصفحة	الموضوع
٤	توطئة
٧	مدخل
١٠	المؤرخون
١٥	القسم الأول - أصول الأسرة الأنجيكية
١٦	سنة ٩٦٠
١٨	سنة ٩٨٧
٢٤	سنة ١٠٤٠
٢٧	سنة ١٠٤٢
٣٠	سنة ١٠٦٠
٣١	سنة ١٠٦٦
٣٤	سنة ١١٠٧
٣٥	سنة ١١٠٩
٣٧	سنة ١١١٠
٣٧	سنة ١١٢٨
٣٨	سنة ١١٢٩
٣٨	سنة ١١٣١
٤١	القسم الثاني - غيوفري بلانتغنت
٤٣	سنة ١١٢٨
٦٠	سنة ١١٣٢
٦٠	سنة ١١٣٥
٦٥	سنة ١١٣٦
٦٦	سنة ١١٣٧

سنة ١١٣٨	٦٧
سنة ١١٣٩	٧٢
سنة ١١٤٠	٧٤
سنة ١١٤١	٧٥
سنة ١١٤٢	٧٨
سنة ١١٤٣	٧٩
سنة ١١٤٤	٨٠
سنة ١١٤٥	٨١
سنة ١١٤٦	٨١
سنة ١١٤٧	٨٢
سنة ١١٤٨	٨٢
سنة ١١٤٩	٨٣
سنة ١١٥٠	٨٤
سنة ١١٥١	٨٤
سنة ١١٥٢	٨٦
سنة ١١٥٣	٨٧
سنة ١١٥٤	٩٢

القسم الثالث - هنري الثاني ٩٥

سنة ١١٥٥	٩٩
سنة ١١٥٦	١٠٩
سنة ١١٥٧	١١٠
سنة ١١٥٨	١١٠
سنة ١١٥٩	١١١
سنة ١١٦٠	١١١
سنة ١١٦١	١١٣

سنة ١١٦٢	١١٣
سنة ١١٦٣	١١٧
سنة ١١٦٤	١١٩
سنة ١١٦٥	١٢٠
سنة ١١٦٦	١٢١
سنة ١١٦٧	١٢٢
سنة ١١٦٩	١٢٣
سنة ١١٧٠	١٢٤
سنة ١١٧١	١٣١
سنة ١١٧٢	١٣٣
سنة ١١٧٣	١٣٦
سنة ١١٧٤	١٤١
سنة ١١٧٥	١٦٠
سنة ١١٧٦	١٦١
سنة ١١٧٧	١٦٦
سنة ١١٧٨	١٦٩
سنة ١١٧٩	١٧٠
سنة ١١٨٠	١٨٤
سنة ١١٨١	١٨٧
سنة ١١٨٢	١٩٠
سنة ١١٨٣	١٩١
سنة ١١٨٤	١٩٥
سنة ١١٨٥	١٩٦
سنة ١١٨٦	١٩٧
سنة ١١٨٧	٢٠٥
سنة ١١٨٨	٢٠٦

سنة ١١٨٩	٢٠٩
القسم الرابع - رتشارد الأول	٢١٧
سنة ١١٩٠	٢٣٠
سنة ١١٩١	٢٣٥
سنة ١١٩٢	٢٥٠
سنة ١١٩٣	٢٥٢
سنة ١١٩٤	٢٥٦
سنة ١١٩٥	٢٥٦
سنة ١١٩٦	٢٦٧
سنة ١١٩٧	٢٧٠
سنة ١١٩٨	٢٧٢
سنة ١١٩٩	٢٧٨
القسم الخامس - جون	٢٨٣
سنة ١٢٠٠	٢٨٥
سنة ١٢٠١	٢٩٦
سنة ١٢٠٢	٢٩٨
سنة ١٢٠٣	٣٠٤
سنة ١٢٠٤	٣٠٥
سنة ١٢٠٥	٣١٠
سنة ١٢٠٦	٣١٦
سنة ١٢٠٧	٣١٧
سنة ١٢٠٨	٣١٧
سنة ١٢٠٩	٣١٩
سنة ١٢١٠	٣٢٢

— ٧٨٥ —

سنة ١٢١١	٣٢٣
سنة ١٢١٢	٣٢٤
سنة ١٢١٣	٣٣٠
سنة ١٢١٤	٣٣٦
سنة ١٢١٥	٣٣٨
سنة ١٢١٦	٣٥٠
خاتمة	٣٥٥